بين روما ومكة

البابوات والإسلام

هاينز يواكيم فيشر



ترجمة: سامي أبو يحيى و فؤاد اسماعيل

هاينز يواكيم فيشر

بين روما ومكة

البابوات والإسلام

ترجمة: سامي أبو يحيى وفؤاد إسماعيل

مراجعة وتقديم: أ. د. خليل الشيخ

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

بين روما ومكة/ البابوات والإسلام
هاينز يواكيم فيشر

BP172.5.C3 F5712 2010
Fischer, Heinz-Joachim, 1944
بين روما ومكة / تأليف هاينز يواكيم فيشر ؛ ترجمة سامي أبو يحيى و فؤاد إسماعيل .- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010
ص 441 ؛ 17×24 سم.
ترجمة كتاب: Zwischen Rom und Mekka
die Papste und der Islam
تدمك: 978-9948-01-685-4
1 - الإسلام - العلاقات الخارجية - الكنيسة الكاثوليكية.
2 - الإسلام و المسيحية.
أ - أبويحيى، سامي ب - إسماعيل، فؤاد

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:

Heinz-Joachim Fischer
Zwischen Rom Und Mekka



www.kalima.com

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+



www.cultural.org.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

بين روما ومكة
البابوات والإسلام



المحتويات

الباب الثاني/

الباب الثالث

تقديم

(1)

يرسم الباحث والناشر والمراسل الصحفي لـ«فرانكفورتر الجماينة» في حاضرة الفاتيكان منذ عام 1978 في مقدمة كتابه هذا الأجواء والمناخات التي قادته إلى الاهتمام بالإسلام، وهو الذي نشأ وترعرع في أجواء كاثوليكية خالصة.

تعود البداية إلى مطلع الستينيات من القرن الماضي، يوم كان فيشر تلميذاً في السابعة عشرة من عمره. فقد تعرّف إلى فتاة تركية مسلمة، كانت تقيم في برلين، وتترددُ بين الحين والآخر على مدرسة «اليسوعيين الإنسانية الثانوية، التي تلقّى فيها فيشر تعليمه الثانوي، وكان اختلافها إلى تلك المدرسة يعود، لأن عمّها، كان يريد لابنة أخية أن تنمو في أجواء محافظة. على الصعيد الأخلاقي شكّلت تمارا نقطة التماس الأولى مع الإسلام، وبدت له مختلفة بجمالها وأخلاقها. صحيح أنها اختفت من حياته بسرعة، لكنّها ظلّت تشكل لفيشر لحظة مترعة بالغموض والأسرار على المستوى الشخصي. وإن لفتت انتباهه إلى وجود الأتراك في ألمانيا. ومشكلات الاندماج مع الغرب، وجعلته يُقارن بين الأقلية التركية والأقليات الأوروبية الأخرى الموجودة في ألمانيا على هذا المستوى.

تنامى اهتمام فيشر بالإسلام بعد أن قرأ «ألف ليلة وليلة» التي دخلت إلى الوجدان الثقافي الغربي بعد أن قام أنطوان غالان عام 1701 بترجمتها إلى الفرنسية.

كان لهذا الكتاب تأثير واسع في السردية الأوروبية، وفي تشكيل صورة نمطية للعالم الإسلامي، مثلما كان له جاذبية كبرى نظراً لما يتحلّى به من سحر وغموض. ولما فيه من حكايات تتوالد، على نحو جمع بين المعقول واللامعقول. والحلم والواقع. ولما ترسمه الحكايات من شخصيات ظلّت محفورة في الوجدان الثقافي. وقد كان للكتاب تأثير واسع في كتابات الشاعر الألماني غوته (1749– 1832م).

وكان من الطبيعي أن يُعجب فيشر بكتابات الألماني كارل ماي (1842– 1912) الواسعة الانتشار.

وكارل ماي مؤلف غزير الإنتاج، له أعمال قصصية تتخذ طابع الرحلات يدور بعضها في فضاءات إسلامية، لم يسبق لماي أن زارها، ويرسم من خلال تلك القصص فضاء مليئاً بالإثارة.

وقد اتخذ كارل ماي لقصصه تلك بطلاً سماه كارا بن نمسي وهو اسم أثار تأويلات شتى، فرأى بعضهم أنّ كلمة كارا تركية تعني أسود، في حين رأى آخرون أنها اختصار لكلمة كارل. أما ابن نمسي فهو يعني الألماني منسوباً إلى النمسا.

وكارا بن نمسي رحالة، مغامر، شجاع، يتحرك في بلاد الإسلام، ويتغلّب على كلّ ما يلقى من الصعوبات نظراً لما يمتلكه من قوة وسعة حيلة.

يرافق كارا بن نمسي دليل مسلم اسمه حاجي خلف عمر، وإن كان اسمه الكامل طويلاً وذا إيقاع غرائبي يبعث على السخرية. يتميز حاجي خلف بالإخلاص والوفاء والطيبة، وقد سعى لإقناع ابن نمسي كي يدخل الإسلام. لكنّ محاولاته هذه بدأت بالتراجع، ليبدأ حاجي خلف يقترب من المسيحية، نظراً لما يتمتع به صاحبه ابن نمسي من مواصفات، ثم ينتقل هو وعائلته إلى المسيحية انتقالاً رسمياً.

ولا يخفى أنّ الخطاب الذي تطرحه كتابات كارل ماي القصصية، يتماهى مع ما بلورته الثقافة الغربية من نزوعات كولونيالية، نحو الثقافات الأخرى الواقعة خارج مركزيتها، مثلما لا يخفى كذلك ما تنطوي عليه تلك النزوعات من شعور بالعظمة، مقابل ما تستشعره الثقافات الأخرى من عقدة النقص التاريخية.

(2)

تلّقى فيشر بعد عام 1963، أي بعد حصوله على شهادة الثانوية العامة الألمانية تعليماً لاهوتياً منظماً. فدرس في الجامعة البابوية في روما بادئ الأمر، لكنه أكمل دراساته في جامعة ميونيخ، فحصل عام 1973 على الدكتوراه فيها في الفلسفة الدينية.

ومنذ أن التحق في عام 1978 بالفاتيكان، ليكون مراسلاً صحفياً لواحدة من كبريات الصحف الألمانية، صار فيشر وثيق الصلة بعالم الباباوات، ومسائل الفاتيكان، لهذا فقد

أصدر كتابين عن البابا يوحنا بولس السادس والبابا الحالي بينيدكت السادس عشر. صدر الأول عام 1998 والثاني عام 2005، إضافة إلى إصداره سلسلة من الكتب سماها سلسلة الكتب المحظورة، التي نشر فيها دراسات مُنعت في عصرها، وأثارت ضجّة كبعض كتابات فولتير وسبينوزا، وفيكتور هوغو وسبستيان براندت.

صدر كتاب «بين روما ومكة. البابوات والإسلام» عام 2009. وهو خلاصة لعلاقة ممتدة مع الفاتيكان تتجاوز العشرين عاماً، أتيحت لفيشر أثناءها أن يكون على صلة عميقة بالفاتيكان وشخصياته، مثلما أُتيحت له فرصة مرافقة البابا يوحنا بولس السادس في رحلاته الكثيرة إلى العالم الإسلامي، ومرافقة البابا الحالي كذلك في رحلاته إلى هذا العالم. ولعلّ أهمية كتاب فيشر تكمن في أنه يطلع القارئ العربي، على المنظور التأريخي للعلاقة بين المسيحية والإسلام، من وجهة نظر باحث وثيق الصلة بعالم الفاتيكان.

لكنّ هذا الكتاب، على ما يبدو لي، أُلِّفَ بعد المحاضرة التي ألقاها البابا الحالي في جامعة ريجسنبورغ، وهي الجامعة التي أمضى فيها السنوات الواقعة بين 1969 و1977، أستاذاً جامعياً يُدعى يوسف راتسينجر ونائباً للرئيس عام 1976م، بعد أن عمل في جامعات ألمانية في بون ومونستر وتوبنجن.

كانت محاضرة البابا «الإيمان والعقل والجامعة» وما أثارته من ردود فعل واسعة في العالم الإسلامي نقطة انطلاق للمؤلف ليقرأ هذه العلاقة بين المسيحية الكاثوليكية والإسلام، من منظور تأريخي مقارن، بصرف النظر عمّا يشوب هذا المنظور من إشكالات.

يتكون الكتاب من أربعة أبواب. أما الباب الأول الذي يتساءل فيه المؤلف عن جليّة الأمر ففيه حديث عن العالم الإسلامي والعالم الأوروبي وهو حديث عام، يتوقف فيه المؤلف عند رابطة العالم الإسلامي، ويشرح للقارئ الغربي أسباب قيامها، ويقارن بينها وبين الفاتيكان.

ليصل إلى نتيجة مفادها أنّ هذه الرابطة لا تشكل مرجعية على المستوى الديني، شبيهة بالمرجعية التي يمثلها الفاتيكان.. وفي هذا الباب يتحدث عن إيطاليا وألمانيا، ويسعى لإيضاح الأسس التي ترسم السياسة البابوية نحو الإسلام، فيبدأ بالحروب الصليبية، مشيراً

إلى الفتوحات الإسلامية وصولاً إلى حصار فيينا على يد العثمانيين عام 1529 ومحاولتهم احتلالها بعد ذلك بقرن ونصف. وفيشر يرى أنّ مناخاً عميقاً من التوترات أدى إلى نشوء عدم المعرفة بالإسلام وتأريخه وثقافته في الغرب، وهذا المناخ حال دون نشوء فهم سليم للإسلام.

في الباب الثاني «البابوات الأخيرون» يتحدث المؤلف عن البابوات المعاصرين ابتداء من البابا بيوس الثاني عشر الذي تولى البابوية عام 1939 وانتهاء بالبابا يوحنا بولس الثاني الذي تولى هذا المنصب عام 1978م.

يتتبع فيشر تطور العلاقة بين البابوية والإسلام خلال أربعين سنة. لكنّ الملاحظ أنّ هذا الاستعراض لا يكاد يتنبه للعلاقة التي تشكلت بين العالم الإسلامي والغرب نتيجة للحركة الاستعمارية، وما رافقها من أبعاد. يتوقف فيشر عند البابا بيوس الثاني عشر، ويرى أنّ الإسلام لم يكن يشكل لهذا البابا، أثناء الحرب العالمية الثانية أمراً لافتاً. لأنّ علاقته باليهود هي التي شكّلت نقطة مركزية في تأريخه، لأنه أُتّهم بالتغاضي عن المذابح التي قام بها النازيون ضد اليهود.

يوضح فيشر بعد ذلك كيف بدأت العلاقة بين الفاتيكان والعالم الإسلامي تتنامى بالتدريج، وكيف بدأت العلاقات الدبلوماسية تنمو، وكيف بدأ الحوار بين الأديان على استحياء، ثم تنامى وتطور وكثر الحديث عن ضرورته ونتائجه وإخفاقاته وشيء من نجاحاته. وعرض فيشر لهذا الأمر يمزج بين العلاقات الديبلوماسية والأبعاد العقدية. لكنّ فيشر يتوقف، ليشرح التوجه الجديد الذي بدأ يتشكل نحو الإسلام، ابتداءً من المجمع الفاتيكاني الثاني بين عامي (1962– 1965). ويتوقف عند البيان الذي صدر في الثامن والعشرين من تشرين الأول عام 1965 بهذا الخصوص.

«إنّ الكنيسة تنظر إلى المسلمين أيضاً باحترام عظيم، فهم يعبدون الله الواحد، الحيّ الموجود بذاته، الرحيم، القادر، خالق السماوات والأرض الذي كلّم البشر، إنهم يسعون بروح تامة إلى تسليم أنفسهم لمشيئة الله الخفيّة. مثل إبراهيم الذي سلم نفسه لله، والذي يسر العقيدة الإسلامية أن تستشهد به. ومع أنهم لا يعترفون بعيسى إلهاً، بل يعدونه نبياً،

كما يحترمون أمّة العذراء. وبالإضافة إلى ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدين الذي يبعث الله فيه جميع البشر من الموت ويحاسبهم» وكان من الطبيعي أن ينتهي هذا البيان، الذي يحاول تبيان القواسم المشتركة بين المسيحية والإسلام، إلى أن يدعو إلى وجوب طرح الماضي جانباً، والسعي إلى التفاهم والوقوف معاً للدفاع من أجل العدالة الاجتماعية والقيم الأخلاقية ومن أجل السلام والحرّية.

يُفرد الكتاب حيزاً واسعاً للحديث عن شخصية البابا السابق ورؤيته للأديان غير المسيحية. ويتوقف عند علاقته بالعالم الإسلامي، كزيارته للمسجد الأموي، وحواره مع الشباب المسلم في الدار البيضاء وزياراته لإندونيسيا وتركيا والهند وغير ذلك من البلدان، وهو يسعى إلى إيضاح الاستراتيجية التي كان يصدر البابا السابق عنها وإن كان فيشر يلمح إلى صعوبة الحوار مع الإسلام، كما سيوضح بالتفصيل في الباب الأخير، إذا لم يقم الإسلام بالإفادة من كتابات عصر التنوير وإذا لم يطرح الأسئلة التي طرحها فلاسفة التنوير على المسيحية. لأنّ التساؤلات هذه، كما يرى فيشر، ليس لها وجود في عالم الإسلام.

(3)

يحظى البابا الحالي بباب كامل من أبواب هذا الكتاب وهو الباب الثالث. بفصوله الثلاثة عشر. فيتوقف فيشر عند المحاضرة الشهيرة التي ألقيت في جامعة ريجنسبورغ في الثاني عشر من أيلول عام 2006 ويعرض لها من زوايا عدّة.

يبدأ فيشر بالحديث عن التكوين العلمي للبابا، ويحلّل رؤيته للعلاقة بين الإيمان والعقل، وهو يسعى إلى تبيان الخيوط التي رسمت شخصية الأستاذ الجامعي، ورسمت شخصية اللاهوتي الذي تدرج حتى غدا رئيساً لأساقفة ميونيخ وكردينالاً، ويعقد (وإن كان ذلك يحدث في الباب الرابع) مقارنة بين يوسف راتسينجر وهانز كونغ، ويلمح إلى الظروف التي أدت إلى استبعاد الأخير من الوصول إلى البابوية والتي أدت إلى أن يتقدم راتسينجر، مشيراً إلى الفروقات بينهما، موضحاً على عجل، دعوة كونغ إلى بناء أخلاقيات عالمية، وملمحاً إلى اختلافات مع البابا في بعض المسائل.

يتساءل فيشر عن السبب الذي دعا البابا ليتوّقف عند الحوار الذي دار بين أحد القياصرة البيزنطيين وذلك المثقف الفارسي المسلم والذي قال فيه القيصر:

«دلّني حقاً على الجديد الذي جلبه محمد. وسوف لا تجد إلاّ ما هو سيء وغير إنساني، مثل هذا الذي أمر به لنشر الدين، الذي بُلّغ به باستخدام السيف».

يقدم الكتاب نصّ المحاضرة وهوامشها وإيضاحات الفاتيكان بشأنها، ويشير إلى ردود الفعل في العالم الإسلامي على المستوى السياسي، ويظلّ فيشر يتساءل عن جدوى اختيار هذا الحوار، وأسباب العودة إليه، وعن دوره في دفع الحوار مع الإسلام قُدماً أو في تعطيله.

يتوقف فيشر بعد ذلك عند الرسالة التي بعثت بها مائة وثماني وثلاثون شخصية من العالم الإسلامي إلى البابا تحت عنوان «كلمة سواء» ويشير إلى ما تتحلّى به الكلمة من هدوء. ويشير إلى مناخات جديدة بدأت تعمل في الفاتيكان لدفع الحوار قُدماً. لكنّ فيشر الذي يتحدث عن الشخصيات الجديدة في هذا الإطار، واستعدادها لبلورة استراتيجيةجديدة، يعود ليقتبس في خاتمة المطاف ما كتبه البابا الحالي وهو يقدّم كتاباً لرئيس مجلس الشيوخ الطليان: «لماذا يجب علينا أن نُسمي أنفسنا مسيحيين؟»

الذي يقول فيه.

«إن الحوار بين الأديان «بالمعنى الدقيق غير ممكن».

صحيح أنّ فيشر يحاول أن يشرح هذه الجملة وأن يوضح مدلولاتها، وأن يسّوغها، في إطار الحملة الجديدة لاستئناف الحوار مع الإسلام، إلا أنّ حديث البابا يؤكد ما سبق لأحد الدارسين الألمان وهو لودفيغ هاغمن Ludwig Hagemann أن أشار إليه في دراسته «مسيحية ضد الإسلام» عندما بيّن في عنوان هذه الدراسة الفرعي أنّ الحوار بين الديانتين قد انتهى إلى الإخفاق. ولعل ما يشير إليه فيشر في هذا الإطار يجيء في إطار علاقات عامة تنهض بين آونة وأخرى، هنا أو هناك.

وقد أحس فيشر بهذا فتحدث بالتفصيل في الباب الرابع عن جهود بعض الباباوات في الحروب الصليبية. ولعل عرض فيشر لهذه الجهود، يشير إلى أبرز معوقات الحوار بين

الدينين، لأنّه يومئ عبر ذلك إلى هذا الموروث التأريخي الثقيل.

يتحدث فيشر بعد هذه العلاقة التي كانت الكنيسة تسعى في أثنائها إلى بلورة تصور عن الإسلام، عن عصر التنوير، ويتوقف أولاً عند كتابات سبينوزا النقدية للدين، ويستعرض آراءه بخصوص الوحي والعقل والأخلاق ويرى أن أسئلته التي طرحها، تستدعي أن يقوم مفكرو الإسلام بطرحها على دينهم، لقيام روح تنويرية عقلانية في الإسلام. وهو يرى أنّ عدم قيام هذه الروح يشكل عقبة أمام الحوار المسيحي الإسلامي.

وإذا كان فيشر قد بدأ بألف ليلة وليلة وحكايات كارل ماي، فإنه يختتم هذا الباب بالحديث عن أمثولة الخواتم الثلاثة كما تبدو عند القاص الإيطالي جيوفاني بوكاتشيو (1313– 1375) صاحب «ديكاميرون» وكما سيعرض لها المفكر والناقد والمسرحي غولتهولد أفرايم لسنج (1729– 1787) في مسرحيته «ناتان الحكيم».

تتحدث الحكاية عن الخاتم الذي ظل يتنقل بين الأبناء، حتى وصل إلى يد أب عنده ثلاثة أبناء يحبهم جميعاً دون تفريق. لذا فإنه لم يستطع أن يعطي الخاتم إلى واحد منهم، وطلب من أحد الصاغة أن يصنع خاتمين آخرين مماثلين للخاتم الأصلي، على نحو لا يستطيع الوالد نفسه التفريق بين الأصل والخاتمين الجديدين.

من الواضح أن هذه الأمثولة تتحدث عن الأديان الثلاثة، وترى أنها جميعاً من الله. لكنها ترى، كما يقول هاغمن في قراءته للحكاية، أنه يصعب الفصل فيها على المستوى النظري، أما الأمر الجوهري فيتمثل في كيف يتعامل معتنقوها مع الناس على المستوى العملي. لكنّ هذه الأمثولة دالة في سياق الحوار بين الأديان، فهي من جهة تبيّن أنّ الحوار يمكن أن يتم في المسائل التي تنظم الحياة، وتقع في باب الأخلاقيات العامة، أما الحوار في العقيدة، وفي الجوهر الإلهي للدين، فيبدو، في ضوء الأمثولة – متعذراً تماماً– لأنّ كل واحد يتمسك بخاتمه، ويوقن بأنه الخاتم الحقيقي.

أ. د خليل الشيخ

جامعة اليرموك

نهاية شباط 2010

توطئة

(بكلمات مقتبسة)

«يقف العالم الإسلامي في الآونة الراهنة بإلحاح بالغ أمام مهمة مشابهة لتلك التي كانت ماثلة أمام أعين المسيحيين منذ عصرالتنوير. وقد وجد المجمع الثاني للفاتيكان بخصوصها حلولا محددة بدقة، وكان ذلك ثمرة للبحث المضني لمدة طويلة خلال انعقاد جلساته بين عامي 1962م و1965م».

(من الخطاب التقليدي الذي اعتاد البابا بينيديكت السادس عشر إلقاءه على نحو دوري بتاريخ 22 كانون الأول (ديسمبر) 2006م، بمناسبة انتهاء العام، أمام أعضاء حكومة الفاتيكان في روما).

«أقول للعالم الإسلامي: بأننا نبحث عن طريق للسير نحو الأمام، وبما يؤدي إلى الحفاظ على مصالح الجميع في جو من الاحترام المتبادل. وأتوجه إلى القادة السياسيين على هذا الكوكب، الذين يودون زرع الأزمات أوتحميل الغرب مسؤولية مشكلاتهم الذاتية لأقول لهم: عليكم التفكير بأن شعوبكم تقيّمكم بالاستناد إلى ما تنجزونه، لا إلى ما تقومون بتدميره. ولكننا سنمد أيادينا للمصافحة، إذا كنتم مستعدين لبسط أيديكم».

(من الخطاب الافتتاحي للرئيس الأميركي باراك أوباما، بمناسبة تسلمه مهام منصبه بتاريخ 20 كانون الثاني (يناير) 2009م).



الباب الأول

ما هي جليّة الأمر؟



الفصل الأول

من تمارا إلى البابا بينيدكت السادس عشر

مقاربة شخصية

ليس ثمة علاقة بين تمارا والبابا، ولا رابط بينهما في حقيقة الأمر. أما بالنسبة لي فإن هنالك رابطا يربطني بها. فالإنسانة التي شكلت حبي الأول الكبير هي التي تدعى تمارا، وكانت مسلمة تنتمي إلى عائلة تركية.

كنت آنذاك في السابعة عشرة وقد حظيت بتربية كاثوليكية تتسم بالرقة ونشأت في برلين، في شرقها باديء ذي بدء ثم في غربها، فالقسم الشرقي من المدينة كان تابعا للاتحاد السوفييتي، وهكذا أصبحت برلين الشرقية عاصمة جمهورية ألمانيا الديموقراطية. وفيها كان لابد لوالدي من الدفاع عن حرية تلقي دروس التعليم الديني، في مواجهة مدرسّين متحمسين للشيوعية. أما في برلين الغربية فقد كان الناس في حقبة الستينات يتمتعون بكافة الحريات، باستثناء حريتي في التواصل مع تمارا. لقد تعرفت عليها في «أكاديمية بريمانا» ولاسم هذه الأكاديمية وقع ينم عن الطراز القديم. (كانت بريمانا في السابق مدرسة في إحدى الثانويات).

لقد كانت التسمية بحد ذاتها فكرة تفتقت عن دهاء أتباع الطريقة الرهبانية في برلين، وهم اليسوعيون الأذكياء الذين كانوا يشرفون على مدرستي الثانوية «كلية كانيزيوس»، الواقعة في حي تيرجارتن من مدينة برلين، التي انقسمت مرحلة التعليم الثانوي فيها الى صفوف دنيا وعليا. وتبنت الراهبات المدرسات في مدارس البنات الثانوية الموازية الفكرة ذاتها، بغرض الجمع بين تلاميذ وتلميذات المراحل التعليمية العليا في ندوات تعليمية كانت تنظم تحت إشراف متحفظ، استنادا إلى الإنخراط المشترك للجنسين في مرحلة التعليم المدرسي العالي.

فتنتني تمارا، لأنها كانت ذات جمال طبيعي رائع، غير أن العلاقة لم تتجاوز النظرات المتبادلة، فعمها الذي كانت تعيش في كنفه، وهو تاجر سجّاد غني في المنطقة الغربية، كان كما أعلمتني متشددا إلى أبعد الحدود، وحريصا للغاية على مراعاة تقاليد الحشمة

والفضيلة. وقالت لي إنني أفهم ما تعنيه، وأن عمّها لا يأتمن على ابنة أخيه سوى أتباع هذه الجماعة الدينية في سلك التعليم.

ولهذا سمح لها أن تأتي بين الحين والآخر إلى أكاديمية بريمانا، دون أن تثير بأي حال من الأحوال شكوكا بتصرفات متهورة في التعامل مع التلاميذ. كان عمها المسلم يرى في الأخلاقيات الكاثوليكية بعض التقارب مع توجهاته. ولم يكن بوسع تمارا أن تخيّب آمال عائلتها على الإطلاق. كما ذكرت لي يومها. وهكذا فان تحفظها كان يؤدي إلى زيادة احساسي بالحب الرومانسي نحوها، ولكن لبضعة أشهر فقط، مما يعني أن أولى علاقاتي الكاثوليكية – الإسلامية الرقيقة تلاشت قبل أن تشهد بدايتها الحقيقية.

أما علاقتي الأولى بعالم الإسلام، فتكونت في حقيقة الأمر بمجرد أن أوشكت على تعلم القراءة، حيث بدأت بقراءة كتاب: «أجمل الحكايات من ألف ليلة وليلة». ولا أزال الى الساعة أرى أمامي هذا الكتاب الذي بَلِيَ من كثرة قراءته، مجلدا بغلاف أبيض. ولم ترد فيه حسب ما أتذكر أية مضامين دينية تبشيرية. ولا أستطيع التذكر أنني قرأت فيه شيئا عن ممارسات عنف لها دوافع دينية.

حكايات هذا الكتاب الرائعة العجيبة تمحورت حول ثقافة ساحرة، ففيها أناس محبوبون على نحو استثنائي هنا، وأناس يثيرون الذعر هناك، وهما فئتان بينهما حدود وفواصل. ويتم ذلك بأسلوب سرديّ كان يغذي مخيلة الصغار بوفرة، في الحقبة الزمنية التي سبقت انتشار أجهزة التلفزيون وطغيان برامجها على كل شيء. من خلال قراءتي وجدت أن الحكايات العربية أشد طرافة وأكثر أهمّية بكثير من القصص الخرافية الألمانية، ومن الأساطير الكاثوليكية ذات الصلة بالأبطال وأصحاب القداسات.

لقد انطبعت في مخيلتي شخصيات الحكايات من أمثال: هارون الرشيد وشهرزاد وعلي بابا وعلاء الدين، الذي طفحت رغبتي في الحصول على مصباحه السحري. وتحولت بغداد إلى أسطورة يتوق إليها الأطفال، والى حاضرة لأحلامهم ومشاعرهم الطافحة بالشوق والحنين. كان عالم المغامرات المنعكس من «ألف ليلة وليلة» مثيرا وجذابا يخلب اللب، بما فيه من حوريات الجنة والشياطين الأشرار، والمهرّجين واللصوص، والشطار

الماهرين والكسالى.

بعد بضعة أعوام من انشغالي بقراءة هذه الحكايات أورد كارل ماي، الذي عاش من سنة 1842 إلى 1912م، والذي يعد من أعظم الكتاب الألمان نجاحا وإثارة للدهشة – أورد في مؤلفاته بشكل خفي دروسا حول التعامل مع العرب والمسلمين، فكان لما ألّفه تأثير مستمر في الصورة التي تكوّنت لدى أجيال الشباب في القرنين التاسع عشر والعشرين، حول هذه الشعوب الأجنبية المسلمة، التي تعيش في تلك المناطق بين وهاد البلقان وبغداد واسطنبول.

وأورد في مجلداته الضخمة ما يثير الإحساس بالإقدام على المغامرات وحب الاستطلاع، إضافة إلى الشعور بالأمان. فالرجل الألماني المسمى «كارا بن نمسي» وهو الشخصية الرئيسية في مؤلفاته كان هو الغالب والمنتصر دائما في حالات الحرج والارتياب والخطر، دون إبداء أي إهتمام في التطابق الدقيق مع الواقع السياسي. لقد دغدغ عواطفي وعواطف أبناء جيلي هذا الشعور بالتفوق النابع من روح الروايات التي كتبها كارل ماي، والتي بلغ حجمها آلاف الصفحات، ساردا فيها حكايات من شرق العالم وغربه.

وتزايدت وتيرة الشعور بالتفوق الغربي عبر ظهور شخصية الخادم العربي المسلم المخلص، الذي أسماه الكاتب: «حاجي عمر خلف عمر بن حاجي أبو العباس بن حاجي داود الجسارة». فكان تلفّظ أيّ تلميذ لهذا الاسم الطويل والمعقد، في أحد الصفوف الثانوية الدنيا في ألمانيا خلال حقبة الخمسينات والستينات من القرن الماضي، يدل على مدى القدرة الواسعة لذلك التلميذ على الحفظ.

وماعدا ذلك فلم يكن من المرغوب فيه إبداء اهتمام بتعمق أكبر في المسائل ذات الصلة بالبلدان والشعوب والديانات في منطقتي البلقان والشرق الأوسط. وكان من الصعب أيضا أن يتمكن أحد من الإلمام العميق في هذه الشؤون. ولم يتملك القراء شعور بالخوف من هؤلاء الأجانب في تلك المناطق. فما هي دواعي الخوف منهم؟، لقد أبرمت جمهورية ألمانيا الاتحادية اتفاقية مع تركيا لاستقدام عمال أتراك عام 1961م، أي في العام الذي بلغتُ فيه سبع عشرة سنة من عمري، وقد تعرفت فيه على تمارا،

علما بأن هذا الأمر لا علاقة له بها.

لم يدرك أحد في ذلك الحين التداعيات، التي قد يسفر عنها تدفق الآلاف بل عشرات الآلاف من الشباب الأتراك المسلمين – وليس من مسيحيي جنوب أوروبا – إلى ألمانيا.

ولو كان ثمة أحد ينعم التفكير في تأثيرات الهجرة طويلة المدى، فانه كان سينطلق من الاندماج الهادئ للمهاجرين البولنديين في منطقة الرور الألمانية وفي برلين أيضا في القرن التاسع عشر. في هذا السياق أقول ان بعض أسماء زملائي من تلامذة المدرسة التي تعلمت فيها، كانت تنتهي بمقطع «إينسكي»، ذي الوقع البولندي. لكنّ أولئك التلاميذ كانوا يتحدثون اللغة الألمانية بلهجة برلينية مثلي. ويمكن الحديث في السياق ذاته عن العمال الإيطاليين، الذين وفدوا إلى ألمانيا في العهد القيصري. ففي عام 1891م بلغ عدد المشتغلين منهم في معامل إنتاج أحجار الطوب ستة آلاف إيطالي في ميونيخ وحدها، التي كانت آنذاك عاصمة لمملكة بافاريا.

وهنالك حكاية أخرى كانت تروى في برلين مفادها أنه إبّان فترة حكم الرايخ الألماني الثالث بدءا من عام 1933م هرب بعض الألمان من ملاحقات الحكم النازي إلى تركيا، وعملوا هناك استنادا إلى مؤهلاتهم وكفاءاتهم أساتذة في جامعات اسطنبول وأنقرة، واستقبلوا بالترحيب في تركيا بناء على خدماتهم في مجالات الإصلاح الضريبي أو كمستشارين، غير أن معظمهم انتقلوا للعمل في الولايات المتحدة الأمريكية، أو عادوا إلى ألمانيا.

واشتهر منهم على سبيل المثال ايرنست رويتر (1889–1953م) الذي تحول من عامل في تركيا بعد أن أجبر على الهجرة إليها، إلى عمدة برلين متمتعا بسمعة أسطورية.

وفي حالات التقلب التي سادت في فترة الحرب العالمية الثانية، تم تهجير 300 ألف إيطالي إلى ألمانيا عُمّال سخرة، غير أن معظمهم عادوا إلى بلادهم بعد انتهاء الحرب. لم تشكل قضايا هجرة واندماج الأجانب المسيحيين وغير المسيحيين حينذاك موضوعات ذات شأن على الصعيد السياسي. ولكن العلاقات والاتصالات عبر الحدود لم تزل قائمة.

يوسف راتسينجر والكليشيهات الكاثوليكية

لماذا أتطرق إلى انطباعات شبابي هذه في كتاب عن البابوات والمسلمين؟، إنها تتطابق بقدر يكبر أو يصغر مع كليشيهات بريئة لا ضرر منها، كانت متداولة قبل أن أخوض معظم تجاربي الفاعلة مع شواهد الحضارة الإسلامية العظيمة. ربما يعود السبب إلى وجوب إقلاع الكثيرين في ألمانيا عن الاستمرار في الاستناد إلى قصة «ألف ليلة وليلة» أو «حكايات كارل ماي» أو ما شابه ذلك من أوهام الخيال، لكي يدركوا حقيقة واقع المسلمين كجيران لهم أو مواطنين معهم.

لكنني أبدأ بالتطرق الى تلك الإنطباعات، لأنها كانت متماهية مع التصورات الكاثوليكية الشائعة عن الإسلام في ذلك الحين، ولأنني استندت الى مسوّغ وجيه آخر: وهو أنني وجدت أن راتسينجر، الذي تقلد منذ نيسان (أبريل) 2005م منصب البابا وسمي بينيديكت السادس عشر كانت لديه صورة غامضة مهلهلة وحيثيات إدراك مشوّهة عن الإسلام، عندما كان في العقود الزمنية الأولى من عمره.

لقد ربطتني علاقة شخصية بيوسف راتسينجر منذ عام 1976م، وهي فترة زمنية طويلة كان يقوم فيها بمهام أستاذ في علم اللاهوت وأسقف أعلى لمدينتيّ ميونيخ وفرايزينج وكاردينال مفوض لإدارة هيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة في روما. ومن خلال ارتباطي معه بعلاقة شخصية في تلك الفترة لم أجد أن ما لديه من المعرفة عن الإسلام كان يتعدى ما ذكر بصورة جوهرية، كما لم أجده يتمتع بفكر متعمق عن عالم الإسلام، وهذا ما أكده لي آخرون ممن كانوا يعرفونه جيّدا.

وفضلا عن ذلك فإن المرء لا يجانب الصواب عندما يعتقد بأن فهم البابوات الأخيرين في العصر الحديث للإسلام والمسلمين، كان مشوشا وواهيا أيضا، ويتسم بمواقف متحفظة معدّة سلفا.

ويسري هذا على كل من: البابا بيوس الثاني عشر الذي ولد عام 1876، وشغل مهام منصبه من عام (1939 الى عام 1958م)، والبابا يوحنا الثالث والعشرين المولود عام 1881 (1958 ـ 1963م)، والبابا بولص السادس المولود عام 1897، (1963 ـ 1978م)، والبابا يوحنا

بولص الثاني المولود عام 1920، (1978 ـ 2005 م). فلم تتكون صورة الإسلام والمسلمين لديهم بالإستناد الى معلومات تاريخية علمية، بل اعتمادا على ما عكسته تلك الصورة الجوفاء الشائعة في الأوساط الكاثوليكية الأوروبية، مع بعض الكليشيهات المشحونة بمعلومات تفتقر الى الدقة.

ومن المفارقات الغريبة حقا أن بيوس الحادي عشر المولود عام 1857م، والذي شغل مهام منصبه بين عامي 1922 و 1939م، كان قد قد عيّن في باديء الأمر أسقفا إسميا لمنطقة ليبانتو. ولم يلاحظ إلا القليلون بأن معركة بحرية هامة وقعت في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) 1571م في بلدة ليبانتو، التي تسمى اليوم نافباكتوس، والتي تقع على معبر خليج باتراس الموصل الى خليج كورينت في اليونان.

في تلك المعركة انتصرت تلك القوى المسيحية المتكتلة في «الحلف المقدس» بقيادة «خوان دي أوستريا» (خوان النمساوي) بمشاركة إسبانية على الأتراك، مما يعني أن البابا انتصر على السلطان العثماني. وبهذا تقوّضت أسطورة كانت تزعم آنذاك بأن العثمانيين لا يهزمون، وتلاشى معها الحلم بتأسيس قوة بحرية إسلامية عالمية.

لكن بيوس الحادي عشر لم يعد يفكر طيلة عهده البابوي بهذا الموضوع، وبدا الدين الإسلامي العالمي في فترة بابويته، وهي فترة طفولة وشباب البابا بينيديكت السادس عشر، في سنوات العشرينات والثلاثينات، في حالة سبات. ولم تكن المعلومات عن الإسلام تستقى بشكل عام في البداية إلا من الحكايات الخرافية الشرقية، ثم من مؤلفات «كارل ماي»، إذ لم تتوفر مصادر أخرى.

ولد يوسف راتسينجر في السادس عشر من نيسان (أبريل) 1927م في بلدة «ماركتل» الواقعة على نهر «إنّ»، ونشأ في ريف ولاية بافاريا، الذي ينتمي سكانه الى المذهب الكاثوليكي. وقد ابتليت مناطق هذا الريف البافاري بتداعيات الحكم النازي (بدأ من عام 1933م)، وبويلات الحرب العالمية الثانية، دون أن تكون لويلاتها علاقة بالهلال الإسلامي. فلم تكن هناك مآذن لمساجد إسلامية تنافس أبراج الكنائس في تلك البقاع الواقعة أمام جبال الألب.

لم يرد في السيرة الذاتية التي أعدّها الكاردينال يوسف راتسينجر، تحت عنوان: «حياتي، ذكريات (1927- 1977م)» أي شيء عن الإسلام والمسلمين.

وبصفتي صحفيا على درجة من المهنية فقد أجريت بين عامي 1976 و 2005م حوارات كثيرة مع البروفسور يوسف راتسينجر، الذي كان يشغل منصب كاردينال في ذات الوقت. ولم يتطرق في أحاديثه الى مواضيع حول الإسلام والمسلمين والمساجد خلال فترة زمنية طويلة، إلا على نحو هامشي. كان تصرفه في الفترة التي أجريت معه فيها الحوارات يمثل الموقف النمطي، لأحد المتخصصين في علم اللاهوت الكاثوليكي ولأحد قادة الكنسية.

ونظرا لتخصصه في علم اللاهوت فإنه ولا شك لم يكن يجهل الفلاسفة المسلمين في العصور الوسطى، مثل ابن رشد، كونه شارحا لآراء أرسطو، وابن سينا بوصفه عالما. وبصفته استاذا جامعيا لمادة المذهبية الموضوع الرئيسي في علم العقيدة الكاثوليكية، ومتخصصا في أصول علم اللاهوت التي يرتكز عليها علم العقيدة المبني على علاقة متوترة بين الايمان والعقل، فإنه لم يكن بالضرورة خبيرا متضلعا من التاريخ عموما وتاريخ الكنيسة على وجه العموم.

لقد تضمنت باكورة أعماله الفكرية بين عامي 1954 و 1959م دراسات عن أهم الآباء الروحيين للكنيسة اللاتينية في التاريخ القديم مثل أوغوستينوس (354 - 430م) من بلدة «هيبو» الواقعة في شمال إفريقيا، والتي كانت نصرانية في البداية ثم مسلمة بعد ذلك[×].

[هي اليوم مدينة عنَابة الجزائرية]

كما تضمنت أعماله أيضا دراسة عن المعلم الكنسي في العصور الوسطى «بونافينتورا (1221 - 1374م)، الذي كان ينتمي الى طريقة «فرانتس فون أسيسي» الرهبانية.

ويستدل من دراساته على أنه أدرك مجريات التطور في العلاقة بين الايمان والأصول المذهبية في السياق التاريخي لها، ولم ينظر اليها كصرح عظيم جامد تحدر من الأبدية. وهكذا فإن يوسف راتسينجر، اقترب من الإسلام بوصفه لاهوتيا من خلال أعماله الفكرية المتصلة بالدراسات الإنسانية.

من البديهي أن البروفسور راتسينجر كان واثقا من إلمامه بتفاصيل المجابهات بين الكنيسة والمسجد، بين المسيحيين والمسلمين، وبين البابوات والقوى الإسلامية. ومن المعروف أنه لم يكن يرى في تعبيرات مثل «حملة صليبية» أو «حرب مقدسة»، سوى شعارات مختصرة لاذعة، تستخدم لمجابهة الطرف الآخر واللمز منه في نقاش ما، ولا يمكن أن تؤدي في واقع الأمر الى التنامي معرفيا. وبدا له أن زيادة المعلومات تتطلب وجوب التعمق في تاريخ الأديان وجوهرها. ومهما كان الأمر في هذا السياق، فقد تجلى في الأفق إنفتاح حقل واسع مليء بالتساؤلات والتأملات.

فهل تعد رحلات الحجاج المسيحيين المسلّحين الى القدس في العصور الوسطى (بدءا من القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر) في مغزاها الكامل الوحيد مثلا حروبا مقدسة خاضها المسيحيون ضد غير المؤمنين؟ (أنظر الفصل الثالث والثلاثين)، وهل كانت تلك الرحلات بمثابة الرد على توسع الإسلام في جهاده ضد غير المؤمنين خلال العقود الزمنية السابقة في المناطق المسيحية في آسيا وإفريقيا وأوروبا؟ (أنظر الفصل الثاني والثلاثين)، إن الأمر كان يتعلق بأكثر من ذلك:

فمؤرّخو الكنيسة الكاثوليك أنفسهم لم يترددوا في تبني رؤية مفادها، أن حملات الحروب الصليبية كانت بمثابة مرحلة من مراحل تطوير مفهوم البابوبة.

ويظهر هذا من خلال دعوة الأساقفة الروم الى شن حملات تلك الحروب، على أساس أنها إرادة إلهية، والإنصياع لها يرضا.

والدعوة من خلالها الى توحيد العالم المسيحي الغربي الأوروبي المكون من أمم مختلفة، وتمكنهم بالتالي من توطيد مركز البابوبة والسلطة الروحية للبابوات في العالم الغربي (أنظر الفصل الثالث والثلاثين).

ولكن هذه الموضوعات لم تحتل مركز الصدارة، كما أن الأسئلة المطروحة بهذا الشأن ما تزال بغير حاجة الى إجابات بالنسبة الى البابا الحالي، وهو الأستاذ الجامعي في العديد من المدن الألمانية: في فرايزينج القريبة من ميونيخ (1958/1959م)، وبون (1959- 1963م)،

ومونستر (1963 ـ 1966م)، وتوبينجن(1966ـ 1969م)، وأخيرا في ريجينسبورغ (1969 ـ 1977م).

تحوّل في المجمع الكنسي

لا يغيب عن البال أن يوسف راتسينجر شهد كيفية تحول العلاقة بين الكنيسة والمسجد من موضوع هامشي الى مسألة ذات أهمية محورية، إبّان فترة إنعقاد المجمع الثاني للفاتيكان في عهد يوحنا الثالث والعشرين وبولص السادس، وهو الإجتماع المسكوني للأساقفة الكاثوليك الذي انعقد في كاتدرائية القديس بطرس في روما بين عامي 1962 و 1965م.

لكن هذا التحول حدث بطريقة غير مباشرة عبر طرف آخر غير المسلمين، حيث أن المجمع أراد صياغة تعريف جديد لعلاقة الديانة المسيحية باليهود، بعد أن سادت حالات الإغتراب والعداوة معهم مئات من السنين. لقد صدر عن المجمع بيان حول علاقة الكنيسة بديانات غير مسيحية في الثامن والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) 1965م (أنظر الفصل الحادي عشر).

كان على راتسينجر عالم اللاهوت أن يزيد من مستوى علمه عبر حضوره جلسات المجمع في روما، علما أنه بدأ في عام 1959م بممارسة التعليم الجامعي متسلما مهام أستاذ جامعي نظامي في جامعة بون، حيث ألقى أول محاضراته تحت عنوان: «إله الايمان وإله الفلاسفة».

تمحورت تلك المحاضرة حول موضوع يحبه ويكرّس له حياته، وهو الذي يتناول العلاقة بين الايمان والعقل، غير أنه عالج الموضوع في محاضراته بالحديث عن تلك العلاقة في نطاق تاريخ الفكر الإنساني الغربي ـ الأوروبي. لكن الأساقفة المشاركين في المجمع الثاني للفاتيكان الذي انعقد تحت إسم «فاتيكانوم 2» اكتشفوا فجأة، بأن الأمر لا يتعلق بإله الديانة المسيحية، ولا بإله اليهود فقط، وفقا للتوارة التي يطلق المسيحيون عليها اسم العهد القديم، بل بإله ديانات أخرى غير مسيحية، هذا بغض النظر عن إله الفلاسفة.

وفي هذا السياق مارس معنيون في مرجعيات عربية ـ علماء ودول مرتبطة بعلاقات

دبلوماسية مع الفاتيكان ـ ضغطا سياسيا على الكنيسة الكاثوليكية، وأشاروا الى أن من غير الجائز نسيان دينهم الذي يمثل عالما بكامله، كما أعربوا عن عدم جواز حصر التركيزعلى (إدانة)، اللاسامية، (أنظر الفصل الحادي عشر).

وبهذا أدت مسلكية تجاهل الجانب العربي والإسلامي الى تبلور وضع مشابه لدخول حقل من الألغام، وتجهيز مزيج متفجّر لوحظ بعد ذلك بسنوات، أي في الخامس من أيلول (سبتمبر) 1972م، خلال الألعاب الأولمبية ذات الطابع السلمي في ميونيخ، حيث اقتحم عرب مقرّ الفريق الإسرائيلي آنذاك وقتلوا أثناء الإقتحام مباشرة شخصين من الرياضيين الإسرائيليين، ثم اختطفوا آخرين كرهائن مطالبين بإطلاق سراح معتقلين عرب وفلسطينيين في سجون إسرائيل.

وأثناء محاولة قوى الأمن الألمانية تحرير الرهائن، لقي خمسة من المهاجمين العرب وشرطي ألماني وجميع الرهائن حتفهم. وقد سبّب هذا الحادث المروّع صدمة للألمان لا تنمحي من الذاكرة، فكل من عاصر الحادثة في ذلك الحين يعلم متى وكيف تلقى النبأ، ومن بينهم يوسف راتسينجر، الذي كان يعمل أستاذا في جامعة ريجينسبورغ القريبة من ميونيخ.

وهكذا فإن ممارسة العنف بدوافع قومية دينية، بثت مشاعر الإرتباك بشكل مستمر. ومنذ ذلك الحين طفت على سطح طيف الرأي العام في ألمانيا بقوة دفع متزايدة فكرة مفادها: أن الأزمات لا تنشأ جراء إختلاف مصالح الأمم فحسب، بل وبدرجة تكاد تتعدى ذلك، بسبب الفروق بين الثقافات والأديان، وخاصة بين اليهود والمسيحين والمسلمين.

لكن مضمون هذه الفكرة لم يكن خلال حقبة السبعينات من القرن الماضي متقدما الى تلك الدرجة من الوضوح، لا في ألمانيا ولا في المراكز المؤثرة على صناعة الرأي العام في بلدان العالم الأخرى. وبالنسبة لي، لم يلعب ذلك الشأن المتعلق بالإختلافات الدينية دورا، لأنني كنت قد ظفرتُ بصديق مصري مسلم متدين اسمه أحمد.

ولد أحمد صديقي هذا عام 1933م في منطقة قناة السويس، وقدم الى ألمانيا لدراسة الطب. وسبق لعائلته أن ساعدت أسرى حرب ألمانيا الذين كانوا محتجزين في مركز

بريطاني لتجميع الأسرى، على مقربة من مسكن العائلة في مصر خلال الحرب العالمية الثانية. وقام أحد هؤلاء الأسرى بعد إطلاق سراحه وعودته الى موطنه في مدينة هايدلبيرج بدعوة أحمد وشقيقه الى ألمانيا، تعبيرا عن امتنانه للعائلة.

هكذا سافر أحمد الى هايدلبيرج، وأحب شقيقة أسير الحرب، ودرس الطب في جامعة ميونيخ التي تخرج فيها بامتياز، ثم أثبت جدارته بعد التخصص جراحاً متميّزاً في قسم معالجة إصابات الحوادث في مستشفى فرانكفورت الجامعي. تعرّفنا على أحمد وزوجته وبناته الثلاث الجميلات، عندما قمنا بزيارة الى الأقصر وأسوان ومعبد أبو سمبل لنتمتع ولنعجب بمشاهدة آثار الحضارة العظيمة لمصر القديمة.

وقد أدهشتنا قبل ذلك رؤية مساجد القاهرة، التي هي شهادات على الفن المعماري لديانة عالمية، كما تركت تلك المساجد الشهيرة في دمشق والقدس واسطنبول إنطباعات عميقة في نفوسنا، كونها تعكس حضارة عالية المستوى.

لكن الحياة الدينية بَدَت لي وكأنها تتسم بشيء من الخمول، نظرا لخلو أماكن العبادة هذه من المصلين الى حد بعيد، دون الحاجة الى المقارنة مع الكنائس الألمانية والأوروبية. فلم يكن المسلمون خلال حقبة الستينات وبداية السبعينات من القرن الماضي قد بلغوا مرحلة الصحوة والانتباه إضافة، الى عدم ادراكهم آنذاك حقيقة قوتهم وإمكانيات التأثير التي يتمتعون بها.

من البديهي أننا كنا ندخل دور العبادة الجديرة بالإحترام في نطاق زياراتنا بعد أن نخلع أحذيتنا، متبعين التعليمات الصارمة، ومراعين النظرات الحادة التي كانت تتابعنا. كنا نفعل ذلك في باديء الأمر على مضض وعن غير رغبة، بعد ذلك خطرت ببالنا الكلمات المتناسبة مع هذا الحدث الواردة في التوراة بخصوص كلام الله تعالى مع النبي موسى من شجرة العليق المشتعلة: «لاَ تَقْتَرِبْ إِلَى هُنَا: اخْلَعْ حِذَاءَكَ مِنْ رِجْلَيْكَ، لأَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي أَنْتَ وَاقِفٌ عَلَيْهِ أَرْضٌ مُقَدَّسَةٌ».

(سفر موسى الثاني، الخروج ـ الإصحاح الثالث).

ولعلنا ظننا أننا كنا نتصرف في الكنائس المسيحية على نحو خاطيء، لأننا لم نكن

نخلع الأحذية قبل دخولها. فهل يعود السبب في عدم خلعها الى دوافع صحية أو الى عدم الرغبة في التعرض للبرد؟، أم أن كلام الله الوارد في الأسفار المقدسة يمكن تطبيقه مرّة بشكل حرفي وتجاهله مرّة أخرى؟، لقد علمت من أحمد في فرانكفورت الواقعة على نهر الماين، أنه مسلم متديّن عن اقتناع، وأن التدين منغرس في وجدانه بعمق، بصرف النظر عن السنوات الطويلة التي قضاها في ألمانيا. كان يظهر مزيدا من التمسك بعقيدته الإسلامية، كلما كبر سنه، وطال زمن إقامته في ألمانيا.

وتفتّح لي عن طريق أحمد أفق جديد يفضي الى العلاقة بين الثقافات والأديان، فأصبحت أنظر إلى تلك العلاقة من منظور مختلف تماما، ولكنه ربما يكون هاما جدا لإلقاء الضوء على تفاصيل الجدل الدائر في ألمانيا في الآونة الراهنة حول موضوع الإسلام والإندماج في المجتمع. وفي طريقي للذهاب الى عيادة طبيب أسنان داخل مستشفى فرانكفورت الجامعي رأيت عن يساري بابا ينفتح فجأة، ويؤدي الى قاعة كبيرة، وشاهدت في تلك القاعة عشرات النساء جالسات على كراسي المعالجة، ولم يكن من الصعب إدراك أنهن تركيات من الأناضول، لأنهن كن يرتيدن أغطية الرأس.

في هذه الأثناء بادر أحد الأطباء بالتحدث معي وقال: «هنا يتعلم طلابنا. فالأتراك يرسلون أفراد عائلاتهم الى ألمانيا بغرض المعالجة». حينذاك وجدت نفسي مدفوعا الى التفكير والتأمل العميق مستنتجا بأن الفروق بين الأديان امتزجت بتداخلات ثقافية واجتماعية واقتصادية ومالية.

دروس في روما

انفتحت لي آفاق مختلفة تماما في نطاق عملي مراسلا لصحيفة «فرانكفورتر ألجماينه» في روما منذ عام 1978م. كنت مختصا في البداية بتغطية الأحداث المتعلقة بالسياسة الداخلية في إيطاليا. في هذا الإطار لم يكن المسلمون يمثلون قضية في الساحة الإيطالية، لأن الناس لم يكونوا يصادفونهم إلا في حالات نادرة. وكان الأشخاص المشاهدون منهم هم على سبيل المثال من المغاربة، الذين دأبوا على حمل بضائع صيفية وعرضها كباعة متجولين

على الشواطيء بأسعار رخيصة، دون الإشارة الى تقاليدهم وقناعاتهم الدينية، لئلا يلحقوا الضرر بأنشطتهم التجارية الصغيرة.

أما العناوين الصحفية مثل: «Clandestini» أي «المهاجرون السريون غير الشرعيين»، أو «Extracomunitari» أي المهاجرون من خارج مجموعة دول الإتحاد الأوروبي، فلم تظهر إلا في فترة لاحقة.

وقد لفت انتباهي اختلاف النظرة الى المهاجرين المسلمين بين إيطاليا وألمانيا. فعلاقة الطليان مع الإسلام والمسلمين تختلف تماما بسبب تاريخهم وموقع بلادهم، كشبه جزيرة على شكل حذاء في مياه البحر المتوسط، عن علاقات بلدان غرب وشمال ووسط أوروبا في هذا المجال، باستثناء سكان العاصمة النمساوية (أنظر الفصلين الخامس والسادس).

اتبع الطليان، نظرا لموقع بلادهم الأقرب الى دول عربية وإسلامية، سياسة أكثر واقعية، وانتهجوا مواقف عقلانية وذات أبعاد براغماتية بدرجة أكبر. وتشكل إيطاليا حسب النتيجة التي توصلت اليها حالة خاصة، مثلها مثل ألمانيا (أنظر الفصل السادس). فقد بقي مشروع التخطيط لبناء مسجد ثم انجاز بنائه في روما أمرا هامشيا حتى عام 2006م، باعتبارها مدينة البابا الذي يتمتع بالقاب منها: «الرئيس الروحي لإيطاليا»، و»بطريرك العالم الغربي».

لقد تبدى ذلك المشروع وكأنه من بقايا تداعيات حقبة أزمة النفط، حينما اكتشفت دول عربية وإسلامية إمكانية استغلال النفط أداة سياسة بيد الغرب أو ضده. وهكذا عُدّ المسجد تنازلا محسوبا من طرف الحكومة الإيطالية ورئيسها السياسي المحنّك جيلو أندريوتي. فقطعة الأرض التي ارتأى المعنيون تخصيصها لمشروع بناء المسجد تقع خارج المنطقة التاريخية من مدينة روما:

محجوبة عن الأنظارعلى منحدر «فيلا آدا» لجبل أنتينه. وهذا يعني أن مئذنته لا تؤثر سلباً على المنظر العام للمدينة الخالدة روما، كما أن ارتفاعها لا ينافس علو قباب الكنائس وأبراجها. وبما أن موقع البناء لم يكن بعيدا عن مكتبي على نهر التيبر، فإنني تابعت بين الفينة والأخرى، أثناء ممارستي رياضة الجري، خطوات العمل، واكتشفت أن سرعة التقدم

في إنجاز المبنى لم تكن تبهر الأنفاس (أنظر الفصل السابع).

أجل، لقد تنامت إنشاءات المسجد واكتمل بناؤه ذات يوم، وأخذ مكانه في مدينة البابا الخالدة بوصفه أكبر مساجد أوروبا، غير أن الأهم من ذلك هو ما تطور بعد بنائه من العلاقات بين الفاتيكان والعالم الإسلامي.

في هذا السياق وقعت بعض الأحداث التي عليّ أن أعد تقارير بشأنها، حيث كنت في نهاية حقبة السبعينات معتمدا لدى الدائرة الصحفية للكرسي الرسولي مراسلا صحفيا في روما.

لم أكن في سياق مهمتّي الصحفية في الفاتيكان أُبدي اهتماما كبيرا بمسائل التقوى والورع الديني، بل كنت معنيا بمتابعة أحد البابوات العظام، وهو البابا يوحنا بولص الثاني، الذي باشر مهامه بتاريخ 16 تشرين الأول (أكتوبر) 1978م، وأثار من ذلك الحين حتى يوم وفاته في الثاني من نيسان (أبريل) 2005م إعجاب العالم بوتيرة متسارعة باهرة. ولم يتجنب في زياراته التي لا تكاد تحصى السفر الى دول وشعوب ذات أغلبية إسلامية، بل إنه عمل خلال عهده البابوي الذي استغرق مدة طويلة على تحويل مسألة العلاقة بين الكنيسة والإسلام الى موضوع رئيسي في السياسة العالمية، سواء لأسباب إضطرارية أو لرغبة منه إنطلاقا من قناعاته الذاتية.

إن المراحل المختلفة المستعرضة في نطاق هذا التطور الذي شهدته بوصفي صحفيا، هي التي تشكل الجزء الهام من هذا الكتاب، علما بأن أي صحفي سيكون محظوظا، عندما تتاح له فرصة الظهور شخصيا كشاهد على أحداث سياسة عالمية. إن الذين مهّدوا الطريق لظهور البابا يوحنا بولص الثاني ليكون سياسيّاً كنسّياً عالمياً هم البابوات الإيطاليون الثلاثة: بيوس الثاني عشر، ويوحنا الثالث والعشرون، وبولص السادس، حيث بدأ الهلال يبزغ لهم شيئا فشيئا، غير أن المجمع الثاني للفاتيكان هو الذي شق طريق التحول بشكل أساسي من حيث المضامين التي وردت في وثائقه التالية:

1) البيان الثوري بخصوص الحرية الدينية.

2) البيان المتعلق بالأديان غير المسيحية، مع إيلاء الإسلام مكانة أهم، حيث أن موضوع

العلاقة بالإسلام الذي لم يجد قبل ذلك إلا القليل من الإهتمام، يمثل في نهاية المطاف وثيقة رئيسية.

3) القانون الدوغمائي الخاص بالوحي الإلهي (أنظر الفصل الثالث عشر).

إن التجربة الأساسية التي عشتها وأصبحت دافعا رئيسيا لي لتأليف هذا الكتاب، هي المتمثلة في المحاضرة التي ألقاها البابا بينيدكت السادس عشر في الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) 2007م في ريجينسبورغ، وما تلاها من ردود فعل استمرت حتى اليوم. فقد أورد في محاضرته التي حملت عنوان: «الايمان والعقل والجامعة» أن خطوط التاريخ وتاريخ الفكر في القرون الزمنية الماضية بين الكنيسة والمسجد، أي بين المسيحية والإسلام، تتلاقى مع بعضها بعضا.

وفي ذات الوقت فُتحت، عبر تلك المحاضرة، بوابة، تكاد تكون بمثابة خارطة طريق للحوار في المستقبل، لأن الحوارلا بد منه، وإذا كان الهدف هو عدم حدوث صدام بين ديانتين عالميتين مختلفتين وبين أتباعهما بسبب الرفض وعدم الفهم المُتبادل، فإن القوة التفجيرية الكامنة في الأسئلة والأجوبة ظهرت بعد محاضرة البابا في مدينة ريجينسبورغ البافارية الهادئة، التي كان يوسف راتسينجر ينوي قضاء بقية حياته فيها أستاذا جامعيا متقاعدا، إلا أنه لم يعد بالإمكان الآن الحديث عن خلوده الى الهدوء.

الفصل الثاني

تبدل المركز القيادي الديموغرافي بين الديانات العالمية ـ في مكتب الشؤون الإحصائية التابع للفاتيكان

في نهاية شهر آذار (مارس) 2008م اكتشف فيتوريو فورمينتي مدير المكتب المركزي للشؤون الإحصائية للفاتيكان أمرا لم يبد له مثيرا، لأنه كان يتوقع حدوثه منذ مدة طويلة، وهو ما يتعلق بعدد الكاثوليك والمسلمين. لا يستطيع أحد تحديد الأعداد بدقة تامة، لأن الإحصائيات لا تجري في كل مكان على النحو الصحيح، أو لأن إجراءها لا يتم أصلا في بعض الأحيان، أو لأنها تعتمد على التقديرات فقط.

ومع ذلك كان على المونسنيور فورمينتي المقيم في القصر الرسولي للبابا في روما، أن يستخلص منها إحصائيات سكانية موثوقا بها وبوسعه التوصل اليها كونه خبيراً إحصائياً.

وكان من المسموح له بالإضافة الى ما ذكر أن يمارس عمله بجوار حجرات وقاعات زاخرة بالفن، مثل «قاعة كليمينتينا» المشهورة عالميا، التي لا يستخدمها سوى البابوات، عندما يريدون التحدث مع الكرادلة حول مسائل جدية أو في مناسبات هامة، كمناسبة تسجية جثمان البابا «يوحنا بولص الثاني» فيها بعد وفاته في شهر نيسان (أبريل) 2005م. وهكذا كان فورمينتي وهو «الحبر الفخري لقداسة البابا» يقوم بإدارة مكتبه الرسمي بشكل روتيني لدى الحكومة البابوية حينما كتب مقالة لصحيفة الفاتيكان الرسمية التي تحمل إسم: «أوسيرفاتوري رومانو»، أي المراقب الروماني.

وكان مما يسّر فورمينتي الذي ينتمي الى بريسكيا الواقعة في شمال إيطاليا ويشغل هذا المنصب منذ عام 1996م ومساعده ذا المعلومات الواسعة، البروفسور إرنيكو نينا أن يغوصا في لجة الأرقام ويقوما بعقد مقارنات. لقد تبين لهما وفقا لما قاما به من حسابات لعام 2006م، أن عدد الكاثوليك في جميع أنحاء العالم أصبح لأول مرة أقل من عدد المسلمين

بفارق كبير جداً. وحسب ما أورده فورمينتي، في صحيفة «أوسيرفاتوري رومانو»، فإن 17،4٪ من سكان العالم هم من الكاثوليك، معبّرا عن استطاعته التأكيد على ذلك تقريبا بشكل دقيق ومضبوط، لأنه استند الى بيانات تم جمعها ببالغ العناية والحرص.

لكن البيانات المقتبسة من مصادر مختلفة تدل على أن النسبة التي يشكلها أتباع النبي محمد [عليه الصلاة والسلام] تقدر بحوالي 19،2٪ من مجموع سكان العالم، أي أن تعدادهم يصل الى 1،3 مليار نسمة. وقد تجنب فورمينتي أن يضع العدد المطلق لأتباع الكنيسة الكاثوليكية مقابل عدد المسلمين، حيث يبلغ عددهم 1،18 مليار نسمة. وهذا يعني أن الإسلام هو أكبر الأديان العالمية من حيث عدد معتنقيه، مما أدى الى تحول نتيجة هذا التقييم الإحصائي الى عنوان بارز من عناوين الأخبار، وانتشارها في كافة أنحاء العالم، منسابة بإثارة في الوقت ذاته عبر مواقع الإنترت كأنها انهيار جليدي من المعلومات. وهذا ما كان حبر الفاتيكان الودود (فورمينتي) يريد أن يتجنبه أصلا، كما صرّح بذلك خلال حوار أجري معه.

كان للتفسيرات المقتضبة لهذا التقييم الإحصائي وقع مشابه للتقارير الواردة من جبهة قتال، مثل: «لأول مرة في التاريخ لم نعد في المقدمة، فالمسلمون تجاوزونا». إن الذي قصده الموظف البابوي من ناحية إحصائية بحتة صار يفسّر على أنه تحوّل سياسي عالمي.

ولا يجد بعض المسيحيين سوى القليل من المواساة في التعديل النسبي لبيانات فورمينتي، حينما قال بأن الكنيسة الكاثوليكية تقوم بحرص وانتظام بإحصاء أعداد حالات التعميد وزوار الكنائس وأعداد الكاثوليك المسجلين كأعضاء في الأسقفيات ومديريات القساوسة، بينما لا توجد إحصائيات موثوقة في الدول الإسلامية، حيث يتم الإكتفاء بالإحصاءات التقديرية. وأضاف المونسنيور في قصر الفاتيكان (فورمينتي) قائلا، إنه لا يوجد أصلا في الدول الإسلامية من حيث المبدأ تعريف أكيد لمن هو مسلم.

ومن البديهي بالنسبة لفورمينتي، أن سبب زيادة عدد المسلمين في الحزام الممتد من المغرب الى إندونيسيا، لا يعود الى تميز دينهم، أو كونه ذا جاذبية أكبر. فهذا الخبير الإحصائي (فورمينتي) وجد على ذلك جوابا بسيطا من خلال قوله بأن: «الأسر الإسلامية لديها

أطفال كثيرون، بينما يزداد ميل العائلات المسيحية الى إنجاب أطفال أقل». لكن المسلمين الخبيرين بالبيانات الإحصائية لا ينظرون الى تفوق عدد مسلمي العالم على مجموع أتباع الكنيسة الكاثوليكية فحسب، ولكنهم يلتفتون الى أن نسبة جميع المسيحيين تبلغ 33٪ من مجموع سكان العالم، أي أنها أكبر بكثير من النسبة المئوية التي يشكلها عدد المسلمين.

فكل ثالث مواطن في هذا العالم هو مسيحي، بينما كل سادس مواطن، وعمّا قريب كل خامس هو مسلم. إن التحليل الذي قدّمه «الحبر الفخري» فورمينتي، يبدو واضحا عند سماعه للوهلة الأولى.

فعلى الفور تتبدى في المخيلة صور الأطفال الكثيرين للعائلات الإسلامية في أوروبا، في فرنسا وألمانيا، حيث أنهم يعيشون في محيط إجتماعي ملائم، لكن هذا الإستنتاج السريع يبقى بحاجة الى التدقيق، كما هو الحال بشأن العديد من القضايا المتصلة بموضوع «العلاقة بين المسيحية الإسلام».

إن الإحصائيات الكبيرة التي تعالج النمو السكاني في الفترة ما بين 1994ـ 2004م تعكس صورة مختلفة بالنسبة الى أكبر عشرة بلدان كاثوليكية المذهب، وأخرى من أكبر البلدان الإسلامية.

البلدان التي تضم أكبرعدد من المواطنين الكاثوليك، وفقا لإحصاءات السكان والتقديرات الحسابية لتعدادهم في عام 2006م (مع تبيان المجموع الكلي للسكان، والنسبة المئوية للكاثوليك، ونسبة النمو السكاني) هي:

البلد	العدد الكلي للسكان بالملايين	عدد المواطنين الكاثوليك بالملايين	نسبتهم	نسبة النمو السكاني
البرازيل	189323000	139000000	٪73،6	٪1،3
المكسيك	104221000	94200000	٪90،4	٪1،1
الفلبّين	86264000	71500000	٪83	٪2

الولايات المتحدة الأميركية	299398000	67600000	%22،6	%1
إيطاليا	58843000	52900000	%90	%0،4
فرنسا	61257000	45900000	%75	%0،6
إسبانيا	44121000	41000000.	%93	%1،7
كولومبيا	45558000	39800000	%87،5	%1،4
بولندا	38129000	36600000	%،96	%0،1 −
ألمانيا	82375000	26000000	%31،6	%0،1 −

البلدان التي يعيش فيها أكبر عدد من المسلمين

البلد	العدد الكلي للسكان بالملايين	نسبتهم	نسبة النمو السكاني
إندونيسيا	223042000	%88	%1،1
باكستان	159002000	%95	%2،1
الهند	1109811000	%13،4	%1،4
بنغلاديش	155991000	%89	%1،8
مصر	74166000	%80	%1،8
تركيا	72975000	%99	%1،3
إيران	70098000	%99،6	%1،5
نيجيريا	144720000	%50	%2،4
الصين	1319133000	%1،5	%0،6

إثيوبيا	77154000	30 - %45	%2،6
المغرب	30497000	%99	%1،2

البيانات أعلاه مقتبسة من الدليل الألماني العالمي «فيشر فيلت ألماناخ» لعام 2009م
علما بأنها تتباين جزئيا مع بيانات الكنيسة حول الموضوع. ويفضل الإستناد اليها من أجل تجنب الإتهام بالإنحياز الى الطرح الكنسي.

ومع ذلك فقد نظرنا بغرض التدقيق أيضا الى الأرقام الواردة في بيانات المكتب المركزي للشؤون الإحصائية لدى الفاتيكان بالتفصيل، والى ما ورد من هذا القبيل في التقرير الدولي حول الحرية الدينية، الذي أعدته وزارة خارجية الولايات المتحدة الأميركية، وكذلك الى المصادر التي لا حصر لها في الإنترت على موقع «adherents.com».

لا بد من التعامل مبدئيا مع متطلبات تأويل نتائج البيانات الإحصائية بعناية وحذر، وهذا ما لا يود المونسنيور فورمينتي الإعتراض عليه. فلا يتم في كل مكان إجراء التعداد والقياس بشكل موثوق، على النحو الذي يتم فيه في البلدان التي تتسم بدقة الضبط المعروفة في المانيا.

ان اجراءات المسح الإحصائي تخضع الى عوامل التباين وأخطاء القياس وفروق الأساليب والتعريفات، والعمل على اكتساب النفوذ السياسي والأقتصادي. وبالإضافة الى ذلك فإن البيانات الإحصائية كثيرا ما تتعرض للتحريف لتناسب تفسيرات معيّنة. فمن أجل التوصل الى تعميمات، يتم استخدام أداة بحث منهجية غير دقيقة.

يتبين من الجدول الإحصائي الثاني أعلاه أن الهند ونيجيريا والصين وإثيوبيا أدرجت بحق بين الدول الإسلامية الأكثر سكانا، بالرغم من أن مسلمي هذه الدول لا يشكلون الأغلبية المطلقة مقارنة بمجموع سكانها. ولم ترد في الجدول معلومة عما إذا كانت النسبة المئوية للنمو السكاني العام في تلك البلدان تنطبق على مواطنيها المسلمين أيضا.

ولم تدرج فيه بيانات عمّا إذا كانت قفزة النموالسكاني العددي تمثل نموا نوعيا في

مستوى المعيشة. فلا يستقرأ من الأرقام إلا القليل حول مستوى التعليم والظروف الإقتصادية والإجتماعية والمالية، وحول إرتباط الأفراد بالدين، وحول نفوذه الظاهر أو المستتر على الدولة والمجتمع، أو حتى فيما إذا كان الأمر يتعلق بديكتاتورية ذات طابع ديني.

إن تبدّل المركز القيادي الديموغرافي للديانات العالمية لم يسفر كذلك عن إبداء رد فعل رسمي من طرف الفاتيكان، إلا أنه زاد من حدة الوعي بالمشكلة لدى المسؤولين فيه، ومنهم رئيس الحبر الفخري فورمينتي، والأسقف الأعلى وزير داخلية الفاتيكان فيلوني، والأسقف الأعلى وزير خارجية الفاتيكان المسؤول عن العلاقات مع الدول مامبيرتي، والكاردينال رئيس وزراء حكومة الفاتيكان بيرتوني، أو حتى البابا نفسه.

كما امتنع عن التعليق أولئك الذين يتعاملون مع الشؤون الإسلامية بحكم مهام عملهم في حكومة الفاتيكان، وفي مقدمتهم الكاردينال جان ـ لويس تاوران، رئيس «المجلس البابوي للحوار بين الأديان» و«لجنة العلاقات الدينية مع المسلمين»، و«رئيس مكتب شؤون الإسلام»، أي رئيس قسم الإسلام في «المجلس» وهو الأردني المونسنيور خالد ب. عكشة.

الفصل الثالث

الدول الاسلامية ومنظمة المؤتمر الاسلامي – بيانات احصائية

تضمن البيان الشيوعي عام 1848م شعاراً نصه (يا عمال العالم اتحدوا!). ويعرف المتتبع للتاريخ مدى تأثيرهذا النداء المضمّن في هذا الشعار، حيث جرب المتضررون والمتعرضون للإذلال والاستغلال القيام بالثورة، التي كانت توجهاتها سوفيتية – بلشفية، أواشتراكية أو ديموقراطية اجتماعية.

في الآونة الراهنة تغير الشعار من حيث الجهة المقصودة بالدعوة الى توحيد صفوفها، دون ان يكون الكاثوليك معنيين به. فهم متوحدون الى حد ما مع البابا في روما أو تحت سلطته الدينية. واعتاد العالم في هذا السياق على ملّة خاضعة لسلطة البابا أو الكنيسة الكاثوليكية، وعدد أتباعها يزيد على مليار نسمة. لكن الأمر يتعلق منذ بضعة أعوام بالمسلمين، الذين يشكلون كما هو واضح ملّة مغايرة تماماً يتجاوز عدد أتباعها مليار نسمة ايضاً.

وتتمحور المسألة كذلك حول الإسلاميين، دعاة الإسلام السياسي، كونهم يعكسون صورة ذات طابع اكثر حدة مقارنة مع غيرهم من المسلمين.

كان بوسع المتابع لمجلة «إيما» الألمانية (النسائية المعروفة) أن يقرأ في عددها الصادرعن شهري آذار (مارس)/نيسان (أبريل) 2006م وبغرض التحذير ما مفاده (يا اسلاميِي العالم اتحدوا!).

واقتبست هذه المجلة المعروفة بالصراحة وعدم المجاملة في ما تنشره في اصرارها على مطالبة المسلمين بمراعاة حقوق المرأة، تلك الاقوال المعبرة عن ردود فعل الجامعة العربية في نطاق الخلاف على نشر الرسوم الكاريكاتورية للنبي محمد في صحيفة «جيلاندس بوستين» الدنماركية، وكان هدف المجلة كامناً في المطالبة بتشكيل جبهة متماسكة ضد استعراض القوة من قبل المسلمين، والتصدي لتهديداتهم. وفي هذا السياق عبرت أليسه شفارتسر رئيسة تحرير «إيما» عن ارتيابها ممن يستغلون الاسلام سياسياً، وعرّفتهم بأنهم

«جميع المسلمين الذين يسيئون استغلال الإسلام لأهداف سياسية ويتحملون المسؤولية عن الإنتشار الواسع للاضطرابات المتسارعة في الوصول الينا».

وقد ظهرت ردود من مثقفين مسلمين وغير مسلمين، حسب التعليق الذي نشر في مجلة «دير شبيجل» الالمانية في الثالث من آذار (مارس) 2006 م، متضمناً هذه العبارات: «بعد أن تجاوز العالم الفاشيين والقوميين الاشتراكيين والستالينيين فإنه يتعرض الآن الى تهديدات يشكّلها الاسلاميون الذين يمارسون اعمال العنف».

وهكذا تضمّن تعليق المجلة نداءً مفاده: «أيها المفكرون الأحرار، المعادون للاسلاميين في جميع بلدان العالم، اتحدوا».

يواجه المسلمون صعوبات مميزة في حالة سعيهم الى توحيد صفوفهم بصورة فعلية، ثم الحفاظ على وحدتهم لو تمكنوا من تحقيقها. ومع أن الإسلام يبدو منزلا جماعيا مستقرا للمسلمين، إلا أنّ بيت الله يضم مساكن كثيرة، وفقاً للمقولة الإنجيلية.

فمنظمة المؤتمر الاسلامي، التي أسست من اجل وحدة المسلمين، لم تزل بعيدة عن هدف تحولها الى فاتيكان الإسلام. وهي تفتقر إلى كل عوامل تحقيق هذا الهدف، مثل:

ـ الزمن: فهي حديثة التأسيس، حيث أسّست في الخامس والعشرين من أيلول (سبتمبر) 1969م في العاصمة المغربية.

تعليل مبدئي للتأسيس مقارنة بتأسيس الكنيسة وفقاً للمفهوم الكاثوليكي، المستند الى منح يسوع المسيح من الناصرة التكليف لبطرس (ومن يخلفه). اما السبب المباشر لتأسيس منظمة المؤتمر الإسلامي فيعود الى حرب الايام الستة بين اسرائيل والدول العربية 1967م، حيث أدت تلك الحرب الى وقوع المسجد الأقصى تحت الإحتلال الإسرائيلي، وهو حدث مهم في تطور الإسلام المعاصر. ولهذا فإن المنظمة حددت مهمتها الرئيسية في تحرير بيت المقدس، واستعادة المسجد الأقصى.

ـ المقر التاريخي للمنظمة: إتخذ وزراء خارجية الدول المتمتعة بعضوية المنظمة في اجتماعهم الذي عقد في شهر آذار (مارس) 1970م قراراً، يقضي بتشكيل أمانة عامة للمؤتمر في جدّة، حتى يتم تحرير القدس، وفقاً لما هو مقرر.

ـ الهيكلية الإدارية التراتبية على نحو يتيح المطالبة بأنظمة واضحة وترتيبات ملزمة.

ـ الزعيم في قمة القيادة كالبابا، الذي يمتلك مرجعية (عليا)، ويشرّع قوانين (دينية) بوصفه (سلطة تشريعية)، ويفرض تنفيذها (كسلطة تنفيذية)، ويقوم بصياغة احكامها (كسلطة قضائية).

وهكذا فان التوحد تحت سلطة زعيم وحيد ليس هو الذي ساد في منظمة المؤتمر الاسلامي، بل ان ما طغى وسيطر فيها هو تعدد آراء الدول المتمتعة بعضويتها ومصالحها. وعلى الرغم من ذلك فان المنظمة تدّعي لنفسها أحقية تمثيل العالم الاسلامي. ولم يتفق وزراء خارجية تلك الدول على أهم أهداف المنظمة إلا عبر لقائهم في شهر شباط (فبراير)1972م. والاهداف المقصودة هي :

– دعم التضامن الإسلامي والتعاون بين الدول ذات العضوية، في الميادين السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية والعلمية.

– تدعيم كافة المساعي والجهود الرامية الى ضمان الحفاظ على كرامة المسلمين، وضمان استقلال بلدانهم وحقوقهم الوطنية.

– حماية المقدسات الاسلامية في فلسطين ومساعدة الفلسطينين على تحرير أراضيهم المحتلة. واعربت منظمة المؤتمر الاسلامي عن رغبتها في إنهاء كافة اشكال التمييز العنصري والاستعمار، مع دعم متطلبات التعاون والتفاهم بين دول المنظمة والدول الأخرى. لقد انتهى المؤتمر التاسع عشر لوزراء خارجية دول المنظمة الذي عقد عام 1990م في القاهرة بالموافقة على اعتبار بيان حقوق الانسان في الاسلام منهاجاً تسترشد به هذه الدول.

ومع ذلك فان المادتين الرابعة والعشرين والخامسة العشرين من البيان تضمنتا أن الشريعة الإسلامية هي الأساس الوحيد لتفسير البيان بطريقة مشروعة.

ولذلك رأى بعض النقاد أن البيان المذكور يلحق الضرر بصلاحية الميثاق العام لحقوق الانسان، الذي صدر عن الجمعية العامة للامم المتحدة عام 1948م، ناهيك عن انه يلغي صلاحية الميثاق في نقاط هامة.

لكن الميثاق الجديد الذي صدرعام 2008م يتضمن مطالبة كل بلد من البلدان ذات

العضوية في المنظمة الدولية بالعمل على الصعيد الوطني والدولي على دعم قضايا الديموقراطية وحقوق الإنسان والحريات الأساسية، وانظمة دولة القانون، بالإضافة الى المطالبة بالتحلي بالوعي والمسؤولية في تسيير امور الحكم.

البلدان المتمتعة بعضوية منظمة المؤتمر الاسلامي

(منذ تأسيسها عام 1969م، مع ادراج سنة الانضمام اذا كانت معروفة)

اسم البلد (سنة الانضمام)	عدد السكان (بالملايين)	النسبة المئوية للمسلمين
أفغانستان	26،0	99
مصر	74،1	80
ألبانيا (1992)	3،1	70
الجزائر	33،3	99
أذربيجان (1992)	8،4	90
البحرين	0،739	81
بنغلاديش (1974)	155،9	89
بنين (1983)	8،7	24،4
بروناي	0،382	67
بوركينا فاسو (1974)	14،3	30
ساحل العاج (2001)	18،9	40
جيبوتي (1978)	0،819	100
الغابون (1998)	1،3	5
غامبيا (1974)	1،6	85
غينيا	9،1	85

غينيا ـ بيساو (1974)	1،6	50
غويانا (1998)	0،739	7
إندونيسيا	223،04	88
إيران	70،09	99،6
العراق (1975)	28،5	95
اليمن	21،7	99
الأردن	5،5	92
الكاميرون (1974)	18،1	22
كازاخستان (1995)	15،3	65
قطر (1972)	0،821	77
قرغيزستان (1992)	5،19	75
جزر القمر (1976)	0،614	99
الكويت	2،59	99
لبنان	4،05	50
ليبيا	6،03	79
ماليزيا	26،1	60،5
جزر المالاديف (1976)	0،3	99،9
مالي	11،9	80
المغرب	30،4	99
موريتانيا	3،0	99
موزمبيق (1994)	20،9	18
النيجر	13،7	95
نيجيريا (1986)	144،7	50
عمان (1972)	2،5	75

باكستان	159	95
مناطق السلطة الفلسطينية (ليس معترفا بها كدولة)	3،7	83
المملكة العربية السعودية	23،6	98
السنغال	12،0	94،5
سيراليون (1972)	5،7	60
الصومال	8،4	99،8
السودان	37،7	70
سورينام (1996)	0،455	13
سوريا (1972)	19،4	72
طاجيكستان (1992)	6،6	85
توغو (1997)	6،4	20 – 15
تشاد	10،4	54
تونس	10،12	99
تركيا	72،9	99
تركمانستان (1992)	4،8	90
أوغندا (1974)	29،8	12
أوزبيكستان (1996)	26،5	90
الإمارات العربية المتحدة (1972)	4،2	96

حسب البيانات الواردة في الدليل الألماني العالمي «فيشر فيلت المناخ/ 2009م»

وبهذا يتكون الترتيب التالي للبلدان حسب نسبة المسلمين المئوية فيها:

إسم البلد	النسبة المئوية للمسلمين
الصومال	100
موريتانيا	99،9
جزر المالاديف	99،9
جمهورية الصحراء الغربية (غير معترف بها دوليا)	99،8
تركيا	99
إيران	99
الجزائر	99
أفغانستان	99
اليمن	99
تونس	99
عمان	99
جزر القمر	99
جيبوتي	99
المغرب	98،7
العراق	97
ليبيا	97
الباكستان	96،35
المملكة العربية السعودية	95،7
طاجيكستان	95
الأردن	95

قطر	95
السنغال	94
أذربيجان	93،4
مصر	91
مالي	90
النيجر	90
غامبيا	90
أوزبيكستان	89
تركمانستان	89
إندونيسيا	88،22
بنغلاديش	88
سوريا	88
غينيا	85
الكويت	85
البحرين	85
فلسطين	84
قرغيزستان	80
الإمارات العربية المتحدة	76
لبنان	70
ألبانيا	70
بروناي	67
السودان	65
ماليزيا	60،4
سيراليون	60

بوركينا فاسو	55
تشاد	54
نيجيريا	50
إريتريا	50
إثيوبيا	47،5
كازاخستان	47
البوسنة والهرسك	40 – 55
ساحل العاج	38،6
غينيا بيساو	38
تنزانيا	35
مقدونيا	30
سورينام	22
صربيا والجبل الأسود	21
موزامبيق	20
الكاميرون	20
مالاوي	20

أما الدول التي تتمتع بصفة العضو المراقب في منظمة المؤتمر الإسلامي فهي:

إسم البلد (سنة الإنضمام)	عدد السكان (بالملايين)	النسبة المئوية للمسلمين
البوسنة والهرسك (1994)	3،9	48
روسيا (2005)	142،5	14
تايلاند (1998)	63،4	4،6

شمال قبرص (1979، بإعتباره كيانا سياسيا للقبارصة المسلمين، إلا أن الاعتراف به عام 2004 كدولة مستقلة لم يتم سوى من قبل تركيا)	0،211	---
جمهورية إفريقيا الوسطى (1997)	4،26	15

بيانات الجدولين الإحصائيين الأخيرين مقتبسة من الدليل الألماني العالمي(فيشر فيلت المناخ/ 2009م)، ومن مصادر منظمة المؤتمر الاسلامي، ولهذا فانها تختلف جزئيا عما أدرج في الجدول السابق لهما.

وبناء على ذلك يمكن أن نصنف بشكل جوهري أربع مجموعات من دول ذات نسب متفاوتة من السكان المسلمين:

المجموعة الأولى هي التي يشكل المسلمون فيها ما يزيد على نسبة 90٪ من مجموع سكانها، وهم يستطيعون أن يضعوا أسس التعايش المدني ويحددونها عادة وفقا للشريعة الإسلامية بشكل تام. وفي تلك الحالة تكون الأقلية غير المسلمة خاضعة للمسلمين وبحاجة ماسة الى رضاهم وصداقتهم، طبقا لما هو منصوص عليه في القرآن الكريم. و**المجموعة الثانية** تضم تلك الدول التي تقل نسبة المسلمين فيها عن 90٪ من مجموع السكان، مما يمّكن الأقليات من اكتساب أهمية أكبر في الدول المعنية، كما هو الحال في إندونيسيا مثلا.

ولا شك بأن المسلمين في بلدان هذه المجموعة يستطيعون أن يلقوا بثقلهم الهائل في الميزان، لكنّهم يضطرون الى مراعاة الأقليات والمجموعات الدينية المختلطة في بعض الظروف، كتلك التي تنظم شؤون أفرادها وحياتها الإجتماعية خارج نطاق الشريعة الإسلامية.

وفي دول **المجموعة الثالثة** يكون المسلمون مجبرين على الإنطلاق من الظروف الأولية لأقلية من الأقليات كي يشكلوا نمط التعايش مع أغلبية تنتمي الى ديانة أخرى. ومن الممكن متابعة ما ينجم عن ذلك منذ العقود الزمنية الثلاثة الأخيرة بخصوص أزمات وحالات توتر ومحاولات للتوصل الى حلول للمشاكل في شبه القارة الهندية، وما يجاورها في

الشرق والغرب (في الدول الثلاث: الهند وباكستان وبنغلاديش).

في ختام طرحنا هذا نذكر أن بلدان **المجموعة الرابعة** هي التي يتزايد عدد المسلمين فيها عبر الهجرة، إلا أنهم ما زالوا يشكلون فيها نسبة تقل عن 10٪ من مجموع السكان. ولمعظم البلدان هذه كما هو الحال في أوروبا أنظمة ديموقراطية ومجتمعات تعددية، يتاح للمسلمين فيها اكتساب مزايا عبر تمتعهم بالحقوق الممنوحة الى الأقليات. وفي الوقت نفسه يطلب منهم أن يتكيفوا في مسلكياتهم كمواطنين مع ما هو سائد في المجتمعات المدنية المنفتحة للبلدان المشار اليها.

وهكذا فإن المسيحيين يقفون أمام مهمة تتطلب منهم التفكير وإعادة النظر في جذب ممثلي الثقافة المهيمنة المستندة الى جذور مسيحية كي يشاركوا في إجراء حوار مع المسلمين.



الفصل الرابع

وضع المشكلة الراهن – أعباء تاريخية وأسس السياسة البابوية

فنون وتقارير بين عامي 848 و1683م

يمر معظم الناس بمتاحف الفاتيكان عادة دون انتباه، حيث انهم يرون ماهو أكثر أهمية وأبدع فنا من مشهدي المعركتين اللتين تتماثلان امام أعين المارين، وهم في طريقهم الى الزوايا المثبتة فيها تحف روفائيل الفنية الملهمة الرائعة، والى القاعة السيكستينية التي تعرض فيها روائع اعمال ميخائيل انجلو الفنية. لكنّ مشاهد الحروب لم تصل الى القصر الرئيسي للبابا مصادفة بل انها جلبت اليه بتكليف صريح من اصحاب الشأن المحيطين بقداسته.

فلم تتسم نظرة المعنيين لدى الفاتيكان الى التاريخ والى ما يتضمنه من العلاقة بين المسيحية والاسلام بالاستهتار والنسيان مطلقاً، بل إن هنالك توجهاً صادقاً للإبقاء على الأحداث التاريخية محفورة في الذاكرة عبر الأجيال، وفي نطاق التقاليد المتبعة لدى الدوائر الرسمية، وضمن الطقوس الكنسية عبر مئات السنين. وهنا يكمن السبب المباشر لمعطيات الرغبة في تخليد الذكرى عن طريق عرض تحفة فنية. ومن الممكن بناء على ذلك ان يتمتع الفاتيكان بأقوى ذاكرة للعالم منذ الفي سنة، نظراً لما يحتفظ به من روايات عن أحداث تاريخية متتابعة بدون ثغرات، ولما يقتنيه في أرشيفه من تحف فنية معبرة عن تلك الاحداث.

كان البابا ليو العاشر (1513 ـ 1521م) المنتمي الى عائلة ميديتشي من مدينة فلورنسا الشهيرة بمصارفها وفنونها على رأس الكنيسة الكاثوليكية في عصر النهضة. وقد احتفظ لنفسه في بداية القرن السادس عشر الحافل بالإضطرابات باسم قداسة البابا ليو السادس الذي عاش في ظلمات القرن التاسع، رغبة في الإحتفاء باسمه وتخليد انتصاره الباهر على القراصنة المسلمين في المعركة البحرية في موقع أوستيا وهو ميناء روما البحري، مخلداً ذكرى ذلك الانتصار في قاعة «انسينديو»، وهو ما يعبرعن برنامج توجهات البابا ليو العاشر، في الوقت الذي تعرضت فيه روما الى اوضاع حرجة.

فالحركات الاصلاحية في الكنيسة أدت الى ممارسة الضغط على اصحاب الحل والعقد من المحيطين بالبابا، كما ان العثمانيين شكلوا تهديداً للعالم الغربي بعد سقوط القسطنطينية بأيديهم في نهاية شهر أيار (مايو) من عام 1453م، مما ادى الى انهيار الامبرطورية البيزنطية.

إن التفكير الذي ساد في روما إذن وما يزال سائداً فيها يتضمن أن الدين الاسلامي هو المسؤول عن بداية العداء بين الكنيسة والمسجد، و أنه هو الذي نمّا هذا العداء على الدوام، وأن الديانة المسيحية لم تكن هي البادئة. فبعد ظهور النبي محمد في شبه الجزيرة العربية اتسعت رقعة دعوته الدينية الجديدة بدءا من القرن الميلادي السابع لتمتد حول مناطق حوض البحر الابيض المتوسط عبر اسبانيا وفرنسا.

لكن القوات الاسلامية هُزمت عام 732م في المعركة التي نشبت على مقربة من تور وبواتيه، [وهي المعروفة في التاريخ الإسلامي بمعركة بلاط الشهداء].

وانتصر فيها القائد الإفرنجي كارل مارتيل، مما اجبرها على التراجع وراء جبال البرانيس. وفي شهر آب (أغسطس) عام 846م تحرك قراصنة مسلمون بوحدات بحرية جيدة التنظيم بأتجاه روما، وأثاروا الفزع والهلع في صفوف معتنقي الديانة المسيحية في العالم الغربي، من خلال انتهاكهم أسوار حرمة كنيستي القديسين الرسوليين الكبيرين وهما: القديس بولص والقديس بطرس، ونهبهم ما تجمّع هناك من الكنوز خلال الخمسمائة عام الماضية.

حينذاك استنجد البابا ليو السادس (847–855م) بمدن «أمالفي» و«نابولي» و«جيتا» البحرية وادّى صلاة نصها: «يارب امنح القوة لهؤلاء المؤمنين الذين يقارعون أعداء كنيستك، فالنصر المحقق من عندك هو مكرس لتمجيد اسمك المبارك بين جميع الشعوب». وقد أدت هذه الصلاة الى وقف إعصار عصف بسفن القراصنة المسلمين، وكان تأثيره اقل ضرراً في صفوف المقاتلين البابويين.

وبالإضافة الى ذلك فان البابا قام ببناء سور على شكل حصن منيع هائل يحيط بالفاتيكان، مستعينا بمساعدات من جميع أنحاء غرب أوروبا. ولم يزل هذا السور المنسوب في تسميته الى البابا ليو قائماً حول مناطق الفاتيكان الكنسية الصغيرة حتى يومنا هذا. وتضاف الى

هذه الذكرى التاريخية الطيبة معلومات أخرى بصرف النظر عن العبارات الايديولوجية التي تنم عن ضيق الافق: فالفتوحات تحت لواء الهلال الاسلامي استغرقت زمناً اطول بكثير مما استغرقته حملات الحروب الصليبية المنطلقة من العالم الغربي، وتوّجت بنجاح دائم لصالح الاسلام، على العكس مما تحقق من نتائج الحملات تحت لواء الصليب.

والبلدان المحيطة بالبحر الابيض المتوسط أصبحت خلال فترة انهيار الامبرطورية الرومانية الغربية تابعة لليونان وكانت شعوبها تعتنق الديانة المسيحية ابان الحقبة الممتدة ما بين نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين، اي خلال الفترة الزمنية التي كان فيها الإسلام على وشك الظهور. والبلدان التي قصدت بذلك هي الممتدة ما بين جبل طارق الذي كان يسمى بأعمدة هرقل، وبين صحاري الجزيرة العربية، عبر آسيا الصغرى، تركيا الحالية، ومنطقة البحر الاسود. ولم ينس الناس تحت سلطة اسقف روما شيئاً من هذه الوقائع التاريخية .

الثأر ليس هو الهدف

يلاحظ ان المناطق الكنيسيَّة الإفريقية والأسيوية الموغلة في القدم لم تزل مدرجة في كتاب البابا الرسمي السنوي كمقارّ لأسقفيات إضافية، غير أن مسألة الإدراج هذه لا تعبّر سوى عن بقية من التاريخ الكنسي ذات الاهمية، التي ينبغي عدم التقليل من شأنها. وقد استولى المسلمون على تلك الأسقفيات في المناطق المذكورة من العالم الغربي، بسبب استمرار ضعفه لمئات السنين في بداية مراحل التاريخ الوسيط.

وهكذا انشئت مساجد في مقار الاسقفيات التي كانت تابعة للأسلاف من بناة كنائس الديانة المسيحية في اوائل عهدها. إذن فإن اتباع النبي محمد هم الذين استولوا على الاسقفيات التاريحية القديمة للكنيسة الكاثولكية، مشكّلين وقائع لم يطوها النسيان في اوساط الفاتيكان. وهذا يعني ان حملات الحروب الصليبية ليست هي التي شكلت بدء «الحوار» المسيحي -الاسلامي، بل إن ما شكّل علاقة البدء كان احتلال مناطق مسيحية من قبل محاربين مسلمين.

من البديهي أن الأساقفة ورؤساء الأساقفة الاسميين لاتتملكهم مزاجية الرغبة في الثأر واستعادة الاوضاع الدينية الروحية في هذه المناطق، ولكن المسألة تتعلق الى درجة معينة بدافع حب الاستطلاع لديهم.

فمن هذا المنطلق مثلاً، سافر الاسقف الألماني عضو حكومة الفاتيكان يوسف كليمينس الى اسقفية (هنشير العرات) المفترضة تاريخياً في تونس، وفقا لما ذكره بنفسه وهو في حالة استرخاء تام في نطاق حديث اجري معه، بعد تسلم يوحنا بولص الثاني مهام البابا (بتاريخ 25 تشرين الثاني (نوفمبر) 2003م، وبعد اجراء مراسيم التبرك لسفره بواسطة الكاردينال يوسف راتسينجر(يوم السادس من كانون الثاني (يناير) 2003) م.

ومن المحتمل ان كليمينس احس ببعض الحنين الى الايام الخوالي، ولكنه تذكر بدرجة اكبر حسب قوله ذلك الحديث الودي مع المثقفين هناك، وعلى سبيل المثال مع مديرة المتحف التي تركت في نفسه انطباعاً جيداً بفضل صراحتها الخالية من الشكوك. وعلى اية حال فإن التاريخ المسيحي لتونس مُغرِقٌ في القدم.

ويروى رئيس الاساقفة الالماني ايرفين إندر، الذي خدم لسنوات طويلة في السلك الدبلوماسي للكرسي الرسولي، طرفة تعود الى تشابه التسميات، ففي أثناء عمله الدبلوماسي عيّن أسقفا لأبرشية جرمانيا في منطقة نوميديا، الواقعة في اراضي الدولة التونسية حالياً، وانه شغل مابين عامي 2003—2007م منصب سفير للفاتيكان لدى دولة تحمل نفس الإسم «جرمانيا» وهي المانيا.

وعلق على ذلك من مقر اقامته في ضاحية كرويتسبيرج في العاصمة الألمانية برلين، قائلاً بأن مفارقة تكليفه بمهام ذات صلة بمنطقتين تحملان نفس الاسم انما هي بمثابة تداخل مفاجئ في وقائع مقدرة بعناية ربانية مسبقة.

ولكنه ألمح الى عدم تفكيره ولو بالأحلام في استعادة تلك الأبرشية، التي كانت تتمتع بحالة من الإزدهار في عهد المعلم الكنسي «اوغستينوس»، خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، لانه لايريد ان يتصرف وفقاً لما يفعله الأساقفة في حالات أخرى عندما يتسلمون مهام ادارة مناطق اختصاص صلاحياتهم الكنسية. وفيما يتعلق بالعبارات الطنانة الدارجة

عن «الإسلام» و»المسلمين» فإن رئيس الأساقفة «إندر» يعود بذاكرته الى الفترة ما بين عامي 1990 و1997م، حيث كان خلالها سفيراً للبابا في الخرطوم، معبراً عن حزنه وتأملاته الفكرية العميقة، بشأن المشاكل الهائلة ومايعانيه المسيحيون والمسلمون، تحت وطأة ماتبدى له من الضغط على كاهلهم، نتيجة للأوضاع المتردية هناك.

صلاة وانتصار

كان البابا ليو الثالث عشر(1878–1903م) هو الذي اراد الإحتفال مجدداً بالإنتصار الحاسم على المسلمين وتخليده، بعد مضي مئتي سنة على هزيمة الاتراك في معركة كالينبيرج على ابواب فيينا بتاريخ 12 ايلول(سبتمبر) 1683م. ففي ذلك الحين شكل البابا إينوسنس الحادي عشر (1776–1689م) تحالفاً مسيحياً لا تقتصر اهدافه على مجابهة العثمانيين، بل كان يستهدف التصدي الى لوديفيج الرابع عشرأيضاً، الذي كان بدوره يريد اضعاف أسرة هابسبورغ الحاكمة في النمسا.

وبعد انسحاب الاتراك أعرب البابا إينوسنس في دعائه عن الشكر الى الرب قائلاً: «يارب انك ضربت العدو بيمينك». وعزا آخرون سبب الإنتصار على العثمانيين الى تدخل السيدة مريم، فبنوا لتمجيدها كنيستين جميلتين في روما وهما كنيسة «سانتاماريا ديلا فيكتوريا»على مقربة من حمامات «ديوكليتيان»، وكنيسة «نومه دي ماريا» بمحاذاة ميدان «تراجان».

وعُزي الفضل في قهر قوات الحصار العثماني الى الجدارة العسكرية، التي تمتع بها ملك بولندا جان سوبيسكي، كونه قائداً للجيش الذي خاض المعركة. ومن هذا المنطلق كلف الرسام البولندي «جان الويس ماتيجكو» بعد الحدث بمئتي سنة برسم لوحة تذكارية ضخمة لتعرض في القاعة الثانية، امام الركن الذي ثبتت فيه تحف روفائيل الفنية الرائعة. وكان الهدف من كل ذلك هوالإصرارعلى عدم النسيان مطلقاً، بأنه قد جرى صدّ المسلمين عن اقتحام أوروبا في ذلك الحين . وقد بدأ من فييّنا عاصمة النمسا عام 1663 إنهيار القوة السياسية للإسلام ونهوض القوى الأوروبية، ليمتد هذا الإنهيار الى مناطق

إسلامية أساسية.

لماذا يهتم الناس في روما بالذكرى ويعتنون بها؟، يعود السبب الاول الى ان اهل روما كانوا يتصرفون كما يجري في الكثير من المدن الخالدة، وفقاً لما تعلموه منها منذ العصور القديمة. ومن المؤكد ان السبب الثاني يعود في ضوء اعترافات الفاتيكان في الآونة الراهنة الى وجوب اعادة النظرفي الاحداث التاريخية، كي لا ينحصر التركيزعلى حملات الحروب الصليبية عندما يحتدم الشعوربالغضب. وربما يكمن سبب آخر في متابعة التعلم من التاريخ توخياً للحذر بدرجة اكبر، قبل توجيه الإتهام بالعدوانية الى الأديان.

وقد بدأت القوى الأوربية الكبرى حركة الاستعمار في القرن الثامن عشر، وهو القرن الذي دأب فيه معلمو التنوير الاوروبيون الكبار على تقديم المواعظ والإقتراحات الداعية الى التسامح، وتبنيهم طروحات مفادها: «أنّ الدين الحقيقي الصحيح ماهو إلا القبول بالتعامل الإنساني المجرد». وفي هذا السياق وعلى ضوء حركة التنوير فقد ترك الانجليز والفرنسيون عند العرب بالذات آثاراً تنويرية واضحة في المجالات الحضارية.

لهذا فإن مؤرخي روما الكنسيين من امثال رئيس اللجنة البابوية لعلوم التاريخ «فالتر براندمولر»، ليسوا بمستعدين الى القبول بالتوضيح المتضمن، بأن اسباب التوتر بين الشعوب المسيحية والاسلامية تعود الى الصراع بين الديانتين.

وهم يبررون تحفظاتهم من خلال الإشارة الى أن أصحاب سياسة القوة ينزعون في بعض الاحيان الى تلميع صورة تلك السياسة عبر ترصيعها بزخارف وابعاد دينية. لقد رفضت الكنيسة في المجمع الثاني للفاتيكان بوضوح طروحات تصادم الديانات الواردة في النظرية السائدة لدى بعض الأوساط الثقافية، وفي ايديولوجية سياسة القوة.

ومن الجدير ذكره أن ماورد في بيان المجمع حول الديانات غير المسيحية والحرية الدينية ادى الى تعليق اهمية بالغة على الحوار، ومنحه مرتبة عليا ضمن الاهداف التي يتابعها المسيحيون. ويلتزم بذلك الباباوات والاساقفة وجميع اتباع الكنيسة الكاثوليكية، بإستثناء عدد قليل من الاصوليين الكاثوليك.

سكرتارية للمجلس الخاص بغير المسيحيين وبالحوار بين الأديان

لم تقتصر التطورات على مجرد بيانات احتفالية، ففي شهر أيار (مايو) عام 1964م قام بولص السادس بتأسيس «سكرتارية لغير المسيحيين» بغرض متابعة علاقات الكنيسة الكاثولكية بالديانات العالمية والتجمعات الدينية الأخرى. وفي عام 1988م اسس يوحنا بولص الثاني من هذه السكرتارية «مجلساً للحوار بين الاديان».

وكانت لقاءات البابا مع ممثلي الديانات العالمية من اجل الصلاة المشتركة أمرا مثيراً في بادئ الأمر، علماً بأن اللقاء الاول من هذا النوع أجري سنة 1986م بمدينة «اسيسي» الصغيرة في مقاطعة أومبريا الايطالية، موطن فرانسيسكو فون أسيسي داعية السلام. وبعد ذلك اصبحت تلك اللقاءات مقنعة من حيث جدواها لكل المشاركين فيها. وهكذا فإن الكنيسة لم تباشر إجراء الحوار مع الإسلام منذ الفترة التي انبثق فيها ارهاب عالمي من الفكر الإسلامي المتطرف، بل إنها بدأت بإجرائه قبل تلك الفترة.

لم يكن بولص السادس متحرراً من مخاوف التواصل مع المسلمين، غير انه سعى الى تجاوز مخاوفه وبذل جهده ليبدو رابط الجأش عند لقائه مع مسلمين في نطاق زياراته العالمية. اما البابا يوحنا بولص الثاني فلم يعرف الخوف على هذا الصعيد، وعلاوة على ذلك فانه تمتع بإدراك ووعي متزن للتاريخ. وقد اوصلته رحلته الرابعة خارج ايطاليا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1979م إلى تركيا، التي يشكل المسلمون فيها (نسبة 99٪ من مجموع سكانها).

وبعد محاولة اغتيال هذا البابا في شهر أيار(مايو) 1981م علم ان زيارته الى تركيا العلمانية رسمياً واللصيقة بموروثها الإسلامي أثارت موجات استياء عديدة، الى درجة أن احد المتطرفين واسمه «علي اكجا» عبّر علانية عن نواياه في قتل البابا، وهذا ماحاول فعله بعد عام ونصف من تاريخ الزيارة.

في شهر شباط (يناير)عام 1982م كان على يوحنا بولص الثاني خلال زيارته الى نيجيريا، التي يشكل سكانها مزيجاً من المسيحيين والمسلمين، أن يعلم بأن ممثلي السكان من رجال الدين المسلمين شمال «كادونا» يرفضون لقاءه واجراء حوار معه، مما جعله مشغول الفكر

دون أن يحول موقفهم هذا دون استمراره في زيارة بلدان اسلامية، ولقاء رجال دين مسلمين في كل مكان .

لقد عمل يوحنا بولص الثاني الكثير من أجل معالجة موضوع الخلافات بين الديانتين المسيحية والاسلامية عبر قنوات تصب في ميدان اطلاق منافسة سلمية لصالح الانسان والبشرية، بصرف النظر عن الاعتقاد هنا وهناك بأن عيسى المسيح هو ابن الله، وأن محمداً هو نبي الله.

ومنذ ذلك الحين حدَد الفاتيكان نهجاً هادفا لتخفيف حدة التنافس بين الثقافات والاديان عن طريق الحوار، بحيث يتم التعبيرعن هذا النهج في نطاق التصريحات الدبلوماسية والبابوية على حد سواء. لقد وافق كل من البابا بولص السادس والبابا يوحنا بولص الثاني حتى على بناء مسجد في روما، وهو اكبر مساجد أوروبا. وبالمقابل فلو تم بناء كاتدرائية مسيحية في مكة، لأدى ذلك في الأغلب إلى اندلاع اضطرابات في العالم الاسلامي، فالمسلمون يرون بأن مجرد المناقشة حول مسألة متخيلة كهذه هو تدنيس للمقدسات وتجديف بالذات الالهية.

ولهذا لم يستطع الفاتيكان خلال أمد زمني طويل سوى اجراء حوار عبر قنوات صغيرة مع ارساله إشارة ودية: وذلك من خلال توجيه رسالة تحيّة بدون لمز الى الاصدقاء المسلمين الاحباء من قبل «مجلس الحوار بين الاديان» في نهاية شهر رمضان، وعبر كلمات الاحترام الواردة على لسان البابا في المناسبات.

اجل، لكن هنالك شبكة عمل أرسيت دعائمها من أجل الحوار مع اطراف بوصفها «مرجعيات للاسلام» مع اختيار اسلوب متميز بتجنب الصخب العلني والإثارة أو لفت الانتباه، حيث ان رئيس قسم الشؤون الاسلامية في المجلس المذكور خالد ب. عكشة يعلق اهمية على هذا الاسلوب.

ولا يرى الفاتيكان ضمن هذه المعطيات وجوداً للاسلام بمعنى التعريف الشمولي الموحد، فالإسلام يفتقر وفقاً لتلك الرؤية حتى الى نظام عقيدة فلسفي – لاهوتي، لانه يحمل في بنيته مثل الديانة المسيحية كثيراً من المضامين المتباينة.

إن الاسلام هو الدين العالمي الكبير الذي نشره النبي محمد [عليه الصلاة والسلام] في القرن السابع الميلادي، ويبلغ عدد معتنقيه الذين يعيشون في كثير من بلدان العالم حوالي 1،2 مليار نسمة.

ومن المطلوب النظر بدقة الى الدين الاسلامي المنتشر بشكل رئيسي في نطاق الحزام الجغرافي للدول الواقعة بين المغرب واندونيسيا، كما انه أخذ ينتشر في هذه الاثناء داخل اوروبا ايضاً.

ليس لدى المسلمين نظام بابوي

المسلمون كثيرو العدد كالكاثوليك، ومع ذلك فليس لهم بابا. وهذا يعني عند مراعاة ما يفكر به خالد عكشة أنه ليس في وسع اي بابا كاثوليكي ان يتوجه الى نظير له لدى المسلمين للطلب منه خطياً أو كتابيا تنبيه المتطرفين بين صفوفهم الى وجوب عدم الخضوع للأصولية أو الإنصياع الى التفسيرالتعسفي الحرفي لبعض نصوص التنزيل، وإلى تحديد الأولوية على رفضهم للعنف واستخدامه كوسيلة لحلَ أزمات الصراع. لقد دأب البابوات باستمرارعلى مطالبة قادة الملل الدينية الاخرى بإقناع أتباعهم من أنَ استخدام وسائل العنف يعد ممارسة غير انسانية ومخالفة لأمر الله.

وفي كثير من الاحيان كان على المعنيين في روما أن يدركوا بالخبرة بأن موضوع الإستعداد للحوار يعكس الحد الاقصى من خلافات الرأي في الجانب الاسلامي.

كان يوحنا بولص الثاني هو اول الباباوات، الذين زاروا المسجد الأقصى، فقد قام في شهر أيار (مايو) سنة 2001م بزيارة دمشق والصلاة مع قادة مسلمين في المسجد الاموي، فعُدّ ذلك حدثاً تاريخياً اكتسب البابا بفضله اعتراف العالم الاسلامي. وتضاعفت المزية لصالح يوحنا بولص الثاني عندما جاهر بمعارضته للحرب التي شنتها الولايات المتحدة الامريكية ضد العراق، معبّرا عن معارضته لها بشكل متكرر. وهكذا فلم تقيّم مجريات الامور كأنها حروب صليبية من الجهة الاولى، ولم تعتبر ممارسات التصدي للحروب بأنها واجبات جهاد مقدس من الجهة الاخرى.

الانتشار السلمي للديانة المسيحية

ان اول ما يشكل اساس السياسة البابوية يتمثل في رسالة الديانة المسيحية بخصوص الدعوة الى حب الاعداء والاقربين، بما يتطابق مع كيفية الإنتشار السلمي لها خلال القرون الزمنية الاولى، وفقا لتوصيات يسوع المسيح، وهذا هو الطرح الذي يركز مجلس الحوار بين الاديان على تاكيده دائماً. فقد ورد في الآيتين 19 و 20 من الإصحاح 28 في إنجيل متى: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والإبن والروح القدس. وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به...»

اذن فان من الملاحظ خلو نص الآيتين من اي حديث عن الدعوة الى العنف. وبالاضافة الى ذلك فإن التاكيد الحازم لهذا الطرح يتمثل في القناعة المستندة الى المنظور الفلسفي بأن العنف غير مناسب لتسوية الأزمات، لا بين الشعوب ولا بين الناس.

ولهذا فلا بد من الإجماع على مواجهته الحاسمة بالرفض القاطع. ولكن المعنيين في الفاتيكان يعبرون دائماً عن قلقهم، مشيرين الى ان الاسلام دين ودولة، اي انه يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية، بين السياسة والديانة، بصرف النظر عن وجود تفاوت على هذا الصعيد بين الدول الاسلامية. وهم يرون ان هذا الوضع متناقض مع المفاهيم المسيحية والدروس التاريخية المستوعبة في اوروبا.

كان على البابا يوحنا بولص الثاني في بادئ الامر ان يتعلم تحديد الفرق بين الديانتين في هذا المجال بدقة اكبر: وفقاً للإستنتاج الذي توصلت اليه شخصياً اثناء انعقاد حلقة دراسية صيفية في مقر البابا بقصر «جاندولفو» على مقربة من روما.

وشارك عدد من علماء الأديان الهامة من كافة انحاء العالم في تلك الحلقة التي اتيح لي معايشة مجرياتها. ويستقرأ من تحليل الفاتيكان ان الطرف الاضعف سياسياً يعزّي نفسه في نطاق مواجهته للطرف المتفوق عليه بامكانية التعويض عن ضعفه، عبرالإفراط في التدين والايديولوجيا.

ولهذا فإن الغرب (الذي لايستند في توجهاته الى التعاليم الدينية بل الى نظام الاغلبية)

يشكل من خلال التصورات الليبرالية الديموقراطية السائدة في بلدانه ما يشبه الكيان المعادي للدولة ذات الطابع الاسلامي. فالقادة الدينيون المسلمون يشعرون بأنهم يحشرون في الزاوية، وبأن النظام الاسلامي بكامله يتعرض الى التهديد بتأثير الافكار الغربية، وفقاً لما يستقى من اوساط وزارات حكومة الفاتيكان. لذا فان المضمون الاساسي لما يوصي به دبلوماسيوها يتمحور عموماً حول: عدم التلفظ بعبارات مضادة للاسلام إطلاقا، وتحويل مجرى الحديث من البداية عندما يتم التطرق فيه الى الصراع بين الحضارات والأديان.

وفي هذا السياق عبّر الكاردينال الايطالي مارتينو الذي يشغل منصب مدير مجلس الفاتيكان «لشؤون العدالة والسلام» عن وجهة نظره في موضوع الصدام، موضحاً وجوب التفريق في المضمون حينما قال: بأن «الصدام يحدث داخل كل حضارة»، وان الديانات العالمية والثقافات الكبرى ليست هي التي تتصادم، ففي نطاق التصادم الداخلي للمدنية الواحدة تقع مجابهات بين معتدلين ومتطرفين.

ويرى الكاردينال ان مكافحة الارهاب تعد بمثابة «حرب عالمية رابعة» بعد ان كانت الحرب الباردة هي الثالثة.

وقد استطاع ان يدعم تقييمه هذا عبر خبرات تمتد الى اربعين سنة، حيث تجول في انحاء العالم في نطاق خدمته للكنيسة الكاثوليكية، كما انه كان منتدباً من الفاتيكان ممثلا بصفة مراقب في هيئة الامم المتحدة في نيويورك. وتطرق في حديث له الى ردود فعل اسلامية على موقف البابا، فقال: «جاءت الى الفاتيكان وفود من بلدان اسلامية مختلفة، لتعبّرعن شكرها للبابا على جهوده من اجل السلام وعلى نزعه فتيل هذه القنبلة المريعة، التي تشكلها مقولة (الصراع بين الحضارات).

تفاؤل واطمئنان رغم الصعوبات

يدرك المسؤولون في مجلس الحوار بين الاديان وفي «اللجنة الخاصة للعلاقات الدينية مع المسلمين» مدى صعوبة النقاش مع المسلمين. ومن الممكن محاولة التوصل معهم الى تفاهم حول الاسس العامة للسلام والمصالحة كما يحدث في لقاءات دورية منتظمة،

وكما تفعل «جمعية سانت ايجيديو» وهي حركة دولية لملتزمين كاثوليك، تتخذ من وسط مدينة روما مقرا لها.

ولكن من المعروف منذ أمد زمني بعيد أن من غير المستطاع التوصل مع المسلمين الى تفاهمات وتعهدات ملزمة للطرفين.

فلا توجد في الإسلام «مرجعيات» معترف بها بشكل عام، دون احتمال الخلاف على تنصيبها، ناهيك عن تمتعها بسلطة تتيح لها فرض افكارها على المعترضين، ومع ذلك فإن المونسنيور الاردني كان يبدي من على منصة الخطابة في مجلس الحوار بين الاديان شعوره بالتفاؤل والاطمئنان من خلال ابتسامته الطفولية البريئة.

إن تنفيذ نهج السياسة الخارجية البابوية هو من مهام حكومة الفاتيكان التي تسمى سكرتارية الدولة، ويمثلها الكاردينال المشرف باعتباره رئيساً للوزراء، بالإضافة الى رئيس اساقفة كسكرتير مختص بشؤون العلاقات العامة مع الدول بصفته وزيراً للخارجية.

ويترتب على دولة البابا الحائز على لقب الكرسي الرسولي، وهي ذات المرجعية الأخلاقية على الصعيد الدولي، أن تقوم من الجهة الاولى بالعمل على بلورة أجواء ملائمة للسلام حتى مع الدول العربية – الاسلامية بالوسائل الدبلوماسية، ومن الجهة الاخرى فعليها تلقي الضمان بالتزامات موثوقة، يتاح بموجبها للمسيحيين وخاصة افراد الجاليات الكاثوليكية الصغيرة أن يمارسوا شعائرهم وحرياتهم الدينية في تلك الدول.

وتعد الخبرات القيمة المكتسبة عبر سياسة الفاتيكان تجاه بلدان شرق اوروبا ذات الانظمة الشيوعية سابقا مفيدة لتحقيق الاهداف المنشودة.

ولايوجد تطابق دائم بين تقييمات الممثلين الدبلوماسين للبابا ورغبات الاساقفة المسؤولين عن كنائس محلية تطال صلاحياتها مئات آلاف المسيحين، وبين الافكار التي تدور في اذهان ساسة الشؤون العالمية لدى الفاتيكان.

ففي القصرالرسولي للبابا قلما تُجرى مناقشات عن تبدل المركز القيادي الديموغرافي بين الديانات العالمية، أي عن انتقال القيادة في هذا المجال من اتباع الكنيسة الكاثوليكية الى المسلمين على صعيد العالم.

اما مواضيع النقاش فهي تدور حول التفاصيل، سعياً للتوصل الى اجابات للاسئلة المطروحة، مثل: كيف هي أوضاع الاقليات المسيحية، بما فيها في أحيان كثيرة تلك الجاليات الكاثوليكية ضئيلة الحجم في بلدان اسلامية؟، ماهي الآفاق التي يمكن أن تتفتح في بلدان ذات مزيج من اقليات دينية متعددة كالهند واندونسيا، حيث لا ترتبط الامور فيهما بالعلاقات بين المسيحين والمسلمين فحسب، وانما تشارك ملل دينية اخرى كذلك في نفس الترابط ؟، ماهي الإستنتاجات التي يمكن التوصل اليها من التطور في البلدان ذات الانظمة التعددية، كفرنسا والمانيا واسبانيا وايطاليا ايضا؟

في نطاق البحث عن اجابات صحيحة لهذه الاسئلة المطروحة يصطدم حتى أذكياء الدبلوماسيين لدى البابا بالسقف المحدد للنهج السياسي، مما يجبرهم على أن يتركوا لغيرهم في العالم الواسع مهمة البحث عن ايجاد حلول للمشاكل.

الفصل الخامس

ألمانيا بوصفها حالة خاصة – من أناس متدينين إلى آخرين لا دينيين

ربما كان خطاب البابا الألماني بينيديكت السادس عشر بتاريخ 12 أيلول (سبتمبر) 2006م في جامعة ريجينسبورغ وما تلاه من ردود فعل قد أدخل حقا وبشكل تام الى وعي الألمان ـ جميع الألمان ـ ما مفاده: أن أتباع عيسى المسيح وأتباع النبي محمد يقفون في حالة توترمقابل بعضهم بعضا، وأن هناك تناقضات بين الإسلام وبين مجتمع تعددي يجوز فيه إستنادا الى مبدأ الحرية أن يقال كل شيء، وأن الرغبات بمساواة الغرباء ودمجهم في المجتمع ما زالت غير قادرة على حل الأزمات الواقعية.

لقد تعجّب المسيحيون واللادينيون في خريف عام 2006م لأن بعض الكلمات التي صدرت عن بينيديكت حول نبيّ الإسلام قد أثارت مثل هذا الكم الكبيرمن العواطف، علما بأنها كانت في خاتمة المطاف كلمات مقتبسة.

وكان بإمكان المستمع الجالس في مقعده أمام جهاز التلفزيون في العالم «الخارجي»، أن يتغاضى عنها، لكن ردود فعل عامة حادة أبديت في ألمانيا، صادرة عن ممثلي المسلمين وعن بعض من شعروا بالإهانة منهم في حياتهم الخاصة هناك. لقد أصيب مسيحيون مؤمنون ومواطنون لادينيون أيضا بالدهشة جراء ردة الفعل الدينية الحساسة التي بدرت من أكثر من ثلاثة ملايين مواطن مسلم في المجتمع الليبرالي لجمهورية ألمانيا الإتحادية في القرن الواحد والعشرين، الذي أصبح قليل التأثر بالدين بشكل واسع.

فماذا يعني هذا الهيجان في «جمهورية برلين»؟، أليس على جميع المواطنين أوالمرشحين للحصول على المواطنة فيها ألّا يشعروا بالإثارة من جرّاء إهانة محمد [عليه الصلاة والسلام]، بنفس المستوى الذي لا يشعرون فيه بالإثارة جراء الإهانات المألوفة التي توجه للمسيحية والتي قلما يثور بسببها أحد؟!

«جميع الأديان متساوية وخيّرة»

لقد سبق لجوتهولد أفرائيم ليسنج (1729ـ1781م) منذ مايقرب من قرنين ونصف أن أبدى ملاحظة قال فيها: «إن الحرية البرلينية قادرة على أن تولّد ما شاءت من هجوم على الدين». وكان المقصود بطبيعة الحال الدين المسيحي وما كان يوجّه له دعاة التنوير من تهكمات. إن ليسنج، وهو أحد كبار دعاتهم، عنى بكلامه توجيه النقد لهم حينما أضاف: «إن على الإنسان القويم أن يخجل من ذلك». لكن التكلم عن الدين بتهكم، مع تحقير كل ما هو ديني في بروسيا وبرلين عاصمة ألمانيا ظل أمرا يشير الى التقدمية والحداثة، بل كان يعد برهانا على التفوق الثقافي، أويشير الى أن الدين لم يكن يؤخذ مأخذ الجد على الأقل، أو ينظر اليه بغيرمبالاة مطلقا.

وهذا ما فعله الملك البروسي فريدريك الثاني الذي كتب في الوقت ذاته عام 1740م بأسلوب لغوي فريد: «جميع الأديان متساوية وخيّرة، ولا يصح هذا التقييم إلا إذا كان الناس الذين يعتنقونها أناسا صادقين، ولو جاء الأتراك والكفار وأرادوا الإستيطان في البلد، فإننا سوف نبني لهم مساجد وكنائس»، مضيفا الى عباراته هذه: «على كل فرد أن يسعد وفقا لمعتقده».

كان الملك يعني في البداية المسيحيين الكاثوليك من مقاطعة شليزيا والمسيحيين الهوجونوت البروتستانت القادمين من فرنسا، لكن عباراته أصبحت في القرن العشرين تنطبق على المسلمين أيضا. إن أول مسجد بني في ألمانيا لم يتم تشييده نتيجة عدم الإكتراث أو كثمرة للحوار بين الأديان، وإنما بسبب الحرب بين الشعوب. فقد تم خلال الحرب العالمية الأولى تشييد مسجد بسيط له مئذنة لأسرى الحرب المسلمين من الجيشين البريطاني والروسي في معسكر الأسرى في فونسدورف بالقرب من برلين، حيث تم الإحتفال بافتتاحه بتاريخ 13 تموز (يوليو) 1915م، مما يعد أمرا يكاد يكون مثيرا للعواطف الإنسانية. وتمثلت القناعة السائدة في ذلك الحين في أن الدول وليست الأديان هي التي كانت تخوض الحرب فيما بينها.

لكن مسجد الطائفة الأحمدية في برلين ـ فيلمرزدورف، شارع بريتر، وهو المسجد

الأم لجميع المساجد الألمانية، بدا أكبر مما كان متوقعا، وتم افتتاحه بتاريخ 26 نيسان (أبريل) 1925م. لم يكن هذا المسجد يبدو لي كبيرا بشكل يبعث على القلق في ظروف مدينة مثل برلين، عندما كنت وأنا غلام، أمر من أمامه راكبا على دراجتي الهوائية.

وفي العشرينات من القرن العشرين كان يعيش في دولة ألمانيا زمن جمهورية فايمار، وفقا للبيانات الإحصائية، ثلاثة آلاف مسلم، عشرة بالمئة منهم لهم خلفية ألمانية.

وهذا هو الفارق عن التطور اللاحق، فبعد مرور ثمانين عاما وتعاقب ثلاثة أجيال، أصبح عدد المسلمين أكثر بألف ضعف. لم يعودوا أشخاصا منفردين أو تجار سجّاد أغنياء يمارسون أعمالهم التجارية.

فقد أصبح عددهم في ألمانيا أكثر من ثلاثة ملايين نسمة مما يعني صعوبة تجاهلهم، حيث صاروا يسكنون في أحياء خاصة بهم، ويشكلون «مجتمعا موازيا»، ويطالبون بمكانة واضحة لهم.

بدأ استدعاؤهم الى ألمانيا منذ عام 1961م عمالا ضيوفا، واستقبلوا بالترحيب بوصفهم قوى عاملة رخيصة، أما اليوم فإنهم أصبحوا مواطنين.

لكن الحقوق والواجبات المتعلقة بهم ما زالت تحتاج الى تنظيم من طرف الدولة والمجتمع، وكذلك من جانبهم ومن الجانب الألماني. وفي هذا السياق فإن وزير الداخلية الألماني شويبله يبذل كل جهد للتعامل مع هذه الوقائع.

المسلمون في ألمانيا

في نهاية شهر آذار (مارس) 2008م أصدرت مجلة دير شبيجل عددا خاصا يتضمن كشفا بأوضاع المسلمين وخاصة في ألمانيا تحت عنوان: «الله في الغرب ـ الإسلام والألمان». استهلت المجلة مقولاتها بالجمل التالية: «يصنف المسلمون في هذا البلد دائما وتكرارا بأنهم مرادفون للأصولية والتعصب والعنف وتقاليد مجتمعات السيطرة الأبوية التي كانت سائدة في عصور ما قبل الحداثة.

إن الأحكام العمومية لا تتماشى بحق مع التنوع الموجود بين أكثر من ثلاثة ملايين

مؤمن بالله. فالتنوع بين المسلمين يمتد من الإسلاميين المتعصبين الى المسلمين الليبراليين المنفتحين على العالم الذين انسجموا مع الحياة في المجتمع الغربي».

في هذا العدد الخاص يتم عرض معلومات وصفية حول أوضاع المسلمين في ألمانيا كما هي في الحقيقة، دون أحكام مسبقة وكليشيهات محددة، كما يتم استقراء أوضاعهم التي تتسم بالتراوح بين التمسك بالشخصية الذاتية وبين الإندماج في المجتمع، بين الدين والتقاليد، وبين التسامح والإرهاب.

إن كل مقالة تصف بشكل دقيق جزءا من العوالم الألمانية الهامشية والتحتية:

ـ الحياة داخل ثقافة تحتية أو عالم مواز لم تعد ثغرة اجتماعية ثانوية.

ـ الخطأ في وصف المسلمين من خلال دينهم فقط.

ـ عملية تكيّف المسلمين أو رفضهم هذا التكيّف.

ـ استطلاعات الرأي بين المسلمين بوصفها مجرد انعكاس لأرقام ووقائع مرصودة بشأنهم.

ـ الروابط الإسلامية التي تتزايد فاعلياتها العامة، وأعضاؤها القياديون.

ـ طرق وصول الإسلام الى ألمانيا.

ـ الإسلام الأوروبي بوصفه صيغة ليبرالية للإيمان بالله.

ـ مشاهير المسلمين ومعتقدهم في الحياة اليومية.

ـ بيوت للمسنين الأتراك.

ـ الأقلية العلوية – ذات الخصوصية الحساسة.

ـ الطائفة الأحمدية التي تتعاون مع الأمن.

ـ النقد غير المثمر للإسلام، الذي يؤدي الى زيادة التمسك بشخصية الرسول محمد.

إن كل هذه المقالات لا تدع مجالا سوى للتوصل الى استنتاج واحد يؤكد وجود الإسلام والمسلمين في ألمانيا. فعندما تعالج تقارير العدد الخاص لدير شبيجل موضوعات حول الدين والتراث، فإن الخلافات تظهر فيها حول:

ـ القباب والمآذن عند بناء مساجد جديدة ذات صفة تمثيلية.

ـ منديل الرأس للنساء أو ملابس ساترة أخرى على نطاق أوسع.

- عادات إسلامية وحقوق النساء.
- دروس دينية إسلامية باللغة الألمانية.
- اعتناق الإسلام بسبب الحب أو الحماسة الدينية.
- الإنقطاعات في الحوار المسيحي - الإسلامي.
- تقديم العون للنساء التي يتم تزويجهن قسرا.
- إمرأة إمامة تقوم برعاية المسلمين الناطقين بالألمانية.
- شعائر المسلمين الخاصة بدفن موتاهم في المقابر الألمانية.
- ذبح الحيوانات وفقا للقواعد القرآنية.
- وأخيرا المسلمون المرتدّون ومجلسهم المركزي.

في الفصول المتعلقة بالتسامح والإرهاب لا يتحصل القاريء إلا على القليل من المعلومات عن الإسلام، وهي ذات الصلة مثلا بإجابة السؤال الجوهري الذي طرحه البابا بخصوص العنف، بقدر ما يجد معلومات أكثرعن ميل الألمان في ألمانيا الى قبول الحكم المسبق بخصوص إستعداد المسلمين لممارسة العنف في كل وقت، وحول استمرار الألمان بالحنين الى الأحلام القديمة ذات الصلة بالإندماج الخالي من التأزم، بالإضافة الى حلمهم بوجود الخير في نفس كل إنسان.

وتتضح مثل هذه التصورات عندما يقال: «إن إفشال عملية اعتداء وعدم تنفيذ عملية أخرى كانا كافيين لتحفيز أغلبية السكان على تحبيذ تقليص الحقوق الدستورية بشكل كثيف»، أو القول بأن ذلك أغرى موظفي وزارة الداخلية «للإندفاع الى تبنّي أفكار غريبة»، أو إن المسؤولين في جهاز الإستخبارات الإتحادية أصبحوا بتأثيرالإعتداء يرون المخاطر في كل مكان.

وفي النهاية لم تعد هناك ضرورة لوقوع هجمات دموية، فالألمان يعيشون بصرف النظر عما ذكر بخوف وفزع من العنف الإسلامي، ووفقا لهذه المعطيات واستنتاجا من تقاريرأخرى كثيرة واردة بالخصوص، فإن الإنطباع يتكون، وخاصة لدى بابا ألماني الأصل، بأن الناس في ألمانيا يكادون يفقدون وينسون معرفة ماهية الدين. فكثيرا ما ينعكس

في الآراء العامة الرئيسية التعجب من الدين ومما هو ديني. هذا بالرغم من أن الدين ليس مجرد مجموعة مبادىء إيمانية مناقضة للعقل أو فروض سلوكية لا ضرورة لها، وإنما هو كما يتضح قوة مسيّرة لحياة الإنسان. لقد تمت تنحية الدين في ألمانيا الى الخلفية لعدم الحاجة اليه ظاهريا نتيجة للتنوير والشروط الحياتية، التي فُرضت بتأثير التكنولوجيا والإقتصاد ورأس المال والعلوم الطبيعية بقوانينها الصارمة.

والآن يعود الدين للظهورمن جديد بوصفه بُعدا آخر، يتيح للإنسان أن يمنح حياته أصلا وهدفا وإطارا ثابتا، وشكلا فاعلا بين الميلاد والموت. يعود من جديد، بوصفه دينا مسيحيا، لهذا فإن للبابا علاقة به، وبوصفه دينا إسلاميا، فإنه يظهر غريبا في بداية الأمر وعلى نحو غير مألوف.

الدين قوة وقناعة

وبهذه العودة الى الدين تتولد في ألمانيا خبرة جديدة أخرى، ويمكن للدين أن يولّد قناعة خارج المناظرات الجدلية. فالقناعات سواء أكانت نظرية أم عملية، يمكن أن تنبع من الداخل الديني للإنسان، وأن تتولد منها قوة للحياة، كان قد صقلها التنوير ونحتتها العلوم تدريجيا خلال قرنين ونصف من الزمن.

يستفاد من دروس التاريخ الألماني في القرن العشرين أن القناعات الدينية أخلت مكانها لقناعات أخرى غيرها: إيديولوجيات القومية والعنصرية والشيوعية، التي استهدفت بشكل شبه ديني إحتواء الإنسان إحتواء تاما ونجحت في ذلك. ولهذا السبب أصبح هناك نفور من الإعتماد التام على أي شيء مرة أخرى، وإذا فعل المسلمون ذلك بحماسة فإن الشعور بالإستغراب والتهديد يتكون حتى لدى أولئك العلمانيين في تركيا.

فالدين يظهر بوصفه قوة وقناعة وينشىء ويوطد الشخصية، فكيف يستطيع اللادينيون فهم خصوصيته هذه؟، لهذا السبب بالذات يكون الحوار بين المتدينين ممكنا وضروريا. وربما لا يمكن بواسطته الوصول الى تفاهم إلا إذا كان قائما بين متدينين حقيقيين، لأن موضوعهم يكون هو الإنسان كلية. إن أتباع «الدين المدني» التعددي يواجهون صعوبة

كما يظهر من المناقشات في ألمانيا حول دمج المتدينين داخل مجتمع مدني ليبرالي، مع ما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات، لأن المسلمين المتدينين يشعرون بأن عليهم أن يتخلوا عن قناعتهم الدينية قبل أن يتم قبولهم في المجتمع التعددي.

لقد تطرق بينيديكت الى «الظرف الحياتي» في محاضرته التي كانت تدور حول العقل والإيمان. وهو لم يجعل إلا القليلين يثورون في نطاق الخطاب «الغربي». ولكنه عندما أورد الإسلام مثالا فإنه جعل الأمر أكثر دراماتيكية، حيث عُدّ أمرا جوهريا له علاقة بالثقافة الليبرالية.

لقاء في كولونيا

كان لدى البابا يوحنا بولص الثاني خلال زياراته الثلاث الى ألمانيا وقت كاف لترتيب الكثير من المواعيد وإجراء اللقاءات العديدة مع ممثلين لمختلف الجماعات، إلا أنه لم يجر لقاءً واحدا مع أحد من ممثلي الطوائف والروابط الإسلامية. فلم يبدُ أن لقاء الطرفين كان ضروريا لا في تشرين ثاني (نوفمبر) 1980م ولا في أيار (مايو) 1987م ولا في حزيران (يونيو) 1996م. ومن الواضح أن البابا لم يشعر بالحاجة الى استقبال قادة المسلمين وكذلك فان قادة المسلمين لم يشعروا بالحاجة الى لقائه، ولم يروا بأن إجراء المحادثات معه كان أمرا ملحّا، إذن فربما كان الوقت لم يحن بعد.

أما البابا بينيديكت السادس عشر فكان أكثر استعجالا من سلفه. فبعد أيام قليلة من تسلمه مهام منصبه رئيسا للكنيسة ولأساقفة إيطاليا بتاريخ 25 نيسان (أبريل) 2005م توجّه لمخاطبة المسلمين، واستثمر المناسبة فورا لهذا الغرض خلال زيارته الأولى لألمانيا بمناسبة الإحتفال بيوم الشبيبة العالمي للكنيسة الكاثوليكية الذي أقيم في مدينة كولونيا في الفترة من 18 الى 21 آب (أغسطس) 2005م.

لقد جرت العادة أيضا في مثل هذه المناسبات تنظيم برنامج جانبي مواز للبرنامج الرسمي. وفي إطار ذلك دأب البابوات في زياراتهم للبلدان الأجنبية خارج إيطاليا على عقد لقاءات مع ممثلين عن الطوائف اليهودية، وهكذا كان البابا يوحنا بولص الثاني يفعل دائما.

لذلك قيل في يوم الجمعة بتاريخ 19 آب (أغسطس) أن برنامج زيارة البابا يتضمن «كلمات ترحيب» قي كنيس كولونيا اليهودي، حيث بدا للبابا الألماني أن عقد مثل هذا اللقاء مع «الإخوة الأقدم» للمسيحيين أي اليهود هو بمثابة أحد الواجبات.

وفي يوم السبت بتاريخ 20 آب (أغسطس) أصيب الناس عموما بالدهشة عندما أضيف الى برنامج البابا موعد إستقبال لممثلين عن بعض الجاليات الإسلامية. إن برتوكول الفاتيكان يضع فروقات دقيقة بين «كلمة ترحيب» و «إستقبال بابوي»، فهل كان هذا يعتبر لقاء مع المسلمين باعتبارهم «الإخوة الأحدث»؟! إن الجواب بمعنى من المعاني هو: نعم إنهم الإخوة الأحدث.

ومن الجدير بالذكر أن وصف اليهود بكلمتي «الإخوة الأقدم» ترسخ لدى المسيحيين منذ أن أطلق عليهم البابا يوحنا الثالث والعشرون هذا الوصف الذي يحمل في طيّاته التوجه نحو المصالحة معهم.

لكن من المحتمل جدا أن يرفع اليهود حواجبهم تعجبا، عندما يطلق المسيحيون على التوراة اليهودية وصف العهد القديم، بينما يعتبر هذا الوصف بالنسبة للمسيحيين أمرا بديهيا، لأن هناك عهدا جديدا جاءهم به عيسى المسيح الذي بشرت به التوراة. ولكن اليهود لا يعتقدون بأن المسيح قد ظهر.

أماالمسلمون فيعدّون عيسى [عليه السلام] نبيا، ويؤمنون بأن محمدا [عليه الصلاة والسلام] هوخاتم الأنبياء، وبأن الوحي الذي نزل عليه يمثل نهاية جميع ما أوحى الله به الى الأنبياء بدون مجال للزيادة. فهل كان البابا بين إخوة؟، إن مثل هذه التكهنات اللاهوتية لا لزوم لها في هذا المقام.

لذلك اكتفى بينيدكت بكلمات قليلة أمام المسلمين الذين اجتمع معهم في مبنى أسقفية كولونيا، لكي يصل الى المسألة التي كانت تجول في خاطره أكثر من غيرها: وهي مسألة العنف والدين، بمعنى الإرهاب والتطرف الديني، حيث قال:

«إنني واثق من كوني أعبر عن رأيكم، عندما أقوم بالتركيز على أحد أبرز الهموم دون غيرها، وهو الهم الناجم عن ظاهرة الإرهاب الآخذة بالإتساع

بصورة متواصلة. إنني أعلم بأن الكثيرين منكم رفضوا على وجه الخصوص بشكل حاسم وعلني الربط بين دينكم وبين الإرهاب، وأدانوا الإرهاب بصورة واضحة. أشكركم على ذلك لأن هذا يشجع على تهيئة جو من الثقة نحن بحاجة اليه. في بقاع مختلفة من العالم تتكرر الأعمال الإرهابية بصورة متواصلة وتدفع الناس الى الحزن والياس. إن المفكرين والمخططين لهذه الإعتداءات يظهرون بأنهم يريدون تسميم علاقاتنا وتخريب الثقة بيننا. إنهم يستخدمون كل الوسائل بما فيها الدين حتى يعرقلوا أي مسعى لتعايش سلمي خال من التوترات. نحن والحمد لله متفقون على أن الإرهاب أيا كان مصدره هو قرار شاذ وفظيع يدوس بالأقدام على الحق بالحياة الذي لا يجوز المساس به، والذي يهدم أسس أي عيش مشترك منظم. إذا نجحنا معا بإستئصال مشاعر الكراهية من القلوب ورفضنا أي شكل من أشكال عدم التسامح وقاومنا أي مظهر من مظاهر العنف، فإننا سوف نوقف معا موجة التعصب الفظيعة التي تتلاعب بحياة هذا الكم الكبير من الناس وتعرقل تقدم السلام في العالم. إن المهمة لصعبة لكنها ليست بمستحيلة. فالإنسان المؤمن ـ ونحن كلنا، مسيحيين ومسلمين، أناس مؤمنون ـ يعلم أن بإمكانه الإعتماد على القوة الروحية المنبثقة من الصلاة بالرغم من ضعفه الذاتي».

لم تكن عبارات البابا إذن دعوة الى إبداء تفهم، ولا طلبا لإجراء حوار، وإنما أوضح للقادة المسلمين ملتفتا الى الأتباع الشباب، الواجب الملقى عليهم، لأن القيم المشتركة ملزمة، ثم واصل البابا حديثه قائلا:

«أيها الأصدقاء الأعزاء، إنني مقتنع من الأعماق بأنه يجب علينا أن نركز على قيم الإحترام المتبادل والتضامن والسلام. إن حياة كل إنسان مقدّسة للمسيحيين والمسلمين على حد سواء. و لدينا مجال عمل واسع يجوز لنا أن نشعر في نطاقه بوحدتنا في خدمة المباديء الأخلاقية الأساسية. فكرامة

الإنسان مع الدفاع عن الحقوق المنبثقة عنها يجب أن تكون هدفا وغاية لكل خطة إجتماعية ولكل مسعى لتنفيذها. هذه رسالة يرددها صوت الضمير بشكل خافت، إلا أنه واضح لا يحتمل الخطأ، إنها رسالة يجب على المرء سماعها وإسماعها. واذا تلاشى صداها من القلوب، فإن العالم سوف يغرق من جديد في ظلام البربرية. ولا يمكن إيجاد أساس مشترك للتفاهم وتجاوز التناقضات الثقافية المحتملة وتحييد القوة الإنفجارية للإيديولوجيات إلا من خلال الاعتراف بمركزية الفرد».

وبعد أن فرغ البابا من ذكر الأساسيات انتقل الى استعراض الحصيلة التاريخية قائلا:

«إن خبرة الماضي تعلمنا بأن العلاقات بين المسيحيين والمسلمين لم تكن مع الأسف تقوم دائماعلى قاعدة الإحترام المتبادل والتفاهم، كما أن صفحات كثيرة من التاريخ تسجل معارك وحروبا بدأها هذا الجانب أو ذاك صارخا باسم الله، وكأن مكافحة العدو وقتل الخصم يمكن أن يمثلا عملا يرضي الله!».

كان بإمكان المسلمين أن يعترضوا على هذا الجزء من كلام البابا مستندين الى فهمهم الديني الخاص بهم. فهذا مسار فكري قام بينيدكت فيما بعد بالعودة اليه بشكل أكثر حدة ووضوحا، وربطه بالنبي محمد [عليه الصلاة والسلام]. ولم تثر ضجة على هذه الأفكار في لقاء كولونيا، بل وجه النقد لها في وقت لاحق. وهكذا تابع بينيديكت كلمته وقال:

«إن ذكر تلك الأحداث المحزنة يجب أن يملأنا بالخجل، عندما نعرف حق المعرفة ما ارتكب من فظائع باسم الأديان. ولا بد من الإستناد الى ما تعلمناه من دروس الماضي كي نضمن عدم تكرار الأخطاء ذاتها. إننا نريد البحث عن طرق جديدة للمصالحة، وأن نتعلم العيش في إطار احترام كل واحد لشخصية الآخر، فالدفاع عن حرية الدين يعد بهذا المعنى مطلبا دائما كما

أن احترام الأقليات يشكل علامة على حضارة حقيقية خالية من المثالب».

كانت هذه كلمات واضحة، ولكنها بمعنى مزدوج بطبيعة الحال، عندما تخرج من فم البابا وينتظر تنفيذها أيضا من طرف قادة مسلمين مهمّين، ومن قبل معنيين في بعض الأقاليم الإسلامية على صعيد العالم.

ولكن بينيدكت تصرف كما لو أنه نجح في كسب أتباع النبي «لروح الحوار»، وأعرب عن ابتهاجه بذلك. وفي الوقت ذاته أراد بينيدكت في نطاق إلحاح ديني إحتفالي التأكيد على أن حديث النبي لا علاقة له بالعنف، وعبر عن حثه «للأصدقاء المسلمين الأعزاء»، موجها كلامه الى ممثلي المرجعيات الإسلامية قائلا:

> *«إنكم تقودون المؤمنين بالإسلام وتقومون بتربيتهم وفقا للعقيدة الإسلامية، كما أن التعليم هو وسيلة لنقل التصورات والقناعات، وأن الكلمة هي الطريق الرئيسي في تربية الأجيال اللاحقة. ولهذا فإنكم تتحملون مسؤولية كبيرة عن تربية الأجيال الناشئة. إنني سأكون شاكرا لو حدثتموني عن الروح التي تمارسون بها هذه المسؤولية. يجب علينا ـ مسيحيين ومسلمين ـ مواجهة التحديات العديدة التي يضعها عصرنا أمامنا، ولا مكان للخمول والكسل، وأقل من ذلك للتحزب والمذهبية. لا يجوز لنا أن نترك مجالا للخوف والتشاؤم، بل يجب علينا على العكس من ذلك أن نحافظ على التفاؤل والأمل ونرعاهما. إنه لا يجوز جعل حوار الأديان والثقافات بين المسيحيين والمسلمين مقتصرا على قرارات موسمية، لأنه في الحقيقة ضرورة حيوية ويرتبط به جزء كبير من مستقبلنا. إن الشباب القادمين من بقاع الأرض العديدة هم موجودون هنا في كولونيا شهودا أحياء على التضامن والأخوة والمحبة. وأتمنى أيها الأصدقاء المسلمون الأعزاء المحترمون، من كل قلبي، أن يحفظكم الله الرحمن الرحيم ويبارككم وينير أفئدتكم. أللهم أنت السلام، طهر قلوبنا، وانعش أملنا، واهد خطوات مسيرتنا على دروب العالم».*

كان من الصعب الإعتراض على شيء من هذه الأقوال. فقد بدا أن التذكير بذلك أمر ضروري، وأن التمسك به هو الأهم.

الفصل السادس

إيطاليا بوصفها حالة خاصة ـ البابا رئيسا روحيا لإيطاليا

لم ينس أحد لا في روما ولا في إيطاليا على الإطلاق، ما حدث يوم الإثنين بتاريخ 19 تموز (يوليو) 1943م. ففي ذلك اليوم الصيفي الحار شنت خمسمائة طائرة حربية للحلفاء هجوما جويا على روما عاصمة مملكة إيطاليا بأمر من الدكتاتور الفاشي موسوليني. كان هدف قنابلها تدمير محطة قطارات تيبورتينا، التي كانت تشكل مركزا هاما لنقل القوات الإيطالية والألمانية الحليفة لها.

لكن القنابل أصابت قبل كل شيء المباني السكنية المجاورة، وكنيسة سان لورينزو فوري ليمورا. عندما شاهد البابا الدمار رفع يديه عاليا الى السماء بينما كان يحيط به جمع من المؤمنين، وعلى الفور تم التقاط صورة تذكارية للمشهد فأصبحت تاريخية.

إن التأثير الذي أحدثته الصورة كان عظيما، فبعد أقل من أسبوع تمت الإطاحة بموسوليني، لأن الطليان لم يرغبوا في ترك مدينتهم الجميلة الخالدة تتعرض للدمار. وأدى تحول مملكة إيطاليا للإصطفاف الى جانب الحلفاء الى إنقاذ الأحياء الداخلية للمدن الإيطالية التاريخية من الخراب الهائل، على عكس ما لحق بالمدن الألمانية.

وهكذا ظهر البابا كأسقف لروما، ولقبه الخامس رئيس أساقفة إيطاليا، كحامي حمى المدينة والبلد في أعين الإيطاليين.

بطريرك العالم الغربي

هكذا كان الحال منذ قرون طويلة بعد أن تحول البابا من رئيس لكنيسة روما كما كان الحال في العصور الوسطى الى سيد تلال المدينة السبعة وسيد البلد، أي سيد دولة الكنيسة في إيطاليا الوسطى كوريث للقديس بطرس. إنه كان يشعر بمسؤوليته عن إيطاليا كونه رئيسا روحيا لإيطاليا، بل وأكثرمن هذا بوصفه بطريرك العالم الغربي ورئيس الكنيسة اللاتينية في الغرب، بموازاة الكنائس الشرقية وقياصرة الشرق البيزنطيين في القسطنطينية

حتى عام 1453م.

ولا يعرف فيما إذا كان ذلك قد تم نتيجة إستحواذ ذاتي على هذا الحق، بالإستناد الى ما ورد في مجاميع الوثائق الكنسية المزورة في العصور الوسطى مثل وثيقة «هبة قسطنطين» أو الوثائق التي أطلق عليها إسم «مراسيم إزودور المزورة»، وهي المتعلقة بقوانين كنسية، أو لأن البابا كان مدفوعا بعاطفة حمل رسالة عليه تأديتها، كما يدفع التاريخ أحيانا بالأحداث الى الأمام ـ فالأمر سيّان.

لقد قام البابا بينيدكت بوقف إستخدام لقب الشرف: «بطريرك العالم الغربي» لوصف أسقف روما، عام 2006م، معبرا عن الإحترام لبطارقة الشرق الأربعة: بطارقة القسطنطينية وأنطاكية والإسكندرية والقدس، دون أن يقصد مراعاة المشاعر الإسلامية.

قام البابوات، أساقفة روما، قدر استطاعتهم بتنظيم حماية الأراضي الإيطالية ضد مخططات الفتوحات العربية الاسلامية، من خلال تشكيل تحالفات أو إطلاق نداءات الإستغاثة الموجهة الى القبائل والممالك المسيحية في الشمال. فالدين الجديد للنبي محمد (منذ القرن السابع الميلادي) أصبح يشكل خطرا مزدوجا بالنسبة لهم: على الصعيدين الروحي والسلطوي السياسي.

وكانت ايطاليا مغرية للعرب بسبب موقعها الإستراتيجي في وسط البحر المتوسط، كما أن المسلمين حاولوا مرارا ترسيخ سلطتهم على شبه جزيرة الأبنين (إيطاليا) وتعزيزها. ولكنهم على المدى الطويل اضطروا للإكتفاء بجزيرتي صقلية وسردينيا، وجزء من جنوب إيطاليا.

لقد عانت المدن والمناطق الساحلية الإيطالية ألف عام من هجمات القراصنة المسلمين حتى نشبت معركة ليبانتو البحرية عام 1571م والى أن تم صد الأتراك العثمانيين الذين حاصروا فيينّا عام 1683م.

وفي كتب التاريخ الخاص بالمدن الإيطالية يجري ذكر القراصنة المسلمين الذين كانوا يمارسون النهب والحرق والتخريب والتدمير، فيظل المسلمون ماثلين في المخيلة العامة كخطر محدق. وما زالت صرخة الأطفال: »يا أمي! الأتراك» تضرب مثلا حتى يومنا هذا.

ففي القرن الحادي عشر الميلادي تكوّنت لدى أساقفة روما فكرة الحملات الصليبية، من أجل تحرير الأماكن المسيحية المقدسة، عندما حصل إزدهار عام في العالم الغربي ودُفع كل شيء الى الأمام على الأصعدة الإقتصادية والديموغرافية وتوطدت سلطة البابوات، كما كان يقال عموما.

إن كتابة التاريخ التي تنطلق من مركزية وسط أوروبا تبرز هنا قبل كل شيء في صورة «فرسان يخوضون في الدماء» وهم يمارسون العنف ذا الدوافع الدينية ضد نبلاء المسلمين.

وكانت تقارير المؤرخين الدرامية أكثر تأثيرا في النفوس من الأفكار الإستراتيجية، كما عُرف مؤرخون إيطاليون كانوا على الصعيد العالمي أقل تأثيرا من أولئك الوارثين لعلم التاريخ البروسي البروتيستانتي الأكثر شهرة.

رأى هؤلاء المؤرخون الإيطاليون أن للحملات الصليبية تأثيرا جانبيا أو حتى رئيسيا مرغوبا فيه من حيث التخفيف عن إيطاليا عسكريا وسلطويا سياسيا، تجاه مطالب السيطرة الإسلامية وتجاه قياصرة الروم الشرقيين البيزنطيين المنافسين. وبالفعل إزدهرت المناطق والمدن الإيطالية مع بدء الحملات الصليبية بدءا من عام 1099م في المجالات الإقتصادية والثقافية، كما تدعمت أيضا سلطة البابوات في العالم الغربي. ومن الثابت أن مواجهة التغلغل الإسلامي في جنوب أوروبا وغربها لم يكن مفيدا كما هو واضح لتطوير أوروبا اللاتينية أي العالم الغربي فحسب، بل أفاد البابوات أيضا، غير أن كل ذلك أصبح مجرد تاريخ.

المسلمون في إيطاليا اليوم

أصبح الوضع الراهن على النحو التالي:

ـ يعيش في إيطاليا الكاثوليكية قرابة مليون مسلم، أي حولي 1،7 بالمئة من 58،8 مليون نسمة هم مجموع السكان، وخلافا للوضع في ألمانيا فلم يتم إستدعاؤهم عمالا وافدين، وإنما وفدوا دون استدعاء، للبحث عن ظروف حياة أفضل، وهم يأتون في كثير من الأحيان

بطريقة مثيرة كلاجئين الى إيطاليا بواسطة قوارب متسللين عبر البحر المتوسط، ويجري استخدامهم بعد ذلك في المصانع والمزارع كقوى عاملة رخيصة.

- منهم مائة وخمسون ألفا بدون تراخيص عمل ومئتا ألف آخرون لم يتم حصرهم.
- معظمهم ينتمي الى طبقات إجتماعية فقيرة.
- هناك خمسون ألف مسلم يحملون الجنسية الإيطالية، منهم عشرة آلاف إيطالي بدّل دينه واعتنق الإسلام.
- يوجد في روما، مدينة البابا، أكبر مسجد في أوروبا.

لا تتوانى الحكومات الإيطالية سواء اليسارية منها مثل حكومة برودي من 2006 الى 2008م أو اليمينية مثل حكومة برليسكوني من 2001 الى 2006م ومنذ أيار (مايو) 2008م وحتى اليوم، عن ملاحقة الإرهاب الدولي للمتطرفين الإسلاميين. في بداية عام 2008م أصدر وزير الداخلية في حكومة برودي اليسارية أمرا بالإبعاد الفوري للواعظ والإمام المغربي محمد كحيلة من إيطاليا. وكان على الواعظ البالغ من العمر 44 عاما أن يعود فورا الى بلده الأصلي الذي جاء منه الى إيطاليا قبل تسعة عشر عاما، حيث وجهت اليه تهمة تهديد النظام العام والأمن الوطني من خلال مواعظه في المسجد، وفي المركز الثقافي بورتا بالازو الواقع في وسط مدينة تورين.

فقد عُرف عن الإمام كحيلة من خلال تسجيلات بالكاميرا الخفية أنه يدعو الى كراهية الكفار والى الجهاد، حيث تم بث تلك التسجيلات في برنامج تلفزيوني وأصبحت معروفة في كل أنحاء البلاد.

وفي منتصف شهر آب (أغسطس) من عام 2008م تم إعتقال رئيس الجالية الإسلامية الناشط عبد المجيد زرقوط في مدينة فاريزه، حيث اعتقل هذا الرجل المغربي البالغ من العمر 43 عاما اعتقالاً مؤقتا بناء على أمر إعتقال صادر في المغرب بسبب الإشتباه في علاقته بالإرهاب الدولي، وطلب المغرب تسليمه. وكان قد أصبح هذا الناشط قبل ذلك بثلاث سنوات هدفا لأجهزة الإستخبارات الإيطالية حتى تم إعتقاله. لكن محكمة في ميلانو أصدرت قرارا بالإفراج عنه، قبل سنة من تسليمه الى المغرب. وذكرت السلطات

في فاريزه أن المحكمة الملكية في الرباط تتهم الإمام بالإنتماء لمنظمة إجرامية هدفها الإعداد لأعمال إرهابية وتمويلها والإخلال بالنظام العام.

رابطة الشمال بوصفها صوتا للشعب

هي حزب إحتجاجي موجود في شمال إيطاليا، شريك صغير في حكومة الوسط واليمين ولا تمثل بشكل عام النظرات السياسية للإيطاليين تجاه الإسلام والمسلمين. لكن زعماءها يعبرون عما يخفيه البعض لأسباب عليا أو عما يخشاه البعض الآخر أو ما يريد آخرون السعي للوصول اليه. لنقل باختصار إنهم يعبّرون عما يتحدث به الناس يوميا في البارات الصغيرة.

ورابطة الشمال تحظى أيضا بالإهتمام من خلال ما تحقق فعلا من تحذيراتها المبكرة من المهاجرين بخصوص الإعتقاد بأن الأمر لا يتعلق بضيوف وادعين، وإنما بمهاجرين واثقين من أنفسهم، ومصرّين على المطالبة بتميّزهم، وراغبين في التمدد داخل المجتمع. ولذلك تُتهم هذه الرابطة في كثير من الأحيان بمعاداة الأجانب والعنصرية ورفض إجراء الحوار مع المسلمين.

لقد علّمنا الإرهاب الدولي عام 2001م أن إبداء قدر من الحذر في التعامل مع أتباع النبي لا يضر، وأن من الواجب عدم الإسراع في السماح ببناء المساجد والمآذن، حيث أن بادانيا، أرض الثقافة المسيحية في سهل نهر البو، مزدانة بكنائس و أبراج أجراس في غاية الجمال. فسكان لومبارديا وفانتريا لا يستسيغون تنوع الثقافة بهذا الشكل، مما يستدعي وضع قيود على رغبات المسلمين.

أما الحقائق المتعلقة بالمهاجرين وفقا لبيانات وزارة الداخلية الإيطالية فهي:

- قبل عشرين عاما بلغت نسبة السجناء الأجانب القادمين من خارج دول المجموعة الأوروبية 5٪ وقبل عشرسنوات 15٪، بينما بلغت نسبتهم اليوم في شمال إيطاليا 70٪، وفي كل أنحاء إيطاليا 38٪ من مجموع عدد السجناء البالغ 55250 سجينا. وبهذا أصبحت السجون معسكرات عبور قبل الترحيل، الذي لا يستطاع تنفيذه بسرعة.

– يعيش في إيطاليا (3432651) أجنبيا ينتمون الى 123 دولة، وفقا لبيانات المكتب الاحصائي الوطني الايطالي المرصودة في شهر كانون الثاني (يناير) من عام 2008م. وأكثر هؤلاء الأجانب هم من رومانيا (625278) خصوصا بعد قبول عضويتها في الإتحاد الأوروبي عام 2007م، ثم من ألبانيا (401949) والمغرب (365908) وتونس (93601) ومصر (69572).

ويعيش بينهم بشكل متزايد أجانب قادمون من الصين (156519) رغم البعد الجغرافي، ومن أكرانيا (132519)، والفلبين (105675)، و بولندا (90218):

أي أنهم ليسوا مسلمين قادمين من ساحل البحر المتوسط المقابل لإيطاليا. بغض النظر عن الأعداد غير المعروفة وحركة التنقل المتغيرة فإن مسألة وجود أجانب مسلمين لا تمثل وحدها إشكالا نفسيا وإجتماعيا يعرقل الإندماج، حيث أن على المسلمين مقارنة أنفسهم مع فئات شعبية أخرى.

– نسبة المواليد في إيطاليا هي أقل نسبة في أوروبا، إلا أن العيادات النسائية في ميلانو تسجل أرقاما قياسية جديدة في عدد المواليد، وبزيادة كبيرة جدا بالمقارنة مع العام السابق، لأن النساء الأجنبيات يفضّلن الولادة في تلك العيادات. في العام المنصرم بلغ عدد المواليد الجدد 11865 منهم 2709 أجنبي، أي أقل من الربع. أما في العام الحالي فأصبح كل ثالث مولود هو من أصل أجنبي. وتتصدر مصر قائمة مواليد الأجانب، وتليها الفلبين الكاثوليكية ثم الصين.

ومن الجدير بالذكر أن السياسة ووسائل الإعلام والصور تغير من الحقائق، كما يتبين من الوقائع أدناه:

– المهاجرون غير الشرعيين كانوا يكتسبون الشرعية مرارا من خلال القرارات التي اتخذتها الحكومات المختلفة.

– كانت أعمال العنف ضد النساء تمارس في إيطاليا دائما، إلا أن أعمال العنف ضد النساء التي يمارسها أجانب تحظى باهتمام أوسع من قبل وسائل الإعلام التي تنشرها بتفصيلات أكثر.

ـ بماذا توحي الصور التي يتم نشرها لجزيرة لامبيدوزا الصغيرة الواقعة في البحر المتوسط في أقصى جنوب البلاد والقوراب المكتظة باللاجئين، ومخيم الإستقبال الصغير فيها؟، إنها تعني بالنسبة للبعض أن سفينة إيطاليا قد امتلأت، وبالنسبة للبعض الآخر فإن تلك الصور تعني توجيه نداء، كي يتحول الشعور العاطفي الى تقديم المساعدة بكل القدرات المتاحة.

قواعد حسن سلوك خاصة بالمسلمين

يود حزب رابطة الشمال إحتواء إنتشار الإسلام في إيطاليا بصورة قانونية. ففي نهاية شهر آب (أغسطس) 2008م إقترح رئيس الكتلة النيابية للحزب في مجلس النواب الإيطالي، روبيرتو كوتا، أمام المجلس وضع قواعد جديدة للنظام العدلي، في إطار قوانين تتعلق بالإصلاح الفدرالي، بالإضافة الى ماهو مدرج أدناه:

ـ حصر الإسلام في مجال النشاطات الدينية.

ـ نقل الصلاحية ذات الصلة بهذا الموضوع من الحكومة المركزية الى المناطق الإدارية المحليّة. من الوارد في تلك الحالة أن يكون تأثير الحزب كبيرا في المناطق الإدارية المحليّة التي يسيطر فيها وهي مناطق لومبارديا وفاناتيا. ويوجد في مناطق لومبارديا (بما فيها ميلانو) 31 مركزا إسلاميا، وفي فاناتيا 23، وفي لاتيوم (ومعها روما) 20، وفي صقلية 38، وفقا لبيانات وزارة الداخلية.

ـ ضرورة إجراء استفتاء شعبي من أجل الموافقة على بناء مسجد.

ـ يجب أن يكون حجم المسجد متناسبا مع عدد المسلمين الموجودين في المنطقة.

ـ وأن يتحدد موقعه بعيدا عن الكنيسة بمسافة كيلومتر.

ـ وأن يحظر وضع مكبرات صوت على المآذن.

ـ عدم تقديم دعم مالي حكومي لإقامة المساجد، ووجوب الإعلان عن الجهات والأشخاص المتبرعين لبنائها.

ـ لا يجوز إلقاء الخطب والمواعظ إلا باللغة الإيطالية، كما يجب أن يكون أئمة المساجد ورؤساء الطائفة معترفا بهم من قبل السلطات الايطالية.

ـ يجب على المسلمين الاعتراف بعلمانية الدولة، والإلتزام بالإمتناع عن ممارسة تعدد الزوجات.

ـ حظر الممارسات الدينية السرية.

ـ منع ممارسات أنشطة غير دينية في المساجد مثل الأسواق التجارية والمدارس وفعّاليات التعليم والتربية.

إن السياسيين في الإئتلاف الحكومي والمعارضة لا يخشون من تطبيق مقترحات حزب رابطة الشمال وتحويلها الى قوانين كما وردت بالضبط، بقدر خشيتهم من إجراء نقاش علني حولها، كما حدث مثلا عندما عبّر هذا الحزب في شهر تشرين أول (أكتوبر) 2008م بصورة شعبوية عن مطالبته بتعديل قانون لإلغاء تمّتع المهاجرين غير الشرعيين بالرعاية الصحية المجانية (علما بأن تعديل القانون لا يتعلق بالمسلمين فقط ولكن معظم من سيشملهم التعديل هم من المسلمين). يعلن قادة الحزب بكل جلاء ووضوح بأنهم لا يثقون بالمسلمين، ويقولون أنه لا يوجد إسلام معتدل، لأن المسلمين «لا يميّزون بين الدين والسياسة والثقافة»، وأن «الإسلام لا يتفق مع نظامنا القانوني».

وهم يشيرون كذلك الى أن المسلمين في إيطاليا لم يوقعوا أبدا على إعترافهم بهذه الدولة على نحو ملزم، أي أن عليهم توضيح المفهوم القرآني «للجهاد»، الذي يراوح بين الحرب المقدسة والإلتزام الديني المتسم بالإنسجام مع مجتمع تعددي دون تعريض المواطنين للخوف. إذن فإن الحزب يضع مسؤولية تقديم الدليل على عاتق المسلمين أنفسهم، طالبا منهم التدليل على أن سلمية الإسلام لا تشكل بالنسبة لهم مسألة إيمانية.

برنامج حكومي بابوي

ما موقف البابا الألماني بصفته رئيسا لأساقفة إيطاليا، بعد مضي يوم واحد على الإحتفال ببداية تسلمه سلطته البابوية في ساحة بطرس؟. إستقبل بينيديكت السادس عشر بتاريخ 25 نيسان (أبريل) 2005م شخصيات لها سلطة دينية تمثل أديانا أخرى.

وتضمّن بروتوكول الفاتيكان في روما دعوات وجهت الى «ممثلين عن الكنائس

والطوائف المسيحية وكذلك الى ممثلين عن أديان أخرى غير مسيحية» للإجتماع مع البابا في صالة كليمينتينا في القصر الرسولي. ولم يكونوا كما بدا أقل تأثرا بهذا الحدث من غيرهم.

ففي اليوم السابق تابعوا مثل مئات الآلاف من المؤمنين ومثل أعضاء الوفود الحكومية من كل أنحاء العالم الذين اصطفوا بخشوع، مراسيم الإحتفال المثير بتنصيب البابا، الذي استغرق ما يقارب الثلاث ساعات، حيث لم يتواجدوا في ساحة بطرس فحسب، بل في طريق ديلا كونسيلياسيوني حتى مبنى إنجلزبورغ وفي الشوارع المحيطة بحي بورغو. لقد حذر البابا، وهو أعظم زعيم ديني في العالم، «العظماء والأقوياء في العالم»، الذين يخشون من تجريدهم بعض سلطتهم نتيجة حرية الدين والتزام المؤمنين بعقيدتهم، وقال: »نعم»، سوف ينتزع من سلطتهم ما يتصل: «بسيطرة الفساد، وكسر القوانين، والتعسف، بينما لن يؤخذ منهم شيء متعلق بحرية الإنسان وكرامته وبناء المجتمع القويم».

وكما كان يوسف راتسينجر وهو ما زال كاردينالا مديرا لهيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة يهاجم الإيديولوجية الشيوعية ويصفها بأنها «عار العصر الذي نعيش فيه»، فإنه وجه ضرباته مرة أخرى لسياسة العنف وقال:

> *«جميع الإيديولوجيات القائمة على العنف تبرر سلوكها بهذه الدوافع: وهي تودّ بهذه الطريقة تدمير كل ما يقف في طريق التقدم وتحرير الإنسانية».*

وهكذا يكون البابا، وهو إنسان مسالم تماما كما يصف نفسه، قد «أعلن الحرب» على كل الإيديولوجيات القائمة على العنف، مهما كانت، وخاصة إذا كانت لها دوافع دينية. إن ممثلي المسلمين في العالم ما زالوا يتذكرون هذه الكلمات، عندما توجه بينيديكت في صالة كليمينتينا بخطابه إليهم قائلا:

> *«إنني لأشكركم بوجه خاص على حضوركم، وأعلن عن تقديري لإطلاق الحوار بين المسلمين والمسيحيين، سواء على الصعيد المحلي أو على الصعيد العالمي. إنني أؤكد لكم بأن الكنيسة سوف تواصل مد جسور الصداقة*

مع أتباع جميع الديانات، من أجل الوصول الى الخير الحقيقي لكل إنسان وللمجتمع بكامله. فالعالم الذي نعيش فيه تعرض مرّات كثيرة للأزمات والعنف والحرب، ولكنه يتوق بجدّ الى السلام، الذي هو قبل كل شيء هبة من الله، والذي يجب علينا أن نصلي من أجله بلا كلل، والذي هو مهمة يتوجب على جميع الشعوب أن تلتزم بها. وينطبق هذا خاصة على أولئك الذين يشهدون بإنتمائهم الى تراث ديني. إن مساعينا في الوصول الى بعضنا البعض وتشجيع الحوار تشكل مساهمة قيّمة في تشييد السلام على قاعدة صلبة. لقد كتب سلفي المبجل، البابا يوحنا بولص الثاني، بمناسبة بدء الألفية الجديدة:(إن إسم الله الأحد يجب أن يكون دائما مطابقا لماهيته التي يكون عليها، إسم السلام وفرض السلام). ولذلك يترتب علينا فرض الدخول معا في حوار حقيقي وصادق، يقوم على إحترام كرامة كل إنسان، الذي خلقه الله على صورته وهيئته، كما نعتقد نحن المسيحيين. وفي بداية تسلّمي لسلطتي البابوية أتوجه اليكم بقلب صادق والى جميع المؤمنين بالتراث الديني الذي تمثلونه والى جميع الناس الذين يبحثون عن الحقيقة بالدعوة الجادة الى أن نصبح جميعا من مقيمي السلام، ومن الساعين الى التفهم والإحترام والمحبة تجاه بعضنا البعض».

لقد كان هذا الخطاب من حيث الجوهر بمثابة برنامج حكومي لرئيس أساقفة إيطاليا فيما يخص العلاقة مع الإسلام والمسلمين.

الفصل السابع

روما بوصفها حالة خاصة ـ الأسقف البابوي ومسجد روما ـ مراسيم تعميد

حالة من التحدي

كان البابوان كلاهما بوصفهما أسقفين لروما متفقيْن فيما بينهما. فعندما لم يعد بإمكان البابا بولص السادس والبابا يوحنا بولص الثاني إعاقة بناء مسجد ومركز إسلامي في روما، المدينة الخالدة، أو عندما لم يكونا راغبيْن في الإعاقة فإنهما أفصحا عن وجهتي نظرهما بنفس التشديد، حيث اعتبرا أن مثل هذا المسجد يشكل تحديا، علما بأنه ظل يشكل بصورة أو بأخرى أكبر مساجد أوروبا لسنوات طويلة.

ولكن المسجد، كما قال البابا بولص السادس حينما وافق على بنائه في سنوات السبعينات، يعد «رمزا للتسامح» في أرقى وأجلّ المدن الثقافية للعالم الغربي.

وقد صرّح البابا يوحنا بولص الثاني بمناسبة إفتتاح المسجد بتاريخ 21 حزيران (يونيو) 1995م، بأنه يعد «أوضح إشارة الى حرية الأديان المعترف بها هنا لجميع المؤمنين».

وبعد أن تلفظ رئيس الكنيسة الكاثوليكية بكلمة «هنا» في مستهل حديثه، بدا من الفاتيكان وكأنه يرمق ممثلي الدول العربية والإسلامية بحدّة من مسافة تبعد خمس كيلومترات، وتابع الحديث موضحا بأن عليه الإقرار مع الأسف بأن مثل إشارات الإعتراف هذه هي ناقصة في بعض البلدان الإسلامية.

فهل أصبحت الأمور كلها واضحة؟! لكن سكان روما المتّسمين باللامبالاة، سرعان ما تساءلوا قائلين، لماذا لا يكون هناك مسجد في روما أيضا؟ فالكنائس موجودة بشكل كاف، على الأقل في وسط المدينة الخالدة، كما يوجد فيها أيضا كنيس لأتباع الديانة اليهودية منذ بداية القرن العشرين في موقع مركزي بين نهر التيبر والكابيتول. وهكذا احتُفل رسميا بافتتاح المسجد للغرض الذي أُنشئ من أجله في شهر حزيران (يونيو) من عام 1995م، بعد صعوبات امتدت سنوات طويلة، ومضي عامان على الإفتتاح غير

الرسمي للمركز الإسلامي، الذي يضم مبنى للصلاة ومئذنة طولها 39 مترا. وقد حضر الاحتفال الرسمي كل من الأمير السعودي سلمان بن عبدالعزيز آل سعود ورئيس الدولة الإيطالية سكالفارو. ورحّب حتى الحاخام الأعلى لليهود في مدينة روما السيد تواف باقامة هذا المجمّع الإسلامي في منطقة مونت أنتين/شمال المدينة.

وكادت تنعدم إمكانية بناء بيت العبادة الإسلامي هذا، لولا روح التسامح المسيحي السلمية المتسمة بالرغبة في بنائه الى درجة كبيرة أو أقل، ولولا موافقة الفاتيكان الناظر الى مكة في إطار المعاملة بالمثل.

«بناء صرح تذكاري للإسلام»

هل يستفز المسجد ومئذنته مشاعر سكان روما؟، إن على المرء النظر بدقة نحو تماس الشمال والشرق في روما بين الإستاد الأولمبي وطريق سالاريا، حتى يتمكن من إدراك وجود المسجد أصلا.

ولكن الناظر يلاحظ منه أكثر من ذلك في يوم الجمعة، لأن حركة المرور تبدأ بالإزدحام مبكرا إبتداء من فترة الظهيرة، عندما يريد المئات، الذين يشكلون جزءا قليلا من عدد المسلمين في مقاطعة لاتيوم البالغ خمسين الى ستين ألف مسلم، الوصول الى المجمّع الإسلامي في وقت واحد لتأدية الصلاة. وربما يكون عدد المسلمين أكثر من ذلك، لأن الرقم الحقيقي الكبير للمهاجرين المسلمين من آسيا وأفريقيا، الذين لا يتمتعون بوضعية إقامة شرعية، غير معروف.

ويرى البعض في ذلك «توسعا إسلاميا». ويستطيع الشخص الملتفت من الطريق السريع أن يشاهد المئذنة والمبنى الرئيسي من بين الأشجار على منحدرات «فيلا آدا» أسفل «مونت أنتين». ومن يسافر الى هناك يجد نفسه فجأة في بلاد الشرق، في سوق تعج بالنشاط تلبّى فيها جميع رغبات الإستهلاك الشرقية.

في هذا «الصرح التذكاري الفخم للإسلام»، كما جاء في نص الإفتتاح، يصلي مسلمون من بلدان كثيرة وهم يشاهدون بين ركوع وسجود. ولا يكون الإزدحام شديدا في منطقة

المسجد الواسعة البالغة قرابة ثلاثة هكتارات، إلا عندما يحين موعد صلاة الجمعة، حيث يمكن أن يصل عدد المصلين الى ما يزيد على ألف شخص. وما عدا ذلك فإن الملل هو سيد الموقف. فحتى في المناسبات الخاصة بالإحتجاجات لا يقفز عدد المسلمين الى أعلى بشكل مفاجئ، ولا تصبح صلواتهم أكثر إلحاحا، ولا تزداد قوة الجهد الكهربائي المغذي لمكبرات الصوت، مراعاة لسكان منازل التلال القريبة من منطقة باريولي. بعد الصلاة يبدو أحيانا بعض الإنفعال على المشاركين فيها، سواء كانوا من المغرب أو السودان أو الصومال.

وهم يدافعون عن أنفسهم ضد رميهم بالتطرف أو التعبير عن الإشتباه الخافت بهم، ويقولون إنّ المسلمين المؤمنين هم بشر مسالمون، وإنّهم «والله العظيم واثقون من ذلك»، مؤكدين على مسالمة المسلمين وخاصة إذا لم يقم أحد باستفزازهم.

لقد خصصت إدارة مدينة روما خط سير للحافلات لتسهّل على المواطنين المسلمين تأدية فرائضهم الدينية، بحيث لا يستطيع أحد أن يلوم أصحاب الشأن في بلدية المدينة، سواء كان القائمون عليها يساريين أو يمينيين، بأنهم غير مستعدين للتسامح الديني. إن المركز الإسلامي الذي يبعد قرابة 300 متر عن طريق أوليمبيكا، يتمتع بشبكة مواصلات جيدة، فقطارات الضواحي لخط سكة الحديد لشمال روما لها محطة وقوف بالقرب من المركز الرياضي كامبي سبورتيف.

والنسبة المئوية للمسلمين الذين يصلّون في المسجد لا تكاد تكون أعلى من نسبة الكاثوليك الذين يرتادون الكنائس في روما، فهي تبلغ 5٪ تقريبا. ولا ينبغي في هذا السياق ترك إمكانية للوم بناة المسجد بأنهم لم يأخذوا الزيادة في المستقبل بعين الإعتبار. فمن الممكن أن يستوعب المسجد ذو القباب المفلطحة والأدراج الصاعدة الفاخرة، والمركز الثقافي مترامي الأطراف، أعدادا متزايدة من الزوار والمصلين في بهوه الواسع جدا والمخصص للصلاة.

لقد حُدد أحد أيام الأسبوع العادية، لزيارة المسجد من الساعة العاشرة صباحا الى الساعة الواحدة ظهرا. وعندما يصل الزوار القليلون فإنهم يصلّون في المساحة الواسعة،

بينما يظهر حارس أسود اللون ذو أصل إفريقي ويتقن التحدث ببعض المفردات الألمانية، طالبا من النساء الزائرات بلهجة مؤدبة وضع غطاء على الرأس.

وحينئذ يدخل الجميع الى المسجد الذي يوجد بداخله محراب ومنبر، وأناس حفاة الأقدام، بناء على هذه التعليمات غير المألوفة.

إن أشكال البناء الشرقية والزخارف لا تبدو غريبة على نحو خاص في روما، أهم مدن الفن في العالم الغربي، وهي التي كانت منفتحة على المؤثرات الخارجية دائما.

في الأحاديث السياسية التي تدور في الوزارات الإيطالية وفي الفاتيكان حول المسجد تتسم أسارير وجوه المشاركين في الحديث دائما باللطف، إذ أن من المعروف هنا كيف أقيم المسجد في روما المسيحية المقدسة.

فقد شهد عام 1973م الموافق لسنة 1394 هجرية الزيارة الرسمية لعاهل المملكة العربية السعودية الملك فيصل الى إيطاليا، في الوقت الذي بدأ فيه العرب ينظرون الى ثرواتهم الطبيعية باعتبارها أداة سياسية ممتازة. وكان الذي ينقص المدينة الخالدة روما بكنائسها الكثيرة، هو مكان للصلاة.

ولذلك لم تبخل المملكة بتمويل هذا الصرح التذكاري الضخم، الذي قام بوضع خططه مهندسان معماريان إيطاليان وآخر عراقي. وساهمت فيه بالإضافة الى العربية السعودية وفقا لقائمة الدول التي شاركت ببنائه 22 دولة أخرى «بعون الله الرحمن الرحيم»: دول تبدأ بحرف الألف مثل الجزائر وتنتهي بحرف الياء مثل اليمن.

وعندما تشارك 23 دولة في عمل خيري مثل إنشاء مكان للعبادة، فإن من الصعب على روما أن ترفضه. قام المسؤولون في روما بإبطاء إنجاز البناء قليلا، بعد أن كانت إدارة المدينة قد وضعت قطعة الأرض مجانا تحت التصرف. لكن بناء المسجد أنجز في أحد الأيام من عام 1993م مما شكل مفاجأة على وجه العموم. وكان من الوارد تأجيل «الإفتتاح»، إلا أنه أيضا تم في النهاية عام 1995م.

لم يزعج التسامح الذي تم التعبيرعنه بما يتفق مع الواجب سوى القليل من «عتاة المحافظين»، ربما بكل بساطة لأنهم من الكاثوليك المؤمنين بشكل متميز، مثل الرئيسة

السابقة لمجلس النواب الإيطالي، إيرينه بيفيتي.

لقد قام هؤلاء بأداء صلاة المسبحة[1]، وكان القليلون منهم يعرفون بأن إنتصار العالم الغربي البابوي على الأتراك في المعركة البحرية التي نشبت بالقرب من ليبانتو بتاريخ 07 تشرين أول (أكتوبر) 1571 صار يعزى الى صلاة المسبحة هذه. ومن المحتمل أن كاثوليك روما أرادوا مواساة المسيحيين السماويين بخصوص هذه المنافسة التي حصلت في «مدينتهم»، علما بأن هذا الإنزعاج لم يتحول على العكس من ذلك الى حملة صليبية.

الحاخام الأعلى في روما يزور المسجد

لقد تحول المسجد من مكان يبعث على الإنزعاج الى مكان يخدم اللقاءات السلمية. فلأول مرة في التاريخ نُظم استقبال رسمي لحاخام أعلى وهو ريكاردو دي سيجني في أحد المساجد، عندما استقبل بالترحاب ومعه رئيس الطائفة اليهودية في روما، ليوني باسرمان، في المسجد بتاريخ 13 آذار (مارس) 2006 م من قبل مدير الرابطة الإسلامية العالمية في ايطاليا ماريو سيكياجولا والأمين العام للجالية الإسلامية هناك عبدالله رضوان. وعبّر سكياجولا عن إمتنانه من أن هذا اللقاء أجري «في المركز الثقافي الإسلامي وليس في كابيتول روما أو أي مكان آخر».

وقال دي سيجني: «يجب علينا أن نكتسب خبرة الحوار. وعلينا المشاركة في صنع شروط السلام». وتطرّق الى الخلاف الراهن حول ما نشر في البداية في الدنمارك من رسوم كاريكاتورية تسيء الى النبي محمد، فقال: «إن النضال ضد الخوف من الإسلام وضد اللاسامية يجب أن يسير متوازيا، ولا يجوز خنقه بأمثلة وموجات من اللاتسامح».

وتحدث رضوان عن موضوع الخلاف بسبب تلك الرسوم قائلا: «هذه الحكاية عكّرت صفونا وجرحت مشاعرنا، ولكنها لم تجعلنا نفقد الثقة في البشر». ووصف رئيس بلدية روما الأسبق، فيلتروني، زيارة الحاخام الأعلى للمسجد بأنها «حدث تاريخي». وأثار

1- ترتبط هذه الصلاة الكاثوليكية بالمسبحة التي تتكون من ثلاث وثلاثين حبة، إشارةً الى عمر يسوع في التصور المسيحي.

عضو مجمع الكرادلة، الكاردينال مارتينو، رئيس «المجلس البابوي للعدل والسلام» فكرة إيلاء إهتمام أكبر بالقرآن في إطار الدروس الدينية الكاثوليكية والمسيحية في أوروبا.

وبذلك أصبح من الممكن تشجيع الإحترام والتفهم لدين عالمي كبير. واستقبل البابا بنديكيت السادس عشر الرئيس المصري مبارك في اليوم نفسه، الا أن هذا لم يكن سوى لقاء عمل روتيني محض.

تعميد أحد المسلمين من طرف البابا

ظلت روما مدينة للسلام، حتى ولو كان من الممكن اندلاع موجة غضب إسلامية تحت راية الهلال، بسبب قيام البابا بينيدكت السادس عشر ليلة عيد الفصح عام 2008م بتعميد مسلم معروف. فارتداد أحد المسلمين عن دين النبي محمد يعد خطيئة كبيرة تتطلب إنزال عقوبة صارمة بمرتكبها. وهكذا أثار هذا التعميد الدهشة، لأن البابا بدا وكأنه يستفز الإسلام بلا ضرورة. وربما كان ذلك سيؤدي الى حدوث بلبلة في الجانب الإسلامي والى تعريض المحادثات التي تم الإتفاق على إجرائها بين القيادات الكاثوليكية والمسلمين للخطر. ولهذا خرجت همهمات حتى من أفواه المستعدين للحوار، وطرحت تساؤلات لها مسوغاتها.

يستند البابا على نحو مباشر فيما قام به الى أنه اعتاد وفقا للتقليد أن يقوم بتعميد الكبار ليلة عيد الفصح، وكان الذي عُمّد يوم السبت الحزين هذا بتاريخ 22 آذار (مارس) شخصية مميزة، صاحبها هو الدكتور مجدي علام، الصحفي المصري المعروف، والنائب الشخصي لمدير تحرير صحيفة «كورير دي لا سيرا» الإيطالية، وفقا لما صدر عن المكتب الصحفي للفاتيكان مساء نفس يوم السبت، في ظل المعرفة التامة للإثارة التي سيحدثها التحول من الإسلام الى المسيحية الكاثوليكية.

فمجدي علام هو مسلم ليبرالي، كان يكتب باستمرار في هذه الصحيفة الإيطالية الهامة ويحذر من الإسلام وتوجهاته التوسعية ومبادئه المناهضة للحرية، ولذلك فانه كان يعيش تحت حماية الشرطة.

وقد دار نقاش في الصحف الإيطالية استمر أياما حول هدف هذا التعميد البابوي ومغزاه، كما أوضح مدير المكتب الصحفي للفاتيكان، وهو الأب اليسوعي لومباردي، قائلا بأن الحرية الدينية هي قناعة مسيحية و»غربية»، وتشمل حرية تبديل الدين، بينما حافظ الكاردينال تاوران، وهو الرئيس المسؤول «لمجلس الحوار بين الأديان» على صمته حيال ذلك.

ان هذا المبدأ الليبرالي، الذي يتزايد توكيده في أوساط الفاتيكان بتعبيرات مقتضبة، يعد بالنسبة للمسلمين، كما يمكن للمرء اليوم أن يعرف ذلك، بمثابة إعلان حرب.

وتبديل المسلم لدينه يعد ردة ربما تقوده الى حتفه، مما يبرر طرح التساؤل: لماذا قام بينيدكت اذن بإجراء هذا التعميد، إذا كان غير مفيد للحفاظ على الأمن الشخصي لمجدي علام أو للحوار الذي خطط له البابا بنفسه؟، إن قداسته لا يقوم بتعميد أي شخص، فوفقا للعمل الإعتيادي في الفاتيكان كان بإمكان أي كاهن في روما، أو حتى الكاهن العام المساعد فيها، الكاردينال روويني، القيام بمهمة قبول تبديل الدين من خلال إجراء التعميد.

ولكن بينيديكت ربما لم يكن يعلم من هو الشخص الذي قام بتعميده. وفي روما تم الإكتفاء بما ابداه المعنيون من ردود الأفعال.



الفصل الثامن

بواعث ـ موضوعات خلافية ـ نقاط إحتكاك ـ حالات إصطدام

لقد تقبل البابوات بشكل من الأشكال وجود المسجد في روما، حيث أن من غير الممكن مشاهدة هذا «الصرح التذكاري الفخم للإسلام» ومئذنته، لا من مرتفع القصور الرسولية ولا حتى من «برج الرياح» فوق مكتبة الفاتيكان، فالتلال تحجب الرؤية. ويكاد المسجد يصبح أمرا عاديا في المدينة الخالدة، روما، كما أن عدد المصلين الذين يؤمونه ظل في حدود معيّنة. وأصبح من المستلزم بالإضافة الى ذلك إجراء إصلاحات على بهو الصلاة بعد مرور ثلاثين عاما على وضع مخططاته وثلاث سنين منذ يوم إفتتاحه في خريف عام 2008م، وصارت هياكل الدعامات تؤثرعلى صورته المشرقة.

إن المسجد الضخم هذا لا يكاد يشكل حجرعثرة، أي سببا للخلاف على بنائه بالنسبة الى سكان روما، وإنما صار بمثابة دليل على التسامح الديني للبابوات، وعلامة على وجود دين أجنبي آخر في روما.

أوردت مجلة دير شبيجل الألمانية، بمناسبة إفتتاح مسجد الطائفة الأحمدية في برلين ـ ضاحية هاينرزدورف، في أواسط شهر تشرين الثاني (أكتوبر) 2008م، في عددها رقم 41 /2008 مقالا في أربع صفحات حول بناء المساجد تحت عنوان: «الجارة المعيقة»، أي ماهية العوامل التي تشكل الإعاقة بسبب امكانيات الخلاف، وضمنت مقالها العبارات التالية:

«لقد تم التخطيط لبناء عدة مئات من المساجد الجديدة، في كل أنحاء أوروبا وخاصة في ألمانيا، وغالبية هذه المساجد فاخرة، بينما أصبح طرازها المعماري يشكل ساحة لنزاع إيديولوجي مرير حول المكانة التي يتعين على المجتمع الغربي أن يوليها للمواطنين المسلمين». وانتهى مقال المجلة الذي كتبته أولريكه كنوفل، بهذا التنبيه «الناعم»:

«يتحمل الجميع مسؤولية نجاح مساعي الإندماج في المجتمع، والمفروض أن تذكرنا المساجد بذلك».

لكن الصحيفة البرلينية «تاجيس شبيجل» أبدت مقابل ذلك حماستها وأعربت عنها بقولها: «تهانينا»، إلا أن الجهة المخاطبة بالتهنئة ظلت مجهولة، فلمن وجهت الصحيفة تلك التهاني؟، هل هي لطائفة الأحمدية؟، أم للمسلمين في ألمانيا أو في أوروبا عموما؟ أم لسكان برلين؟ أم للمسيحيين؟، لقد أوردت في ختام مقالها ما يلي:

«إن هناك إحساسا بأن الكاثوليك والبروتستانت يشعرون بالتشجيع من خلال الحماس الديني الإستعراضي للمسلمين. فالمنافسة تروّج التجارة، مما ينطبق على المسائل الدينية أيضا».

وهل هذا صحيح حقا؟، بعد أسبوعين نشرت إدارة تحرير «ديرشبيجل» ثلاث رسائل لقرّاء حول هذا الموضوع، تعكس طيف الآراء على نحو مفيد تماما.

تُبيّن «دير شبيجل» وبصورة مثالية من خلال رسائل القراء أيضا تلك المجالات الإسلامية التي يوجه اليها بينيدكت السادس عشر إهتمامه.

فالمجال الأول يمثل الإسلام الحديث المعتدل. ويبدو لكاتبة الرسالة، وهي مهندسة معمارية وزميلة للمهندسة في نفس التخصص، مبشرة إلياس، التي بنت المسجد في برلين، «أن هناك إسلاما جديدا تماما ومتسما بترابط شديد بدأ يتشكل على خلفية مجمل النزاع الثقافي: إسلاما تذوب فيه القيم الشرقية والغربية، يتخذ له شكلا جديدا... وينعكس منه نمط حياة تجديدي أيضا».

ورأت الكاتبة أن إقامة البناء من طرف إمرأة يبين ما تستطيع النساء المسلمات إظهاره من القدرة والكفاءة، إذا أتيحت لهن الفرص. ولا بد من الإضافة هنا أن بإمكانهن أيضا تسلم الإمكانيات، مثلما يحدث كثيرا هنا وهناك في العالم الإسلامي، لأن من الممكن بالفعل التوقع بأن تقوم النساء المسلمات بما يعد أمرا ثوريا في المجتمعات الإسلامية، وهذا ما يعبّر القادة الدينيون المسلمون عن خشيتهم منه.

إن موضوع مكانة المرأة في الديانة المسيحية ـ حيث على المرء أن يتذكر الحظر البابوبي المفروض على النساء لتقلد منصب قسيس ـ وفي الإسلام، مع ما فيهما من إختلاف وتشابه، ليحتاج الى بحث خاص به.

لقد قام البابا بينيدكت السادس عشرعبر خطاباته التي ألقاها خلال زيارته لتركيا في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2006م بتذكير القيادات السياسية والدينية في أنقرة، بأن الدولة التركية بزعامة كمال أتاتورك كرّست نفسها في القرن العشرين لإنجاز ثورة، أو بالأحرى لإحداث تطورهادف الى الخروج من إسلام ما قبل الحداثة.

وقد تم الإحتفال خلال معرض الكتاب الدولي عام 2008م في فرانكفورت بتحرر الكُتّاب الأتراك في ميدان الأدب ذي الطابع الإسلامي وذي النزعة الفارسية ـ الصوفية، مصحوبا برفض الدولة القومية التركية والإمبراطورية العثمانية الإسلامية. إنها مشكلة إسلامية داخلية ـ فهل يمكن الجمع بين الإسلام والحداثة في ذات الوقت؟ وهل يمكن أن يتوّج ذلك بالنجاح؟ ـ إن لحل هذه المشكلة أبعادا سياسية عالمية.

وفي رسالة القراء الثالثة وردت مطالبة ـ بشكل متجرد ومفسد للعبة قليلا ـ بإجراء بسيط تماما لبناء الثقة: وهو المتضمن السماح ببناء مسجد في ألمانيا مقابل كل كنيسة يتم بناؤها في البلدان الإسلامية التي تأتي منها أموال لتمويل بناء هذا المسجد.

وبما أن رواد الدعوة لإسلام أوروبي لا يكلّون عن ترديد ما يفيد بأن «الإسلام يعني السلام والتسامح الديني» ـ على طريقة طواحين الصلوات البوذية ـ، فإن من المفروض أن لا يُعد هذا الإجراء مشكلة على الإطلاق»، بما يبرر طرح السؤال: ألا ينبغي استنادا إلى التسامح والتعددية وحرية الدين أن تكون المعاملة بالمثل؟، وإذا حسبنا 2600 صالة عبادة للمسلمين و150 مسجدا مزينة بأنماط المعمار الشرقي البارز في ألمانيا، فإن هذا يعني أن هناك حاجة شديدة لتلافي النقص لصالح الطرف المسيحي، فهل هذا الرأي هو مجرد مماحكة؟، إن الفاتيكان يراقب بفضول عارم، كيف تواجه اليوم تلك المساعي الرامية الى بناء كنيسة صغيرة للرسول بولص في طرسوس، جنوب تركيا مقاومة إسلامية.

أما كاتب الرسالة الثانية فتبنّى بالمقابل وجهة النظر القائلة بأن جميع الأديان متساوية، متسائلا في رسالته:

«ما الذي يُميّز أتباع المعتقد الإسلامي عن أتباع الكنائس الشعبية الكبرى، أو أتباع المعتقد اليهودي، أو المعتقد البروتستنتي المنونيتي، أو المسيحيين المستقلين عن الكنائس،

أو أي معتقد ديني آخر؟». لم يعبر كاتب هذه الرسالة من القراء سوى عن رغبته في «زيادة درجة التقوية للسلوك الإندماجي لدى المسلمين داخل المجتمع».

من الواضح أنه يعني، بأن على المسلمين الإلتزام بالقانون الأساسي والقواعد الديموقراطية التعددية للمجتمع، الذي يعيشون فيه. وهنا بالضبط تنفتح مجالات الأزمة، التي لا يمكن أن يغفل عنها إلا من يعد الدين أمرا لا أهمية له للمجتمع، أو من لا يرى جواز منح الدين أهمية، بسبب الفصل المعهود بين الكنيسة والدولة في المجتمعات الغربية، مما يعني أن تترك المسالة كما هي بدون التوصل الى نتائج.

وفي هذا السياق يعترض بينيديكت على هذا النهج بشدة، ويسوق الحجة المعروفة، بأن الدولة والمجتمع يعيشان ضمن شروط لم يصنعاها بأنفسهما، وبأن الأسس الأخلاقية للعيش الإنساني المشترك تنطلق من جذور مسيحية حتى في المجتمعات العلمانية.

إن البابا يوحنا بولص الثاني والبابا بينيديكت السادس عشر بالذات، هما اللذان كانا يشكوان المرة تلو الأخرى من أن هذا الميراث أصبح في طيّ النسيان، وأنه يتعرض للكبت والضياع.

وهما يقولان بأن على القادة الكنسيين، والساسة الليبراليين كذلك، أن يقلقوا ويكونوا مهتمين بالحفاظ على هذا الإرث المسيحي الخالص، الذي أصبح في القرن الواحد والعشرين إرثا بطرسيا عاما، وخاصة فيما يتعلق بالكرامة الفردية لكل إنسان، لأن العديد من القرارات ذات الصلة بالمجتمع والفرد تتوقف على هذا الأرث، وما عدا ذلك فان تجاهل الإرث هذا يؤدي الى الخلافات والإحتكاكات والإصطدامات، والى الإستنتاج المفاجئ في المجتمع التعددي بأن المسلمين الأصوليين يريدون حياة أخرى، ليس في بلد واحد فحسب، وإنما في العالم الغربي أيضا، بما فيه من الكنائس وزوايا العبادة.

ويجري استعراض إشكالية غرابة الفروض الإسلامية وميل المسلمين ونزعتهم الى السيطرة الدينية في آخر التقارير المنشورة عام 2008م في الصحيفة الإيطالية «كورير دي لا سيرا»، والصحيفتين الألمانيتين «فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج» و «فرانكفورتر ألجماينه/ زونتاغس تسايتونج»، والإيطالية «لا ريبوبليكا»، و المجلةالألمانية «دير شبيجل»، أوالمجلة

الأميركية «تايم». ومن هذه التقارير يمكن استخلاص ما يأتي:

ـ قام القضاة المسلمون في مدينة شيزيماو في جنوب الصومال، التي تسيطر عليها الميليشيات الإسلامية، بالحكم على عائشة إبراهيم دوهولو، وعمرها 23 سنة، بالرجم بتهمة إرتكاب الزنا، على أن يتم الرجم «بحجارة متوسطة الحجم»، وفقا لما تطلبه الشريعة، حتى لا تحدث الوفاة بسرعة أو ببطء. وقوانين الرجم موجودة في الكثير من بلدان العالم الإسلامي، إلا أنه لا يتم العمل بها، بل يبقى الأمر متروكا للمتعصبين دينيا. (المصدر: كورير ديلا سيرا، بتاريخ 2008/10/29م)

ـ تم في أفغانستان الحكم بالإعدام على صحفي عمره 23 سنة بتهمة التطاول على الذات الإلهية، إلا أن حكم الإعدام لم ينفذ فيه، بل أودع السجن لمدة 20 عاما، عقوبة له، زعما بأنه أهان الإسلام في مقالة كتبها، وبأنه قام بتفسير آيات قرآنية بصورة خاطئة. (المصدر: فرانكفورتر ألجماينة تسايتونج، بتاريخ 2008/10/22م)

ـ وجّهت الإيرانية، شيرين عبادي، وهي حاملة لجائزة نوبل للسلام لعام 2003م، متخصصة في الحقوق ومدافعة عن حقوق الإنسان، في كتابها الجديد، إتهاما لنظام حكم «آيات الله» بقولها، أنه لا يُسمح لأهالي المعارضين حتى بالحداد على موتاهم بشكل علني. (المصدر: كورير ديلا سيرا، بتاريخ 2008/10/20م).

ـ في طهران يتزايد عدد سائقات التاكسي، المغطيات بثياب سوداء حتى الرأس واللواتي يشرن الى أين تتجه الطريق، والى أن النساء يستطعن الكسب أكثر من الرجال. (المصدر: مجلة تايم، بتاريخ 2008/10/20م).

ـ شكا الأساقفة الإسبان خلال انعقاد المجمع الكنسي الكاثوليكي في روما من عدم تطابق حقوق النساء في ما يتعلق بشؤون الزواج والعائلة في الإسلام، مع مضمون الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة، معبرين عن نصيحتهم بالحذر في الحوار مع المسلمين. (المصدر: لا ريبوبليكا، بتاريخ 2008/10/18م).

ـ خلال مباراة كرة القدم بين فرنسا وتونس في باريس صار المشجعون الشباب للفريق التونسي، وهم مواطنون فرنسيون ذوو أصول تونسية، يصفرون أثناء عزف النشيد

الوطني الفرنسي. وعلى إثر ذلك بدأت الحكومة الفرنسية تدرس إمكانية تعليق المباريات، إذا حصلت إهانة للشعارات الوطنية. (المصدر: كورير ديلا سيرا، بتاريخ 2008/10/16م).

ـ أصبح من المستلزم التحلي بالكثير من الشجاعة في إيطاليا– كما يقال– لنشر رواية الكاتبة الأميركية، شيري جونز، حول السيدة، عائشة، بعدما تم التنازل عن نشرها في الولايات المتحدة الأميركية. (المصدر: كورير ديلا سيرا، بتاريخ 05 و 2008/10/09م).

ـ رفض، محمد أحمد، وهو مستخدم في أحد الأسواق التجارية الكبيرة، عمره 32 سنة، وضع قوارير كحول على الرفوف، وقام برفع شكوى ضد رب العمل الذي يستخدمه أمام محكمة في بيرمينجهام. (المصدر: كورير ديلا سيرا، بتاريخ 2008/09/30م).

ـ قامت عائلات تركية من الطبقة الإجتماعية المتوسطه المندمجة جيدا داخل المجتمع الألماني بتأسيس مدارس خاصة في ألمانيا، لأنها ترى أن أطفالها يتعرضون للغبن في نظام التعليم الحكومي، مما جعلها تواجه مقاومة. (المصدر: دير شبيجل، بتاريخ 2008/09/29م).

ـ قام الرئيس الإيراني بإجراء مشاورات حول قوانين لإصدار عقوبة الإعدام ضد من يرتد عن الإسلام، وعقوبات صارمة ضد من يهين النبي أو الإسلام، وضد النساء اللواتي ينتهكن نظام الزي الاسلامي. (المصدر: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج/ زونتاغس تسايتونج، بتاريخ 2008/09/28م).

ـ أثارت طبعة قرآن تتضمن صورا صغيرة مخصصة للأطفال، أصدرتها دار النشر الألمانية «بيك»، لتبيان ليبرالية وحداثة الإسلام وخلوه من العنف، إنتقادا من طرف المسلمين المتشددين. (المصدر: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، بتاريخ 2008/09/18م).

ـ قبلت محاكم في بريطانيا أحكاما صادرة عن مسلمين وفقا للشريعة الإسلامية، في مسائل تتعلق بالطلاق والعنف داخل الأسرة والخلافات المالية، دون الأخذ كثيرا بعين الإعتبار ظهور نظام قضائي مواز أو أن النساء رفضن هذا الإختصاص. وقيل أن هذا أمر مقبول، لأن هناك قانونا يُستند اليه في الفصل أصلا، بدلا أن تتم الأمور في الخفاء. (المصدر: كورير دي لاسيرا، بتاريخ 2008/09/15م).

ـ تقوم النساء بأعداد متزايدة في إندونيسيا بدق أوشمة، إشارة الى نهوضهن للمطالبة بحقوقهن، حيث أن من غير الجائز للمسلمين دق الوشم، رغم أن القرآن لا يمنع ذلك بشكل مباشر. (المصدر: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، بتاريخ 2008/09/14م).

ـ أنهى مجلس التنسيق للمسلمين في ألمانيا التعاون مع الأستاذ الوحيد الذي له كرسي تعليمي للشريعة الإسلامية في ألمانيا، وهو محمد كاليش، لأنه يمثل وجهات نظر حديثة ويشكك بالفقه التقليدي. (المصدر: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، بتاريخ 2008/09/08م).

ـ قام أحد حرّاس متحف «كاريتسونيكو» في مدينة البندقية الإيطالية، بحظر دخول سائحة مسلمة محجبة، وفقا للتعليمات الأمنية، وحظي هذا الحارس في شمال إيطاليا بإطراء أكثر مما وُجّه اليه من اللوم. (المصدر: لا ريبوبليكا، بتاريخ 2008/08/27م).

ـ وفقا لتقرير صادر عن الأمم المتحدة، فإن قرابة ستين مليون فتاة بين سن الثامنة والرابعة عشرة يصبحن ضحايا للزواج القسري كل سنة في جميع أنحاء العالم. وتقع البلدان الإسلامية الفقيرة في موضوع الزواج القسري في رأس القائمة. (المصدر: كورير ديلاسيرا، بتاريخ 2008/08/24م).

ـ أعلنت نقابة الأطباء المصريين متأثرة بالضغط الذي مارسه الإخوان المسلمون عن معارضتها لنقل الأعضاء بين مسلمين ومسيحيين، وبررت ذلك بالإشارة الى منع التجارة بالأعضاء. (المصدر: كورير ديلاسيرا، بتاريخ 2008/08/20م).

ـ ستعمل نساء مسلمات في المغرب في مجال الوعظ الديني من أجل التخفيف من التطرف والإرهاب وتعزيز مكانة المرأة، وذلك بموافقة الملك. (المصدر: مجلة تايم، بتاريخ 2008/08/18م).

ـ تجد الكاتبة الألمانية ـ التركية، خديجة آيكون صعوبة في إفهام والديها بأنها حامل، ولكنها لا تريد الزواج من رفيق حياتها. (المصدر: دير شبيجل، بتاريخ 2008/08/25م).

ـ جرى نقاش حاد قبل وخلال وبعد إنعقاد مؤتمر حول الإسلام في ألمانيا حول العلاقة بين الديموقراطية والإسلام والحداثة. وقد وجّه الكاتب، رالف جوردانو، انتقاده الى وزير

الداخلية، شويبله، قائلا:

«إن إظهاركم هذا القدر الكبير من التفهم يثير لدي المخاوف». (المصدر: فرانكفورتر ألجمايه تسايتونج، بتاريخ 2008/03/02م).

ـ يطالب المثقفون بإجراء مناقشة عامة حول هذا الموضوع خارج الأبواب الموصدة، لأنه يتعلق «بكل ما تعنيه الحرية في أوروبا». (المصدر: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، بتاريخ 2008/03/13م).

ـ كتبت المسلمة العلمانية، نجلاء كيلك، بهذا الخصوص، إنّ التعاون مع المنظمات الإسلامية لا يمكن أن يؤدي الى بناء «دولة تتفق مع تصوراتنا للديموقراطية»، وأضافت: «إنهم يريدون ألمانيا أخرى». (المصدر: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، بتاريخ 2008/03/14م).

ـ بعد موت الأسقف بولص فرج الذي اختطف في الموصل، صرّح عضو مجمع الكرادلة ورئيس المجلس البابوي للعدل والسلام، ريناتو مارتينو، بأن المسيحيين في العراق هم ضحايا أبرياء لحرب لا نهاية لها، فالعرب لم يعد لديهم إحترام لأديان الآخرين. (المصدر: كورير ديلاسيرا، بتاريخ2008/03/14م).

ـ أدلى الرئيس التركي أردوغان بتصريح قائلا: «إن المجتمعات التي تخشى من الآخرين هي مجتمعات غير منسجمة مع قيمها الذاتية». (المصدر: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، بتاريخ 2008/03/13م).

ـ يُستقى من تقارير أعدّها جهاز الإستخبارات التابع لوزارة الداخلية الإيطالية في شهر آذار (مارس) 2008م أن 156 عملية تفتيش في المساجد والمراكز الإسلامية نُفذت في العام المنصرم. وتأكد من نتائج هذه العمليات وجود مخاطر متعلقة بالأصولية والعنصرية والتعصب الإيدولوجي والقناعات المناهضة للغرب والأندماج الكلي بالتعاليم الدينية، كما تبين ان تلك المخاطر قد تطال الأمن الوطني لأيطاليا. (المصدر: لا ريبوبليكا، بتاريخ 2008/03/09م).

ـ اندلعت في جامعات تركيا مظاهرات ضد خطة إلغاء حظر الحجاب، وبقي موضوع الغائه مثيرا لجدال مستمر بين آراء متباينة في صفوف الفتيات. (المصدر: فرانكفورتر

ألجماينه تسايتونج، بتاريخ 2008/03/08م).

ـ ذكر الرئيس التركي إردوغان بتاريخ 10. شباط (فبراير) 2008م في تصريح أمام أتراك في مدينة كولونيا ما مفاده : »ليس بإمكان أحد أن ينتظر منكم قبول التذويب الإجتماعي، فالتذويب هو جريمة ضد الإنسانية». (المصدر: فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، بتاريخ 2008/02/15م).

ـ صرّح الأسقف الأنجليكاني الأعلى لكانتربوري، روان ويليامز، أنه «لا مناص» من الأخذ ببعض العناصر من الشريعة «من أجل الحفاظ على التماسك الإجتماعي».

وعارضه رئيس الوزراء البريطاني، جوردون براون، قائلا، بعدم وجود قوانين في بريطانيا سوى القانون البريطاني فقط. (المصدر: كورير ديلاسيرا، بتاريخ 2008/02/08م).

ـ في دراسة أعدها المنتدى الإقتصادي العالمي في دافوس السويسرية، تم التوصل الى إستنتاجات من إستطلاعات الرأي التي قام بها «معهد ـ غالوب» حول التقارير الإخبارية للصحف والمجلات والمحطات التلفزيونية في 21 بلدا، بخصوص مواضيع ثقافية من داخل البلد الواحد ومن خارجه. فماذا كانت النتيجة؟، لقد تبين أن الهوّة بين الإسلام والغرب عميقة، وأن التفاؤل بما يخص العلاقة بينهما ضئيل، وأن العقلاء من الجانبين يواجهون صعوبات، كما أن الحوار بين الثقافات مليء بالتناقضات. (المصدر: دير شبيجل رقم 4، شهر كانون الثاني (يناير) 2008م).

الباب الثاني

البابوات الأخيرون



الفصل التاسع

بيوس الثاني عشر

ما هو الوصف الذي يمكن إطلاقه على العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام قبل سبعين عاما؟، أي في عام 1939م، عندما تم انتخاب الإيطالي أويجينو باسيللي، في عيد ميلاده الثالث والستين بتاريخ 02. آذار (مارس)1939م خلال مجمع الكرادلة الذي لم يستمر طويلا في الزاوية السيكستينية [نسبة إلى البابا سيكستوس]، ليكون البابا الجديد، ثم تتويجه بعد مرور عشرة أيام بالقلنسوة الثلاثية، التي ترمز الى سلطته كأسقف لروما؟

هل كانت العلاقة خالية من الأذى والهموم ومتسمة باللامبالاة وغير مهمة؟: خالية من الأذى.بمعنى أنه لم يكن ممكنا آنذاك أن يدور حديث حول اصطدام هاتين الثقافتين، كما يثار اليوم حول تصادم الأديان.

فمصطلح «صدام الحضارات» الذي استخدمه صموئيل هنتنجتنون لم يصبح له إيحاء فريد إلا بدءا من فترة الإنتقال ما بين القرنين الزمنيين. وأثار المصطلح دوّامة صخب شد الكثيرين منذ سنوات، دون أن يتثبتوا بدقة من خلفيات الموضوع.

في ذلك الحين، في شهر آذار (مارس) 1939، أي قبل نصف سنة من نشوب الحرب العالمية الثانية، حدث تصادم من نوع آخر تماما، حيث واجه الفاتيكان ثقافات إلحادية، همجيات معادية للإيمان، وثقافات بربرية مناهضة للأديان.

سجالات/ مواقف متناقضة

كانت الشيوعية البلشفية للينين وستالين قد ظهرت على المسرح العالمي، واستولت في روسيا [التي صارت] الإتحاد السوفييتي على السلطة. وفي روما استولى نظام موسوليني الفاشيستي على الحكم، ورغم أنه قام بعقد «معاهدات لاتيران» مع السلطة البابوية في شهر شباط (فبراير)1929م إلا أنه خاض حربا متواصلة من أجل كسب قلوب الإيطاليين وعقولهم. وتحت أنظار أويجينو باسيللي، الذي كان في السابق سفيرا بابويا في ولاية

بافاريا الألمانية من عام 1917 الى عام 1925م ثم أصبح سفيرا للفاتيكان في عموم ألمانيا من عام 1920 الى عام 1929م. لقد تطوّر الحزب الإجرامي للنازيين (حزب العمال الوطني الإشتراكي الألماني)، ونما حتى تمكن هتلر من الإستيلاء على الحكم عام 1933وإقامة سلطته الدكتاتورية، ودفع أوروبا الى حرب، وصلت تأثيراتها الى جميع أنحاء العالم وأدت الى موت خمسين مليون إنسان.

إن المجازر الجماعية التي ارتكبت بحق الشعوب في القرن العشرين، نشأت في تخطيطها وتنفيذها من الروح الخبيثة للإيدولوجيات الإلحادية: الشيوعية وما جاءت به من الصراع بين الطبقات، والنازية وما جاءت به من العنصرية، حيث وقفت هاتان الإيديولوجيتان بروح شيطانية ضد أي دين إلهي وإنساني.

كان أعداء الكنيسة يجلسون في موسكو وبرلين، وليس في مكة. وكان بيوس الثاني عشر يعلم هذا، فقرراستخدام فهمه الديبلوماسي الحادّ من أجل إنقاذ البعض من بحر الرعب، وليس بهدف إظهار شجاعته الشخصية أمام المؤرخين ليكبر في عيونهم.

إن مناظرات حادة تجري منذ عقود من الزمن حول الدور الذي قام به البابا خلال الإبادة الجماعية لليهود وبخصوص علاقته بهم، اما علاقاته بالمسلمين والإسلام فبقيت دون أهمية تستحق الذكر، حسب مايمكن تبيّنه من وجهات نظر حتى الآن.

كان أويجينو باسيللي، المولود في عام 1876م أحد الديبلوماسيين الذين درسوا في «الأكاديمية الكنسية البابوية»، الواقعة خلف مبنى البانتيون على ساحة ديلا مينيرفا رقم 74 في روما. وتعلّم فيها تبادل الصداقات مع الشعوب وأرباب السلطة. وكانت الحكاية التالية في تلك السنوات تحكى كلما سنحت الفرصة: لفت البابا بيوس العاشر (1903 ـ 1914م) إنتباه أحد أكبر القادة المسلمين، وهو شيخ الإسلام جلال الدين، أثناء زيارته للفاتيكان، الى الرداء الثمين الذي يرتديه وقال: «هل تعلمون من أين أتى هذا الرداء؟، إنه هدية من سلطانكم قدمها لسلفي كإشارة الى التفاهم الودي بين الخليفة وقداسة البابا».

إن دولة الكنيسة في إيطاليا الوسطى تحت السيادة العليا للبابا ترسخت في أذهان الإنسانية المتحضرة طيلة ألف وخمسمائة عام، بوصفها على وجه الخصوص كيانا دينيا ـ

سياسيا، وأقدم مؤسسة في العالم الغربي.

وكان حكام الممالك غير الأوربية أيضا يكنّون لها الإحترام ويسعون من خلال تقديم الهدايا الصغيرة الى إكتساب صداقتها والحفاظ على هذه الصداقة، ويمكن تأكيد ذلك عبرمشاهدة مجموعات هدايا حفظت في متاحف الفاتيكان.

أسئلة مفتوحة

لم يتغير العالم الخاص ببابوات القرنين التاسع عشر والعشرين ثم فيما بعد بالبابا بيوس الثاني عشر، بل إن عالم الإسلام أيضا قد لحق به التغير. لقد انتهت في البداية السيادة الذاتية لدولة الفاتيكان، بعد أن انصهرت في المملكة الإيطالية عام 1870م. وتبيّن أن هذا الإنصهار كان بركة، لأن انفصالا أكبر مما كان عليه الحال سابقا حدث بين ما هو سياسي وما هو ديني، ودفع بالكنيسة الى أن تركزعملها على تأدية الرسالة المسيحية. ومن جانب آخر كانت حقبة التوسّع الإسلامي في العصر الوسيط منتهية، وانتهت الحملات الصليبية أيضا، بعد أن نهضت قوى العالم الغربي، وتلاشت تهديدات الأساطيل الإسلامية في البحر المتوسط حول إيطاليا.

لقد حققت القوى الأوروبية، وخاصة إسبانيا والبرتغال وبريطانيا وفرنسا وهولندا، في ظل الإستعمار السياسي إنتصارا في كل أصقاع العالم. ولحق بها في الغرب وفي الشرق مبشرون مسيحيون، حققوا نجاحات متفاوتة، وما حققوه من نجاح في العالم الإسلامي كان ضئيلا ولا يكاد يذكر. ومن اللافت للنظر أن المعنيين في الكنيسة الكاثوليكية في ميادين التبشير مثلا، لم ينعموا التفكير كثيرا حول موضوع مقاومة المسلمين العنيدة للمسيحية.

وإذا عبّرنا عن ذلك بشكل إيجابي منطلقين من الموقف الإسلامي فاننا نقول:

بأن المسلمين ظلوا أوفياء لمعتقدهم وثقافتهم الروحية والإجتماعية، مع أنّ المبشرين المسيحيين تمكنوا من النشاط تحت حماية الأسياد الأوروبيين والأميركيين الإستعماريين.

إن على المرء تدارس السؤال المعقد عن سبب تحول إندونيسيا الى الإسلام بثبات، بينما ظلت الفلبّين مخلصة للكنائس المسيحية.

فهل كان البابوات الكاثوليك وغيرهم من قادة الكنائس المسيحية في القرنين التاسع عشر والعشرين منشغلين بشيء آخر؟، أكان العالم الإسلامي آنذاك في مرحلة النشوء السياسي بعد، أو انه لم يبق سوى انتظار ما سيحدث من تطورات بشأن الدولة العثمانية؟، في هذا السياق فكّر باسيللي في أوضاع تركيا باهتمام، وهو ما زال سفيرا بابويا في برلين وكاردينالا سكرتيرا للفاتيكان من عام 1929الى عام 1939م، وتساءل عمّا سيحدث «للرجل المريض على البسفور» بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، وسيطرة الإسلام قرونا طويلة، وكذلك لتركيا التي فرض فيها كمال أتاتورك في سنوات العشرينات، العلمانية بصورة درامية، وقام بعملية إنتزاع للإسلام، مازالت نهايتها التي ستؤول اليها مفتوحة حتى اليوم.

كما انشغل في احتمالات التطور في المناطق الإسلامية الأخرى في الشرق الأدنى والشرق الأوسط وفي الهند الكبرى والشرق الأقصى، التي تقاسمت الإحتفاظ بها أو اخضاعها لسيطرتها كل من الإمبراطورية البريطانية، وفرنسا والمملكة الهولندية.

ومن الجدير ذكره أن عام 1947م كان مصيريا. فالتقسيمات التي حدثت في شبه القارة الهندية في سياق عملية الإستقلال عن بريطانيا، وشطرتها الى هند وباكستان، أي الى شرق وغرب، ونتج عنها مقتل قرابة مليون إنسان وتهجير تسعة ملايين آخرين، أظهرت للبابا بيوس الثاني عشر قوة التأزم الكامنة في الأديان، وكونت مذاقا أوليا «لتصادم الثقافات»، في الوقت الذي كان يراد فيه للتوّ حل التشابك بين الديانات المتباينة. «فالخلافات حول الحدود» بين الهند وباكستان، كما كان يقال رسميا، كانت في ذات الوقت محتدمة بين الهندوس والمسلمين. والحدود التي جرى ترسيمها بعد ذلك، لم تفصل الشعوب والأديان عن بعضها البعض تماما.

هل تم بذلك اذن وضع البذرة لخلاف أبدي، أم أنها وُضعت من أجل التوصل الى تفاهم ضروري حول تعايش سلمي في عصر الذرة؟، فمنذ سنوات طويلة تقف القوتان النوويتان الهندوسية متمثلة بالهند والإسلامية التي تمثلها باكستان في مواجهة بعضهما البعض، وكلاهما تضمّان أقليات من الدين الآخر. وهل تستعد كل منهما لتوجيه الضربة

الأولى؟، وهل هما يشعران بالخشية من متطلبات الدفاع؟، إن عددا غير قليل يرى أن من المحتمل حدوث صدام على الحدود بين الهنود الهندوس والهنود المسلمين، وخاصة في ظل الخطورة التي تشكلها حركة طالبان المتطرفة في أفغانستان القريبة من الهند.

لقد تفتحت عيون الفاتيكان في روما في البداية شيئا فشيئا على الواقع الجديد. ففي عام 1953م قام البابا بيوس الثاني عشر بتعيين الأسقف الأعلى في بومبي فاليريان جراسياس، كأول هندي في منصب كاردينال.

وكان لعام 1947م أهمية بالنسبة للعلاقة بين الكنيسة والمسجد: ففي شهر تشرين الأول (أكتوبر) من العام المذكور أقام قداسة البابا، كأول شخصية قانونية دولية معترف بها عالميا، علاقات دبلوماسية دائمة مع أول دولة إسلامية، وهي مصر. وقبل ذلك بقرن من الزمن، أي في عام1839م، كان محمد علي، مؤسس مصرالحديثة، قد أرسل وفدا الى روما، لأنه كان يعي الوزن الدولي للبابوية.

واستغل البابا بيوس الثاني عشر بدوره رغبة الدول في «العالم الثالث» في الإعتراف الدولي. فمنذ فقدان دولة الكنيسة، أي فقدان سيطرة الكنيسة سياسا على الدول المسيحية، تدعمت السلطة الأخلاقية المعنوية للبابوات، مما شجع الحكومات في جميع أنحاء العالم على السعي الى إعتراف الفاتيكان بها.

وهذا ما فعله هتلر أيضا من خلال ابرام معاهدة بين الرايخ الألماني والفاتيكان عام1933م، مقابل الحصول على ضمان منح الكاثوليك في مجالاتهم حقوقا معينة مع تحميلهم واجبات ملزمة.

ولم تزل هذه الإتفاقيات والمعاهدات البابوبة تُعدّ معاهدات دولية على أساس المعاملة بالمثل.

كان الإعتراف من طرف قداسة البابا، مدعّما بتبادل العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان، يُعد في كثير من الأحيان خاتمة للتطبيع الدولي مع الدول الناشئة التي تحررت من القوى الإستعمارية في ذلك الوقت، وأصبحت مستقلة.

أما الدول التي لم تسع لذلك، أو قامت بقطع علاقتها مع الفاتيكان مثلما فعلت

جمهورية الصين الشعبية الشيوعية عام 1951م، فسرعان ما أُعتبرت على الصعيد الدولي بأنها شاذة، أو أنها تريد تجنب السلطة الإخلاقية للبابوات أو بأنها مضطرة الى ذلك.

وهكذا سارعت للسيرعلى خطى مصر دول إسلامية أخرى: إندونيسيا، وسوريا، وإيران، وتركيا، وباكستان، والمملكة الأردنية الهاشمية، التي كانت في ذلك الوقت تشرف على الأماكن المسيحية المقدسة.

أجرى البابا بيوس الثاني عشر لقاءً سنة 1951م مع الأمين العام لجامعة الدول العربية، وهي رابطة تأسست عام 1945م من دول عربية في شمال إفريقيا والشرق الأدنى، وبعضها كان يضم دولا قد استقلت حديثا.

ولخّص الأمين العام للجامعة آنذاك، وهوعبد الرحمن عزام باشا، نتيجة لقائه مع البابا قائلا:

«إن العرب أيضا يرون بأن رئيس الكنيسة الكاثوليكية، انطلاقا من رسالته العالمية، يعد من أبرز المدافعين عن ذلك التراث الروحي الأعلى والأثمن، الذي تتأسس عليه عقيدة الإسلام وعقيدة المسيحية على حد سواء ... فالتشارك الروحي بين المسيحية والإسلام، سيقود الى إقامة جبهة مشتركة، تشمل أكثر من نصف البشرية».

(الإقتباس مأخوذ من صحيفة «دي تسايت» الصادرة بتاريخ 1958/10/24م)

وهذا يعني أن الأهداف المشتركة مع الإعتراف الموحد بإله واحد في مواجهة الإلحاد المتنامي، كما كان الحال في معسكر السيطرة الشيوعية، تعد ذات قيمة تتفوق على ما يفصل بين الأديان من حواجز، بالإضافة الى أن الدول الإسلامية كانت تثمّن خدمات الوساطة الحسنة لدبلوماسية الفاتيكان في عهد بيوس الثاني عشر، سواءً فيما يخص الصراع على فلسطين بين إسرائيل والدول العربية المجاورة، أو فيما يتعلق بحرب الجزائر بين فرنسا وجبهة التحرير الوطنية.

لقد لعبت الأرض المقدسة في الشرق الأدنى ببساطة - لكل من اليهود والمسيحيين والمسلمين - دورا مميزا بشكل دائم في هذا السياق، تماما مثل مدينة القدس التي يقدسها

أتباع الديانات الثلاث.

كان رؤساء حكومات ووزراء الدول الإسلامية خلال زياراتهم لروما يولون أهمية للسماح باستقبالهم من طرف ممثلي الفاتيكان، وليس من قبل نظرائهم الإيطاليين فقط.

فالظهور في صورة مع البابا كان له جاذبية إنسانية وأهمية سياسية. بناء على ذلك قام البابا بيوس الثاني عشر باغتنام هذه الفرص التي تتيحها العلاقات الدولية، إلا أن الوقت لم يكن قد نضج لأكثر من هذا.

ألقى بيوس الثاني عشر في منتصف الحرب العالمية الثانية بمناسبة عيد العنصرة عام 1943م كلمة مثل الكثير من كلماته، التي قلما سمعها أحد، ناهيك عن تجاوبه معها، لكنها عُدّت وصية حكيمة لجميع الأديان، حيث تضمنت:

«ليس بالهدم، وإنما بالتطوير والوئام يكون الخلاص والعدل. فالعنف كان يهدم دائما ولا يبني أبدا، يثير مشاعر الهلع ولا يهدّئها مطلقا، ويقذف دائما بالبشر الى الضرورة القاسية، التي تجعلهم بعد المحن الأليمة، يسيرون على أنقاض الفتنة لإعادة البناء بصعوبة بالغة».



الفصل العاشر

يوحنا الثالث والعشرون

عندما توفي البابا بيوس الثاني عشر في التاسع من تشرين الأول (أكتوبر) 1958م في المقر البابوي الريفي في «كاستيل جاندولفو»، أصبحت مشاركة وفود عربية وإسلامية بمحافل العزاء في ساحة بطرس في روما أمرا عادياً، يتفق مع العلاقات الدبلوماسية. وبعد مضي أسبوعين كتب حسن سولياك حول هذا الموضوع في الصحيفة الألمانية الأسبوعية «دي تسايت» الصادرة بتاريخ 24 تشرين الأول (أكتوبر) 1958م عبارات بأسلوب حماسي ذكر فيها: «بينما ينظر العالم كله متلهفا الى إنتخاب البابا الجديد، فإن البلدان الإسلامية تتذكر التطور الذي بدأ تحت القيادة الحكيمة لبيوس الثاني عشر، وهي تأمل أن يتواصل ذلك أيضا تحت قيادة البابا الجديد».

كان من المفروض أن تتحسن الأحوال. فإذا كان البابا بيوس الثاني عشر قد ظهر للعالم كإنسان خارق متحول الى الروحانية يمثل الكاثوليكية، وقام إنطلاقا من ذكائه بمد قرون الإستشعار الى العالم الإسلامي أيضا، فإن البابا الجديد يوحنا الثالث والعشرين ظهر فجأة كممثل لطيف للبشر على العموم، متجاوزا ما هو أبعد من حدود معتقده الديني وحدود الأديان، وشاملا بخيره كل ما هو إنساني. ولهذا أطلق عليه لقب «بابا بونو»، أي «البابا الطيّب»، كما نعته المسلمون بهذا الوصف أيضا.

ولد، «أنجيلو جيسيبي رونكالي» عام 1881م بالقرب من بيرجامو في لومبارديا، وشغل منذ شهر كانون الثاني (يناير) 1953م منصب «بطريرك البندقية».

ولم يتم إنتخابه في مجمع الكرادلة المكوّن من 51 كاردينالا، عندما عقد بتاريخ 28 تشرين الأول (أكتوبر) 1958م إلا في جولة الإنتخاب الحادية عشرة، وقيل على الفور آنذاك وبشكل عمومي إنه انتخب ليكون «البابا الإنتقالي». كان من المفروض لهذا الإيطالي الشمالي البالغ من العمر 78 عاما، أن يملأ عرش بطرس لفترة إنتقالية قصيرة فقط. وقال المتهكمون في البداية عنه، أنه يصلح لهذا المنصب على الأقل بسبب إمتلاء جسده، ثم

صمتوا بعد ذلك. وظهر البابا الجديد المسن المبتسم مخيبا للآمال بإسمه غريب الوقع يوحنا رقم 23، مقارنة مع الإسم الأثيري الناعم للبابا السابق بيوس، وفقا لما كان يراه عدد غير قليل من الكاثوليك، ولكن هذه النظرة تغيرت فيما بعد.

إن انتخاب يوحنا الثالث والعشرين في الرابع من تشرين الثاني 1958م ليكون البابا الجديد أدى الى فتح صفحة جديدة مفاجئة بخصوص العلاقات بين البابوات والإسلام.

يا له من بابا انتقالي!

كان يوحنا الثالث والعشرون يصلح لكل شيء آخر ما عدا أن يكون بابا إنتقاليا. فقد بدأ بإجراء إصلاحات جذرية في الكنيسة الكاثوليكية منذ الدعوة لإنعقاد المجمع الثاني للفاتيكان، وعُدّت تلك الاصلاحات بمثابة ثورة في كثير من المجالات. وعمل على انفتاح الكنيسة البابوية في روما، التي كانت في العالم جامدة مثل صخرة صماء، وكقلعة لها حصون متقدمة وحدود تفصلها «عن الآخرين»، وعن المجتمع الحديث، والكنائس والطوائف المسيحية الأخرى غير الكاثوليكية، واليهود، والأديان العالمية الأخرى، وغير المؤمنين.

لقد استطاع أن يستعيد البعد الإنساني من خلال ظهوره المتواضع وحده، مسلحا بكلماته البسيطة، وإيماءاته المحبوبة، وتعاطفه الصادق مع العاملين العاديين في الكنيسة الكاثوليكية.

وأثار هذا النمط الإعجاب به في العالم الإسلامي، فلم يُوجّه أي نقد الى البابا يوحنا بولص الثاني عندما قام بتاريخ 03. أيلول (سبتمبر) 2000 م برفع هذا البابا الخيّر الورع، الذي ظل محفورا في ذاكرة الإيطاليين وجميع الناس على صعيد العالم، الى مرتبة المباركين في الكنيسة والمستحقين للتبجيل المثالي.

قاد يوحنا الثالث والعشرون الكنيسة لمدة تقلّ عن خمس سنوات، خلال الفترة من 04. تشرين الثاني (نوفمبر)1958الى 03. حزيران (يونيو) 1963م، لكنه قادها الى حقبة زمنية جديدة. كان يعلّم انطلاقا من مرجعية بابوية بأن الكنيسة والدين لا يقومان على أساس

غرض ذاتي خاص بهما، وليس من أجل مبادىء الإيمان والفروض الدينية، وإنما لخدمة البشر، ولصالح الإنسان الفرد والجماعة، تماما مثلما كان المسيح الذي هو من الناصرة يعلّم الكتبة والفريسيين ويشير لهم ببساطة قائلا:

«ليس الإنسان هو الذي يخدم السبت، وإنما السبت هو الذي يخدم الإنسان».

كانت معلومات يوحنا الثالث والعشرين عن الإسلام والمسلمين أكثر من مجرّد تصورات. وكان بشكل رئيسي وخلافا لما كان عليه سابقوه من البابوات الإيطاليين على المام بما هو أكثر سعة من الإطلالة على أوساط العالم الكاثوليكي وحده، وادراك المحيط الخاص بالكثلكة كمجتمع مواز، وهو الذي كان يقال عنه بأنه «محيط» قائم الى جانب الحداثة.

قبل ذلك بنصف قرن، أي في عام 1906م، كان البابا في سن الخامسة والعشرين، فشغل في هذا العمر منصب سكرتير أسقف في الأرض المقدسة، أي في فلسطين التي كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية. لم يقم حينها بتطوير أفكار لحملات صليبية، رغم أنه في وقت لاحق أصبح أستاذا لتاريخ الكنيسة في وطنه بمدينة برجامو، الواقعة في شمال إيطاليا، وكان على معرفة تامة بتاريخ تلك الحملات، وبالصراع الذي نشب بين البابوات والإسلام.

كان أنجيلو جيسيبي رونكالي إضافة الى ذلك، يكره العنف. فقد عرف ويلات الحرب خلال المعارك المخيفة التي دارت في الحرب العالمية الأولى بين مملكة إيطاليا من جهة، والإمبراطورية النمساوية ـ المجرية من جهة أخرى، في شمال شرق البلاد على جبال الألب، حيث خدم آنذاك كجندي إسعاف في الجيش الايطالي، ثم تولى الرعاية الروحية للعسكر.

كلا! ان الدول بالنسبة لرونكالي لم تكن هي التي تخوض القتال ضد بعضها، وإنما كان بشر هنا وهناك يتقاتلون، متمتعين كلهم بالرعاية الروحية من طرف قساوسة كاثوليك، فكان ذلك هو بمثابة جنون سافر للقومية، ومأسٍ لا نهاية لها!

بعد ذلك تم إرسال رونكالي كديبلوماسي من الفاتيكان الى الشرق: في البداية الى بلغاريا عام 1925م، ثم أصبح قاصدا رسوليا موفدا الى تركيا واليونان، وله مقر في إسطنبول وآخر

في أثينا، خلال الفترة من 1934 الى 1944م.

ولا يُعّد المركز الذي تبوأه ذا أهمية كبيرة نسبيا، من حيث مقياس قيمة المناصب لدى الفاتيكان.

في تلك السنوات عايش الأسقف الأعلى «رونكالي» أمورا غريبة بشأن النزاع بين الأمم والأديان: لا على مستوى السياسة العليا فحسب، وإنما أيضا في تأثيرات ذلك على الناس، الذين كان يهتم بهم أكثر.

راقب البابا في تركيا إجراءات التحديث التي قام بها كمال أتاتورك بخصوص الدين الإسلامي، وشهد في إسطنبول (بيزنطة، القسطنطينية)، المدينة الغربية ـ الشرقية الكبيرة، إضطهاد الأقلية المسيحية الأرثوذكسية.

وفي أثينا وجد أمام ناظريه الكنيسة الأرثوذكسية الحكومية المعادية لروما والبابا، كما عايش في الحرب العالمية الثانية فوضى مميتة، حيث أنقذ هذا الديبلوماسي البابوي من تداعيات تلك الحرب يهودا مجريين.

ونظرا لأن الأسقف الأعلى رونكالي لم يكن في تلك الأجواء قادرا على تحمل العبء سياسيا، فقد قام البابا بيوس الثاني عشر بإرساله عام 1944م سفيرا بابويا الى فرنسا، التي تم تحريرها مرة أخرى من الألمان النازيين.

وهناك تعرّف على الجنرال ديغول الكاثوليكي المؤمن ومنقذ «الأمة العظيمة»، واطّلع على المشاكل المتنامية مع المسلمين الجزائريين بسبب حرب الإستقلال الدموية في الجزائر، ومشكلات جزء آخر منهم داخل فرنسا بخصوص المطالب المنتظرة من دولة قانون إجتماعية.

لم يرتكب الكاردينال رونكالي، بوصفه بطريرك البندقية منذ عام 1953م، عندما بلغ السن السبعيني، الكثير من الأخطاء، لم يخض جدالا في نطاق الإعتراض، غير أنه أيضا لم يحرّك أمرا ذا شأن على صعيد العالم.

ولكن هذا الوضع كان ينبغي أن يتغيّر.

في نهاية شهر تشرين الأول (أكتوبر) وبداية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1958م قام

رجل قصير، سمين، له وجه مستدير وأذنان كبيرتان، تغلب عليه هيئة الجد أكثر من ظهوره كأب، بتقديم نفسه للعالم المسيحي الكاثوليكي والعالم عموما، قائلا:
«أنا أخوكم يوسف».

عُدّ ذلك للوهلة لأولى اشارة الى إسمه الشخصي، إلا أن هذا القول سرعان ما أصبح يفسر، مثل الكثير من الإشارات البسيطة التي كانت تبدر منه، كنهج وبرنامج ذاتي له، للإنتباه الى القصة المثيرة، المأخوذة من العهد القديم (التوراة) حول أسباط بني إسرائيل، الى اليهود، والى المسيحيين الآخرين، وفي النهاية الى جميع البشر ذوي النوايا الطيّبة، الذين أصبحوا أكثر عددا وأكثر تعاطفا في عهد يوحنا الثالث والعشرين.

أولوية الإنسان على الدين

استطاع يوحنا الثالث والعشرون الذي زُعم بأنه انتخب بابا انتقالياً أن يجتاز بكل تأكيد فترة انتقالية، حيث نصب جسرا للعبور من داخل الكنيسة وفي اتّجاه الخارج وصوب الإسلام أيضا. فقد قام من خلال دعوته لعقد المجمع الثاني للفاتيكان، بعد المجمع الفاتيكاني الأول الذي انعقد بين عامي 1869/1870م بإطلاق ثورة ثقافية حقيقية داخل الكنيسة الكاثوليكية، وصلت تأثيراتها الى بؤرة العالم الإسلامي.

لقد أصبح المبدأ الأسمى الذي أطلقه البابا الجديد مفهوما في كل مكان، وهو المتضمن: أولوية الإنسانية والإنسان على الدين وما هو ديني. فبرنامجه الذي كان شعاره «السعي نحو الحاضر»، أي توجيه الكنيسة للتلاؤم مع متطلبات الزمن الجديد ومتطلبات الإنسان المعاصر، كان يسري عليها فقط. ولكن التلاؤم في نطاق هذا البرنامج صار ينطبق على كل دين، وعلى الإسلام، كما يبدو، بصورة خاصة.

في هذا السياق تنطلق التناقضات بين القديم والجديد، بين الكنيسة والمجتمع، وبين اللاهوت وروح العصر. إن الإنطلاق والخروج من القلاع المتينة المجرّبة ومن ضيق اليقينية بمعتقد مزعوم في نطاقها كانا يحيطان بأوضاع الكنيسة آنذاك، ومن الممكن أيضا أن يحيطا بأي دين آخر. وهذا ما يميز وضع الأديان حتى اليوم، لأن حالات الإنطلاق

والخروج تحدث في كل بلدان العالم.

لقد نشأت حالة إختمار داخل المجتمعات الغربية، ثم سرعان ما انطلقت حركات ثقافية، بدأها أساتذة الجامعات والطلاب، بهدف تغيير التصورات التقليدية للحياة وقواعد السلوك تغييرا ثوريا، بالنسبة للجماهير وليس لنخب قليلة فقط، مما عرّض دين الشعب للخطر.

وفي بلدان العالم الثالث إنطلقت حركات تحرر، وأصبح النظام العالمي يهتز. وواجهت الدين صيحة الحرية المنطلقة من كل الجهات: ومقابل ذلك، كما اتضح مثلا من الثورة التي قادها «أية الله الخميني» عام 1979م في إيران، فإن هناك أيضا حاجة الى توفير المطالب المتعلقة بالهوية واحترام الذات وكرامتها والمحافظة على الجذور. ويبدو لفئات واسعة في البلدان الإسلامية، أو للأقليات الإسلامية داخل المجتمعات الغربية، أن الدين يمكن أن يشكل ضمانه لتوفير تلك المطالب. لقد ورد في المنشور البابوي الدوري (السلام على الأرض)، الذي وقّعه البابا يوحنا الثالث والعشرون بتاريخ 11. نيسان (أبريل) 1963م، قبل شهرين تماما من وفاته، وصف واضح للفكرة الأساسية.

ففي هذا المنشور البابوي الدوري: «السلام على الأرض»، الذي وُجّه لأول مرة «الى جميع البشر ذوي الإرادة الطيّبة»، لم يعد الموضوع يتعلق بالدين الخاص بالفرد، وبنقائه، وإنتصاره على المعوّقات، أو بما هو معاد، أو مغاير، وبما لم يعد متصلا بنشر المعتقد الذاتي في كل العالم، وإنما أصبح متمحورا حول القيم الموجودة وراء حدود الأديان المختلفة، أي حول العيش السلمي المشترك في العالم، و«هدوء النظام»، كما قال (أوغوستينوس)، وفي الحقيقة حول العدل والمحبة والحرية.

وعندما توفي «البابا الطيّب» في بداية شهر حزيران (يونيو) 1963، لم يكن المسلمون قد دفعوا بأنفسهم حينذاك الى الواجهة الأمامية للسياسة العالمية عبر قوتهم أو ممارسة العنف، إلا أنهم كانوا مخاطبين أيضا من طرف يوحنا الثالث والعشرين.

الفصل الحادي عشر

بولص السادس والمجمع الثاني للفاتيكان ـ الموقف من المسلمين

كان يوحنا الثالث والعشرون قد بدأ عملا ثوريا داخل الكنيسة وفي علاقاتها مع الخارج بما في ذلك مع الإسلام، ثم جاء خليفته البابا بولص السادس ليعمل طوال عهده البابوي الذي استمر خمسة عشر عاما، من عام 1963 الى عام 1978م، على منع تحول هذا العمل الثوري الى ثورة، لأن الثورات، كما هو معروف، تفترس أبناءها، وهذا ما لم يرده البابا بولص السادس، الذي ظل دائما حريصا على التوازن بين التقدميّين والمحافظين.

لقد استخدم البابا يوحنا الثالث والعشرون في خطابه الإفتتاحي خمس كلمات، للتعبير عن تأكيده للأخوّة التي تربط جميع البشر مع بعضهم البعض وللتآخي بين جميع الأديان، فأورد كلماته في جملة معناها: «أنا أخوكم يوسف».

إن هذه الجملة كانت تتضمن من حيث الجوهر كل شيء، في حالة عدم إعتبار فحواها مجرد مجاملة غير ملزمة، بل اعتباره برنامجا. وعندما توفي يوحنا الثالث والعشرون، حزن عليه الناس من كل العالم كما عبّر عن الحزن مئات الآلاف الذين تجمعوا في ساحة بطرس وحدها. وكان لا بد من قبول الإرث الذي تركه. فلم يسبق لرسالة وجهها الى العالم أحد البابوات مثله أن اخترقت أفئدة مثل هذا العدد الكبير من البشر وعقولهم.

كان الإرث صعبا، وكان جيوفاني باتيستا مونتيني، الذي تولى هذا الإرث في نهاية شهر حزيران (يونيو) 1963م تحت إسم البابا بولص السادس، من مواليد القرن الماضي، كما قيل عنه في تعليقات متّسمة بالريبة والإستنكار.

ولد البابا بولص السادس بتاريخ 26. أيلول (سبتمبر) 1897م في بلدة كونسيسيو بالقرب من بريسكيا في شمال إيطاليا.

كانت معرفته عن العالم تدور بشكل رئيسي حول ما يتعلق بالفاتيكان وبمقاطعة لومبارديا الكاثوليكية، من خلال منصبه ككاردينال وأسقف أعلى سابق لمدينة ميلانو.

واجه بولص السادس الإنطلاقات في كل مكان، ولم يكن أي شيء قد وصل الى مرحلة التمام. فدورة الجلسات الأولى للمجمع الثاني للفاتيكان التي انعقدت في خريف عام 1962م أظهرت قبل شيء أن الكاثوليكية لا يمكن ان تستمر بهذا الشكل الذي كانت عليه، ولكن تلك الدورة لم تُظهر كيفية العمل المطلوب ولم تحدد اتجاه مسيرته.

في تلك الفترة انفتحت أبواب الكنيسة ونوافذها على مصاريعها، فهبّت من خلالها نسائم عليلة.

دخل زوار أجانب، ومنهم مسلمون كانت تدفعهم رغبة حب الإستطلاع وهم يتمشون في حصون أمة الايمان الرومانية، كما أن الكاثوليك أخذوا يتحركون مبتهجين في مجالات دنيوية وفي حقول الأديان والإيديولوجيات الأخرى.

لم يعد بالإمكان التفكير في إدارة شؤون الايمان والمؤمنين حسب الأصول، كما كانت ترغب حكومة الفاتيكان في روما.

كان المجمع الثاني للفاتيكان قد انعقد قبل ذلك بثمانية شهور، أي في الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر) 1962م، في قاعة بطرس للاجتماعات، وحضره: 7 بطارقة، 80 كاردينالا، 1619 راعي أبرشية، 975 أسقفا مساعدا، 97 مسؤول طريقة رهبانية. وأصبح للمجمع على الفور منحى مختلفا تماما، مما أفقد دوائر الفاتيكان الرسمية المركزية في روما السيطرة عليه. كان الكرادلة الأعضاء في حكومة الفاتيكان يريدون أصلا إختتامه بصيغ كلامية إيمانية تقليدية جميلة، بعد مضي عدة أسابيع على افتتاحه. لكن دورة الجلسات الأولى استمرت شهرين، وتبعتها ثلاث دورات أخرى كانت تبدأ كل مرة في فصل الخريف.

هكذا أضطر البابا بولص السادس الى مواصلة إنعقاد المجمع والسير ببداية الثورة حتى تصل الى نهاية طيّبة، دون حدوث تصدعات وإنقسامات. ولذلك فان من غيرالممكن فصل بولص السادس عن المجمع ونتائجه. لقد ظهر للبعض أن الحيرة كبيرة ولآخرين أن الصراحة جميلة جدا. وبرهن «البابا ـ رونكالي» [يوحنا الثالث والعشرون] الطيّب، بالنسبة «للعالم»، أي بالنسبة الى المجتمع الحديث، على أنه لا يخاف من التماسّ مع

مجتمع الحداثة. وهكذا استند بولص السادس الى هذا الترابط، حيث انه أراد زيارة الأرض المقدسة، أرض عيسى المسيح، بذهن المؤمن الورع، من أجل إظهار الجماعية التي وجدت من جديد مع البطريرك المسكوني «أثيناجوراس».

وحينما زار القدس في شهر كانون الثاني (يناير) 1964م، وجد نفسه بين المسلمين في القسم الذي كان حينذاك جزءا من الأردن، لقد أصبحت لصورته رمزية هناك. وقام «البابا ـ مونتيني»[وهو اسمه قبل أن يكون البابا]، هذا الرجل الناعم الذي كان يبدو منهكا، بالسير على طريق «فيا كروسيس»، أي الطريق الذي سار عليه عيسى المسيح الى مكان صلبه [في ضوء التصور المسيحي] فبدا وكأن الجماهير التي احتشدت تطبق عليه. لقد تجاوز مخاوفه الشخصية من التماسّ مع الآخرين، وظهر أمام الجميع بوصفه «بابا»، أمام الغرباء الأردنيين المسلمين والإسرائيليين اليهود، كما استقبل بطريرك القسطنطينية الأرثوذوكسي بالأحضان. ومن الجدير بالذكر أن البابوات السابقين حافظوا قرونا زمنية طويلة على ما يفصلهم عن اليهود والمسلمين والمسيحيين الآخرين.

حسنا، ربما تكون المسألة متعلقة بالمحافظة على الإنفصال والإبتعاد على أساس المعاملة بالمثل، الا انها ذات أبعاد سياسة عالمية، أما الإقتراب الآن فهو يشكل أمرا عاطفيا!. لقد قام البابا بولص السادس بخمس زيارات من زياراته الدولية التسع الى بلدان يعيش فيها مسلمون (مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى)، وهي: زيارته الأرض المقدسة في الأردن وإسرائيل عام 1964م، والى بيروت في لبنان، وهو في طريقه الى الهند للمشاركة بالمؤتمر الأويخرستي العالمي للكاثوليك في بومبي عام 1964م، تلك الدولة التي تموج ببحر زاخر من الهندوس وتعيش فيها أقلية من المسلمين الذين يبلغ عددهم 60 مليون مسلم، والى تركيا للقاء البطريرك المسكوني عام 1967م، والى أوغندا عام 1969م، والى طهران وهو في طريقه الى أستراليا، والى دكّا التي كانت جزءا من باكستان آنذاك، وهو في طريقه الى الفلبّين، والى جزر ساموا، والى إندونيسيا، والى هونج كونج وسريلانكا عام 1970م.

لم يكن مدرجا في برنامج زياراته إقامة صلات واضحة مع الممثلين الدينيين للمسلمين في البلاد التي زارها، حيث لم يجد منظمو زيارات البابا أن هناك ضرورة لعقد لقاء مطوّل

معهم، كما رأوا أن مثل هذا اللقاء غير مطلوب ولا مرغوب فيه.

كانت القيادة الكاثوليكية مستمرة بتطبيق تلك العبارات التي لا خلاف عليها، والتي تمت صياغتها في المجمع من طرف علماء اللاهوت وخبراء بصياغة النصوص المُعدّة بدقة، و التي أدخلت الى البيان فصلاً ثالثاً بعنوان: «بيان حول العلاقة مع الأديان غير المسيحية». كان «البيان»، الذي يُعدّ أقصر ما صدر عن المجمع، قد أُعلن عنه في الثاني والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) 1965م تحت عنوان (في زماننا) نسبة الى الكلمات الأولى التي يبدأ بها باللغة اللاتينية، بعد أن أقرّه المجمع بأغلبية 2221 عضوا صوّتوا لصالحه مقابل 88 عضو صوّتوا ضده، متضمنا ما يأتي:

«إن الكنيسة تنظر الى المسلمين أيضا باحترام عظيم، فهم يعبدون الله، الواحد، الحي، الموجود بذاته، الرحيم، القادر، خالق السموات والأرض، الذي كلم البشر. إنهم يسعون أيضا بروح تامّة الى إسلام أنفسهم لمشيئته الخفيّة، مثل إبراهيم الذي أسلم نفسه لله، والذي تستشهد العقيدة الإسلامية به عن طيب خاطر، إلا أنهم لا يعترفون بعيسى إلها، بل يعدونه نبياً، كما يحترمون أمه مريم العذراء، وينادونها أحيانا في دعواتهم بورع. وبالإضافة الى ذلك فإنهم ينتظرون يوم الدين، اليوم الذي يبعث الله فيه جميع البشر من الموت ويحاسبهم.

لهذا فإنهم يولون قيمة للسلوك الأخلاقي في الحياة، ويعبدون الله بشكل خاص من خلال الصلاة والزكاة والصوم، إلا أنه نتيجة حدوث بعض الخلافات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين عبر القرون الزمنية، فإن المجمع المقدّس ينبّه الجميع الى ترك ما مضى جانبا، والسعي بصدق الى فهم متبادل، والوقوف معا من أجل صيانة العدالة الإجتماعية وتشجيعها ورعاية القيم الأخلاقية، وأخيراً وليس آخراً، من أجل صيانة السلام والحرية لصالح جميع البشر».

لكن الخطأ الذي رافق ولادة هذه الجمل الجميلة وساعد على ولادتها في نفس الوقت هو أنه كان ينبغي على مجمع الأساقفة أن يقرر مواقف جميلة أخرى لصالح اليهود أو على الأصح ضد اللاسامية، بناء على تعليمات البابا يوحنا الثالث والعشرين. ففي الفصل الرابع من البيان بهذا الخصوص تنص الفقرة المتعلقة بمناهضة السامية، والتي كان يجب عرضها دائما في الحوار مع المسلمين، على ما يلي:

«ووعيا منها على الميراث المشترك الذي يجمعها مع اليهود، فإن الكنيسة، التي ترفض جميع الملاحقات ضد أيّ من البشر ولا تنطلق في ذلك من أسباب سياسية وإنما من دافع المحبة الدينية النابعة من الإنجيل، تعرب عن شكواها من جميع إنطلاقات الكراهية والملاحقات ومظاهر اللاسامية، التي وُجّهت ضد اليهود في أي وقت من الأوقات ومن أي شخص كان».

وهكذا فإن من غير الممكن بالنسبة للكنيسة إجراء حوار مع الإسلام، إذا اريد تجريد هذه الجمل من مفعولها.

لكن النظرة اتسعت وامتدت نحو الأديان الأخرى، سواء «نتيجة الضغط العربي»، الذي لم يُحدد بالضبط ماهيته ابدا، أو لأن الأساقفة وعلماء اللاهوت أدركوا حينذاك في النصف الأول من الستينات ذلك التطور الذي وصفوه في مستهل البيان، وهو ما أصبحت تطلق عليه فيما بعد تسمية «العولمة»، التي صارت مفهومة للجميع، ومفهومة بما يخص الأديان ايضا.

كما تضمن نص البيان ما يلي أيضا:

«في زماننا، حيث يزداد الإلتفاف بين أبناء الجنس البشري يوما بعد يوم بصورة أوثق، وحيث تتوسع العلاقات بين الشعوب المختلفة، فإن الكنيسة تدرس بإهتمام متزايد تحديد موقفها من العلاقة مع الأديان غير المسيحية. ووفقا لمهمتها في تشجيع الوحدة والمحبة بين البشر وبالتالي بين الشعوب، فإنها توجه أبصارها بشكل رئيسي الى ما هو مشترك بين البشر، والى ما

يدفعهم نحو التشارك بين بعضهم البعض. إن جميع الشعوب تشكل أصلا جماعة واحدة، حيث أن لها أصلا مشتركا، لأن الله جعل الجنس البشري بكامله يعمر الأرض. والبشر جميعهم أيضا لهم هدف أخير واحد وهو الله، فعنايته والشهادة على لطفه ومشيئته بالخلاص تشملان كل البشر.... إن الناس ينتظرون من الأديان المختلفة أجوبة على ألغاز الوجود البشري التي ما زالت بلا حلول، والتي تحرّك قلوبهم اليوم كما حركتها في السابق: فما هو الإنسان؟، ما هو مغزى وهدف حياتنا؟، ما هو الخير وما هو الإثم؟، من أين يأتي الأسى وما هو مغزاه؟، ما هو الطريق الى السعادة الحقيقية؟، ما هو الموت؟،وما هي الدينونة والعقاب بعد الموت؟، وأخيرا: ما هو ذلك السر الأخير لوجودنا، الذي لا يمكن التعبير عنه، والذي أتينا منه وسوف نذهب اليه؟».

بهذا تكون قد تمت مخاطبة الهندوس والبوذيين والمسلمين واليهود على حد سواء وبصورة مختلفة، مع طرح السؤال عليهم فيما إذا كانوا يستطيعون مسايرة الركب والتوقيع على هذا الموقف. وعلى وجه العموم فإن ملامح وجه بولص السادس التي بدا التردد عليها قد عبرت عن عدم سهولة تطابق الواقع مع مضمون صياغة النصوص الصادرة عن المجمع، وعكست شعورا بالأسى والحزن.

الفصل الثاني عشر

بولص السادس والموقف من الحرية الدينية

لقد احتاج البابا بولص السادس وآباء المجمع الى قوة تتجاوز الذات والى صبر. فكان عليهم أولا إنهاء تقاليد عمرها مئات السنين، ولم يعد لها مكان في مجتمع حديث تعددي في القرن العشرين، ثم التحلي بالشجاعة والنَفَس الطويل لإقناع الممانعين، حيث أن البابوات ظلوا لزمن طويل يرفضون الحرية الدينية بوصفها عملا شيطانيا وحيلة تتحرك كالأفعى في العصر الحديث. إنهم تمسكوا برفض الحرية الدينية التي تعني الإعتراف بالأديان الأخرى، وحرية عدم الإعتقاد بأي دين أيضا، مع امكانية الوجود الى جانب الدين بدون إكراه أو عنف. ربما يُعّد ذلك في المجتمعات الليبرالية ـ الديموقراطية أمرا بدهّياً، ولكن إلقاء نظرة داخل المجتمع يساعد على إدراك مدى ضخامة المهمة، التي يقف الإسلام اليوم أمامها.

فكان من البديهي عبر قرون زمنية طويلة ان يسيطر أصحاب القوة والسلطان على الدين، بحيث يتشارك الجميع في الدين داخل ثقافة معيّنة، وكان سلوك الذين يخالفون الدين يُعدّ نوعاً من تصرفات البرابرة. لكن هذا الوضع تغيّر مثلا في العصر الأوروبي القديم، على سبيل المثال عندما ظهر اليهود وبعدهم المسيحيون الذين دعوا الى الحرية الدينية بوصفهم أصحاب دين جديد. وبعد أن تفسّخت الوحدة الدينية في أوروبا والعالم الغربي أصبح الوصول الى التسامح الديني بين المذاهب المسيحية يحتاج الى المرور عبر معارك وحروب لا حصر لها، أو الى التوصل لحلول وسط بطرق إتفافية، بل الى ما هو أصعب من ذلك، ألا وهو النزوح والهجرة.

ويجدر القول في هذا السياق أن «التطهير» العرقي أوالديني لم يزل معروفا الى اليوم.

لقد تمسّكت الكنيسة الكاثوليكية زمنا طويلا بالرأي المتضمن أنها هي وحدها التي تمتلك الحقيقة، وأن لها حقوقا أكبر تجاه الأقليات المذهبية المسيحية الأخرى داخل دولة كاثوليكية، وكذلك بخصوص امكانيات الخطأ، وتجاه كل ما هو غير كاثوليكي عموما.

وادّعت بأنها هي «وحدها المحققة للسعادة الروحية». فكيف يكون من الممكن اذن أن ينشأ «خلاص» مع وجود الحرية خارج حدودها؟، وهل يجب عليها أن تعترف بهذا؟

لقد أصبحت مفاهيم الكنيسة الكاثوليكية في روما تُعدّ بالتدريج وجهة نظر عفا عليها الدهر، وخاصة في الولايات المتحدة الأميركية خلال القرنين الزمنيين، اللذين مضيا عقب الإعلان عن الدستور الأميركي الذي انطلق من روح التسامح الديني عام 1776م. فقد تبيّن للمواطنين الكاثوليك أن وجهة النظر الكاثوليكية التقليدية تمثل عائقا أمام الحياة المدنية، ولم يتم إنتخاب رئيس كاثوليكي إلا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1959م، وهو جون ف. كينيدي، الذي تم انتخابه بالتزامن مع عهد البابا الإصلاحي يوحنا الثالث والعشرين.

ألحّ الأساقفة وعلماء اللاهوت الأميركيون على تنقية المواقف الفكرية الكاثوليكية التقليدية، وكانت حجتهم القوية تتمثل في مطالبتهم بالعودة الى مفهوم الحرية، كما كان سائدا في القرون الأولى التي تلت نشوء الديانة المسيحية.

وتمكنوا من استيعاب أصول النشأة المسيحية الخالية من العنف والإكراه وضغوطات التكيّف، وربطها مع المفهوم الحديث للحرية المدنية النابعة من التسامح الديني. فقد كان المسيحيون في القرون الزمنية الأولى لنشأة المسيحية يعيشون في الامبرطورية الرومانية مواطنين من الدرجة الثانية.

وهذا الظلم الذي حاق بهم، لا يجوز إلحاقه بالآخرين، لأنه لا يمكن أن يمثل وجهة نظر مسيحية.

لم يعالج المجمع الثاني للفاتيكان نصا احتاج لوقت أطول وتمحيص أعمق مثلما احتاجه هذا النص، حيث كان يردّ وتُعاد صياغته مرّات عديدة. هكذا لم يكن غريبا أن يخرج بيان المجمع الثاني للفاتيكان «حول الحرية الدينية» في السابع من كانون الأول 1965م كآخر بيان صدر عنه تحت عنوان: «كرامة الشخص الإنساني». ووافق عليه المجمع بأغلبية 2308 صوت مؤيّد ضد 70 صوتا رافضا، و8 أصوات لاغية، وتم الإعلان عنه إحتفاليا في نفس اليوم الذي صدر فيه.

إن الكنيسة الكاثوليكية خطت خطوة جبارة نحو الأمام، عندما أضافت العنوان الثانوي التالي للبيان:

«حق الشخص والجماعات بالحرية الاجتماعية والمدنية في المسائل الدينية».

وبدا أن الأساقفة أدركوا إشارات الزمن، عندما صرّحوا في بيانهم:

«1- إن كرامة الفرد الإنساني أصبحت تدخل الى وعي البشر في زماننا أكثر فأكثر، وتنامى عدد أولئك المطالبين بامتلاك الناس للتقييم الذاتي والحرية المسؤولة، واستخدامهما فيما يعملون، دون أن يكونوا عرضة للإكراه، بل مهتدين بوعيهم الى الواجب. وهم يطالبون على هذا النحو بتقييد السلطة العامة قانونيا، حتى لا يُعتمد تفسير ضيق لحدود الحرية الحافظة لكرامة الشخص وأشكال المجتمع أيضا. وتستند هذه المطالبات بالحرية داخل المجتمع الإنساني بصورة خاصة الى القيم الروحية للإنسان، والى ما يلزم لممارسة الدين في المجتمع بحرية في الغالب الأعم»

الحقيقة في إطار الحرية

لقد ظل البابا والمجْمع متمسكيْن بمطلب يتضمن أن الكنيسة الكاثوليكية هي التي تمتلك الحقيقة، فقد ورد في البيان : «هذا الدين الحقيقي الوحيد، كما نعتقد، تم تحقيقه في الكنيسة الكاثوليكية الرسولية»، ولكنهما أضافا الى هذا الكلام على الفور: »إن الحقيقة لا ترفع مطلبا آخر أكبر من القوة الكامنة في الحقيقة ذاتها».

وهذا يعني أن المجْمع قام بصورة نهائية بتثبيت التحرر من الإكراه داخل مجتمع تنظمه الدولة، بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية ولغيرها أيضا، وذلك على النحو التالي:

«2- يُعلن المجمع الفاتيكاني، أن الفرد الانساني يملك الحق بالحرية الدينية. وهذه الحرية تتضمن وجوب عدم تعريض جميع البشر لأي إكراه، سواء من طرف فرد أو مجموعات داخل المجتمع، أو من طرف أية سلطة بشرية آخرى، بحيث لا يتعرض أي شخص للإكراه في المسائل الدينية، من خلال دفعه الى

التصرف ضد ضميره، أو الحيلولة دون تصرفه بما يمليه عليه ضميره في مجال خاص أو عام، بمفرده أو بالإشتراك مع آخرين، ضمن الحدود اللائقة (..). وعلى نظام المجتمع القانوني أن يعترف بحق الإنسان كشخص بالتمتع بالحرية الدينية، بحيث يصبح حقا مدنيا (..). يتيح للشخص أن يتمتع بالحرية النفسية الداخلية، وفي ذات الوقت بالتحرر من تعريضه الى الإكراه الخارجي».

و في تلك الأثناء صارت هذه المقولة معيارا دوليا على الصعيد الدولي وهدفا في الوقت نفسه.

على النقيض من الشريعة الإسلامية

ويُستنتج بناء على ذلك أن: «على سلطة الدولة، التي تصدرعن هدف جوهري هو الحرص على الصالح العام الدنيوي، أن تعترف بالحياة الدينية للمواطنين وتسهّلها، لكنها تكون قد تجاوزت حدودها، كما تم التوكيد هنا، إذا تمادت بتحديد النشاط الديني أو قامت بعرقلته».

لم يكن أحد من المشاركين في المجمع آنذاك على وعي تام بأن هذا القول يقف من حيث المبدأ على النقيض من الشريعة الإسلامية، إلا أن موضوع الحوار مع أديان ودول أخرى لا يمكن أن يتم إلا على أساس المعاملة بالمثل.

هكذا قام البابوات والأساقفة بصياغة خطوط توجيهية بعيدة النظر، غير أن اعتمادها لا يمكن قبوله إلا بموافقة متبادلة بين المسيحيين والمسلمين، حيث جاء في البيان:

«4- إن للطوائف الدينية حقا متمثلا بعدم اعاقة أنشطتها عن طريق وسائل تشريعية أو إجراءات قانونية إدارية أو سلطة الدولة، أو الحيلولة دون إنتخاب من يتقلدون المناصب فيها، وكذا الحال فيما يتعلق بالعملية التربوية، وتعيين الأشخاص في وظائف أو نقلهم، والإتصال مع الشخصيات الدينية

والطوائف في أنحاء أخرى من العالم، وإنشاء المباني الدينية، وشراء الممتلكات الموفية بالغرض وإستخدامها.

ومن حق الطوائف الدينية ألا تتعرض للعرقلة في ممارستها تعليم معتقدها الإيماني والتعريف به قولا وكتابة وبصورة علنية عامة. لكنّ من الواجب في كل وقت الإمتناع عن أي نشاط يتعلق بنشر المعتقد الديني والتقاليد، إذا لوحظ أن هذا النشاط يتم عبر الإكراه أو الإقناع بصورة غير مشرّفة أو لائقة، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بأناس لهم حظ قليل من التعليم أو فقراء»

الحق بالحرية في المسائل الدينية

وبشكل مشابه تضمّن البيان ما يأتي:

«6- إذا كانت طائفة دينية واحدة، بالنظر الى الأحوال الخاصة لشعب ما، تحظى باعتراف مدني خاص من طرف النظام القانوني للدولة، فإن من الضروري في الوقت نفسه، أن يتم الإعتراف بحق الحرية في المسائل الدينية لجميع المواطنين والطوائف الدينية الأخرى والحفاظ على هذا الحق. إن على سلطة الدولة أن تسعى لجعل المساواة بين المواطنين أمام القانون بحد ذاتها جزءا من الصالح العام، ولا يجوز أبدا أن تظل معلّقة أو أن يتم إنتهاكها بصورة مستترة من أجل الدين. ويجب على تلك السلطة أن تسعى الى منع حدوث تمييز بين المواطنين».

لم ينظر آباء المجمع في ذلك الحين في موضوع الإسلام وتاريخ توسعاته، لكنهم أقرّوا من خلال نظرة تاريخية ـ لاهوتية الى الوراء بأن المسيحية، من حيث نشأتها الأصلية، خالية من العنف، اذ ورد في بيانهم ما يلي:

«11– إن الله يدعو البشر لعبادته في الفكر والحقيقة، ولذلك فإن هذه الدعوة تلزم ضمائرهم، لكنها لا تكرههم عليها. فالمسيح، معلمنا وربنا، المليء قلبه في ذات الوقت بالوداعة والتواضع، سعى الى كسب أنصاره بصبر وأناة ودعاهم(..)، دون أن يهدف الى ممارسة الإكراه عليهم (..)..

فقد رفض أن يكون مسيحا سياسيا، يستخدم أدوات السلطة الخارجية، واعترف بسلطة الدولة وحقوقها عندما أمر بدفع الضريبة للقيصر، لكنه أنذر بوضوح للحفاظ على الحقوق العليا لله (أعطوا لقيصر ما لقيصر وما لله لله) ـ إنجيل متى الإصحاح 22، الآية 21ـ.

لقد عرف الحقيقة، ومع ذلك فإنه لم يرد أن يفرضها بالقوة على الذين عارضوه. فملكوته لا يحميه السيف، وإنما يتم ترسيخه بشهادة الحق وسماعها (..).. إن الرسل، الذين تعلموا من خلال كلمة المسيح والتمثل بسلوكه، ساروا على النهج نفسه. ففي وقت مبكر منذ بدايات نشأة الكنيسة، بذل أنصار المسيح جهدهم لجعل الناس يشهدون للمسيح الرب ويؤمنون به، ولكن ذلك لم يتم عبر وسائل الإكراه والتحايل، التي هي ليست على قدر البشارة (..).».

مباديء عالمية لا تقبل المساومة

كان المجمع الثاني للفاتيكان بمثابة تجمّع لكنيسة عالمية، لمؤسسة تعمل في جميع الدول وبين كافة الأمم والثقافات والأنظمة السياسية، والكنيسة التي تُعد «اللاعب الدولي» الأقدم، أصبحت بهذه الصفة للمجمع أيضا الأولى بين المتقاربين في عالم يتقارب من بعضه البعض في عصرالإعلام الذي انبلج فجره.

فقد جلب الأساقفة خبراتهم من جميع القارّات، وشهدوا في روما وحدة البشرية، مثلما عبّروا عن ذلك في بيانهم قائلين:

«ان هنالك اذن حقيقة معروفة هي أن جميع الشعوب تتقارب باستمرار

لتشكيل وحدة، وأن علاقات الشعوب ذات الثقافات والديانات المختلفة تتوثق أكثر فأكثر، وإن الوعي بالمسؤولية الذاتية أخذ يتنامى كذلك. ومن أجل إقامة علاقات سلام ووئام بين البشر وتوطيدها، فإن من المطلوب أن تحظى الحرية الدينية بحماية قانونية فاعلة في كل مكان على الأرض، وأن تراعى الواجبات والحقوق العليا للناس، وهي المتعلقة بحريتهم في تشكيل حياتهم الدينية داخل المجتمع».

ولم يكن قد تبيّن في شهر كانون الأول (ديسمبر) 1965م على الإطلاق من هو المقصود بهذه الجمل السابقة.

إنها مبادىء ليست قابلة للمساومة في أي حوار.



الفصل الثالث عشر

بولص السادس والقانون الدوغمائي بخصوص الوحي الإلهي

من المفروض الاعتقاد بأن البابا بولص السادس والمشاركين الآخرين بالمجمع كانوا على علم بماهية الوحي ورسالته المسيحية التي يعتقدون بها، لأن من غير الممكن بدون ذلك أن يقوم دين يستند الى الوحي، ويعتقد قادته الدينيون وأتباعه بأن تعاليمه لم يبتدعها البشر ولم تتكون نتيجة صنعهم، وإنما وجدت عبر التبليغ الإلهي بها.

فبهذا الإعتقاد يطالب المؤمنون في نطاق الديانة اليهودية والمسيحية والإسلامية على حد سواء. والكنيسة تؤمن في عقيدتها منذ ألفي عام بأن يسوع المسيح، مؤسس المسيحية، هو كلمة الله التي أصبحت بشرا، وأن الله أظهر نفسه من خلاله. وتشهد بذلك كتب «العهد الجديد» المقدسة، وهي الأناجيل وما كتبه رسل المسيح وفقا لمعيار ثابت.

ووفقا للمعنى المطلق الذي أورده هيجل فإن أي دين لا يمكن أن يكون شيئا أكثر من كلمة الله، وخاصة عندما تتجسد في شخص مسيح الناصرة. إذن فمن المفترض أن يسهُل على البابا والأساقفة تقديم معلومات حول «الوحي» في المسيحية، لكن ذلك لم يحدث الآن.

فالشروع في التأمل والغوص في نظام محاط بالتبجيل والإجلال مع اعتماد العقلانية في نطاقه هو أمر يكاد يكون صعبا الى درجة الإفزاع.

وبالإضافة الى الإقرار بالإيمان فإن هذا هو ما قام به المسيحيون منذ ما يقارب الألفي عام من خلال علم اللاهوت والتفسير لكتبهم المقدسة، حيث طرحوا السؤال العقلاني عن كلمة الله، وحاولوا التوصل الى الإجابة.

المفكرون الأوروبيون والفلاسفة الألمان

وقد قام مفكرون أوروبيون كبار مثل سبينوزا (1632ـ1677م) في الوقت نفسه بالابتعاد

خطوة الى الوراء عن الدين المسيحي و تجنبوا المساس به، وتسائلوا بعقلانية لا تراعي شيئا، كيف يمكن أن تنشأ رسالة الوحي أصلا، وكيف يمكن للمرء أن يعرفها ويقيسها (أنظر الفصل السادس والثلاثين).

وفي القرنين الثامن والتاسع عشر وصل الفلاسفة الألمان بوجه خاص، المهمون منهم وقليلو الأهمية على حد سواء، الى مرحلة دفعتهم لوضع الوحي الإلهي المسيحي أمام محكمة العقل. ونظر بعضهم مثل جوتهولد أفراييم ليسنغ (1729 ـ1781م) أو «عمانويل كانط» (1724 ـ 1804م) باحترام الى إمكانية حدوث تبليغ إلهي، أي وجود دين مصدره من الله، إذا كان هذا التبليغ الإلهي قابلا للإدراك في حدود «العقل المحض»، كما قال كانط. لكن غيرهم مثل لودفيغ فويرباخ (1804 ـ1872م) قاموا بإنكار الوحي الإلهي تماما، وعدّوه بإختصار صورة منعكسة في الذهن، وإسقاطا فكريا بشريا ومجرد تصورات، ولم يقبلوا بوجود شيء خارق للطبيعة.

أما البابوات في المائتين والخمسين سنة الماضية فإنهم لم يكونوا متحمسين لهذا الطرف أو ذاك، ورفضوا سيطرة العقل على الدين.

لكن أفكار التنويريين أصبحت موجودة في العالم، واضطر المتدينون في أوروبا الى الدخول في جدال معها. هكذا تحولت التساؤلات حول الوحي الإلهي الى مسائل أساسية للمسيحية: فهل الوحي الذي هو تبليغ عن حقائق إلهية ممكن أصلا؟، إذا كان الجواب نعم، فكيف ومتى وأين حدث؟، ولماذا بهذا الشكل بالذات وفي ذلك الحين وفي ذلك المكان؟، وإذا كان الله يبلغ البشرعبر الأنبياء، فكيف وبأية لغة يمكن تلقي التبليغ ونقله للآخرين؟، إن المسائل المتعلقة بالوحي الإلهي هي على قدر كبير من الأهمية، مما يفسر اختلاف الأساقفة خلال المناقشات حولها. وفي نطاق الإجابة عليها بالذات وجد المجمع تحت أنظار البابا بولص السادس «وعيه الذاتي»، كما يقال.

إنها أسئلة يتوجب على الإسلام أيضا أن يطرحها على نفسه بنزاهة وعقلانية، وهي تكتسب لهذا السبب وزنا جديدا داخل أوروبا وليس في إطار اجراء حوار فقط، لأن الأسئلة لا يمكن محوها من العالم ومن العقل. اذ أن هناك أدياناً مختلفة تقوم على أساس

الوحي الإلهي: فاليهود يستندون الى توراتهم، أي الى ذلك الجزء الذي يسميه المسيحيون بالعهد القديم، وهناك المسلمون الذين يطالبون بأحقية امتلاكهم «للوحي النهائي» في القرآن، الذي أوحي به الى النبي محمد «خاتم الأنبياء» بعد اليهود والمسيحيين، معتبرين أن هذا الوحي هو التبليغ النهائي الأخير والمباشر من الله.

إعتماداً على همس إحدى الحمائم

وبالاضافة الى كل ما سبق فإنه لا يُستطاع التأكد من الحقيقة بشأن نشأة الكتب المقدسة وتكوّنها.

وهناك بشأنها صورة جميلة في فن العالم الغربي، يبدو فيها روح القدس على شكل حمامة توشوش كلمات الله في آذان الكتّاب، فهل كان الأمر على هذا النحو أيضا لدى أنبياء اليهود وكتاب الأناجيل ورسل المسيح؟، أو لدى النبي محمد في القرن السابع الميلادي؟، وإذا كان علماء الدين والقادة الروحيون الأجّلاء يؤكدون بأن المسألة كانت هكذا، فهل يستحقون الايمان؟، الايمان الأعمى؟ بدون طرح أسئلة لاحقة، لأنها تعكس ذلك الشك الذي هو شر لايرضاه الله؟، أيتم الايمان فقط إذا كان من سبقوا شهدوا على ذلك؟، وهل شهد الجميع أم الأغلبية فقط؟، وماذا إذا كان لعلماء دين آخرين رأي آخر أو يطالبون بضرورة فهم مسألة بهذا الشكل أو ذاك، فلمن يكون الايمان؟، وماذا عندما تتضمن الكتب المقدّسة متناقضات؟، أو عندما يتطلب الايمان التصديق بحكايات لا يقبلها العقل وتتناقض مع معارف العلوم الطبيعية؟، هل يمكن للدين أو هل يجوز له أن يصدر أوامر وأن يستمر في السير وعينا العقل مغلقتان!، لأن المؤمنين لا يريدون معرفة الأمور بشكل دقيق تماما، ولأن التطابق بين الايمان والعقل في تاريخ الأديان لم يكن دائما الموضوع الأهم بالنسبة للناس، على عكس ما حصل خلال عصر التنوير في أوروبا؟، ماذا إذا كان الجواب «بلى» وكانت هناك مطالبة بالإنسجام بين الايمان والعقل تجاه وحي الهي، حقيقي أم مزعوم، وبالمصالحة مع العلم والتكنولوجيا، وبالتناغم بين ما هو ديني

وبين مجتمع مدني تعددي؟، وماذا إذا كان هناك من يكذّب مبدئيا إمكانية وجود وحي إلهي، لأن الله حسب رأي المكذبين لا يستطيع أن يظهر نفسه أو لأنه واسع لايحيط به شيء، وليس له تجسيد معين أو لأنه غير موجود؟، انها لأسئلة تتراكم فوق بعضها.

لقد ظهر في المجْمع معسكران متعارضان: الأول منهما ضم ممثلي «اللاهوت الكاثوليكي»، الذين كانوا يفضّلون تقديم تنازلات بسيطة ثم «غضّ البصر»، بينما مثّل الأخر علماء لاهوت أرادوا التواصل مع الجهود التي بذلت خلال ألفي عام من الزمن في التعامل مع الكتب المقدسة، والعودة الى العقود الزمنية الأولى التي نشأت فيها الأناجيل وكتابات رسل المسيح، والى شروحات آباء الكنيسة في القرون الأولى لنشأة المسيحية ومعانيها المختلفة، والى معلمي الكنيسة في العصور الوسطى وما كتبوه من جمل رفيعة المعاني، و كذلك الى علماء الإنجيل في العصر الحديث ومناهجهم التاريخية الناقدة لمراجع التراث.

ضد الخوف والتضييق

أكد البابا بولص السادس في قرار تأسيسيّ له على التقليد الثاني من أجل مواجهة الخوف والتضييق على «من هم أكثر تدينا»، ووافق على استخدام أساليب علمية حديثة مأخوذة من مجموع العلوم الإنسانية، القابلة للاختبار في مجال بحوث الإنجيل الكاثوليكية، مخالفا بهذا نهج بيوس الثاني عشر، الذي كان قد أصدر في شهر أيلول (سبتمبر)1943م منشورا بابوبا تحت عنوان: «استلهام الروح القدس».

وبهذا تمكن المجمع خلال «إجتماع تأسيسي دوغمائي» من أن يقوم بالالتزام المبالغ فيه من أجل تثبيت المباديء التالية للمؤمنين، مع عدم الزامهم الدائم بأن يؤمنوا حرفيا بها على الدوام:

> *«المادة 12: بما أن الله وفقا للكتاب المقدس تكلّم من خلال بشر كما يتكلم البشر، فإن على مفسّر الكتاب أن يبحث بحرص عن المقاصد الحقيقية لما يبغي القديسون مؤلفو الكتب المقدسة قوله، وعما أراد الله أن يعلنه من*

خلال كلماتهم، من أجل إدراك ما شاء أن يبلغه به. وبهدف تحديد مقاصد أقوال مؤلفي الكتب المقدسة فلا بد من الانتباه الى أصناف الصياغة الأدبية الى جانب أمور أخرى. فعرض الحقيقة والتعبير عنها يتمّان بأشكال مختلفة ويردان في نصوص تتباين من حيث المعنى، و بخصوص تحديد أنماطها فيما اذا كانت من النوع التاريخي أو النبوي أو الشعري أو من أنواع أخرى من الكلام. وفضلا عن ذلك فإن على المفسّر أن يبحث عن المغزى الذي أراد مؤلف الكتاب المقدس التعبير عنه وكيف عبّر عنه بالفعل، إنطلاقا من حالة معيّنة تشمل الزمن والثقافة التي كانت سائدة، وما استخدمه من أصناف الكتابة الأدبية المألوفة آنذاك. إذا شاء أحد أن يفهم بشكل صحيح ما أراد مؤلف الكتاب المقدس أن يقوله، فإن عليه في النهاية الإنتباه بدقة الى المعطيات المحيطة بأشكال السرد واللغة والتفكير التي سادت في ذلك الحين، بالإضافة الى أخذ أشكال التعامل المألوف الذي كان سائدا بين الناس. وبما أن قراءة الكتاب المقدس وتفسيره يجب أن تتم إنطلاقا من الروح التي كتب فيها، فلا بد من تحديد قويم لمقاصد الكتب المقدسة ومعانيها، وإيلاء الإنتباه بالحرص نفسه لمحتوى ووحدة جميع الكتب المقدسة، مع مراعاة التراث الحي للكنيسة بكاملها ومطابقته للإيمان.

إن مهمة المفسّرين هي أن يقوموا وفقا لهذه القواعد بتحديد وتفسيرأعمق لمقاصد الكتاب المقدس وإظهارها، آخذين في ذات الوقت العمل العلمي التمهيدي بعين الإعتبار، من أجل إنضاج الحكم الذي تتوصل اليه الكنيسة وكل ما يتعلق بنوعية تفسير الكتاب المقدس يظل في النهاية خاضعا لحكم الكنيسة، التي منحها الله مهمّة خدمة كلمة الله والحفاظ عليها وتفسيرها».

كلمات الله على لسان بشر

لقد استطاع البابا بولص السادس والأساقفة اختصار فحوى المشكلة وحلها في

جملتين تتضمنان ما يلي:

«*يتجلى في الكتاب المقدس اذن تواضع إعجازي للحكمة الأبدية بصرف النظر عن حقيقة وقدسية الله (..)، لأن كلمات الله التي صيغت بلسان بشري أصبحت تشبه كلام البشر*».

فهذه المسألة تشبه كما يقال في علم الفلك «درب الحليب»، التي لا طريق ولا حليب فيها، إلا أن التعبير يشير الى حقيقة موجودة. ولكن من أراد أن يعرف شيئا أكثر تحديدا عنها، فإنه لا يكتفي بالطريق والحليب، ويجد ما هو أكثر تحديدا.

توصّل المجمع من خلال المناظرات اللاهوتية حول الوحي الإلهي الى «وعيه الذاتي» كما قيل، حيث وجد الموقع الزمني والعقلاني المحدد للكنيسة. ولا يستطيع البابوات النكوص عنه الى الوراء، لا هم ولا علماء اللاهوت المسيحيون، ولا سيما عند مواجهتهم لدين آخر مستند الى الوحي الإلهي، وهو الإسلام. (بالنسبة لعلماء الدين اليهود، فإن المفسرين المسيحيين متفقون معهم بشكل واسع حول مناهج بحوث الكتاب المقدس ولا يفصلهم عن بعض سوى النظرة الى شخص يسوع المسيح).

أما في الإسلام فلم تزل المناظرة بين الأصوليين والمفسرين ذوي التوجه العلمي غائبة، فهي لم تتجاوز البدايات، حيث يبدو أن من غير الممكن إثارة التساؤلات حول قضية الأصولية.

ولا يمكن في نطاق الحوار أن يُكتفى بالتعامل مع مسلمين «تقدميين» ومع البدايات المعتدلة لتفسير نقدي للقرآن، اذ يجب توجيه النظر اجمالا الى مجموع المسلمين، الذين يبلغ عددهم أكثر من مليار نسمة.

هكذا كان الوضع بعد مرور أربعة عقود من الزمن على انعقاد المجمع. ففي شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2008م عقد إجتماع للجمعية العمومية لمؤتمرالأساقفة للكنيسة الكاثوليكية على قاعدة «التأسيس على الوحي الإلهي» بدون حدوث أزمات تقريبا، وأجريت مشاورات حول موضوع: «كلمة الله في الحياة وفي رسالة الكنيسة»، وتم

بالإجماع اقرار تفسير الرسالة المسيحية بوصفها كلمة الله من خلال يسوع المسيح وبواسطة الكنيسة باعتبارها بيت الله، وعبرالمهمة التبشيرية بصفتها طريق الكنيسة الى الشعوب.

وتم التوصل الى هذا الأقرار، على الرغم من فلسفات التنوير كلها. يبدو من ذلك أن البابا بولص السادس، باعتباره سيد المجمع، قد قام بفتح الطريق الصحيح.



الفصل الرابع عشر

يوحنا بولص الثاني ـ مواجهاته الأولى مع الإسلام

تعرّف كارول فجيتولا الذي أصبح البابا يوحنا بولص الثاني على الإسلام والمسلمين خلال الفترة من تشرين الأول(أكتوبر) 1978 حتى نيسان (أبريل) 2005م من خلال السماع، حيث كانت لديه في ذلك الحين أولويات ومشكلات أخرى.

ولد البابا في الثامن عشر من أيار (مايو) 1920م في مدينة وادوفيج الصغيرة الواقعة بالقرب من مدينة كراكاو. وكان عمره تسعة عشرعاما، عندما نشبت الحرب العالمية الثانية وقامت قوة الدفاع الألمانية بالهجوم على وطنه بولندا. وبعد انتهاء الحرب وقعت بولندا تحت السيطرة الشيوعية السوفييتية وكان عمره خمسة وعشرين عاما. عرف اليهود وعلم بما ارتكبه الألمان ضدهم في معسكر «أوشفيتس» القريب من بلده، منطلقين من جنون عنصري لا يعرف الله، ولم يكن المسلمون حينذاك موضوع حديث.

أصبح قسيسا في كراكاو منذ تشرين الثاني (نوفمبر) 1946م، ثم عيّنه البابا بيوس الثاني عشر في عام 1958م أسقفا مساعدا. كما عينه البابا بولص السادس عام 1964م أسقفا لمدينة كراكاو ذات الخصوصية التاريخية، لأنها كانت عاصمة سابقة لملوك بولندا. وتعلّم أكثر عن الإسلام في إطار القدّاس الكنسي، لأن كاثوليك بولندا يحيون دائما في الكنائس في الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) ذكرى انتصار ملكهم «جان سوبيسكي» على الأتراك المسلمين على أبواب فيينّا عام 1683م.

وحتى في عام 2008م احتفل بذكرى الإنتصار في ذلك اليوم والأيام المحيطة به عشرات الآلاف في كراكاو معبرين عن سرور – لا يعتبر سليما من المنظور السياسي – بهزيمة العثمانيين المسلمين وطردهم من أوروبا المسيحية. وكان الملك البولندي قد انطلق آنذاك من مدينة كراكاو على رأس جيشه من أجل إنقاذ العالم الغربي. ولم يزل ذلك يشكل سببا للبهجة في بولندا حتى اليوم.

وربما كان على الأسقف فجيتولا، الذي علت مرتبته في زمن البابا بولص السادس في عام 1967م الى مرتبة كاردينال داخل بلد تحكمه الدكتاتورية الشيوعية، أن ينعم التفكير والتأمل، عندما ترآى له أن المسلمين داخل الإتحاد السوفييتي المجاور يبدون مقاومة ضد الإلحاد المفروض عليهم أكثر من المسيحيين الأرثوذكس وقساوستهم في بولندا. لكن هذا البولندي المنغمس في كاثوليكيته التقليدية لم يكن مضطرا لإشغال فكره بالإسلام عندما سافر الى روما للمشاركة بالمجمع (1962 ـ 1965م)، وحينما كان يُستدعى الى مركز الكنيسة هناك مرة تلو الأخرى. فقد كان منشغلا بشكل أساسي بحرية الكاثوليك الدينية داخل نظام شيوعي وامكانيات تعايشهم الروحي مع هذا العالم الحديث.

طوائف مسيحية في بلاد المسلمين

كان اكتشاف الكنائس الكاثوليكية الشرقية يمثل خبرة من الخبرات التي اكتسبها المشاركون بالمجمع أيضا، حيث لفت الإنتباه بطارقتها الأجّلاء الملتحون عند ظهورهم بملابس غريبة فاخرة. كان هؤلاء يمثلون المسيحيين المنتمين الى الطقس الكنسي الإغريقي «ومرتبطين» مع روما، بوصفهم من «المتّحدين».

لقد جاءوا من الشرق المسيحي القديم الذي أصبح مسلما: من الإسكندرية في مصر، ومن «أنطاكية» التي أصبح مقر كنيستها في بيروت ودمشق السورية، أو جاءوا من الأرض المقدسة. وقدّموا تقارير عن مصير الطوائف المسيحية الصغيرة في بلاد المسلمين، تضمّنت القليل مما يبهج النفس، ولكن ربما بالقدر الذي يمكن تحمله، مع أن معظم ما ورد فيها كان يبعث على الغم.

أجل، إنهم صاروا مهمّشين في أوطانهم، وكان تقبلهم يتم على مضض في أحسن الأحوال. ظلت هذه الطوائف المسيحية التي تعيش بين أغلبية مسلمة تُعد بالنسبة للفاتيكان حتى اليوم محك اختبار للحرية الدينية والتسامح، واحترام الأقليات من طرف الإسلام على المستوى العملي.

وتبدّى في نطاق المجمع تأثير جانبي إيجابي يتمثل في إحاطة «الغرب» علما بوجود

مسيحيي الشرق، الذين لهم تراث غنيّ متنوّع وكنائس وطنية تبعث على الفخر. وهم متسمون بعناد ربما يدعو الى الإستغراب، إلا أن ضرورة حمايتهم والدفاع عن سعادتهم في البلدان الإسلامية لم تعد هي مطلب المدافعين عن حقوق الإنسان الدينية وحدهم.

عندما تولى البابا يوحنا بولص الثاني في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1978م قيادة الكنيسة لم يكن الإسلام يشكل موضوعا أساسيا، أما حينما توفي في بداية شهر نيسان (أبريل) 2005م ثم في الحقبة التي تلت وفاته فإن الإسلام أصبح هو الموضوع الرئيسي بالتأكيد. وعندما تقلّد يوحنا بولص منصبه دعا وفودا تمثل كنائس مسيحية غير كاثوليكية فقط، وألقى فيها خطابا ودّيا. وبعد مضي ربع قرن ونيّف، أصبح من البديهي أن يدعو البابا بينيديكت السادس عشر ممثلين عن أديان غير مسيحية أيضا، كي يشاركوا في لقائه الأول مع العالم.

مسيحيون ومسلمون في إفريقيا السوداء ـ الرحلات

كانت الرحلات التي قام بها البابا يوحنا بولص الثاني هي التي جعلته يصطدم بالمشكلة الكبيرة، ممثلة بالإسلام. أمّا حدوث الإنقلاب الثوري في إيران بين عامي 1978و1979م، الذي أطلق عليه لاحقا إسم «الثورة الإسلامية» وصار علامة طريق على صعيد السياسة العالمية فإن تأثيراته، رغم لفته انتباه الفاتيكان، ولّدت إنتباها وقلقا لدى مراكز حكومية أخرى أكثر مما ولّدته لديه. فالبابا الجديد جعل مركز نشاطه في ميادين أخرى. إن العلاقات الدبلوماسية بين طهران والفاتيكان ظلت قائمة، وكان من الصعب تقدير التطور المحتمل للنظام الإسلامي للخميني، وتحديد المدة الزمنية المحتملة لاستمرار هذه العلاقات.

لقد شحذت الرحلات التي قام بها البابا يوحنا بولص الثاني وعيه: في البداية جاءت تلك الرحلة التي أوصلته الى تركيا في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 1979م. وكان بوسع البابا أن يتصرف حتى ذلك الحين كما لو أن الزيارة كانت لا تتعلق بلقاء مسلمين، لأن سببها الرئيسي كان إجراء لقاء مع البطريرك المسكوني في اسطنبول «ديميتريوس الأول» في يوم الإحتفال بـ«عيد أندرياس» في الثلاثين من تشرين الثاني (نوفمبر)، ولأن تركيا

وفقا لإرادة مؤسسها «أتاتورك» أرادت أن تكون جمهورية علمانية تفصل بين الدين والسياسة.

لم يعلّق الفاتيكان تقريبا أهمية على وجود تهديدات لمسلمين متطرفين في حينه ضد رئيس الكنيسة، وأحدهم يدعى «علي أكجا»، علما بأن هذا القاتل الشاب أقدم بالفعل بعد سنة ونصف على تنفيذ محاولة إغتيال للبابا بتاريخ 31 أيار (مايو) 1981م. فهذه الخلفية الإسلامية لمحاولة إغتيال البابا لم يعتبرها الفاتيكان بشكل رسمي أنها ذات أهمية، ربما بسبب انطلاقها من خلفية شيوعية أيضا، حيث أن القضاء الإيطالي تثبّت من وجود «أثر بلغاري» لها، مما يشير الى أن المسلمين والشيوعيين كانوا أعداء للبابا، ومع ذلك فان الفاتيكان صمت على ذلك رسميا.!!

تبدّل هذا الوضع عندما تنامى الإهتمام بالإسلام فجأة في شهر شباط (فبراير) 1982م، ابّان الفترة التي قام فيها البابا يوحنا بولص الثاني بزيارته الى إفريقيا، ومنها نيجيريا. وانطلق قبل ذلك من وجهات النظر التي تأطرت في المجمع، مثمّنا بمناسبات عديدة «الإرث الديني للإسلام وكنوزه الروحية»، ومعربا عن رغبته «في تطوير الرابطة الروحية بين المسيحيين والمسلمين».

لكن الأساقفة الأفارقة السود ومنهم الكاردينال «بيرناردين جانتي» من «بنين» و «فرانسيس أرينزه» من «نيجيريا»، لفتوا انتباه البابا الى التنافس المحموم للتوسع الديني الإسلامي في البلدان الواقعة جنوب الصحراء العربية الإسلامية. ولهذا السبب نصحوه بإجراء لقاء مع زعماء المسلمين من أجل تحسين المناخ، مثلما حدث في نيروبي (كينيا) وأكرا (غانا) في شهر أيار (مايو) 1980م.

قام الأساقفة في البلدان جنوب الصحراء بتقديم تقرير أعدوه بدقة، حيث أنهم وجدوا أنفسهم حيال تطور لا يعرف أحد اتجاهه ولا نهايته، إلا أنه عموما لا يبشر بخير بالنسبة للكنيسة.

فالنمو النسبي للسكان كان يميل على الأغلب بقوة لصالح الإسلام أكثر من ميله لصالح المسيحية. وكان الإسلام يحقق معدلات نمو مؤثرة بالنظر الى عدد الأتباع، ولم يكن من

المستطاع في بعض الدول وضع حد فاصل بين المسلمين وغيرهم من أتباع الديانات المحلية، أو إجراء إحصاءات موثوق بها. أما عند استخدام أساليب إحصاء واجراء مقارنة دقيقة، فيتبين أن هنالك تراجعا في عدد أتباع كل دين. ورغم ذلك فإن أرقام الجدول التالي المقتسة من الدليل الألماني العالمي «فيشر فيلت ألمناخ» تتحدث عن نفسها بنفسها:

البلد الإفريقي	طبعات دليل «فيشر فيلت ألمناخ»	مجموع السكان بالملاين	النسبة المئوية للمسلمين	النسبة المئوية للمسيحيين
السنغال	1978م	5،1	75	4
	1991	7،01	90	6
	2009	12،07	94،5	5
غينيا	1978	4،53	60	1،2
	1991	6،7	69	8
	2009	9،18	85	15
ساحل العاج	1978	6،67	25 ـ 20	15
	1991	11،61	23	12
	2009	18،91	23	30
بوركينا فاسو	1978	6،17	20	5
	1991	8،51	50	10
	2009	14،35	(؟) 30	12
غانا	1978	10،31	15 ـ 12	40
	1991	15،53	13	52
	2009	23،01	16	69

توغو	1978	2،23	12	25
	1991	3،24	17	37
	2009	6،41	20 ـ 15	(؟) 30
بنين	1978	3،2	8	15
	1991	4،44	15	15
	2009	8،76	24،4	42،8
النيجر	1978	4،73	85	0،5
	1991	6،69	90	0،5
	2009	13،73	95	5
نيجيريا	1978	64،75	50	35
	1991	111،9	48	34
	2009	144،72	50	40
الكاميرون	1978	6،54	30 ـ 25	35
	1991	10،67	20 ـ 10	45
	2009	18،17	22	53
جمهورية	1978	2،61	5	18
إفريقيا	1991	2،77	8 ـ 5	35
الوسطى	2009	4،26	15	50
تشاد	1978	4،21	60 ـ 55	10
	1991	5،4	60 ـ 55	30 ـ 25
	2009	10،46	54	30
السودان	1978	16،13	70 ـ 60	5
	1991	23،8	60 ـ 50	5
	2009	37،7	70	10

إثيوبيا (منذ	1978	28،68	30	60
عام 1993م	1991	47،8	35	60 – 45
بدون إريتريا)	2009	77،15	45 – 40	10

نقطة التحول

وصل البابا يوحنا بولص الثاني الى نقطة التحول بتاريخ 14 شباط (فبراير) 1982م حينما رفض المسلمون في كادونا النيجيرية إستقباله.

وما أزال أتذكّر تماما الدهشة التي سادت أوساط الصحفيين، لأن شيئا من هذا القبيل لم يحدث قبل ذلك الحين: فكيف يتم رفض إجراء لقاء مع البابا بصورة احتفالية؟، تساءلنا حينئذ، ونحن نجهل القضايا الإسلامية تقريبا: ما الفائدة من ذلك؟، وطرح البابا السؤال نفسه أيضا، لكنه بالرغم مما حدث ألقى خطابا أمام ممثلي السلطات المدنية في كادونا، وقال مستغربا ومبديا خيبة أمله:

> *«كان الخطاب بهذا النص مخصصا لإلقائه أمام القادة الدينيين المسلمين، وها أنا أقول لكم الآن الكلمات نفسها، أنتم يا من تمثلون سكان ولاية كادونا وخاصة المسلمين منهم».*
>
> *بعد ذلك أبرز أهمية ما هو مشترك بين العقائد الدينية من خلال قوله: «تحت شمس الله الواحد الرحيم»، مبينا ما يعزز الروابط بين الجهود المبذولة لخير البشر.*

أنذرت هذه الواقعة يوحنا بولص الثاني، فحفظها في ذاكرته، بوصفها تعبيرا عن أزمة مبدئية وليس كإهانة شخصية وُجّهت اليه، وبوصفها تبايناً مبدئياً بين النظرية والتطبيق في موضوع الحرية الدينية مثلا. لكن حذره لم يمنعه من إحياء الذكرى الثلاثمائة للإنتصار المسيحي على المسلمين الأتراك في معركة كالينبيرج، بعد سنة ونصف في فيينّا

في الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) 1983م. إنه لم يقم باحيائها لأن الفضل في الإنتصار يعود بشكل رئيسي الى الملك البولندي فحسب، بل لأن «هضاب غابة فييّنا شهدت بداية حسم كبير»، وكذلك بسبب اتحاد «المحرِرين والمحرَرين والتحرير» أيضا تحت راية المسيحية. وقد تكرر ذكر التحرر الديني من المسلمين ثلاث مرات في كلام البابا.

في الدار البيضاء

لم تمنع البابا المشاكل المتنامية مع المسلمين في إفريقيا، من التوجّه لزيارة بلد عربي إسلامي صرف لأوّل مرة وهو المغرب بناء على دعوة وجهت اليه من الملك المغربي، فقد تنامت بشكل مستمر ضرورة التوصل في مختلف بلدان افريقيا الى تعايش مع قادة المسلمين وجماهيرهم في الدول الآفريقية.

إختار البابا يوحنا بولص الثاني لقاء أناس من الشباب، لأنه لم يخش من الدخول في منافسة مع الاسلام حول المستقبل، محققا بذلك نجاحا جعل عشرات آلاف الشباب والشابات وكبار السن يستقبلونه في الدار البيضاء في التاسع عشر من آب (أغسطس) 1985م.

وفهم الحاضرون وهم راضون أمنية البابا بتحقيق: «تعايش هادىء بين المسلمين والكاثوليك بأسمى درجة من درجات روح التسامح»، وأنصتوا بتأمل لصلاة البابا الى الله الرحمن الرحيم.

لقاء بين الأديان في «أسيسي»

أصبح الحوار بين الأديان في منتصف الثمانينات من القرن الماضي أكثر إلحاحا، حيث دخل الى الوعي السياسي على صعيد العالم ما مفاده أن تباين الأديان العالمية الكبيرة منها والصغيرة لا يجوز أن يشكل قوة أخرى صانعة للأزمات.

كان البابا يوحنا بولص الثاني مستعدا للمساهمة في جهود الحوار، وبدا له أن الكنيسة كانت من خلال المجمع الثاني للفاتيكان مهيأة بشكل جيد، ولم يكن هناك ما يخشاه.

فالتنافس المفتوح حول نفوس حرّة كان مقدّرا له أن يجلب مكاسب للكنيسة، وكان الفاتيكان يأمل بأن تؤدي قرارات المجمع الى تخفيف الأعباء، بخصوص العلاقة مع الإسلام، الذي ينبغي إدراك أنه ذو صلة بجماعة المتدينين أيضا.

لذلك دعا البابا يوحنا بولص الثاني الى عقد «يوم عالمي للصلاة والسلام»، الى يوم «هدنة الله» في بلدة «أسيسي» الإيطالية في السابع والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) 1986م. كان رئيس الكنيسة الكاثوليكية يريد بهذه الدعوة وضع بداية للحوار، بغض النظرعن الفروق بين الأديان والمذاهب.

ورغم جميع التحفظات على البابوية فقد حضر الى بلدة «أسيسي» مسيحيون يمثلون مذاهب مختلفة، بالإضافة الى يهود وبهائيين وبوذيين وتشايناس وهندوس ومسلمين وفرثيين وشنتوس وسيخ. كان هؤلاء الذين استجابوا للدعوة يمثلون أتباع الديانات التقليدية الموجودة، حيث أتوا من أصقاع بعيدة جغرافيا وروحيا، من أميركا وإفريقيا.

فهؤلاء لم يفدوا الى روما عاصمة البابا وإنما الى تلك البلدة الصغيرة الواقعة على سفح جبل في مقاطعة أومبريا في وسط إيطاليا، التي نشط فيها في العصور الوسطى القديس فرانسيسكو متتبعا خطى يسوع المسيح آخذا تعاليمه مأخذ الجد، فأصبح رمزا إنسانيا للسلام والتصالح والأخوّة ومثالا شخصيا للتواضع والحلم.

لهذا السبب أراد الذين لبّوا الدعوة من الرجال والنساء المنتمين الى أديان وثقافات مختلفة المشاركة بالصلاة من أجل السلام.

واحتشد بهذه التشكيلة لأول مرة في تاريخ الإنسانية جمع متعدد الألوان؛ اذ وقف المحتشدون صفا واحدا أمام كنيسة «القديسة مريم الملائكية» في السهل الواقع أسفل البلدة. لقد شوهدوا ببشراتهم ذات الألوان المختلفة: بيضاء وسوداء وصفراء وبنّية، فقد جاءوا من كل بقاع الأرض، وهذا ما يلمحه الناظر من النظرة الأولى.

ويدرك من النظرة الثانية أن الجدّية تنم عن مظهرهم الخارجي الذي يبدو بعضه زاهي اللون والبعض الآخر قاتما، مع الملاحظة بأن هذا الشكل أو ذاك لم يأتيا مصادفة، بل ان التقاليد التي سادت عبر القرون هي التي حددته بدقة، ومن ذلك غطاء الرأس واللحية

والعباءة والأزار: هنا باللون الأصفر وهناك بالبني أو الأسود أو البنفسجي أو الأبيض أو الأزرق.

كانوا فخورين بهذه التقاليد، لأنهم جميعا حريصون على خصوصيتهم. كان هؤلاء الرجال والنساء القلائل من الحاضرين يمثلون الكنائس المسيحية والجماعات الكنسية والأديان العالمية الكبيرة المنتشرة في أرجاء الكرة الأرضية.

لقد نطق رؤساء الهنود الحمر من أميركا وهم بزينة الريش الفاخر بالشهادة للإله» مانيتو» الكبير، وشهد الأفارقة السود وهم بألبستهم ذات ألوان قوس قزح «بألوهية الطبيعة». وأتى الأسيويون بتعاليم «تماهي الفرد مع اللامتناهي»، بينما أظهر المسلمون جدية واضحة، كما لفت الأوروبيون بارتدائهم البدلات وأردية القساوسة الطويلة (التالار) الى النظام الموجود في الشأن الديني أيضا.

إن الناس في العالم متعددو الألوان ومتشبّثون بآرائهم وينطبق ذلك على دياناتهم أيضا. فما الذي يمكن أن يتطور عن هذا اللقاء الذي يتوسطه البابا من أجل الصلاة في «أسيسي»؟

الفصل الخامس عشر

يوحنا بولص الثاني في الهند وإندونيسيا ـ الحوار الضروري بين الأديان

ظل الحوار النظري اللاهوتي بين المتدينين والكنيسة من جهة والأديان العالمية من جهة أخرى يمثل مسألة واحدة من المسائل، أما المسألة الأخرى فكانت تمثلها الأفكار السياسية ـ العملية لدبلوماسية الفاتيكان والبابا، كونه أحد القادة السياسيين في العالم.

إعتاد البابا وحكومة الفاتيكان منذ قرون طويلة من الزمن على عدم النظر الى الحوار، أو لنقل الى العلاقات مع الكنائس والديانات والدول الأخرى بوصفها مسألة ذات بعد واحد فقط أو على التعامل معها وفقا لذلك، بل كانا يلعبان بكرات عديدة في الوقت نفسه. ولقد عرفت الكثير أثناء وجودي في غرف ساسة الفاتيكان الغنية بالأعمال الفنية عن كيفية تحويل الشكايات الى طرف آخر.

فقد اشتكى الأرثوذكس كما قيل لي من بعضهم بعض واشتكوا معا من أخلاقيات الأنجليكان، وشكا الهندوس من المسلمين. لقد تأكد لدبلوماسيي الفاتيكان بأن الكنيسة ليست هي وحدها التي لديها مشاكل مع المسجد، بل ان هناك مشاكل أنفسهم.

لكن البابوات كانوا منذ القدم معلّمين حاذقين بالسياسة، فعندما يتشاجر الآخرون يكون الفاتيكان أكثر استقامة وإنصافا، غير أنه لا يظل وسيطا عديم الإهتمام، بل يقول كلمته دون أن يخلو الأمر من اكتسابه عبرها سمعة مرموقة.

لهذا السبب قرر البابا يوحنا بولص الثاني في الثمانينات من القرن الماضي القيام بخطب ود تلك الدولتين الكبيرتين من أجل اجراء حوار ديني معهما، وهما الهند واندونيسيا اللتان تنطلاقان من هيبة الدولة ومصالحها العليا في تلبية حاجتهما الماسة الى التزام الجماعات الدينية بالتوجهات السلمية.

يبدو هذا التوجه نحو الحوار واضحا للجميع في الآونة الراهنة، أما في بداية حقبة الثمانينات فإنه كان شيئا جديدا، يدور حول أحد المواضيع الثابتة التي حملها يوحنا

بولص الثاني معه في حقيبة سفره.

لا شك بأن البابا اتبع نهج الحوار بعد الثورة الإسلامية في إيران، إلا أن هذا النهج لاح في الآفاق قبل فترة طويلة من إستيقاظ الإسلام السياسي وما واجهه من ردود الفعل على صعيد عالمي.

كانت الهند وإندونيسيا تُعدّان عنده مفاتيح من أجل تجنب حدوث «صدام» بين الأديان، نظرا لكبر حجم كل منهما، وأكثر من ذلك بسبب قوة التفجير الكامنة في تعدديتهما الدينية.

الهند – هندوس، مسلمون، مسيحييون

هكذا لم يتوان يوحنا بولص الثاني عن القيام بزيارة الى الهند في شهر شباط (فبراير) 1986م، هذا البلد مترامي الأطراف، الذي اقترب تعداد سكانه في ذلك الحين من المليار نسمة، والذي تعيش فيه أغلبية هندوسية وأقلية كبيرة العدد من المسلمين، وأخرى مسيحية تكاد تتلاشى هنا أو تظهر للعيان هناك، مما يُعدّ خليطا خطيرا وقابلا للإشتعال بين الحين والآخر.

وتُعد الأقليات في الهند بالنسبة للهندوس كبيرة، بحيث لا يتاح لهم اطلاق العنان لتعصبهم الديني بدون أن يتضرروا هم من ذلك أيضا، مما يدفعهم الى الإلتزام بالحوار. وفي الهند يدرك المسلمون، بالخبرة المكتسبة من أوضاعهم كأقلية، أنهم بحاجة أيضا الى الحرية، التي لا يمنحونها للآخرين وهم في موقع الأكثرية.

لا شك بأن البابا لم يستطع المراهنة على مشاركة واسعة من طرف عموم السكان في العاصمة نيودلهي، إلا أنه كان قادرا على أن يلفت إنتباه القادة السياسيين والدينيين والفئات الإجتماعية ذات النفوذ.

لقد بدا لي أن مثابرة يوحنا بولص الثاني على تنفيذ رؤيته السياسية العالمية في الغربة بخصوص الحوار بين الأديان بقيادة الكنيسة الكاثوليكية والبابوية تستحق الإعجاب، بعد أن أصبح قبل ذلك بزمن طويل نجما لامعا، والأهم من ذلك هو تزعمه مرجعية أخلاقية

تحظى باحترام عالمي.

أجل، إن مثابرته هذه كانت مثيرة للإنطباع وحاسمة الى أبعد الحدود. أشار البابا في مستهل زيارته للهند عام 1986م الى الهدف المزدوج لها، وقال إنه آت لزيارة كاثوليك الهند كونه رئيسا للكنيسة الكاثوليكية، على الرغم من أن عددهم ضئيل جدا، وأنه يريد بصفته رئيسا لديانة عالمية أن يتحدث الى جميع الهنود، من أجل التأكيد على ما يربط جميع الأديان – ومنها الإسلام والهندوسية – من إيمان واحترام للإنسان.

وشرح يوحنا بولص الثاني لرئيس الدولة الهندية «جياني زائيل سينج» ولرئيس الوزراء «راجيف غاندي» هذا الهدف المزدوج لزيارته، فأعرب كلاهما عن بالغ السرور من ذلك. وهكذا يمكن القول بأن رئيس الكنيسة أصبح محاميا للدفاع عن الأقلية المسلمة وعن سلام الدولة في الهند.

برنامج للتخلي عن العنف

تقدّم يوحنا بولص الثاني بسيره خطوة بعد أخرى. فبعد الترحيب به في مطار نيودلهي يوم السبت في الأول من شباط (فبراير) 1986م سارع الى التوجه للصلاة في الكاتدرائية الكاثوليكية، وأسرع أكثر لزيارة ضريح مؤسس الدولة الأسطوري المهاتما غاندي، حيث تمكن في إطار صلاة أقيمت هناك من عرض برنامجه للسلام والتخلي عن العنف، دون أن يواجه أي اعتراض، وقد توجه الى «إستاد أنديرا غاندي» لإقامة قدّاس. والتقى يوم الأحد في الإستاد نفسه مع ممثلين لتقاليد دينية وثقافية مختلفة، وفي يوم الإثنين ألقى خطابا أمام ممثلين عن أديان أخرى في «كلية القدّيس فرانس كسافر» في كلكتا، وفي يوم الأربعاء التقى بممثلين عن أديان غير مسيحية في «قاعة ـ رجاجي» بمدراس.

أما الفكرة التي كانت تربض وراء الأكمة فكانت تدور حول إجراء وتوجيه حوار مع الأديان، وبين بعضها البعض.

وهكذا قال يوحنا بولص الثاني حينما ألقى خطابه الترحيبي بأنه أتى (في نطاق زيارته الى الهند) «خادماً للوحدة والسلام»، وتضمن الخطاب ما يلي:

«يجب على جميع الأديان في عالم اليوم أن تتعاون في العمل من أجل قضية الإنسانية، عن قناعة منها بالطبيعة الروحية للإنسان. ونحن بوصفنا هندوسا ومسلمين وسيخا وبوذيين وتشايناسا وفرثيين ومسيحيين نتوحد بصورة أخوية لكي نشهد على ذلك عبر حضورنا. وعندما ننادي بتقييمنا لحقيقة الإنسان، فإننا نؤكد على أن بحثه عن الرفاه الدنيوي والإجتماعي والكرامة الإنسانية الكاملة انما يتطابق بعمق مع طبيعته الروحية. ولا بد لهذا التعاون بين الأديان أن تسوده أيضا تلك المساعي الرامية الى إزالة الجوع والفقر والجهل والملاحقة والتمييز، وكل أشكال الاستعباد للعقل الإنساني».

هذا التنبيه الذي صدر عن البابا لم يكن مضرّا: ولا يعود سبب انعدام ضرره الى الفروق الإجتماعية العميقة في الهند فحسب، بل كذلك الى النواقص الموجودة في الديانات الأخرى بخصوص التعاليم الإجتماعية. وقد انبثق من هذا الموقف شعور بالفخر، لأن المسيحيين والبابا هم أعلم من أتباع الأديان الأخرى، في المجالات التي تتطلب الحرص على الإهتمام بشؤون البشر.

لا للتوفيق السطحي بين الأديان

عبّر البابا يوحنا بولص الثاني يوم الخامس من شباط (فبراير) عن تقييمه المرحلي لزيارته، في حديث خاص كما يفعل أحيانا بسرور، أثناء سفره بالطائرة من كلكتا الى مدراس التي تسمى اليوم «تشيناي»، حيث قال حرفيا إنه «راض جدا» عن مجرياتها. وتطرق الى هدف الزيارة، قائلا:

«إنني أتيت الى هنا لسببين: من أجل زيارة الكنيسة الكاثوليكية في الهند، وبهدف تشجيعها على الإنفتاح على الحوار مع الأديان الكبيرة في البلد وليس في إطار تناغم سطحي، وإنما كي تنفتح على المواضيع الكبيرة والصغيرة للإنسان والإنسانية».

وأشار الى اللقاء في المغرب قبل نصف سنة مع شباب مسلمين وممثلين عن الإسلام، فأضاف الى قوله السابق:

«يتعين كذلك أن يتم هنا تجاه أديان آسيا، مثلما تم في الدار البيضاء تجاه الإسلام. وبوسعي الإستنتاج برضىّ كبير أن الشركاء الهنود الذين تحدثت معهم فهموا هذا وقبلوه».

زيادة على ما ذكر فان البابا يوحنا بولص الثاني أجرى لقاء مع ممثلين عن أديان غير مسيحية في مدراس يوم الخامس من شباط (فبراير)، وقام في ذات الوقت بصياغة بيان حول العلاقات المستقبلية بين أديان آسيا، وواصل الحديث قائلا بأن تديّن الهنود وإحساسهم البارز بعظمة أعلى ما في الوجود يعتبران شهادة قوية ضد المادية والإلحاد في الحياة.

فهذا الميراث الكبير للفكر الديني في الهند يجعل من الممكن إقامة حوار حقيقي بين الأديان، مبررا وجهة النظر هذه من خلال قوله:

«في عالم يملؤه الفقر والبؤس والجهل والأسى لا يكون بمقدور الايمان النقي تغيير قلب الإنسان نحو الأفضل فحسب، بل إنه يؤدي الى تغيير العالم أيضا. لقد عبّرت الكنيسة الكاثوليكية مرارا وتكرارا عن قناعتها بأن على جميع البشر، المؤمنين منهم وغير المؤمنين، أن يتّحدوا ويتعاونوا من أجل تحسين العالم الذي نعيش فيه جميعا. إن الحوار بين أتباع الديانات المختلفة يزيد ويعمّق من الإحترام المتبادل، ويمهّد الطريق لعلاقات لها صفة الجوهرية من أجل حل قضايا المآسي الإنسانية. وثمرة هذا الحوار هي الوحدة بين البشر ووحدتهم مع الله. وبما أننا أتباع لديانات مختلفة، فإن علينا التحالف من أجل تشجيع المثل المشتركة والدفاع عنها في مجالات الحرية الدينية والأخوّة الإنسانية والتربية والثقافة والرعاية الإجتماعية والنظام المدني».

إن ما جاء في تنبيه يوحنا بولص الثاني للهنود ينطبق على جميع الأديان والدول

«المتديّنة»، بحيث يجب عليها التصرف وفقا لدساتيرها التي «تضمن حرية الفكر والتعبير عن الرأي وحرية الإيمان وضمان حرّية المعتقد والعبادة لجميع المواطنين»، لذلك يجب على جميع القادة الدينيين أن يراعوا تمكين المواطنين في الهند «من حرية الإعلان عن دينهم وممارسته ونشره»، وهذا يسري على واقع الحياة العامة في كل بلد.

الدفاع عن قضية الإنسان تجاه الأديان

تمكّنت مرة أخرى من سؤال البابا مباشرة أثناء رحلة العودة بالطائرة الى روما قائلا له، بأنه ركز في أحاديثه خلال الأيام الأخيرة مرارا على الحس الديني لدى الهنود، ولكن ألا تعرقل الهندوسية بالذات، كونها دينا، قدرات الناس وتقيّد ثمار أعمالهم الدنيوية؟، فعبرعن اجابته قائلا: بأن الدين يجب أن يؤدي بالدرجة الأولى الى منح الإنسان معنى، فربما يكون هذا أكبر أهمية من توجيهه نحو نشاطات دنيوية وأهداف لاتعتبر دائما إنسانية.

وعلى أتباع الديانة المسيحية وهم يتذكرون ماضيهم الذاتي أن يجعلوا قضية الإنسان موضوعا في إطارالحوار بين الأديان. فالمسيحية في أوروبا مرت وفقا لهذا المنظور بحمامات تطهير خلال ألفي عام، وكان لهذه الحمامات الدموية وقع ثقيل على المسيحيين، نظرا لعدم وقوعها لدى الأديان الأخرى.

كما أنّ الربط بين الايمان والعقل، بين اللاهوت والعلم، والمثل البروتستانتية التي فعلت مفعولها داخل الكنيسة الكاثوليكية وخارجها، وإنطلاقات العقل في عصر التنوير، والإشعاعات السياسة في الثورة الفرنسية التي تمثلت في أفكار الحرية والمساواة والإخاء، والعدالة الإجتماعية والتقدم التكنولوجي في القرنين التاسع عشر والعشرين، شاركت كلها في تشكيل هيئة ما هو مسيحي.

ولا تستطيع المسيحية ولا تريد النكوص عن ذلك، ولهذا فإن الأخذ والرد بين الأديان العالمية ما يزالان في مرحلة البدايه.

كنّا نتداول هذه الأفكار، عندما أجبرت عاصفة ثلجية شديدة في روما طائرتنا على الهبوط في منتصف الليل في مطار نابولي. ومن المحتمل أن تتزايد بعد زيارة يوحنا بولص

الثاني للهند الآمال بإجراء حوار بين الأديان بصورة سلمية، من أجل التوصل الى أفضل ما يمكن تحقيقه لصالح البشرية.

إندونيسيا ـ مسلمون ومسيحيون

بعد مضي ثلاث سنوات ونصف أيْ في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1989م جاءت لحظة الحوار الكبرى مع الإسلام في إندونيسيا. لكن دق الأجراس لم يسمع عندما حلّ يوحنا بولص الثاني في العاصمة جاكارتا.

فبدلا من ذلك كان يرتفع صوت المؤذن بصورة منتظمة، مضخما عبر مكبرات صوت عالية الأداء، طاغيا على صخب هذه المدينة المركزية، التي يبلغ عدد سكانها عشرة ملايين نسمة، وداعيا المسلمين الى الصلاة.

إن عبارة: «الله أكبر ومحمد رسول الله» هي ذات مفعول يسري في إندونيسيا البعيدة عن مكة منذ القرن العاشر الميلادي، حينما قام تجار عرب وهنود بوضع حجر الأساس لهذا البلد الإسلامي الأكثر سكانا، حيث يشكل المسلمون نسبة 87٪ من الإندونيسيين الذين بلغ تعدادهم 170 مليون نسمة عام 1989م، وارتفعت نسبتهم عام 2006م الى 88٪ من مجموع السكان، الذين بلغ عددهم 223 مليون نسمة، وهم من أهل السنّة.

كان على رئيس الكنيسة الكاثوليكية أن يحافظ على ثباته أثناء الأيام الخمسة التي قضاها في هذا البحر الإسلامي المنتشر على ستة آلاف جزيرة مأهولة بالسكان مما مجموعه 13600 جزيرة. ويبلغ طول البلد ما يساوي إمتداد المحيط الأطلسي بين نيويورك وبريطانيا.

كان على البابا المحافظة على الثبات من أجل تقوية قطيع خرافه البالغ خمسة ملايين كاثوليكي دون أن يرى المسلمون في ذلك تشويشا، وبهدف الدعوة الى رسالة التعايش السلمي بين المتديّنين والحصول على قبول المسلمين بها.

القادة الإندونيسيون يريدون الابقاء على الأمور وفقا لما هو معبّر عنها معماريا وبقوة في جاكارتا. فهناك في ميدان الحرية المركزي مسجد ضخم من أكبر مساجد العالم: له قبّة ناصعة البياض ومئذنة مخروطية.

ويرتفع خلفه هيكلان لبرجين رشيقين حديديين للكاتدرائية الكاثوليكية، يبدوان صغيرين متواضعين لا ضرر منهما، حيث يتعيّن على المسيحيين عدم لفت الأنظار لهم، اذ أن يوحنا بولص الثاني أوصى الأساقفة والقساوسة وأتباع الطرق الرهبانية في البلد أيضا بما يشبه ذلك.

في وسط ميدان الحرية الذي تبدو عليه مسحة إمبريالية ينطلق الى عنان السماء نصب شاهق يبلغ ارتفاعه 128 مترا، وتتلألأ قمته بشعلة ذهبية. إن من كان مجبرا مثل الإندونيسيين على تحمّل الأسياد الإستعماريين الهولنديين مدة 350 عاما، يقدّر مثل هذا النصب التذكاري المعبّر عن الحرية والإستقلال، ويكون حذرا من أن يعرّض للخطر وحدة الأمة والإنسجام بين المسلمين والمسيحيين والبوذيين والهندوس، ومن تنغيص العيش المشترك لثلاثمائة من الجماعات العرقية التي تسود فيها 250 لغة ولهجة مختلفة.

قال البابا فوروصوله بأنه جاء بوصفه «صديقا لجميع الإندونيسيين». هنا لم يكن بوسع أحد من الإندونيسيين أن يمتنع عن تقديم الإحترام لشخصية أبوية معترف بسلطتها الدينية في كل أرجاء العالم.

تكررت اللقاءات بين يوحنا بولص الثاني والقادة السياسيين في البلد وكانت لافتة للنظر، الى درجة تُولّد الإنطباع بأن البابا جاء اليهم في الوقت المناسب، متجاوبا مع بعض حساباتهم السياسية المشروعة في جاكارتا. فالقانون الأساسي لجمهورية إندونيسيا التي استقلت عام 1945م يتضمن خمسة مبادىء هي: إن على الإندونيسيين الإيمان بوحدانية الله، وأن يكونوا مع الإنسانية، وأن يدافعوا عن وحدة الجزر التي تتكون الدولة منها، وأن يؤيدوا الديموقراطية، والعدالة الإجتماعية. إن البابا والكاثوليك لا يرون وجود أية مشكلة في هذه المبادىء، لأن الإشكالات كانت في السابق مع الشيوعيين وهي اليوم مع المسلمين الراديكاليين، الذين يثيرون إضطرابات سياسية بمطالبهم المبالغ فيها. لذا يجب على المسيحيين لجم حماسهم التبشيري، وهو أمر يبدو أن من السهل عليهم تنفيذه أكثر مما يسهل على المسلمين، الذين يستصعبون الفصل بين الدين والسياسة. لكن السلام في إندونيسيا يُعدّ لجميع المتديّنين بمثابة الواجب الأسمى للمواطن.

وهكذا أبرز يوحنا بولص الثاني «الخدمة الهامة التي يقدّمها الكاثوليك لتطوير البلد»، وعبّر عما يزيد عن ذلك تقريبا حيث قال بأن تقديمها يتم في إطار «إحترام الآراء والقناعات والعادات والقيم المختلفة».

ومن يرغب في التعرّف على هذه الخدمة في واقع جاكارتا أي على الحوار المسيحي في محيط إسلامي، فعليه أن يخرج من المركز، ويبتعد عن الشوارع العريضة للسيارات، سالكاً على سبيل المثال طريق بيرسيتاكان ـ نيجارا الضيّق الممتد كيلومترات طويلة.

فهناك تُشاهد كنيسة كاثوليكيّة لم يجر تزيينها بسبب زيارة البابا، و يُرى بجانبها مستشفى يعمل فيه أطباء وممرضات يعالجون أيضا من ليس معهم المال للعلاج وليسوا كاثوليكا. وهناك مدرسة فيها معلّمون يعلمون تلاميذ وتلميذات دون النظر الى الدين الذي ينتمون اليه، ومعهد للتعليم العالي فيه قساوسة وأعضاء طريقة رهبانية، يقومون بتدريس الفلسفة للقساوسة الجدد وللطلاب المسلمين المهتمين بمثل هذه الدراسة. إن البابا لم يتطرّق في خطابه الى ذكر ما تقوم به الكنيسة في إطار البحث عن حياة كريمة في مجالات نظام التربية والتعليم والشؤون الصحية والخدمات الإجتماعية إلا من خلال جملة واحدة لكنها حاسمة. ولا تستطيع إندونيسيا التخلي عن هذه الخدمات، مما يجعل الكنيسة مضطرة لإيقاظ قوى جديدة مرة تلو الأخرى.

تنافس سلمي حول النفوس

صادف أن كان قادة البلد وفي مقدمتهم الرئيس سوهارتو يحتفلون في جاكارتا بمناسبة المولد النبوي، متذكرين أهمية الإسلام بالنسبة الى الأمة الإندونيسية، في الوقت الذي كان فيه يوحنا بولص الثاني في جزيرة فلوريس بين أتباع مذهبه من الكاثوليك، الذين يشكّلون الأغلبية هناك بنسبة 84٪،وهذه النسبة التي يطلق عليها عادة وصف «الأغلبية الساحقة» هي نفسها التي يشكّلها المسلمون في عموم إندونيسيا.

طلب يوحنا بولص الثاني من الكاثوليك المؤمنين أن يكونوا «شهداء للمسيح»، بينما أوصى الرئيس سوهارتو ووزير الشؤون الدينية «منّور» المسلمين من خلال تفسيرهم

للقرآن بما يشبه ذلك، وذكر أن القرآن يحتوي على كلام الله، ولهذا فإن إتّباع تعاليم النبي يعدّ واجبا على كل مسلم قويم. تحدث سوهارتو بشكل عام عن دور القانون في حياة الأمم، وقال بأن من الواجب أن نزرع اليوم حتى تسعد الأجيال القادمة بالحصاد، حيث أن من غير الممكن لهذا السبب جمع الحصاد الآن.

أما الوزير فإنه قام كما لو كان واعظا متشددا بتنبيه المشاركين بالحفل، وعبّر عن انتقاده لإستغلال السلطة قائلا: «يقوم الكثيرون منا بإساءة استخدام سلطتهم وثقة الشعب بهم»، ثم نبّه الحاضرين الى أن «التضامن الإجتماعي شيء ضروري» وأن «أخلاقيات العمل ليست عالية كما يجب»، وأكد صحة رأيه مستشهدا بالقرآن :»إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم».

إنطلاقا من الروح المسيحية فلم يكن من الوارد أن يعترض البابا على هذا، بل على النقيض من ذلك، لأن الإنسجام بين الأديان وتكريسه لصالح البشر كان يمثل الدافع الأساسي للزيارة البابوية الى البلد الإسلامي إندونيسيا حتى نهايتها. ومن الصعب أن يكون الهدف شيئا آخر في بلد تعتمد الكنيسة الكاثوليكية فيه على رضى الأغلبية الإسلامية، وترى حكومته أن أي نوع من التطرّف الديني من أية جهة كان مصدره، يشكل خطراً على التوازن السياسي المتقلقل تماما بين الجماعات المتباينة داخل المجتمع. فهنا يسود توافق بدرجة كبيرة بين البابا والرئيس.

ويبدو أن هناك إلتقاءً بين الإنجيل والقرآن حول العدل وكرامة الإنسان والتسامح والتعاون الودي، مثلما تتطابق مواضيع الأناجيل مكتوبة بكلمات أخرى.

وبطبيعة الحال لم يقم سوهارتو ولا البابا بخيانة قناعاتهم من أن محمدا هنا ويسوعا هناك هما اللذان أوصلا كلام الله الخيّر الى البشرية، وكل طرف قام بإحياء ذكرى من يتبع اليه، وعبّر عن ذلك أمام المؤمنين من أتباع دينه.

إن المسلمين الراديكاليّين يشكّلون خطرا بالنسبة لإندونيسيا حتى ولوساد فيها نظام حكم أحد «آيات الله». فمن الممكن أن يُخل الأصوليون بالتوازن الذي أرسيت دعائمه بصعوبة بين الإندونيسيين، وأن يدفعوا بالبلد مترامي الأطراف الى هاوية الشقاق

والفوضى. ومن ناحية أخرى فقد أظهرت التجربة أن أية دولة إسلامية يسودها التطرّف تتعرض الى موقف صعب في نطاق التعامل مع الأسرة الدولية وتتضاءل فرص مستقبلها، اذ يسعى الجميع الى تجنبها. ومثل هذه الدولة لن تتمكن من أن تصبح دولة عظمى، لأن نشوء إمبراطورية إسلامية كبرى من المغرب الى إندونيسيا مع تفرعات لها في روسيا هو أمر يصعب تحقيقه، مما يعني أن على الإسلام الإندماج داخل الأسرة الدولية.

ولو تحوّلت إندونيسيا الى دولة إسلامية صرفة لا يسودها التسامح تجاه الأديان الأخرى، لأصبحت خارج التاريخ المعاصر. لهذا كان يوحنا بولص الثاني في جاوة وسومطرة وفلوريس وتيمور ضيفا مرحبا به بحفاوة.

لقد أثبت البابا قدرة الكنيسة على ممارسة التسامح والتنافس السلمي حول نفوس البشر من ذوي الديانات الأخرى، وأصبحت الأديان تقاس أكثر من أي وقت مضى بقدرتها على التعايش السلمي مع بعضها البعض، ويمكن لإندونيسيا أن تجسّد مثالا على ذلك.

إن القرى في «بالي» تثير الإنطباع برموزها الدينية وبالأرواح المعتمة منها والطيّبة، وتسود تلك الرموز، الباعثة على الخشية والودية، أعدادا لا تكاد تحصى من المعابد الكبيرة والصغيرة هناك.

فالهندوسية حافظت في هذه الجزيرة على قوتها المسيطرة، وهي التي دفعت الناس في الماضي لبناء معبد «برامبنان» في جاوه بالقرب من «جياكرتا» التي تمثل المركز الثقافي للجزيرة، كما أن البوذية أنشأت على تلال «بوروبودور» عالما من الفن مليئا بالتماثيل والمحفورات الفنية البارزة، حيث أصبحت هذه الأعمال الهامة جزءا من الآثار الثقافية للإنسانية. ولا يُظهر كل هذا ما هو تدميري، بل تُطّل منه القوة الثقافية الإبداعية للأديان السماوية.



الفصل السادس عشر

يوحنا بولص الثاني ـ حروب المتدينين وغيرهم ـ توجيهات للحوار

شعر يوحنا بولص الثاني ومعاونوه السياسيون بالارتياح نتيجة إنهيار الشيوعية في سنوات التحول الواقعة بين عاميّ 1989 و 1991م، وبدا عليهم الفرح أيضا لأن الكنيسة في نهاية المطاف كانت تناهضها طوال قرن ونصف من الزمن، حيث صدرت أول إدانة بابوية لها من طرف بيوس التاسع في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1846م، إلا أنهم لم يظهروا مشاعر الإنتصار. لأن حكاية نهاية التاريخ لم تأت بعد، فمن المحتمل أن تفرض حضارة عالمية شاملة نفسها في كل مكان، كما بيّن فرانسيس فوكوياما ذلك.

ومن جهة أخرى فإن البابا وأعوانه لم يتوقعوا حدوث صدام كبير بين الحضارات مثلما تنبأ بذلك صموئيل هنتنجتون، الذي عُدّ أمرا مرجح الحدوث لأناس كثيرين أيضا. إن حكومة الفاتيكان في روما تفهم قليلا ما يعنيه التناقض بين الأديان، وتنافُسها حول كسب الناس والسيطرة. ويصف المختصّون في حكومة الفاتيكان ما يحدث في بقاع عديدة من العالم على الحدود الجغرافية للأديان المتجاورة بأنه «احتكاك بين الأديان» و «تماسّ» لمتدينين مع بعضهم البعض. ويبدو أن هذا الوصف أقرب الى الصواب، لأنه لا يحشر الواقع في قالب من الفرضيات.

هل وصل التاريخ الى نهايته؟ ـ الحروب تتواصل

كان المرء في تلك السنوات يعود دائما من المحادثات مع المسؤولين في الفاتيكان بانطباع مزدوج لقناعات متناقضة ظاهريا. فالبابا والأساقفة كانوا على قناعة في ضوء التعاليم المسيحية بخطيئة الإنسان، ولهذا السبب كانوا يؤمنون بضرورة الخلاص، كما اقتنعوا بأن الإنسان يميل الى العنف والحروب. ومن جانب آخر كانوا يشعرون بالإلتزام، الذي يدفعهم الى عمل كل شيء من أجل تجنّب اندلاع هذه الحروب وممارسة أعمال

العنف. فحالات انعدام الأمن الخطيرة والأزمات واضطرابات العنف والحروب لم تتوقف منذ فترة التحوّل المذكورة.

وكانت الحرب بين العراق وإيران الثورية قد امتدت من عام 1980 الى عام 1988م بدون حسم، إلا أنها تركت وراءها قوة أزمات كامنة. وظلّ الدور الذي لعبته التناقضات بين السنّة والشيعة غير واضح المعالم، ولم يتضح أنّ لهذه التناقضات أصلا أي دور في الصراع بين الطرفين.

في بداية شهر آب (أغسطس) 1990م هاجمت القوات العراقية الكويت، دون الإنطلاق من بواعث دينية. وقامت الولايات المتحدة الأميركية بتحرير البلد مرة أخرى. ونظرا الى أنها بحثت عن دول حليفة لها ووجدت 33 دولة، فقد تم في البداية استبعاد شبهة أن الغرب قام بحملة صليبية ضد بلد عربي - إسلامي. ولكن، بما أنها شكّلت ثلاثة أرباع القوة العسكرية المقاتلة، فقد ترسخ في الوعي بروز القوة العسكرية الأميركية المشاركة.

وبعد إنهيار يوغوسلافيا اندلعت كذلك حروب بين الشعوب أثّرت فيها الفروق الدينية بين الأرثوذكس والكاثوليك والمسلمين. وظلت منطقةّ الشرق الأوسط كذلك تشكل بؤرة تأزّم، ليس بخصوص إسرائيل والمشكلة الفلسطينية فحسب، بل في لبنان أيضا.

لم يجد يوحنا بولص الثاني كلمات طيّبة للضحايا الذين عانوا تحت وطأة هذه الحروب وأخرى قاسية لمثيريها فحسب، بل انه وظّف حضوره الشخصي أيضا: في البداية في أوروبا الشرقية التي تحررت من النير الشيوعي، ثم في البلقان والشرق الأوسط.

وكان يدعو دائما الى الحوار والتحدث بين الأطراف من أجل تفادي العنف، مخففا من قوة الأزمات وملطّفا لها، كما سعى الى نزع فتيل الإشتعال من مناطق التماسّ بين الأديان. إنه لم يستطع منع الحروب، فهل كان اندلاع الحرب أمرا لا يمكن تفاديه؟

لقد عاش العالم المسيحي قرونا طويلة وهو يعتقد أولا بأن الحروب جزء من الوجود الإنساني على الأرض، وأنها ثانيا يمكن أن تكون عادلة.

فهل ينطبق هذا على الحرب ذات الدوافع الدينية؟، إن أساس مثل هذا الطرح لم يكن متمثلا في الخبرات المكتسبة من الصراعات الإعتيادية اليومية، التي يُظهر الإنسان نفسه

فيها في منظور إنسان آخر ذئبا كما عبّر الفلاسفة عن ذلك فحسب، وإنما في الأسفار المقدّسة للإنجيل أيضا.

فكتب العهد القديم (التوراة) تتضمن نصوصا واسعة هي بمثابة تقارير من جبهات حرب، وهي تصف الأعمال المسلحة لشعب صغير، يتعرض للهزيمة أكثر مما يحقق الإنتصار، ويشارك فيها على الأغلب بنشاط، إلهٌ يوصف بأنه «ربّ الجنود»، الذي يكون تارة رحيما منقذا مساعدا، وتارة أخرى غاضبا راضيا بحدوث الهلاك، تماما مثلما يحدث ذلك أيضا بدون إله. أما في العهد الجديد (الأناجيل المسيحية) فإن يسوع المسيح وجّه الحديث، أمام جمع غفير يحمل أفراده «السيوف والعصي» في حقل الجثمانية راغبين في القبض عليه، الى بطرس الذي أراد الدفاع عنه، فقال: «رُدَّ سَيْفَكَ إِلَى مَكَانِهِ. لأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ».

أثرت هذه الكلمات في نفوس آباء الكنيسة وعلماء اللاهوت منذ القرون الأولى، وحدّدت الإتجاه الأساسي لما هو مسيحي. لقد كتب «أوغوستينوس» (354 ـ 410م) وهو أكبر آباء الكنيسة في العالم الغربي، واقعا تحت تأثير بدء انهيار الإمبراطورية الرومانية على يد الشعوب الأقوى الزاحفة من شمال أوروبا، في مؤلّفه الرئيسي بعنوان «حول دولة الله» وهو خاشع لله وبدون أية دوافع عدوانية ما يلي:» إننا نعبد الله الذي يهدي أيضا في الحروب بداية وسيرورة ونهاية إذا كانت هذه الوسيلة ضرورية لتحسين (!) الجنس البشري وتأديبه (!)».

أما عالم اللاهوت المهم في العصر الوسيط «توماس الأكويني» (1224 ـ 1275م) المنسوب الى بلدة أَقوينو الصغيرة الواقعة على الطريق بين روما ونابولي فقد نشأ في بلد حطمته الخلافات الداخلية قرونا زمنية طويلة، وعانى أيضا من الهجمات المتواصلة للعرب المسلمين، حيث أن التاريخ المتسلسل لكل مدينة إيطالية قديمة يذكر مثل هذه الهجمات، وأعمال النهب والتحريق التي كان القراصنة المسلمون يمارسونها في العصر الوسيط. لذلك عالج توماس الأكويني في مؤلفه بعنوان: «المجمل في علم اللاهوت» موضوع الحرب بالتفصيل (2/2/كويستيو 40)، وتساءل «عما إذا كان خوض الحرب يعتبر دائما إثما».

واستعرض أربعة أسباب مشتقة من الكتاب المقدّس ومن منطق العقل مستنتجا ما يلي:

«وهكذا يبدو أن الحرب هي إثم من حيث المبدأ»، ثم استأنف الحديث قائلا: «إلا أن ما يتعارض مع ذلك»، يكمن في ثلاثة مبادىء وضعها، بحيث «يمكن أن تكون الحرب وفقها عادلة». المبدأ الأول أن سلطة الحاكم الذي يتم خوض الحرب تنفيذا لأمره يجب أن تكون شرعية، ومتوافقة بهذا مع كلمات بولص في رسالته لأهل رومية (4/13): «لأَنَّهُ خَادِمُ اللهِ لِلصَّلاَحِ! وَلكِنْ إِنْ فَعَلْتَ الشَّرَّ فَخَفْ، لأَنَّهُ لاَ يَحْمِلُ السَّيْفَ عَبَثًا، إِذْ هُوَ خَادِمُ اللهِ، مُنْتَقِمٌ لِلْغَضَبِ مِنَ الَّذِي يَفْعَلُ الشَّرَّ». والمبدأ الثاني هو «القضية العادلة» ضد ظلم يقع، والمبدأ الثالث يكمن في النيّة الحسنة لمن يخوض الحرب، بحيث يكون هدفه دعم الخير واعاقة الشر.

وهذا يعني أن النضال من أجل دين الحق يطوّر الخير، أم أن الأمر غير ذلك؟ من هذه الرؤية تطوّرت على أيدي علماء اللاهوت الكنسيين والفلاسفة مثل «ألفونسوس» و«سواريز» و«فيتوريا» و«غروتيوس» أو «مولينا» تعاليم مفصّلة حول «الحرب العادلة»، وبالتحديد حول إمكانية النظر إليها بوصفها عادلة أيضا، وخاصة عندما يستدعي الواجب مواجهة حرب ظالمة أو تلبية لطلب الأمير من أجل تبرير حرب دفاعية.

ولو قمنا بتقييم سياسي، فإننا نجد أن علم اللاهوت لم يسهم كثيرا في تعريف من هو المهاجم الظالم مثلا، أو من هو المدافع الصالح.

ومن الجدير ذكره أن العالم الأخلاقي الإسباني المتخصص في هذا العلم «زالبا» عالج بتميز وشفافية في مؤلفه الكاثوليكي بعنوان: »دليل الأخلاق في علم اللاهوت» الذي نشر عام 1958م المسألة «المتعلقة باستخدام الأسلحة النووية»، فأصبح المؤلف المذكور مرجعا قياسيا.

إن الأفكار اللاتينية الدقيقة الباردة لتلامس النفس بأصالة، ويمكن أن تساعد أكثر من الكتاب المسكوني الصادر عام 1978م بعنوان: »دليل الأخلاق المسيحية، حيث أن كلمة «حرب» لم ترد مطلقا في هذا الكتاب. وفي هذا السياق كانت الحروب محظورة من منظور الأخلاق المسيحية، إلا أنها لم تلغ بعد من الواقع الماثل.

لقد أصبحت الرؤية تتضح للبابوات أكثر في هذا القرن الزمني، فربما يقومون أيضا بمزيد من التوضيح لمفهوم الحرب العادلة في التعاليم التقليدية، لأن الحروب تسبب للبشر مآسٍ فظيعة ولم يعد بالإمكان الدفاع عنها. إن نداءات السلام التي صدرت عن البابا بيوس العاشر وعن بينيدكت الخامس عشر بمناسبة اندلاع الحرب العالمية الأولى تلاشت أصداؤها دون أن يسمعها أحد، تماما مثل تحذيرات بيوس الثاني عشر التي تم بثها في رسالة إذاعية بتاريخ 24 آب (أغسطس) 1939م قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية، متضمنة الكلمات التالية: «لا يضيع شيء في ظل السلام ولكن كل شيء يمكن ضياعه في خضم الحروب». ويجدر هنا طرح السؤال: هل كان من المستطاع كبح جماح الدكتاتور الألماني المجرم بوسيلة أخرى غير الحرب؟

السلام على الأرض لجميع البشر ذوي الإرادة الطيّبة

عندما كانت الحرب الباردة في أوجها، جعل البابا يوحنا الثالث والعشرون من نفسه متحدثا باسم الإنسانية التوّاقة الى السلام في كل أنحاء العالم. ففي شهر نيسان(أبريل) 1963م، أي قبل شهرين من وفاته، أصدر منشورا بابويا، متوجها عبره لأول مرّة لمخاطبة «جميع البشر ذوي الإرادة الطيّبة» وضمّنه كلمات أصبحت بمثابة برنامج له. بدأ كلماته بجملة: »السلام على الأرض» ثم أردف قائلا: «تتزايد في أيامنا القناعة بين الناس بأن النزاعات التي تنشأ بين الشعوب تحت ظروف معيّنة يجب تسويتها بواسطة المعاهدات والمفاوضات، وليس باستخدام العنف المسلّح».

أجل، كان هذا هو المأمول.

لقد قام أساقفة المجمع الثاني للفاتيكان في السابع من كانون الأول (ديسمبر) 1965م بالإعلان في الفصل الخامس من «البيان الدستوري الرعوي» تحت عنوان: «الكنيسة في عالم اليوم غبطة وأمل»، عمّا يقلق قادة الكنيسة والمسؤولين عن السياسة بشكل متزايد، اذ أوردوا في هذا البيان ما يلي:

«مع مواصلة تطوير الأسلحة العلمية يتنامى الرعب من الحرب، و تتزايد

الكراهية لها الى أبعد الحدود. إن استخدام مثل هذه الأسلحة في الحرب يمكن أن يسبب دمارا هائلا غير قابل للسيطرة عليه، متجاوزا حدود الدفاع العادل بشوط بعيد (..). وكل هذا يجبرنا على إعادة النظر بمسألة الحرب من موقف داخلي جديد».

وحدد الأساقفة في ذلك الحين الخطوط العامة لرسالة البابا ولدبلوماسية الفاتيكان وللجهود المختلفة لكل أسقفية على حدة، كما هو الحال في جمهورية ألمانيا الإتحادية وفي الولايات المتحدة الأميركية مثلاً، عندما استطردوا قائلين:

«إذن فإن من الواضح أن علينا العمل بكل قوانا لتهيئة ماهو مطلوب لذلك الوقت، الذي سيتم فيه نبذ الحرب بصورة مطلقة على أساس من الإتفاق بين كل الأمم. ولكنّ هذا يتطلب قيام مرجعية عالمية عامة معترف بها من كافة الأطراف وذات قوة فاعلة، من أجل ضمان الأمن والحفاظ على العدل واحترام الحقوق للجميع».

ففي هذا النطاق تمت المطالبة بإنشاء «مرجعية عالمية تمتلك القوة الفاعلة». وهي التي يعدّها معظم الناس اليوم هيئة الأمم المتحدة. ولعله لم يكن مأخوذا بالحسبان أن هذه القوة ستكون مضطرة تحت ظروف معينة الى استخدام الحرب مرة أخرى كوسيلة في حالة عدم كفاية سلطتها الأخلاقية، إلا أن النص لم يستبعد ذلك أيضا.

ومن الواضح أن نظام سلام دولي يحترمه الجميع لم ينشأ في هذا العالم بالتماهي مع ما كان الكاردينال الوزير أوجوستينو كاسارولي (1979 ـ 1990) يسعى الى التوصل اليه سنين طويلة كهدف حقيقي ينبغي الإتفاق عليه من خلال المفاوضات حول نزع السلاح.

لم يعد هناك وجود لـ «حرب عادلة»

من جانب آخر ظهرت عوامل ضاغطة على البابا يوحنا بولص الثاني بخصوص تحفظاته على جدوى الحرب، والسؤال عما إذا كان من الممكن أصلا أن يتاح «تصحيح» الوضع

الناجم عن انتهاك حرمة ممتلكات أو الحاق ظلم بالغير، وذلك بالنظر الى قوة التدمير الفائقة للأسلحة الحديثة.

هذه الشكوك كانت تراوده عندما قام في شهر حزيران (يونيو) 1982م بزيارة البلدين المتخاصمين؛ بريطانيا والأرجنتين، أثناء حرب «فولكلاند»، ورداً على سؤال طرحتُه عليه في هذا السياق أجاب بتفكير عفوي قائلا إنه يقلص وبشكل متزايد إمكانية وجود «حرب عادلة». وقد دفعه تفكيره هذا الى أن يدلي بتاريخ 12 كانون الثاني (يناير) 1991م أمام سفراء الفاتيكان في 126 دولة بما فيها الدول الإسلامية بتصريح، قال فيه:

«إن استخدام العنف في سبيل قضية عادلة لا يكون مسموحا به، إلا إذا كان يوفي بالنتيجة التي يراد الوصول اليها، وعندما تتم مراعاة العواقب الناجمة عن الأعمال العسكرية، التي تضاعفت قوتها التدميرية من خلال التكنولوجيا الحديثة، واتسع مدى تأثيرها على سلامة الشعوب وعلى كل ما يضمّه « الكوكب»، الذي نعيش على سطحه».

وبهذ تبدّى أن من الممكن وفقا للقناعة البابوية تسويغ حرب محدودة فقط، وذلك من أجل الحفاظ على نظام السلام العالمي الوليد وحظر إنتهاكه.

لكن الفكر اللاهوتي لا يستطيع أن يقرر فيما إذا كان من المتاح إعادة وضع الممتلكات المنتهكة الى الحالة الأصلية من خلال القوة التدميرية للحرب، أو فيما إذا كان الضرر الذي تسببه الحرب أكبر من الأضرار الناشئة في البداية، والمسببة للمجابهة بالسلاح. لقد ظلّت مواضيع «الحرب والسلام» ومكانة الأديان مستحوذة على كيان البابا في تلك الشهور، مما جعله يتحدث عنها حتى في مكتب الدائرة الكنسية المحلية «سانتا دوروتيا» في حيّ «تراستيفيري» في شهر شباط (فبراير) 1991م، حيث قال هناك: «إننا لسنا مسالمين نطلب السلام بأي ثمن». كان لابد للبابا يوحنا بولص الثاني أن يقول ذلك من أجل الدفاع عن نفسه ضد الإتهام بأنه يتشدد في إبراز القيمة المطلقة للسلام والشر المطلق للحرب، بصورة نظرية مفرطة.

لا يبقى أحد البابوات عبر تصريحاته خارج نطاق التطورات السياسية. فلو ألمح أثناء الأزمة العراقية 1990/1991م الى موقف الكنيسة التقليدي بخصوص «الحرب العادلة» ـ مع استثناء القنبلة النووية، لفهم منه بأنه اتخذ موقفا ضد العراق، هذا البلد العربي الإسلامي، وضد الدكتاتور فيه، وضد ضمه الكويت الى بلده، وبأنه سمح للولايات المتحدة الأميركية بإعادة الحق المنتهك الى نصابه. ولو لم يعرب عن الشكوى في الأسابيع الأربعة الأخيرة منذ بدء القصف الجوي الذي نفذته قوى التحالف تحت مظلة هيئة الأمم المتحدة، من فظائع الحرب معبرا عن مواساتة للضحايا، لوُجّه اليه الإتهام باللاإنسانية الباردة.

لقد اقتبس يوحنا بولص الثاني المصطلح المزدوج لأحد البابوات الذين سبقوه، وهو بيوس الثاني عشرالذي تحدث عن:

«السلام والعدل، السلام في إطار العدل»، متجنبا أية إزدواجية في المعنى من خلال كلمة «الحياد» في وصف موقف الفاتيكان، وهي التي تتيح «إصدار حكم موافق للحقيقة والعدل».

كان البابا بيوس الثاني عشر قد وجد كلمات تصلح للمستقبل، في خطاب ألقاه أمام أطباء عسكريين في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 1953م، رافضا أيّة ذريعة للحرب حتى ولو كانت ذات دوافع دينية، حيث قال:

> *«لتُوقّع العقوبة دوليا على أيّة حرب لا تبررها الضرورة التي لا مفر منها. فلا يمكن الاضطرار للحرب إلا من أجل الدفاع في حالة وقوع ظلم عظيم يصيب المجموع دون التمكن من تفاديه بوسائل أخرى، حيث أن الطريق ستنفتح بدون ذلك أمام العنف الفظيع وإنعدام الضمير بدلا من اعتماد العلاقات الدولية. وإذا كانت الأضرار التي تسببها الحرب لا تتناسب بأي حال مع الظلم الذي يتعيّن تحمله، فإن الواجب يمكن أن يتمثل في تحمّل الظلم، وهذا يسري بالدرجة الأولى على الحرب النووية والبيولوجية والكيماوية. فبعد ويلات حربين عالميتين علينا أن نعيد الى الأذهان وجوب إدانة كل تمجيد للحرب، باعتباره ضلالا للنفس والقلب».*

وهذا يعني أنه لايمكن ولا يجوز للدين أن يتعامل مع العنف والحرب، علما بأن البابا يرى المسلمين في هذا السياق مشمولين داخل جماعة المتدينين هذه.

توجيهات للحوار بين الكنيسة والإسلام

في نهاية العقد ونهاية القرن ونهاية الألفية، وبعد إجراء الكثير من الموازنات النظرية، وجد الفاتيكان موقفه المبدئي حيال الإسلام. فالبابا يوحنا بولص الثاني وضع في نطاق اللقاء العام معه في الخامس من أيار (مايو) 1999م توجيهات للحوار بين الكاثوليك والإسلام. وحظيت هذه التوجيهات على الإنتباه البالغ لدى المسلمين، حيث تم الإستشهاد بها مرارا ولم تزل سارية المفعول كما كانت في السابق دائما، وورد فيها ما يلي:

«1) نقوم بتعميق موضوع الحوار بين الأديان، وننعم الفكر الآن بإجراء حوار مع المسلمين الذين يعبدون وإيّانا إلها واحدا رحيما، إن الكنيسة تنظر اليهم بعين الإعزاز. فهي مقتنعة بأن إيمانهم بإله غيبي يساهم في إقامة عائلة إنسانية جديدة، تقوم على أسمى التوقعات النابعة من القلب الإنساني. فالمسلمون ينظرون مثلهم مثل اليهود والمسيحيين أيضا الى شخصية إبراهيم، بوصفها مثلا أعلى للتسليم اللامشروط بأمر الله. والمؤمنون يسعون وهم ينحون منحى إبراهيم الى وضع مكانة لله في قلوبهم، معتبرينه الأصل والرب والمدّبر والهدف الأخير لكل كائن. إن استعداد الإنسان وفتح ذاته أمام إرادة الله يتجليان من خلال الوقوف للصلاة، بالشكل المعبّر عن الحالة الوجودية لكل إنسان أمام خالقه. وعلى آثار استسلام إبراهيم لإرادة الله توجد إمرأة من نسله هي مريم العذراء والدة يسوع، التي يتعامل المسلمون معها باحترام، وبخاصة في أوساط المتدينين من عامة الناس.

2) نحن المسيحيين نعترف، وكلنا فرح، بالقيم الدينية التي نشترك فيها مع الإسلام.

وأودّ اليوم أن أعيد ما قلته قبل سنوات لشباب المسلمين في الدار البيضاء:

(نحن نؤمن بنفس الإله الواحد الحي، الله الذي خلق العوالم وأتم خلقه لمخلوقاته). إن تراث نصوص الوحي في الكتاب المقدس يتضمن حديثا مطابقا لبعضه البعض عن وحدانية الله. وقد أكّد يسوع هذ أيضاً (..)..

3) إن الصلات لا تقلل من وحدانية الله بأي قدر مهما كان ضئيلا (..)، إلا أن هذا التطابق لا يجوز له أن يجعلنا ننسى الفروق بين الدينين، نحن نعلم حقا بأن وحدانية الله تعبّر عن ذاتها من خلال الأقانيم الإلهية الثلاثة، ومن ناحية أخرى لا يجوز للمرء أن ينسى بأن وحدانية الله الثلاثية التي تتسم بها المسيحية تظل سرا لا تنفتح مغاليقه على العقل البشري، الذي هو مدعوّ لقبول تجلّي الجوهر الداخلي لله.

4) الحوار بين الأديان هو إشارة خاصة الى الأمل الذي يفضي الى معرفة وتقدير أعمق للطرف الآخر. وكلا التراثين، المسيحي والإسلامي، لهما تاريخ طويل من الدراسة والتأملات الفلسفية واللاهوتية، بالإضافة الى الفن والأدب والعلوم، مما ترك لهما آثارا في ثقافات الغرب والشرق. إن عبادة الله الواحد الخالق لجميع البشر تشجّعنا على تعميق معرفتنا المتبادلة في المستقبل. فالمسيحيون والمسلمون مدعوون، في عالم اليوم الموسوم بنسيان الله بصورة مأساوية، الى التحلي دائما بروح المحبة في العمل على الدفاع عن كرامة الإنسان والقيم الأخلاقية والحرية، ودعمها.

وينبغي أن يجد درب الحج المشترك نحو الأبدية تعبيره في الصلاة والصوم وأعمال المحبة، وفي العمل التضامني من أجل السلام والعدل والتنمية البشرية وحماية البيئة.

وإذا سرنا معا على طريق المصالحة باستسلام خاشع لإرادة الله، وتنازلنا عن أي شكل من أشكال العنف كوسيلة لحل الخلافات في الرأي، فإن بإمكان الدينين أن يضعا علامة للأمل وأن يجعلا حكمة ورحمة الله الواحد الذي خلق العائلة البشرية وما زال يوجهها، تضيء العالم»

الفصل السابع عشر

يوحنا بولص الثاني في «جغرافية تاريخ الخلاص الالهي»

كانت لدى يوحنا بولص الثاني أمنية طواها في صدره لزيارة «الأرض المقدسة»، في السنة المميزة وهي سنة 2000 م، بعد ميلاد يسوع المسيح، أو أنه كان يتمنى كما قال بتاريخ الرابع والعشرين من شباط (فبراير) 2000م يوم بدء سفره «للحج اليوبيلي الى جبل سيناء ومصر»، بعد انتهاء الألفية الثانية، أن يصلي في تلك الأماكن، التي كان لها ترابط بطريقة خاصة مع تدخل الله في تاريخ البشرية، أو أن أمنيته تأكدت أيضا بعد ذلك بأربعة أسابيع في بيت المقدس خلال لقائه هناك مع يهود ومسيحيين ومسلمين، حيث ورد على لسانه تعبير وصفي للزيارة قائلا:

بأنه «*يقوم بزيارة عبر جغرافية تاريخ الخلاص الإلهي*».

وقال بأنه كان سيشعر بالسرور، لو استطاع أن يزور قبل ذلك موطن ابراهيم الخليل الأب الديني لليهود والمسيحيين والمسلمين في بلدة أورالكلدانيين الواقعة في بلاد ما بين النهرين، أي في العراق، لكن الظروف السياسية والعسكرية ذات الصلة بالدكتاتور صدام حسين، مع خطورة الأوضاع في ظل التدخل العسكري للولايات المتحدة الأمريكية هناك، حالت دون تحقيق رغبته بهذا الخصوص.

ولم يكن من المرجّح أن البابا، مهما كان استعداده للحوار، قد فكر في يوم من الأيام بوضع موطن نشأة الاسلام في مكة والمدينة ضمن الحسابات الخاصة بزياراته، في نطاق مراعاة مناطق محددة شملها تدخل الله في تاريخ البشرية.

فالمسيحية تعتقد بالتدخل الإلهي من خلال تلك العلاقة العضوية «القديمة» بينها وبين اليهودية مع توضيحها عبر التوراة. ويعتقد المسيحيون كذلك بأن الإنجيل «العهد الجديد» يتضمن ما أوحى به المسيح عن تلك العلاقة، وبعد ذلك تعدّ مسألة الوحي منتهية بالنسبة

الى المسيحيين.

أما المسلمون فهم على العكس مما ذكر يرون بأن تلك العلاقة بدأت لتوها بصورة صحيحة مع دعوة النبي محمد في القرن السابع الميلادي، وأنها انتهى ت على وجه التحديد الحاسم في الوقت نفسه.

ومع ذلك فقد اتسعت تشعبات زيارة البابا يوحنا بولص الثاني، حتى شملت وصوله بتاريخ 6 أيار (مايو) 2001م الى مسجد لم يزره أي بابا من قبل، ألا وهو المسجد الأموي في دمشق.

أراد يوحنا بولص الثاني أن يستحضر في دير كاترينا على سفح جبل سيناء في مصر ذكرى الوصايا العشر من الله سبحانه إلى النبي موسى في بادىء الأمر، ثم من النبي إلى الشعب اليهودي. ولا ينبغي أن يشكل الطرح المسيحي سببا للشقاق بين الأديان، لولا أن من الوارد النظر إليه بوصفه سبباً للفرقة والخلافات نظرا لأوضاع التوتر السائدة في منطقة الشرق الأوسط.

ولهذا السبب سارع البابا في القاهرة إلى انتقاد كل أشكال العداء الديني، فقال:

«*إن فعل الشر وتشجيع العنف والعداوة يشكلان تناقضا رهيبا مع الله واهانة كبيرة للذات الإلهية. ولكن التاريخ في الماضي والحاضر يعكس مع الأسف الكثير من أمثلة الاستغلال السيء للأديان. وعلينا أن نعمل جميعا على تقوية التزامنا بالحوار بينها، حيث أن الحوار هذا يرسل اشارة أمل كبيرة لشعوب العالم*».

وتطرق قداسته الى زيارته جبل سيناء، قائلا بأنها تجسّد لحظات صلاة مكثفة من أجل السلام والوئام بين الديانات»، ولم يكن بمقدوره تكرار القول نفسه بصورة كافية. فإن مضمون ما ذكره البابا كان هو الدافع الرئيسي لزيارته إلى مصر ذات الأغلبية من السكان المسلمين (نسبتهم 80٪ من مجموع سكان البلاد)، بالإضافة إلى أقلية مسيحية متميزة بتقاليد عريقة، وهي التي يمثلها الأقباط، الذين يشكلون (نسبة 15٪ من مجموع السكان).

إن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين الأقباط في مصر تعد مشكلة داخلية ذات قابلية قصوى للإنفجار.

فلم تنشأ فيها مصادفة أول حركة ثورية اسلامية كبيرة أو متسمة بالفكر الأصولي وهي حركة الاخوان المسلمين، التي أسسها حسن البنّا سنة 1928م، التي امتدت بتأثيراتها الى بلدان أخرى. وعلى وجه العموم فإن التحذيرات من امكانية تنفيذ اعتداءات أثارت القلق لدى البابا، المصاب بمرض شديد والذي كاد يصل عمره الى ثمانين سنة.

أما مختصو الشؤون الدبلوماسية لدى الفاتيكان فقد أوردوا في تقاريرهم التحضيرية بمناسبة زيارة البابا الى مصر ملاحظاتهم المقتبسة من شعارات الاخوان المسلمين فأدرجوا مايلي: «الله غايتنا والنبي قائدنا والقرآن دستورنا والجهاد طريقنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا».

واقتبسوا أيضا من البيان التأسيسي لحركة الاخوان المسلمين العبارات التالية: «يجب مقاومة ايديولوجيات الغرب المستعمر، فهذه الايديولوجيات تشكل الباعث الأساسي للفساد والستار الحريري الذي يخفي وراءه جشع الطامعين وأحلام المتعطشين الى السلطة».

كلمات قليلة في جامعة الأزهر

لم يتخذ لقاء البابا مع الشيخ الأكبر لجامعة الأزهر محمد سيد طنطاوي طابعا رسميا، كما كان متوقعا. ولا يستطيع أحد من الجانبين أن يفسر بأن اللقاء أسفر عن تصالح مبدئي أو توافق، أو عن درجة كبيرة من المجاملات غير المرغوب فيها بين المؤسستين الممثلتين لديانتيهما.

فقد أثارت زيارة البابا قبل القيام بها مناقشات حادة بين أساتذة جامعة الأزهر، أقدم جامعات العالم التي لم تزل قائمة، كما انبثقت من الزيارة بوضوح تلك التوجهات المختلفة للآراء المستندة الى علوم القرآن، ممتدة من القناعات الأصولية إلى التأويلات الحديثة لفهم الإسلام في مجتمع تعددي.

وقد تحدث البابا في ضوء تلك المعطيات بكلمات قليلة أمام الشيخ الأكبر للأزهر، نظرا لشعوره بأن علماء العقيدة الاسلامية يقفون تجاه الحوار بين الأديان موقف الارتياب بحده الأقصى، أو أنهم يتوقعون أن تلحق بسمعتهم بين أتباعهم أضرار، في حالة انفتاحهم الزائد على المتحدثين باسم الديانة المسيحية.

إنهم يخافون من إمكانية فقدانهم شيئا من النفوذ أو السلطة، إذا قاموا بالتساهل مع المبادىء الدينية الجامدة، كما يستقى من تاريخ الأديان، سواءً أكان سبب موقفهم يعود الى قناعة دينية عميقة، أم إلى عامل الخوف على السمعة بين الأتباع، وفي أحيان كثيرة يتم في نطاق التقييم تجاهل الجانب الآخر المتعلق بخوفهم المشار إليه.

وعندما تتخذ مفاهيم الدين منحى الليبرالية والحداثة فإن ذوي السلطة الدينية المتدرجة من قمة الهرم يخسرون في غالب الأحيان بعض السلطة التي يتمتعون بها على صعيد طائفتهم، وفي المجتمع عموما.

ومن الممكن أن يكون الخاسرون في الحوار هم قادة الديانات المشاركة فيه. ومن هذا المنطلق تحدّث يوحنا بولص الثاني بايجاز أمام أهم صرح أكاديمي لعلماء الإسلام، قائلا:

> «*أشكركم على كلماتكم الودية، واسمحوا لي بأن استوعب أفكاركم. فالله خلق الانسان رجلاً كان أم امرأة، ومنحهما الأرض لإعمارها. وهنالك ترابط وثيق بين الدين والايمان والثقافة. فالاسلام هو دين والمسيحية أيضا، وكذلك فإن كلا منهما تحوّل الى ثقافة. إذن فإن من المهم جداً اجراء اللقاء مع الشخصيات التي تمثّل الثقافة الإسلامية في مصر. بودي التعبير عن شكري الجزيل على اتاحة فرصة اللقاء هذه، والترحيب بجميع العلماء المشهورين المجتمعين هنا.*
>
> *انني لمقتنع بأن مستقبل العالم يتوقف على الثقافات المختلفة وعلى الحوار الديني بينها. فالأمر هو كما عبّر عنه القديس توماس الأكويني، حينما قال بأن (حياة الجنس البشري تتكوّن في الثقافة، وأن مستقبلها كامن في الثقافة أيضا). إنني لأشكر جامعتكم التي هي كبرى مراكز الثقافة الإسلامية، كما*

أعبّر عن شكري لأولئك الذين يطوّرون الثقافة الإسلامية، وعن امتناني لكم على كل ما تقومون به، من أجل الحفاظ على الحوار مع الثقافة المسيحية. ولا أقول كل هذا باسم مستقبل مجتمعينا فحسب، بل أقصد أيضا مستقبل أبناء الأمم والبشر الممثلين في الإسلام والمسيحية. وأشكركم من صميم فؤادي».

هذا هو ما قاله البابا، ولكن اللقاء بحد ذاته كان في حقيقة الأمر أهم من البيانات المطوّلة المشتركة، حيث أن الأزهر يُعدّ أعظم مرجعية في العالم الإسلامي، ولا سيما أن جامعته هي مركز لعلماء السنّة المسلمين منذ قرون طويلة.

في بيت المقدس

بعد ذلك بشهر كانت الأمور مغايرة تماماً في بيت المقدس. فقد كان البابا (يوحنا بولص الثاني) أثناء لقائه هناك مع ممثلين للطوائف اليهودية والمسيحية والاسلامية في الثالث والعشرين من آذار (مارس) 2000 م متأثرا، الى درجة دفعت به الى التأكيد الملحّ على بدء عهد زمني جديد للحوار الديني. وعبّر عن استنتاجاته في هذا السياق، قائلا:

« يجب على كل منا أن يستمد التعاليم من تقاليد دينه، بحيث نلتزم جميعا بنشر الوعي حول عدم القدرة على حلّ مشاكل الزمن الراهن، إذا ما بقينا منفصلين دون أن نعرف بعضنا البعض. ونحن نعلم عمّا حدث سابقا من حالات سوء التفاهم والأزمات، التي لم تزل تشكل عبئاً حتى الآن على العلاقات بين اليهود والمسيحيين والمسلمين. وعلينا أن نسخّر كل قوانا في العمل على معالجة الوعي بإهانات وخطايا الماضي، من أجل اتخاذ قرار راسخ لبناء مستقبل جديد، لا يسود فيه بيننا سوى تعاون مثمر ومتسم بالاحترام المتبادل».

البابا يزور مسجدا لأول مرة في التاريخ

لا يمكن أن تُعدّ زيارة البابا الأولى إلى مسجد إلاّ رمزاً تاريخياً. وكانت ترتيبات البدء بها قد استُكملت يوم السادس من أيار (مايو) 2001 م، حيث وطأت، قُبيل مساء ذلك اليوم، قدما رئيس الكنيسة الكاثوليكية يوحنا بولص الثاني أحد أشهر مساجد العالم، أي المسجد الأموي، بعد وصوله الى دمشق، عاصمة الجمهورية العربية السورية، التي يعتنق معظم سكانها الدين الإسلامي.

ورافقه في الدخول إلى المسجد مفتي سوريا الكبير الشيخ كفتارو. وهكذا شكلّت الخطوات القصيرة للبابا العجوز والمصاب بمرض شديد نقطة انعطاف، أريد لها التمهيد لإجراء تحوّل في العلاقات بين الديانتين الاسلامية والمسيحية.

وكانت تلك العلاقة متسمة طيلة قرون زمنية بمشاعر الارتياب والعداء والمجابهات الحربية، ولكنهما تقاربتا بفضل زيارة البابا واتحدتا في الصلاة للإله الواحد، وفي تقديس الأب المشترك ابراهيم الخليل. فما أجمل الوضع حسب رؤية شاعر التنوير «ليسينج»، لو شارك في اللقاء مع الطرفين حاخام يهودي ذو مرجعية وأتباع.

لقد استنتج مؤرخو الفن وجود مصلّى تذكاري ليوحنا المعمدان في وسط المسجد الأموي. وكان الملك هيرودوس قد أمر بقطع رأس يوحنا المعمدان اليهودي المبشّر بالمسيح و«الواعظ في الصحراء»، من أجل سالومي الجميلة، وفقاً لما تتضمنه القصة الاسطورية اليهودية – المسيحية في هذا السياق.

لكن المسلمين يبجّلونه أيضا تحت اسم يحيى، لأن النبي محمد دمج في تعاليمه عناصر من الديانتين اليهودية والمسيحية. وهكذا فإن الزمن الماضي في سوريا لم يشهد حدوث مشكلات كبيرة بسبب بناء كنيسة فوق معبد، تكريما ليوحنا المعمدان.

وفي القرن الثامن الميلادي بُني فوق الكنيسة مسجد مرصّع بكم لا يحصى من الفسيفساء، وله ثلاث مآذن. ويقال بأن من المنتظر أن يعود عيسى المسيح للظهور على احداها يوم القيامة.

ونظرا لإمكانية متابعة العلائم المؤدية إلى التعرّف على وجود الإله العظيم في نصوص

الديانات المختلفة، فإن البابا لبس بدون تردد شبشبا أبيض، وتقدّم بخطوات قصيرة إلى قاعة الصلاة الكبيرة في المسجد، حيث قُدّمت إليه القهوة بفنجان صغير مرتين دون أن يشربها، وبعد ذلك توقّف بهدوء وهو لائذ بالصمت أمام ضريح يوحنا المعمدان. ولم يكن لديه ما يعترض عليه بخصوص صلوات وتراتيل رجال الدين المسلمين، بل كان بوسعه النظر إليها بوصفها صلاة جماعية للبابا مع قادة مسلمين في المسجد.

المسيحيون والمسلمون متفقون

كان هدف البابا من زيارته بالدرجة الأولى هو «اللقاء مع طائفة المسلمين». لقد وجد بعد تعبيره الروتيني عن الشكر لمضيّفيه «الأصدقاء المسلمين الأحباب» الكلمات الصحيحة، فدعاهم فيها إلى تعاون جديد بين الكنيسة والمسجد، قائلا:

«إن حقيقة لقائنا في مكان الصلاة المشهورهذا ليذكّرنا بأن الانسان كائن روحاني، وبأن المطلوب منه هو تحديد الأولوية المطلقة للاعتراف بوجود الله في كل شيء وإجلاله. فالمسيحيون والمسلمون متفقون على ذلك: إن اللقاء مع الله في الصلاة يعدّ بمثابة الغذاء الضروري لأرواحنا، فبدون اللقاء مع الذات الإلهية تجفّ قلوبنا، ولا تعود ارادتنا تسعى الى الخير، بل إنها ستنقاد الى الشر. يقدّر المسلمون والمسيحيون على حدّ سواء أماكن عبادتهم باجلال، ويعدّونها واحات يلتقون فيها مع الرحمن في طريقهم الى الحياة الخالدة، كما يقابلون فيها أيضا إخوانهم وأخواتهم المندمجين معهم في رباط الدين.

وإذا كان المسيحيون والمسلمون يحترمون بصمت صلوات بعضهم البعض وأدعيتهم في الزفاف وتشييع الجنازات، وغيرها مما يتصل باحتفالات الأفراح والأتراح، فإن ذلك بحد ذاته يعدّ شهادة على ما يجمعهم، دون تجاهل وإنكار العناصر المفرّقة بين الطرفين».

الإلتفات الى الشبيبة – توجيهات نحو المستقبل

قام البابا بصياغة العبارات الدالة على اهتماماته بالحوار مع مراعاة الإلتفات الى الشبيبة، مثل ما فعل في الدار البيضاء عام 1985 م. وعَدّ في حديثه بأن الظفر بالشباب يحدد المصير المستقبلي لكل ديانة من الديانات. وأعرب عن وجهة نظره في هذا السياق قائلا:

«تقوم الطوائف الإسلامية والمسيحية بتشكيل الشخصية الدينية في المساجد والكنائس. وفيها يتلقى الشباب جزءا هاما من التربية الدينية. فما هو الوعي الذي يتم تشريبه لنفوس المسيحيين والمسلمين الشباب في كنائسنا ومساجدنا؟، انني لآمل بقيام المعلمين والقادة الدينيين المسلمين والمسيحيين بتبيان ديانتينا الكبيرتين على أنهما في حالة حوار يتسم بالاحترام المتبادل، ولم تعودا أبدا ديانتين متصارعتين.

ومن الأهمية القصوى تعليم الشباب وارشادهم الى طريق الاحترام والتفهم، حتى لا يضّلوا ويسيئوا إستخدام الدين نفسه كأداة لتشجيع وتبرير بث الكراهية وممارسة العنف. فهو يقوّض صورة الخالق في مخلوقاته، ولا ينبغي أبدا أن يُعدّ بأنه نابع من قناعة دينية.

انني لأتمنى من صميم فؤادي رؤية لقائنا هذا اليوم في المسجد الأموي بأنه هو التعبير عن اصرارنا الحاسم، على الاستمرار في تطوير الحوار الديني بين الكنيسة الكاثوليكية والاسلام. فقد ازدادت ديناميكية هذا الحوار خلال العقود الزمنية الأخيرة، مما يجيز لنا هذا اليوم أن نكون شاكرين على ما قطعناه من مسافة الطريق في هذا المجال حتى الآن.

ويمّثل المجلس البابوي للحوار الديني الكنيسة الكاثوليكية في هذا الشأن على أعلى المستويات، وهو يقوم منذ ثلاثين سنة بتوجيه رسائل تهنئة الى المسلمين بمناسبة حلول عيد الفطر، بعد انتهاء شهر رمضان. ومما يسرني جدا أنّ هذه اللفتة قد رحّب بها مسلمون كثيرون وعَدّوها رمزاً للصداقة المتنامية بيننا. لقد شكّل المجلس خلال فترة من الزمن الحديث لجنة ارتباط للتواصل

مع منظمات اسلامية دولية، ومن بينها أيضا جامعة الأزهر المصرية، التي اتيحت لي وبسرور بالغ فرصة زيارتها في العام الماضي.
إن من المهم أن يقوم المسلمون والمسيحيّون في المستقبل أيضا بالمشاركة في بحوث حول استنتاجات لاهوتية وفلسفية، كي يتوصّل كل طرف الى معرفة موضوعية وكاملة عن ديانة الطرف الآخر. فالمستوى الأفضل للفهم المتبادل سيؤدي على الصعيد العملي بالتأكيد الى عرض صورة لديانتينا بطريقة جديدة، بحيث لا يظهران كخصمين كما كان الوضع في أحيان كثيرة خلال الحقب الزمنية الماضية، بل كشريكين لصالح الأسرة البشرية».

عندما ينبغي أن يغفر الله ذنوبنا

واصل البابا حديثه، فقال:
«يتسم الحوار الديني باعلى درجات الفاعلية عندما يكون ناتجا عن خبرة التعايش في الحياة اليومية، داخل المجتمع الواحد والثقافة السائدة فيه.
ففي سوريا عاش المسيحيون والمسلمون إلى جانب بعضهم البعض مئات السنين، واستمر الحوار في نطاق الحياة المشتركة بينهم دون انقطاع. وكل أسرة هناك تعرف أوقات الوئام، كما تعلم بأن الحوار قد توقف بين برهة وأخرى، وكل شخص يدرك ذلك أيضاً.
إذن فيجب أن تشكّل الخبرات الإيجابية عامل تقوية لآمال السلام لدى اتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية، كما لا يجوز أن تؤدي الخبرات السلبية إلى تقويض تلك الآمال. ويجب علينا أن ندعو الله القدير بالمغفرة، وعلى كل طرف أيضا أن يغفر للآخر بخصوص ما كان يحدث دائما عندما أساء المسلمون والمسيحيون الى بعضهم البعض.
فقد علّمنا المسيح بأن علينا أن نغفر لبعضنا الأخطاء المرتكبة، اذا أردنا من الله غفران ذنوبنا. ولا بد لنا كأعضاء في الأسرة البشرية وكمؤمنين من تنفيذ

التزاماتنا ذات الصلة بالعمل من أجل الصالح العام والعدالة والتضامن. إن الحوار الديني سوف يؤدّي الى رسم أشكال كثيرة للتعاون، وخاصة تلك المتعلّقة بتلبيتنا واجب الاهتمام بالفقراء والضعفاء، مما يعد اشارة الى إجلالنا الحقيقي لله».

خارطة طريق للحوار

كانت الكلمات السابقة بمثابة خارطة طريق للحوار بالنسبة الى البابا، معبّرة عن نظرة تصالحية مع الماضي، وتأمّل دقيق لوقائع الحاضر، وعبّرت كذلك عن باعث تحفيز مثالي لبناء المستقبل. كان يوحنا بولص الثاني الذي بدا رجلاً عجوزاً ينطلق في بادىء الأمر من رغبته، التي تنم عن الورع، في القيام بزيارة يحج فيها عام 2000 م الى الديار ذات التماس مع مؤسس الديانة المسيحية خلال الفترة التي عاشها.

لكنّ ما تكرر وصفه بمجرّد «زيارة حج دينية» تحوّل الى قمة انجازات عهده البابوي، بخصوص العلاقة بين المسيحيين والمسلمين، محققا انجازه هذا رغم حالته الصحية الحرجة وبفضل العناية الإلهية.

أما اليهود فلهم لدى البابا والمسيحيين حضور دائم، بصفتهم الإخوة الأقدم من الطوائف الدينية المنتسبة في أصولها إلى ابراهيم الخليل.

استطاع يوحنا بولص الثاني أن يخفف قليلاً من القوة الإنفجارية الكامنة في التباينات بين الأديان. فقد اتيح له في الديار المقدسة بمنطقة الشرق الأوسط أن يلم بمدى قابلية الإنفجار التي تتكوّن، عندما تتجمع عوامل الإنتماء الديني والثقافي والعرقي وتتداخل مع بعضها، وكانت لديه على أية حال فكرة بهذا الخصوص بصفته من أصل بولندي. ونظراً لأن المسلمين يرون المشكلة الأساسية في غالب الأحيان ممثلة في اسرائيل، التي يعدّونها السبب الذي يثير حفيظتهم، فإن البابا تقدّم بتصوّر واضح لتسوية خلافات الطرفين حول بيت المقدس.

انطلق البابا في هذا السياق من موقف متجاوز للطرفين ومتسم بعدم التحيّز مع مراعاة

اعتباره مرجعية، ليرسم خطوط نهج واضح لعملية السلام في منطقة الشرق الأوسط. فلم يأخذ بايديولوجية الإسرائيليين ولا الفلسطينيين، بالنسبة الى اعتبار كل طرف منهما بأن القدس «عاصمة أبدية» لدولته، بل إنه ترفّع عن الطرفين دون الإنحياز لأي منهما، مقدما تصوّر حكومة الفاتيكان المتضمّن المطالبة بوضع دولي للقدس. ويبدو أن هذا التصوّرهو أوضح من التصورات السياسية المحضة التي تتبلور في هيئة الأمم المتحدة حول الموضوع، لكن التصوّرالبابوي يتضمن مطالبة غير واقعية بتنازل سيادي من اسرائيل، بالإضافة إلى تقويض دعامة من دعائم وجودها.

وعندما يتحدث يوحنا بولص الثاني ويكرر الحديث دائما عن الأماكن المقدسة التي تمثّل القيمة العليا إلى أتباع الديانات العالمية الثلاث، فلا يمكن أن تنطبق الضمانات الدولية إلا على هذه الأماكن في مدينة القدس، وبالتماهي أيضا مع تقاليد القوى التي كانت تتولى حماية المقدسات منذ مئات السنين، سواء أكانت هذه القوة أم تلك.

ومن الممكن أن يؤدي عدم خوض البابا في الطرح النظري لموضوع مدينة بيت المقدس كعاصمة لأي طرف الى فتح المجال لتصليب جبهة المواجهة لدى الاسرائيليين والعرب على حد سواء. إن المسألة ليست متعلّقة بضاحية في المدينة يعيش فيها مئات الآلاف من السكان، بل بالأماكن المقدسة التي تستحق التقديس من الشعوب والأديان.

وهكذا فإن المتديّنين من كافة الأطراف المعنية شعروا بأن القائد الروحي للكاثوليك، الذين يزيد عددهم على مليار شخص، يأخذهم مأخذ الجد. فهؤلاء المتدينون لا يُعَدّون مجرّد بقايا من الزمن القديم، بل إنهم يشاركون بصورة حاسمة في بناء المستقبل، مما يعني أنهم حققوا مكسبا مدهشاعلى الصعيد السياسي.

بايمان راسخ على خطى الرسول بولص

عَدّ البابا يوحنا بولص الثاني نفسه إبّان تواجده في دمشق بأنه «أحد حجاج الايمان على خطى الرسول بولص». فقد زار بعد مضي يوم على زيارته للمسجد الأموي»كنيسة القديس بولص» بمحاذاة السور. وكان الهدف هو تذكّر قصة رسول الشعوب بولص بعد

أن اهتدى الى الدين المسيحي في دمشق، علما بأنه كان يسمى ساولوس قبل هدايته، وأنه ينتمي الى طرطوس، ثم تغيّر اسمه بعد الهداية إلى بولص كما هو وارد في الإنجيل.

وتتضمن القصة أن أصدقاءه المسيحيين الجدد في دمشق وضعوه في سلّة، ثم أنزلوها من فوق السور إلى الخارج، مما مكّنه من الهرب. أما زيارة البابا إلى المسجد الأموي فلم تؤدّ إلى تخفيف تمسّكه بالعقيدة المسيحية، ومما يدل على ذلك الجملة القصيرة التالية التي وردت على لسانه هناك: «يذكّرنا الرسول بولص (.... بحدث) تَقَبُّلِ نورِ المسيح الذي ينطلق منه الوحي بكامله».

ومن الجليّ للمسيحيين عدم وجود وحي بعد وحي المسيح: لا أفضل ولا أكمل منه، ومن غير الممكن بالنسبة اليهم أن يوجد وحي ختامي غيره.

ومن البديهي أن بولص لم يكن بوسعه التعرّف على الإسلام، ولو كان ذلك ممكنا، لطرح حقا أسئلة كثيرة على المسلمين، كما فعل في أثينا عندما باشر بالتوجه إلى الكفار وطرح أسئلة عليهم.

وكانت أثينا بوصفها المركز الفكري في التاريخ القديم ومهدا من المهاد الحضارية لأوروبا، هي أول محطة لزيارة الحج، التي قام بها يوحنا بولص الثاني في شهر أيار (مايو) 2001م على خطى الرسول المسيحي، إلاّ أنه ترك مسألة التوجه لمناقشة المسلمين وطرح الأسئلة عليهم، الى البابا الذي سيخلفه.

الباب الثالث



الفصل الثامن عشر

البابا بينيديكت السادس عشر في مدينة ريجينسبورغ
يوم صيفي لأحد مراسلي الفاتيكان

تكثفت العلاقات في احد ايام صيف سنة 2006 م بين روما ومكة إلى درجة غير معهودة، لأن البابا بينيديكت السادس عشر تحدث ببعض العبارات عن النبي محمد في مدينة ريجينسبورغ، ولم تكن تلك المرة الاولى التي يتحدث فيها عن الإسلام. فبعد أن تسلم مهام منصبه في الخامس والعشرين من نيسان (أبريل) 2005م اعترف بجهود المسلمين في الحوار مع المسيحيين، «سواء على الصعيد المحلي أم الدولي»، متحدثا عن «جسور صداقة مع اتباع جميع الديانات» وأصرّ في نطاق فعاليات يوم الشبيبة العالمي التي أجريت في مدينة كولونيا في شهر آب (أغسطس) 2005م على لقاء ممثلين عن بعض التجمعات الإسلاميه، معرباً لهم عن همومه بشأن المسائل المتعلقة بالعنف والدين، والإرهاب والتطرف الديني.

لكنّ «كلامه في ريجينسبورغ» كان مختلفاً جداً في تداعياته. ولم تزل هذه التداعيات تبدو إليَ، حتى بعد مرور مدة من الزمن، كالرعد الذي ترافقه سحب رمادية، كأنها كانت تنتشر في كبد السماء فوق الكنائس والمساجد وتتكتل باستمرار متخذة لونها القاتم، حتى يخترقها برق خاطف من الأعلى إلى الأسفل، فتتسع دائرة الهدوء المريب، إلى أن يمتلك الجميع إحساس بالفزع والرعب من وقع زخات الأمطار العنيفة والرعود المريعة.

وبعد ذلك لا بدّ من مرور بعض الوقت كي تهدأ العاصفة ويعود الطقس العسير على السيطرة الى الحالة الاعتيادية. وفي يوم الثلاثاء الموافق للثاني عشر من أيلول (سبتمبر) 2006م تلألأت أشعة الشمس للجميع من السماء الصافية الزرقاء لولاية بافاريا، أي في اليوم الرابع من زيارة البابا إلى بلاده. كان يوسف راتسينجر الألماني استاذا جامعياً متخصصاً في علم اللاهوت قبل أن يتسلم منصب البابا.

لكنّه لم يشغل كرسي الأستاذية للرسول بطرس في روما، إلاَ قبل أقل من سنة ونصف من تاريخ اليوم المذكور. كانت الأمور كلها مريحة جداً في تلك اللحظات، للبابا والذين قام بزيارتهم. وإذا كان جميع الألمان قد تماهوا معه بقولهم « إننا البابا »، فإن ذلك ينطبق اكثر على البافاريين، حيث أن بينيديكت هو واحد منهم، وبهذا فإنهم احتفلوا بالبابا وبأنفسهم. وتابعت أنا بدوري باسترخاء تام كيف أدى قداستة صلاة احتفالية مهيبة، في حقل ايسلنجر على طرف هامشي لمدينة ريجينسبورغ، أمام مئتي ألف ونَيف من الحاضرين. ولايعدّ هذا المشهد بالنسبة إلى صحفي مثيراً بالضرورة.

حجر العثرة الأول

من خلال قراءتي السريعة لمُدَوّنَة الوعظ الجميل والمملوء بالهدوء وغير الطويلة، لاحظت أن بين مساراتها يكمن حجر عثرة على المستوى الصحفي.

وهو يتخذ هيئة عائق يتوقف المرء عنده ولا يتجاوزه بسرعة، ولربما يشبة القضيب المعقوف المثبت، بحيث يمكن لمن يمر الى جانبة أن يتشبث به عند الحاجة. أجل إن مثل ذلك هو ما يحتاجه الصحفيون، كي يلفتوا انتباه الجمهور الى ماهو مرغوب فيه.

لقد عبّر بينيديكت في خطبته عن تشجيعه للمسيحيين وتنبيههم الى عدم الخوف مطمئنين الى الله، فقال حرفياً بأنه يدعوهم «إلى أن يعيشوا عقلانية الله في العالم بدون خوف». فما الذي ينبغي فهمه من ذلك؟، كان بودي بوصفي صحفياً مُسيّساً أن أسمع المزيد من التوضيح. لكنّ الأمر كما يبدو يدور حول الايمان بالعقيدة المسيحية، إضافة الى تفسيرها من البابا بصفته متخصصاً في علم اللاهوت.

في هذا السياق تبيّن أن المسألة لاتستحق الحديث بأكثر مما ذكر، حيث أن بينيديكت سوف يعود ـ كما قيل ـ لتناولها مرة أخرى. لم ير أحد في ذلك اليوم أمراً مميزاً، ولم يراوده أي فكر سيّء بشأن رغبة البابا في إلقاء محاضرة في القاعة الكبرى لجامعة ريجينسبورغ. فقد كان يوسف راتسينجر طيلة حياته يحب المحاضرات، طالباً، أو أستاذاً جامعياً، وأسقفاً لمدينة ميونيخ (1977-1981م)، وكاردينالاً مفوضاً لادارة هيئة الفاتيكان لشؤون

العقيدة (1981-2005م).

وكانت مدينة ريجينسبورغ هي التي يحلو له العيش فيها، حيث أن ما يسودها هو عالم العقيدة والعواصف البافارية.

وقد استقر فيها البروفسور المتخصص في علم اللاهوت راتسينجر عام 1969م، عائداً اليها من مدينة العلم ذات التقاليد العريقة، وهي توبينجين الواقعة الى الجنوب من شتوتغارت، حينما وجد أن الطلبة المحتجين في هذه المدينة الصغيرة كانوا غير عقلانيين الى حد الغباء ومتململين، وعندما رأى أن بعض زملائه، اساتذة الجامعة أصبحوا سخفاء على نحو متزايد من خلال انصياعهم لمطالب الحرية، التي كانت مثل موضة شائعة أنذاك. ومن الممكن قراءة ذلك في سيرته الذاتية.

همهمة وروائح مألوفة

(تنبعث من قاعات المحاضرات)

كان يوسف راتسينجر هنا في ريجينسبورغ استاذاً جامعياً لعلم اللاهوت ثمانية أعوام خلال المدة بين سنتي 1969 و 1977م (علماً بأن الدائرة الصحفية للفاتيكان قللت من هذه المدة عامين، حسب ما أوردته نتيجة لخطأ من أخطائها النادرة في بيان رسمي، مما يدل على أن كل شئ لم يكن قد تم ضبطه تماماً بخصوص بيانات التحضير لزيارته، أليس كذلك؟).

إنه قام خلال تلك السنوات بتدريس العقيدة وتاريخ الأصول العقائدية، وهي تلك المواد الأساسية في علم العقيدة الكاثوليكية. وكان يشغل نفسة بالتفكير في ما هو متعلق بالله وبالمجتمع الحديث والكنيسة وامور اخرى.

وشد انتباهي بأنه كان اذكى من الآخرين، عندما قمت بزيارته في مكتبة الاسمنتي الخالي من الزخارف في شهر أيار (مايو) 1967م.

في تلك الأعوام كانت المناقشات الحاده تحتدم بين الكاثوليك في ألمانيا، وكانت هنالك كلمة سحرية يجسدها مصطلح «الحوار» المنطلق من الجميع لصالح الجميع. وهكذا فإن

مؤتمر الأساقفه الذي عقدت جلساته في مدينة فورتسبورغ خلال الفترة من 1971م الى 1975م لم يستطع القيام بالتنوير المطلوب حسب وجهة نظر يوسف راتسينجر، بالرغم من تجشّم عناء العمل الهائل في نطاق المؤتمر، والكم الوافر من الوثائق التي تم استعراضها فيه. لقد استغرب من مجمل التوجه العام لنمط من التفكير الكاثوليكي الذي يبتكر ويقرر نفسه بنفسه. اذن فإن البروفسور البافاري لم يكن يرمق مؤتمر الأساقفة إلا بنظرة تقدير ضئيل، دون ان يرى مساهمة من المؤتمر والمشاركين فيه، في إضاءة الطريق.

اما جامعة ريجينسبورغ فكانت تعدّ بمثابة منزل له، حيث عرف عادات الطلبة، وسمع الهمهمة واشتم الروائح المنبعثة من قاعات المحاضرات فيها. أجل، إن ريجينسبورغ كانت بمثابة موطنه الكاثوليكي، وكانت القاعة الكبرى للجامعة مألوفة بالنسبة له. هكذا حدد البابا بوصفه استاذاً جامعياً موضوع المحاضرة التي أراد إلقاءها، مختاراً لها عنوان: «الايمان والعقل والجامعة، ذكريات وتأمّلات»، مبيناً علو شأنه بشكل تام في هذا المضمار، لأن موضوع العقل يقف إلى جانبه، أما بالنسبة للعقيدة فهي تملأ جوارحه ايماناً بها على أية حال.

كان ينبغي ان يحدث أمر مميز، وكنت انا بدوري مستعداً له، اذ انني سمعت قبل ذلك من أوساط الفاتيكان، بأن البابا أبدى في نطاق مرحلة التحضير لزيارته الى بافاريا اهتماماً بالغاً، وخصص كثيراً من الوقت لصياغة نص محاضرته، التي أراد إلقاءها في ريجينسبورغ.

ومن الممكن أن يعني ذلك بأن البابا، بصفته استاذاً جامعياً ـ متمتعاً بخبرات خمسين سنة من الكتابة والنشر، لجأ ببساطة إلى فتح درج محفوظاته الشخصية، لاختيار المناسب من النصوص التي ألفها بنفسه. ففي علم اللاهوت لايتقادم النتاج القيّم، مما يعتبر إيجابياً لصالح بينيديكت ومعلمي الدين المسيحي عند لقائهم العام معه يوم الأربعاء ـ للحديث معهم في شهر أيار (مايو) 2008م عن أب الكنيسة البابا جريجور الكبير مثلاً ـ، أو لإلقاء محاضرة حول احد المواضيع التقليديه لأصول علم اللاهوت، أو بخصوص الايمان وعلاقته مع العقل في نطاق إحدى الجامعات الاوروبيه. لكن مشكلة مركزية لأحد أديان الوحي

طُرحت ضمن هذا الربط من البابا ايضاً، وتمس تلك المشكلة عصب العلاقات بين المسيحيين والمسلمين.

فالنقاش حول الايمان والعقل لايقتصر على معالجة تلك التساؤلات، التي تتعلق بوجود إله أو بإمكانية التعرف عليه، أو احتمال عدم استثناء وجوده على الاقل. وفي أوروبا اختلف الناس منذ قرون، وبشكل متزايد منذ عصر التنوير في القرن الثامن عشر حول ضمانة تأكيد الوحي الإلهي عبر الايمان وحده، أم أن للعقل مدخلاً في هذا التأكيد. ومن الممكن أن يُستبدل استعراض هذه الإشكالية، من خلال التساؤل عما إذا كان العقل هو الذي يضع أولاً قياسات تحديد مسار الوحي الإلهي، سواء عبر يسوع المسيح أو من خلال النبي محمد.

لقد اطلعت على الاسئلة الأولى التي طرحها البابا، من خلال اختلاس نظرة في المدونة الموجودة لديَ لتلك المحاضرة.

اذا كان الله متناقضاً أو يأمر بما يتناقض مع العقل، فهل تنتفي عنه صفة الألوهية؟

كيف ننظر إلى كلّ من المسيح ومحمد؟ [عليهما السلام]

انني مهتم بموضوعة العلاقة بين الايمان والعقل، وصولاً الى ذروة الموضوعة، التي تتمثل في التفاؤل حول صحة الوحي وأصالته. لقد اختتمت دراساتي الفلسفية واللاهوتية بانجاز بحث ذي صلة تامه بأبعاد العمل الديني ـ الفلسفي، تحت عنوان معقد، هو: «تحليل مصطلح الوحي لدى لودفيج فويرباخ (1804-1872م) بوصفه إنكاراً للفلسفة الدينيه الألمانية». ويتمحور السؤال بإختصار عما اذا كان من الممكن حدوث «وحي» إلهي الى الانسان، وعن امكانية حمل أي من عيسى ومحمد [عليهما السلام] وحياً، أو حملهما وحيين، أو عن احتمال كون أحدهما أو الآخر غير ذلك تماماً. فالأمر هو متصل اذن بالقدرة العقلية على التوصل الى حكم حاسم بهذا الشأن، أو على استثناء الاقرار بشئ ألوهي، نظراً للتناقض مع العقل.

كانت هذه التساؤلات المطروحه آنذاك (1973م) متسمه جداً بالطابع النظري. ولم يكن نبيّ الإسلام محمد مشمولاً بها إلا بصورة ضمنية. ولكنها تعد اليوم اسئلة حاسمة على صعيد السياسة العالمية، لأنها هي التي تفرق بين ديانتين يزيد تعداد اتباع كل منهما على مليار نسمة، كما انها من المحتمل ان تسبب حدوث تصادم بين ثقافتين.

كان بوسعي خوض نقاش حولها طيلة ليال عديدة، أو أن ألقي بشأنها محاضرات طويلة.

ولكن، ألا ينطبق ذلك على آخرين؟، وهل يودون متابعة المحاضرة؟، نعم، لقد أبلغتني ادارة تحرير »صحيفة فرانكفورت ألجماينه« يوم الثلاثاء في وقت الظهيرة بان من المخطط له نشر نص المحاضره كلها، مع إجراء اختصار لها.

وعبّرت الادارة عن املها واعتقادها بأن موافقتي مؤكدة، علماً بأن النص كان يتضمن ما يعادل 24000 ضربة آلة كاتبة أو 600 سطر في صحيفة، بما يعني تخصيص صفحة كاملة لها!، مما جعل من الواضح لي أن كل ذلك يتناسب مع أهمية الموضوع. فكرت لبرهة قصيرة أن عملي سيصبح أسهل في يوم الثلاثاء المذكور، غير ان الحقيقة لم تكن هكذا.

فاختصار محاضرة هامة بحاجة على الأرجح الى وقت أطول من الإفاضة والإطالة في صياغة مضمونها. وبالاضافة الى ذلك كان عليَ إعداد تقرير قبل فترة الظهيره عن القداس البابوي مع موعظة البابا الجميلة، وعن صلاة الغروب المسكونية مساء ذلك اليوم في كاتدرائية ريجينسبورغ مع ممثلي الكنائس المسيحية والطوائف الكنسية، وبشكل رئيسي: مع أتباع الكنيسة اللوثرية والارثوذوكسية في بافاريا.

إن الكلمات التي ترد على لسان البابا في مثل هذه المناسبات حول وحدة المسيحيين تحظى بالاهتمام الواسع بالذات في ألمانيا، المقسمة مذهبياً.

لكنني سمعت من الفاتيكان زيادة على ماذكر بأن البابا أراد ان يتحدث ايضاً عن العلاقة بين الدين والعنف، دون الاكتفاء بعبارات تقليدية عامة، فهو راغب في توجيه الحديث إلى المسلمين على الصعيد العالمي.

وبدا أن تناول هذا الموضوع كان أمراً ذا حساسية مميّزه. فمنذ سنوات والمعنيون لدى

الفاتيكان يراقبون العالم الإسلامي، بقلق متزايد، ولم يكن بوسع البابوات والكرادلة الركون الى عدم الاكتراث بكيفية التطور الذي يطرأ على الإسلام. لقد وضع الكثيرون من ساسة الفاتيكان ومؤرخيه خلال حقبة الخمسينات والستينات من القرن العشرين في حسبانهم ما مفاده، أن الإسلام سيضعف كونه دينا يفتقر الى الحداثة والتنوير، وفقاً لما يستند اليه من معايير القياس الاوروبية. فكانت هناك إشارات متتابعة داله على إتجاه الديانة الإسلامية الى الضعف، في تلك البلدان التي تشكل حزاماً جغرافيا يمتد مابين المغرب واندونيسيا، حيث بدا الإسلام بوصفه قوةً دافعة وكأنه مستنفذ، وفقاً لوجهة النظر التي سادت في العالم الغربي على الأغلب.

وفضلاً عن ذلك فإن هنالك خصومة نشأت بين المسيحيين والمسلمين في حقبة الحرب الباردة بتأثير التناقض بين كلا المعسكرين اللذين تزعمتهما الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي، وهي الخصومة التي تم استيعابها بدرجة ضئيلة أو عبر التعتيم عليها. اذن فكان من المتوقع للإسلام ان يتلاشى.

ولو تحدث ملك بروسيا فريدريك الثاني عن تلاشيه، لعبَر عن ذلك بقوله بأنه كان في حالة الإنقراض. كان التوقع خاطئاً، فما حدث هو العكس: إن المساعي الراميه الى الإستقلال السياسي، وأنشطة حركات التحّرر في البلدان التي أصبحت مستقلة بين المحيطين الاطلسي والهادي كانت لصالح الإسلام، ومضادة للمسيحيه بوصفها ديانة السادة المستعمرين ـ مع إستثناء الهند والصين بسعتهما (الجغرافية والديموغرافية) الهائلة، وتقاليدهما الدينية الثقافية المغايرة.

وكذلك فإن الإسلام اثبت قدرته على ابداء اقصى درجات المقاومة لمحاولات التبشير المسيحية، في القرنين التاسع عشر والعشرين. وترسخ باعتباره قوة تكسب الإنتماء أيضاً نتيجة للتناقض بين اسرائيل والعرب انطلاقاً من مشكلة الفلسطينيين، ونشوب ثلاث حروب بين الطرفين، فضلاً عن الثروة المادية الهائلة، التي تكونت لدى دول النفط العربية ـ الإسلامية.

تركة البابا السابق

جرى مراراً التلميح لي من داخل الفاتيكان بأن الأمور ستتعقد بعض الشيء. لاشك بأن الناس في الغرب شعروا بالخوف، ولكن ما زاد من مخاوفهم تمثل في الإنهاك الذي سببه المتطرفون المسلمون للحكومات والشعوب، التي تعتنق الإسلام نفسها. وكانت الولايات المتحدة الامريكية قد شنت حربها الأولى ضد العراق1991م رداً على إقتحام الكويت. أما الحرب الثانية التي ادت الى احتلال العراق بصورة مستمرة فكانت ناجمة عن تصريحات الدكتاتور الخرقاء، وأخرى مريبة صادرة من اوساط الحكومة الامريكية.

وفي هذا السياق أبدى البابا يوحنا بولص الثاني اعتراضه على ما بدر من الطرفين، ولكن بدون جدوى. لم يكن بوسعه إلا إعاقة إطلاق تسمية «الحرب المقدسة» على الاعمال العسكرية لكلا الطرفين.

لم يوافق البابا على ان تكون المسيحية ضد الإسلام، وأعرب عن تذمره وشكواه من عدم اقدام مرجعيات اسلامية على إدانة ممارسي العنف أو ترددها في الادانة، وتقبّلها، كما بدى له، التوجهات الراديكالية الى حد معين. وفضلاً عن ذلك فانه وضع ثقته في قوة معتدلة توفيقية في نطاق اسلام تتنامى قوته، وفقاً لما كان يعبّر عنه بشكل مستمر في رسالته الأساسية، خلال زياراته الرسولية الى كثير من البلدان ذات الأغلبية الإسلامية من مجموع سكانها، بدءا من رحلتة الرابعة في عهده البابوي الى تركيا عام 1979م حتى الزيارة التي قام بها في الثاني والعشرين من حزيران (يونيو)2003م الى البوسنة والهرسك، وبعد ذلك تسلم تركته بينيديكت السادس عشر.

لكنّ من يعمل مراسلاً صحفيا ومرافقاً للبابا في زياراته لا يتمتع بوقت للراحة، حيث يترتب عليه أن يُعدّ على الدوام أفكاراً متصلة بالسياسة العالمية، ورؤى منبثقة من التطورات المعاصرة. وعليه استغلال الوقت لتمحيص كل كلمة بابوية والتعامل معها مراراً قبل ان يبدأ البابا بإلقاء خطابه وخلال فترة الإلقاء. وفي يوم الثلاثاء كانت الخطابات المقررة في نطاق زيارة قداسته الى بافاريا هي كل من: الخطاب التاسع والعاشر والحادي عشر، وكانت هنالك خطابات قبلها، كما تقرر أن تتبعها غيرها. وبما ان العاشر منها بدا

لي خطاباً مميزاً، وذا طابع مبدئي اساسي إلى حد معين، فقد قرأته قبل أن يقف بينيديكت على منصة الخطابة.

ومن البديهي أن الكلمات التالية عن الرسول محمد لفتت انتباهي كصحفي: »دُلّني حقاً على الجديد الذي جلبه محمد، فسوف لاتجد هنا إلا ماهو سيَء وغير انساني، مثل هذا الذي أمر به لنشر العقيدة التي وعظ بها، باستخدام السيف«.

يجب على الصحفي دائماً أن يتصرف كالخنزير الباحث عن الكمأة، وكأنه مجبر على تقليب ألف كلمة من كلمات الساسة غير المهمة كما يبحث الخنزير في باطن الأرض، ليلتقط ماهو ثمين من بينها. انني فكرت للحظات قصيرة بأن هذه الجملة المقتبسة سوف لاتفقد شيئاً من قوة الاثبات والاقناع، اذا حذفت منها الكلمتان المعبرتان عن صفتي «سيَء وغير انساني».

فمن هو الذي يريد في هذا السياق أن يوجه تهمة عدم الدقة - التي ربما هي جائزة علمياً في تلك الحالة - الى البروفسور راتسينجر الذي يلبس تاج البابوية؟! وعلاوة على ذلك فقد ورد في تاريخ الادب والفكر الانساني الأوروبي عدد لايحصى من الاقتباسات الأشد إساءة الى الرسول محمد، سواءً أكانت منقولة من كلام الإصلاحي المسيحي مارتن لوثر، أو المفكر التنويري الفرنسي فولتير. إذن فإن ذلك كما يبدو لم يشكل لصحفي ليبرالي الماني سبباً للصراخ والضجيج بالشكوى.

وأود أن أدرج أيضاً ما هو غير مألوف في مدونة خطاب البابا: فقد أضيفت الى نهاية الخطاب الموجود لديَ، وكذلك في ختام نصه الذي اعدته الدائرة الصحفية لدى الفاتيكان ملاحظة تم إبرازها بخط مائل، متضمنة العبارات التالية: » أحتفظ قداسة البابا بحقه في تزويد هذا النص لاحقاً بملاحظات من أجل النشر. إذن فإن صياغة النص غير نهائية«.

وبدوري توصلت من خلال هذا التحفظ الى استنتاجات ثلاثة، هي:

1) رأى أستاذ علم اللاهوت راتسينجر أن المحاضرة ذات أهمية، وأنها بالتالي مستحقة للنشر، وقد تصرف هكذا كما كان يفعل بخصوص بعض ما يؤلفه من النصوص منذ

نصف قرن زمني.

2) لم يكن بينيديكت قد استكمل صياغة النص تفصيلياً، مما يعني أنه لم يكن راضياً عن النص المعروض حينذاك، أو انه كان يود تطبيق الآلية العلمية على النص من خلال تزويده بالملاحظات والأدلة.

3) إعلان البابا بأن لديه تحفظاً علمياً، دون أن يستطيع فرض هذا التحفظ على وسائل الإعلام والوصول به الى الرأي العام.

إنّ الأمر يتعلق إذن باسباب أخرى لعدم إثارة القلق، والانتظار حتى يُعرف فيما اذا كان آخرون سيعبرون عن فزعهم. وبالإضافة الى ذلك فإن استنتاجي يتضمن بأن الكلمات عن نبيّ الإسلام لم تكن هي التي عكست جوهر المحاضرة. فهذا الجوهر كان يتمحور بوضوح بالنسبة الى صحيفة سياسية يومية حول الموضوعات الثلاثة التالية:

1) تناقض العنف مع جوهر الذات الإلهية، وبالتالي مع كل الأديان.

2) العقل والإيمان مرتبطان بالحقيقة والقيم.

3) ادراك ما هو وارد ضمن البندين السابقين أعلاه يستدعي اجراء الحوار بين الأديان.

يستدل مما تقدم اذن على أن البابا ألقى خطاباً هاما، وخاصة بالنظر الى التوتر الذي تشهده السياسة العالمية، والى الأحاديث المستمرة عن تصادم الثقافات والديانات.

ولكن المعضلة القديمة بين الساسة والصحفيين خطرت ببالي خلال الدقائق التي كانت تمضي بسرعة، حتى الوقت المحدد لنهاية العمل الصحفي في ظُهر ذلك اليوم.

وينطبق هذا على الإشكالية المحرجة ما بين الشخصي والموضوعي في وسائل الإعلام. فما الذي سيحدث لو أن الناس لم يفهموا البابا كما أراد هو أن يُفهم، بل بنفس الصورة التي تعكس اساءة مهمة؟، لقد أختلف الصحفيون في هذا: فمنهم من أعدوا تقاريرهم استناداً الى فهمهم الكلمات، وفقاً لما هو واضح من معانيها.

وهناك من تملكهم الفزع من خلال فهمهم للكلمات حسب ما يمكن أن يساء تفسيرها من المنظور السياسي. ولكن بينيديكت لم يكن قد ألقى المحاضرة بعد.



الفصل التاسع عشر

محاضرة ريجينسبورغ ـ لحظات من التحدي

استُقبل البابا بينيديكت السادس عشر في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) 2006 م حين دخوله الى جامعة ريجينسبورغ بتصفيق حاد لبرهة طويلة. وكان المعنيون لدى الفاتيكان قد أدرجوا في البرنامج الرسمي لزيارة قداسته الى ميونيخ وألت أوتنج وريجينسبورغ بين يومي التاسع والرابع عشر من الشهر المذكور بندا يتعلق بلقائه في الساعة الخامسة بعد ظهر يوم الثلاثاء في التاريخ المشار إليه أعلاه مع ممثلي الشؤون العلمية، على ان تُختتم فعاليات البرنامج في كاتدرائية فرايزينج، الواقعة بالقرب من مطار ميونيخ. وذُكرت تفاصيلات أخرى لمجريات الزيارة أيضاً، مدرجة تحت البنود التالية:

الإفتتاح بعزف موسيقي.

إلقاء رئيس الجامعة كلمة ترحيبية.

محاضرة البابا.

تسليم ملف الصور وعرض الكتاب المقدس بوصف ذلك من تقاليد ريجينسبورغ.

التوقيع في سجل ضيوف الجامعة.

العزف الموسيقي الختامي.

لم يكن مثل هذا النمط من الفعاليات بالنسبة الى الصحفيين مُشوّقاً تماماً.

بدأ البابا وهو في الوقت ذاته البروفسور يوسف راتسينجر بعد دخوله الى القاعة الكبرى المكتظة بالحاضرين بإلقاء محاضرته، تحت عنوان: «الايمان والعقل والجامعة، ذكريات وتأملات». وكان متسماً بكل هدوء واثقاً من نفسه ومدركاً مزية وجوده في المدينة التي تعدّ وطناً له، الى درجة أن شعوره بالثقة والإطمئنان دفعه إلى أن يُدخل في مقدمة المحاضرة مايعبّر عن تهكّم معتدل بخصوص الإلحاد، قائلاً بأن: «أحد الزملاء

من الاساتذة الجامعيين أعرب في سنوات الثورة الطلابية بعد عام 1968م عن اندهاشه، لأن جامعتنا تضم كلّيتين متخصّصتين في موضوع شيءغير موجود ـ وهو الإله». فمتى سمع الناس قبل الآن في أي يوم كلاماً علنياً من أحد البابوات وهو يتهكّم على الملحدين، في محاضرة خاصة بالإيمان والعقل، مع العلم بأن المنكرين لوجود الله هم الذين يطالبون بأحقيتهم في اعتماد العقل والتهكم على المتدينين؟!

وبما أن البابا كان بصدد التمهيد لقيامه بتوضيح لأفكاره العامة عن الإسلام ـ إذ تحدد ذلك فجأةً في سياق الموضوع الرئيسي ـ فقد هدّأ من روعه انه رأى بأنّ تساؤُل العقل عن الله يبقى بمثابة أمر ضروري، بالترابط مع تراث العقيده المسيحية، دون أن يكون ذلك بالامر المختلف عليه (آنذاك) في الجامعة. وأضاف بينيديكت الى ما قاله، بأن مثل تلك الشكوك الراديكالية بوجود الله استناداً الى العقل تعدّ بالنسبة الى الإسلام تصرفات مريعة. فبناءً على هذه المعطيات تماماً ينفتح باب التناقضات مع المسلمين.

لقد أراد بينيديكت، كونه أستاذاً جامعياً اوروبياً ورئيساً للكنيسة الكاثوليكة ومتكلماً يمثل المسيحية، أن يوجّه الحوار بين الديانات، عبر محاضرته التي تدور حول الذكريات والتأمّلات، والايمان والعقل والجامعة، ولهذا السبب لا اكثر ولااقل منه قام بطرح السؤال عن طبيعة الاله عند المسلمين.

اقتبس البابا وهو في قاعة المحاضرات الكبيرة عبارات حديث تم تبادله في العصر الوسيط بين القيصر البيزنطي العلامة مانوئيل الثاني باليولوجوس عام 1391م، وبين مثقف فارسي، في المقر الشتوي في انقره، حيث تبادلا الحديث حول المسيحية والإسلام والحقيقة لكلا الدينين [...] وحول العلاقة بين [...] القوانين الثلاثة [...] : العهد القديم ـ العهد الجديد ـ القرآن وتصرف البابا بهذه الطريقة من أجل تخفيف حدة التساؤل المطروح على الإسلام، ولكنه دقق بعد ذلك في تساؤله عن إله كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين إضافة الى السؤال المطروح عما أوحى وأمر به إله كل دين في موضوع الجهاد، الحرب المقدسة، وعما يتم تعليمه طبقاً للديانات الثلاث عن علاقة الدين بالعنف.

ذكر بينيديكت في محاضرتة ببراءة شبه تامة: »بأن القيصر لابد انه كان يعرف الآية 256 من سورة البقرة «لا إكراه في الدين»، ملاحظاً بأن هذه السورة هي من السور القديمة وتعود الى بداية أمر محمد [عليه السلام] «عندما كان ضعيفاً وتحت التهديد». واستطرد قداسته قائلاً:

«من البديهي ان القيصر كان على معرفة ايضاً بالأحكام التي دُوّنت في القرآن - لاحقاً حول الجهاد».

يعدّ التفريق بين «السابق» و«اللاحق» للسور والآيات في القرآن مسألة بديهية منذ قرون بالنسبة الى مفسرين يهود ومسيحيين، ممن تدارسوا الكتاب المقدس، سواء العهد القديم أم الجديد، مستخدمين اساليب علمية مُمَحّصة بدقة. (وفي كثير من الأحيان لم تكن هذه البديهية تؤخذ بعين الاعتبار، بل كان من المفروض ببساطة الإعتقاد بكلمة الله وفقاً للمبدأ الأصولي). أما المسلمون فكانوا يرون بأن هذه المعطيات تشكل بحد ذاتها تعارضاً، لانها تؤدي مباشرة الى طرح السؤال عن توجهات الذين يتولون تفسير الكتب المقدسة، وينطبق ذلك على المسيحية التي تندلع، حول تفسيرها، الخلافات النظرية والعملية (حتى تصل الى الحروب الدموية). لكن التفريق المشار الية لم يكن موضوع حديث في نطاق محاضرة ريجينسبورغ، ولا بعدها بفترة قصيرة، غير انة ينبغي ان يلعب دوراً هاماً بالنسبة الى الإسلام والحوار.

اذن فإن هنالك عنفاً - كما يستقرأ لاحقاً - يمارس من اجل نشر العقيدة الذاتية - في خضم المجابهات مع ثقافات أخرى!، وبما يعني عنف «أهل الكتاب» ضد «الكفرة».

هكذا وصل البابا الان الى النقطة الحاسمة، ملاحظاً ذلك، بل مدركاً ايضاً الخطر الناجم عن امكانية سوء فهمه، ومبرهناً على حضوره الفكري المدهش. فمعظم الساسة لايستطيعون الخروج عن نص خطاب أساسي ذي علاقة ببرنامج يحدده.

ومن النادر أن يكون ذلك ضرورياً في الخطابات الهامة، لأن كاتبيها والمختصين بإعدادها يمحّصون ويقلّبون كل كلماتها قبل الإلقاء، مما يجعلها مملّة في معظم الأحيان.

أما البابا فَأحسّ عندما أقترب من الإقتباس، بأنه لم يكن قد أنعم الفكر مسبقاً في أمر ما : فاختيار إقتباس مناسب من مرجع في المكتبة البابوية الخاصة يمثل مسألة تختلف تماماً عن استخدام البابا لذلك الإقتباس على مسامع الرأي العام، بصرف النظر عن التذرع هنا وهناك بأن المسألة لاتدور سوى حول إلقاء محاضرة.

وهكذا سارع بينيديكت بوصفه عالماً لاهوتياً في ريجينسبورغ الى التأكيد على الوصف الوارد في مدونة محاضرتة لمسلكية القيصر البيزنطي، قائلاً بأنه تصرف « بأسلوب فظ غريب». ولكنه انطلق من مهامه كونه بابا فحاد عن الالتزام بالمدونة وزاد عليها، معدلاً عبارة الوصف ليقول بأن القيصر تصرف «بأسلوب غريب ومفاجئ بالنسبة الينا» ـ وذلك لأن الذي يتحدث الآن ليس هو القيصر في العصور الوسطى، وانما البابا في سنة 2006م. ومن هنا قرأ الإقتباس كما يأتي: »دُلّني حقاً على الجديد الذي جلبه محمد، وسوف لاتجد إلا ما هو سيء وغير إنساني، مثل هذا الذي أمر به لنشر العقيدة التي وعظ بها، باستخدام السيف».

اذن فإن أحد القياصرة البيزنطيين أتى بكلمات مسيئة للنبي محمد، غير أنها انتشرت في العالم على لسان رئيس الكنيسة الكاثوليكة. لم يكن بينيديكت قد خرج من القاعة في تلك اللحظات، بل إنه استمر في الحديث بهدوء كعالم لاهوتي يقتبس من التاريخ، فقال: «يبرر القيصر باستفاضة سبب اعتباره أن نشر الإيمان بالعنف هو عمل متناقض مع العقل، وأنه يتعارض مع جوهر الذات الإليه [...]، وأن الله لايحب سفك الدماء، وأن التصرف بما يتنافى مع العقل [...] يتناقض مع جوهر الذات الالهيّة، وأن العقيدة هي من ثمار الروح وليس من ثمار البدن.

ومن يرغب اذن في هداية أحد للإيمان بالعقيدة، فإنه بحاجة الى القدرة على الكلام الصالح والتفكير السليم، وليس الى العنف والتهديد».

وبعد ذلك تجلت المرجعية البابوية، من خلال قول بينيديكت:

«إن الجملة الحاسمة في الحجة ضد فرض اعتناق العقيدة بالعنف تنص على: اعتبار

التصرف المنافي للعقل متناقضاً مع جوهر الذات الإلهية. وهنا تكمن نقطة التحول في فهم الله، وفي التطبيق الواقعي السليم للاديان، مما يشكل لنا تحدياً مباشراً بصورة كاملة».

ولهذا فإن من المبرر طرح السؤال التالي الذي يعتبر حاسماً في هذا السياق، كما هو الحال في بيان من البيانات: هل يعدّ الاعتقاد بأن التصرف المنافي للعقل متناقض مع الذات الإلهية من منظور الفلسفة الاغريقية [أم طبقا للديانة المسيحية]، أم أن مضامين هذا الاعتقاد متطابقة مع بعضها دائماً؟.

وهل يمكن بالتالي وضع نظام دولي ملزم للتصرف وفقاً لهذا الطرح، وأن يلتزم به المسلمون ايضاً؟، ليس من المظنون به على وجه العموم أن البابا تحدث في غير رويّة عن الله والمسلمين والعقل وعن استخدام العنف في الشؤون الدينية.

نلاحظ بأن بينيديكت خصّص وقتاً طويلاً ليستعرض في محاضرته عقلانية الايمان المسيحي - كما يسمع الحاضرون الآن وكما سيقرأ القراء لاحقاً، فكان لاستعراضه وقع كأنه إيجاز للتاريخ الفكري المسيحي في ظل ارتباط العقل بالذات الإلهية.

ووصف متمهلاً وبما يتماشى مع اسلوب استاذ جامعي تلك الأخطار المتراكمة خلال قرنين في الميادين الفكرية والدينية، من جراء احداث أطلقت عليها تسمية «موجات التحرر من افكار الفلسفة الإغريقية»، بما يعني الإبتعاد عن العقل وعن عقلانية الله. وكان بإمكانه أن يسرد تفاصيل عبر هوامش توضيحية عن جنايات المسيحيين التي لا تحصى، على الصعيدين السياسي والعسكري، إن لم تكن حتى ذات طابع إرهابي، فسجل الخطايا معروف.

لكن اتباع الاديان الاخرى لاينبغي لهم في عالم مهدد بالأخطار وبصورة شمولية في ظل العولمة أن يقلدوا ما ارتكبة المسيحيون من جرائم في ازمنة متباعدة في القدم، مستخدمين وسائل خفيفة الاذى مقارنة بغيرها.

عندما كان البابا يعبر عن تأملاته بما طوره من الأفكار الغزيرة مستنداً الى ثقتة ببث شعور المشاركة لدى المستمعين مع اتسامه بفصاحة لغوية، كنت مستمراً في طرح سؤال

على نفسي: ماهي الرسالة السياسيّة المركزية التي توخى توجيهها من خلال المحاضرة؟، إن تلك الرسالة بدت من غير شك واضحة لي.

فهي تفيد بأن البابا دعا الى اجراء حوار بين الاديان والثقافات، انطلاقاً من أسس الإيمان المسيحي، وإلى التخلي عن ممارسة العنف والتهديد في نطاق التعايش الدولي. فقد تضمنت محاضرتة جملة يمكن للصحفي أن يذيعها للعالم بإرتياح، وهي: »إن نشر العقيدة باستخدام العنف هو عمل متناقض مع العقل، فالتصرف المتنافي مع العقل يتناقض مع جوهر الذات الإلهية«.

وإذا كان البابا قد مزج محاضرته بلمز الاسلام والامة الاسلامية بأكملها، وشنّع عليها من خلال الجملة المذكورة، فهل من الممكن أن يشكّل بهذا عائقاً للاندفاع نحو الحوار؟، وبما أنني فضلاً عن ذلك أعَدّ «خبيراً في أحاديث البابا» منذ سنوات طويلة، وبصفتي متخصصاً في الفلسفة الدينية، فقد دُهشت من المستوى الفني الفائق لقدراته اللغوية واللاهوتية، التي أتاحت له المرور بمجريات ألفي سنة من تاريخ الثقافة والفكر المسيحي، ليعبّر عنها موجزة في ساعة واحدة. فمن الواضح إذن أن بينيديكت كان معجباً بدوره المزدوج، كبابا وكعالم لاهوتي. أجل، انه لعب دور الأستاذ الجامعي على المنصة، لكنه في حقيقة الأمر ظهر الآن في ريجيسنبورغ، وكأنه يلبس تاج المعلم الرسولي بطرس ويتربع على عرشه، مما يدل إذن على أن هذا البابا يعرف الله.

لقد تكلم البابا هنا بوصفه عالماً لاهوتياً من مرحلة ما بعد الحداثة ومعلماً كنسياً في القرن الحادي والعشرين، كمن يفكك رموز المعرفة الخاصة بالعالم والذات الإلهية، لكي يستوعبها المؤمنون واتباع الديانات الأخرى، ومنهم حتى اتباع النبي محمد. وكان من الأولى قبل ذلك لو التزم المستمعون بالتعبير عن إعجابهم بالتوجه إلى إلتقاء المؤمنين بالله من اتباع الكنيسة والمسجد مع بعضهم. وكان على اتباع النبي الإعراب لقادة الكنيسة في الغرب عن شكرهم على الموعظة، التي تقرر تقديمها غداً، وهي تتضمن النص التالي:

«منذ عصر التنوير وجزء من العلم على الاقل يسعى بنشاط حثيث الى التوصل

لتفسير للعالم، يكون فيه الله زائداً عن الحاجة، وبحيث ينبغي ايضاً الاستغناء عنه في حياتنا. ولكن، كلما تكرر الاعتقاد بأن من الممكن التوصل الى هذا الهدف قريباً، كان يتضح دائماً: بأن ذلك غير قابل للتحقيق.
فالشأن المتعلق بالانسان والعالم بكامل شموليته لايتم بدون الله أيضاً. إن الأمر يتمحور في نهاية المطاف حول اختيار أحد البديلين من خلال التساؤل:
ما الذي يوجد في البداية: هل هو العقل المبدع، الفكر الذي يُحدث كل شئ ويتيح تطوره، أم هو العلة غير العقلانية، التي تستحضر بطريقة خاصة وبدون عقل عالماً مرتباً على أسس رياضية، وتتعامل مع الانسان وعقله بنفس الطريقة، ولكنها ستكون لو وجدت مجرد صدفة عرضية للتطور، وبالتالي اذن شيئاً غير مفهوم أيضاً؟».

كان من الأولى أن يشعر المسيحيون والمسلمون بالسرور من هذه الموعظة.
ومن جانب آخر تقدم البابا عبر عظته الصباحية بنصائح لهذه الديانة العالمية الأخرى، فوجه إليها تساؤلات غير قابلة للرفض مع إلزامها بالإجابة، وذلك حين تحدث عن الله بإعتباره «العقل المبدع»، فقال:

«إنه صلاح ومحبة. في هذا اليوم الذي نرى فيه الحالات المرضية والامراض التي تشكل خطراً على بقاء الاديان والعقل، ونبصر فيه تقويض صورة الله من خلال التعصب، فإن من المهم أن نتحدث بوضوح عن الإله الذي نؤمن به، وأن نكون مع هذا الوجه الانساني لله. وحينئذ ينقذنا هذا التصرف من الخشية من الله، التي ولدت منها في المحصلة النهائية أفكار الالحاد الحديث. فهذا الإله هو الذي يمنحنا بعد ذلك الخلاص من شعور الخوف من العالم، ومن الإحساس بالرعب من فراغ الوجود الذاتي».

وحدّد بينيديكت فضلاً عما ذكر ما تؤمن به المسيحية، قائلاً :

« نحن المسيحيين نؤمن بان العقل ممثلاً بالكلمة الخالدة هو الذي يشكل البداية، وليس غير العقل».

وهو يعني أن الإله في الديانة المسيحية هو فوق الديانات ولصالح الانسان ولإسعاد البشرية وخلاصها. إذن فإن هذا هو المصطلح البابوي للإله، حيث طوره يوسف راتسينجر في محاضرته، وحدد مضمونه بشكل مفاجئ تماماً عبر ربطه «بطرح السؤال عن سبب اعتبار نشر العقيدة بالعنف عملاً متناقضاً مع العقل».

لقد بيّن بينيديكت مستنداً الى نصوص قديمة بأن العقل هو تماهي العقلانية مع الذات الإلهية. وطالب لهذا السبب «بإجراء حوار حقيقي بين الثقافات والاديان، وهو الحوار الذي نحتاجه في هذا المسار». لقد نبّه البابا المجتمع الحديث بوصفه محامياً للدفاع عن ديانة عالمية شامله من خلال موعظة، تطرق فيها أيضاً الى البعد الديني للإسلام، فقال:

«لم تزل تسود في العالم الغربي وجهة نظر، مفادها أن العقل المنطلق من الاعتبارات الوضعية هو وحده العقل الشامل بالاضافة الى ما يتبعه من النظُم الفلسفية: لكن التعامل بالذات مع هذا البعد المتصل بالله في ثقافات التدين العميق في العالم ونزعه من الشمولية يعدّ انتهاكاً لأعمق القناعات، التي تتسم بها تلك الثقافات. فالعقل الأصم تجاه البعد الإلهي والضاغط على الديانه لحشرها في مجال ثقافات هامشية هو غير قادر على إجراء الحوار بين الثقافات».

ولم تنجُ من اللافتة اللاهوتية الخاصة بموجة التحرر من أفكار الفلسفة الإغريقية - بخصوص العقل (الإلهي) اصلاحات القرن السادس عشر المتسمة بتوجيه الفرد للإستناد الى الكتاب المقدس، ولا مشاعر التقديس تجاه المسيح الذي يعلو على البشر، ولا فكر

التقييد الذاتي الحديث للعقل (الغربي)، كي يبقى محصوراً في مجالات التدبير العلمي. ولم تّطل هذه التداخلات في أول الأمر كما يبدو إلاّ جوانب العلاقة بين الإيمان والعقل، في نطاق الجامعة في بلدان الغرب. ولكنها ينبغي أن تشكل في المستقبل علامات للحوار، حتى بالنسبة إلى الدين الإسلامي بالذات، بإعتباره مستنداً الى الوحي.

وكان من المتعين على القيصر البيزنطي مانويل الثاني في حقيقة الأمر أن يعمل على تخفيف الصراع بين أتباع محمد وإلههم من الجهة الأولى، وبين المسيحيين وإلههم من الجهة الأخرى. ولو لم يكن التقييم هكذا، لما ترك بينيديكت إليه كلمة الفصل التي وجهها إلى شريكه الفارسي في الحديث، منطلقاً من صورة الإله عنده.

«إن التصرف المنافي للعقلانية والمتعارض مع العقل يتناقض مع جوهر الذات الإلهية».
هكذا تكلم مانويل الثاني لمحاوره الفارسي عن التصور المسيحي لله. وأردف البابا في السياق ذاته قائلاً: » نحن ندعو شُركاءنا في رحاب هذا العقل الكبير وفضائه المتسع إلى الدخول في الحوار بين الثقافات. فالمهمة العظيمة للجامعة تكمن في التوصل المتجدد والمستمر الى إيجاد هذا العقل».

حظي بينيديكت بعد استكمال خطاب محاضرته بتصفيق الحاضرين برهه طويلة.

ويبدو أنه أختتم حديثه متحلياً بالهدوء التام، ولكنني بدوري لم أكن متأكداً تماماً بأن هدوء الاختتام كان خالياً من المنغصات، ومشابهاً لهدوء البابا عندما بدأ المحاضرة.

ان تصرفه كان مشابهاً لما يحاول فعله صحفيون من خلال نشر مقال متسم بالجرأة، وكأني أراه مثل من ألقى بصخرة في المياه، منطلقاً ربما من حب الاستطلاع، ليرى ما يُحدثه تصرفه هذا من الأمواج في المياه، أو حتى الفيضان الذي قد ينجم عن إلقاء تلك الصخره. وهذا يعني أن موعظة يوم الأحد التي قدمها لم تكن بدون عواقب.

الفصل العشرون

نص محاضرة بينيديكت السادس عشر في 12أيلول (سبتمبر)2006م
في جامعة ريجينسبورغ

القاعة الكبرى لجامعة ريجينسبورغ، الثلاثاء، في 12أيلول(سبتمبر)2006م
(النص الذي نشرته دائرة الصحافة للكرسي الرسولي بصياغة معتمدة)
الإيمان والعقل والجامعة
ذكريات وتأمّلات

أصحاب الفضيلة والعظمة والسعادة،

السيدات المحترمات السادة المحترمون:

إنها لتجربة مؤثرة، تلك التي اتاحت لي أن اكون مرة أخرى في الجامعة، وأن أقوم مجدداً بإلقاء محاضرة فيها. فأفكاري تعيدني الى سنوات ماضية عندما باشرت عملي مدرساً أكاديمياً في جامعة بون، بعد قضاء مرحلة جميلة من الزمن في جامعة فرايزينج. كان ذلك في عام 1959م عندما كان النظام القديم للأستاذية لم يزل ساري المفعول فيها.

لم يكن لكرسي الأستاذية المنفرد في ذلك الحين مساعدون ولا طابعون، إلا أن التعويض عن ذلك كان يتمثل بالتماس المباشر مع الطلبة، وكذلك بين اساتذة الجامعة بشكل رئيسي. فقد كنا نلتقي في غرف هيئة التدريس قبل المحاضرات وبعدها.

وكانت جدّ حيوية تلك الحالات من التواصل بين المؤرخين والفلاسفة واللغويين، ومن البديهي ايضاً بين أعضاء كليتيّ علم اللاهوت. وكانت تنظم في كل فصل صيفي فعالية تطلق عليها تسمية اليوم الاكاديمي، حيث كان اساتذة جميع الكليات يقدمون انفسهم في نطاق تلك الفعالية لطلبة الجامعة كلها، فتتاح بالتالي امكانية لمعايشة مشتركة بين الجامعيين - بالتطابق مع ما أشرتم إليه يا أصحاب العظمة - وبالأحرى بخصوص الخبرة المتضمنة بأننا

كنا نشكل وحدة كليّة في تلك التخصصات، التي دفعتنا أحياناً لنعمل لصالح بعضنا، كما دأبنا إجمالاً على العمل متعاونين في إلاطارالشمولي للعقل مع أبعاده الكلّية، وعلى الوقوف بالتالي إلى جانب الاستخدام السليم للعقلانيّة ضمن مسؤولية جماعية أيضاً ـ اذن فإن ما أذكره لكم كان قابلاً للمعايشة.

وكانت الجامعة فخورة تماماً بكليتي علم اللاهوت فيها. فمن الواضح انهما قامتا ايضاً بعمل ضروري في نطاق شمولية النظام العلمي الجامعي، من خلال تناولهما موضوعات التساؤلات عن عقلانية الايمان، حتى ولو أنّ الجميع لم يؤمنوا بنفس العقيدة، التي يبذل علماء اللاهوت جهودهم لالحاقها بنظام عقلاني مشترك. ولم يتضرر هذا الثبات الداخلي في بنية العقل، حتى عندما ذُكر بأن أحد الزملاء في جامعتنا عبّر عن استغرابه من وجود كليتين تنشغلان فيها ضمن مهامهما الاكاديمية بشئ لاوجود له بتاتاً ـ ألا وهو الله. لم تحدث خلافات في الجامعة إجمالاً حتى حول مثل هذا الارتياب الراديكالي بوجود الله، وإنما بقي الاعتبار قائماً بأن من الضروري والمعقول طرح التساؤل عن الذات الإلهية بأستخدام العقل، ويرتبط هذا الطرح كذلك بتراث الإيمان المسيحي.

كل ذلك خطر ببالي من جديد، عندما قرأت مؤخراً ذلك الجزء الذي نشره البروفسور عادل ثيودور خوري (جامعة مونستر)، من حوار دار بين القيصر البيزنطي العلامة مانويل الثاني باليولوجوس، عام 1391م في مقره الشتوي في أنقره من الجهة الأولى، ومثقف فارسي، عن الديانتين المسيحية والاسلامية وحقيقة كل منهما [1]. ومن المحتمل أن القيصر دوّن الحوار في فترة حصار القسطنطينية بين عامي 1394 و 1402م.

كما يتضح أيضاً أن كلام القيصر في الحوار قد ورد بتفصيل أكثر بكثير من كلام محاوره الفارسي[2]. لقد امتد الحديث بينهما ليحيط بكامل إطار الإيمان، وفقاً لما هو موضّح في الكتاب المقدس وفي القرآن، وتمحور بشكل خاص حول صورة الله وصورة الانسان، وبالضرورة حول ما ما يطلق عليه مصطلح «القوانين الثلاثة»، أي «أنظمة الحياة الثلاثة»: المنعكسة من العهدين القديم والجديد والقرآن.

انني لا أريد الآن تناول الموضوع في محاضرتي هذه إلا فيما يتعلق بالتعرض الى نقطة واحدة مع أنها هامشية في مجمل الحوار. فقد جذبت هذه النقطة انتباهي في سياق الترابط بين الإيمان والعقل، كما أنها تُعد منطلقاً لأفكاري حول هذا الموضوع. يتطرق القيصر وفقاً لمضمون الجولة السابعة من الحوار التي نشرها البروفسور خوري تحت عنوان (مناظرات) لموضوع الجهاد.

لقد كان القيصر يعي بالتأكيد أن الآية رقم 256 في السورة الثانية من القرآن (البقرة) تتضمن ما مفاده:

«لا إكراه في الدين» ـ أجل إن هذه السورة هي من السور القديمة التي تعود الى بداية أمر محمد، عندما كان بلا سلطة وتحت التهديد، كما يذكر لنا بعض أهل الإختصاص. لكن القيصر كان يعلم بطبيعة الحال ايضاً أحكام القرآن ـ التي دونت لاحقاً بخصوص الجهاد.

إنه التفت دون أن يخوض في تفاصيل الفرق في التعامل بين «أهل الكتاب» وبين «الكفرة» الى محاوره وتكلم معه باسلوب حادّ، غريب وبالنسبة الينا لا يمكن قبوله، ليطرح ببساطة تامة المسأله المركزية للعلاقة بين الدين والعنف من حيث الأساس، فقال:

«دلني حقاً على الجديد الذي جلبه محمد، وسوف لا تجد إلاّ ما هو سيء وغير انساني، مثل هذا الذي أمر به لنشر العقيدة التي وعظ بها باستخدام السيف»[3]. وهكذا برّر القيصر بالتفصيل بعد التعبير عن حجته بوضوح سبب رؤيته بأن نشر الدين بالقوة هو مناقض للعقل، ولجوهر الذات الإلهية وللروح. وقال في هذا السياق، بأن «الله لايرضى عن سفك الدماء، وبأنّ العمل المنافي للعقل يتناقض مع جوهر الذات الإلهية. فالعقيدة هي ثمرة الروح وليست من ثمار الجسد.

فمن يرغب في هداية أحد الى العقيدة فانه إذن بحاجة الى القدرة على الحديث الصالح والتفكير السليم وليس الى العنف والتهديد ... ومن يُرد إقناع انسان عاقل، فانه في غنى عن استخدام عضلات ذراعه وأدوات الضرب أو أية وسيلة أخرى، يمكن ان تشكل تهديداً بقتل أحد من الناس.... [4] أما الجملة الحاسمة في هذه المناظرة ضد الهداية باستخدام

العنف فهي تنص على أن: العمل المنافي للعقل يتناقض مع جوهر الذات الإلهية[5].

ويعلق الناشر ثيودور خوري على ذلك قائلاً: إن هذه الجملة جلية وواضحة بالنسبة الى القيصر باعتباره بيزنطياً نشأ وترعرع في ظل الفلسفة الإغريقية. أما فيما يتعلق بالتعاليم الإسلامية فإن التنزيه المطلق لله يتجاوز حدود الإدراك العقلي، كما أن ارادته هي غير مقيدة بأية مقولة حول الاسس كلها، ولا حتى بمقولة العقلانية[6].

ويقتبس خوري بالإضافة الى ذلك من دراسة لأحد المتخصصين الفرنسيين المعروفين في الدراسات الاسلامية، وتشير تلك الدراسة الى أن ابن حزم قد توسع في التوضيح، من خلال قوله بأن الله غير مقيد حتى بكلمته الذاتيه، وليس ملزماً بأن يوحي لنا بالحقيقة. ولو أراد الله لتوجب على الانسان حتى أن يعبد الأصنام[7]. وهنا بالذات يتراءى مفترق الطرق للسائرين في نطاق البحث عن مفهوم الذات الإلهية، واستيعاب الديانه بنفس الطريقة كحقيقة محددة. وهذا المفترق يشكل في ايامنا هذه تحدياً مباشراً.

فهل يعدّ العمل المنافي للعقلانية مناقضاً لجوهر الذات الإلهية من منظور الفلسفة الإغريقية فقط، أم أن هذا الطرح صحيح دائماً بالإستناد الى حيثياته الداخلية نفسها؟، انني أعتقد في هذا السياق بوجود توافق راسخ جلي بين ما يطلق عليه أغريقي بالمعنى الأسمى، وبين الايمان بالله استناداً الى الأسس المنصوص عليها في الكتاب المقدّس. وبصرف النظر عن الآية الأولى في سفر التكوين وهي أول آيات الكتاب المقدس أساساً فإن يوحنا قد استهل مقدمة انجيله بكلمة العقل: في البداية كان العقل، وهذه الكلمة بالذات هي التي استخدمها القيصر حينما تحدث عن الله قائلاً: الله يعمل بالعقل الذي يعني «التصرف العقلاني»، و «كلمة» في نفس الوقت.

فالأمر يتعلق بعقل مبدع وقادرعلى التبليغ عبر الكلمة عن نفسه، ولكن بوصفه عقلاً. وبهذا فإن يوحنا قدم لنا هدية، هي الكلمة الختامية لمفهوم الإله من منظور الكتاب المقدس.

هذا المفهوم هو الهدف الذي تُفضي اليه جميع طرق الايمان وفقاً للكتاب المقدس

للمسلمين، وتجد فيه الحل الوسط ما بين الطرح الجدلي ونقيضه، علماً بأن هذه الطرق هي في غالب الأحيان متعرجة وتتطلب بذل الجهود لاجتيازها. في البداية كان العقل والعقل هو الله، هذا هو ما قاله صاحب الانجيل. إن رسالة الكتاب المقدس للمسيحيين لم تلتقِ مع التفكير الفلسفي الإغريقي بمحض الصدفة، وانما تم التقاؤهما انطلاقاً من حلم القديس بولص، الذي أُغلقت في وجهه الطرق في آسيا، فرأى في الليل وجه أحد الناس من مقدونيا وسمعه يقول: تعال إلينا وقم بمساعدتنا (أعمال الرسل 16، 6-10). ومن الجائز أن تفسر هذه الرؤيا بأنها تكثيف للتقارب الضروري من الداخل بين الإيمان المسيحي المستند الى الكتاب المقدس، وبين التساؤلات المطروحه في نطاق الفلسفة الإغريقية.

عملية التقارب هذه بدأت منذ فترة طويلة، فحتى إسم الله المشبع بالأسرار والذي سمع من شجرة العليق المشتعلة وبرز من بين أسماء الآلهة الكثيرين، معبراً عنه بكلمتي «أنا الموجود» يُعتبر بمثابة إنكار للسر الاسطوري الذي تندرج في نطاق التشابة الداخلي معه محاولة سقراط تجاوز الاسطوره والترفع عنها[8]. فالعملية المنطلقة في البداية من شجرة العليق وصلت الى حالة النضج طبقاً لمحتوى العهد القديم خلال حقبة النفي، التي اصبح فيها إله اسرائيل بلا أرض وبلا تقديس، ثم أعلن بعد ذلك أنه إله السماوات والارض، وعرّف على نفسه مطوراً كلمة التعريف التي انطلقت من شجرة العليق، بالقول: «أنا هو الله».

وتزامن مع هذا التعرف الجديد على الله مع نوع من الفكرالتنويري المعبر عن التهكم العنيف من الآلهة، واعتبار أنها ليست سوى من صنع الانسان (قارن سفر المزامير 115). وهكذا كان الإيمان وفقاً للكتاب المقدس في الحقبة الإغريقية الهيلينية يعمل على التماس مع أفضل مضامين الفكر الإغريقي، وهذا ما تم انجازه بشكل مميز من خلال آداب الحكمة في وقت متأخر، بصرف النظر عن الحكام الهيلينيين، الذين أرادوا فرض الممارسات المطابقة لعبادة الآلهه وأساليب الحياة الإغريقية.

إننا نعلم اليوم بأن ترجمة العهد القديم، الى اللغة الإغريقية ـ الترجمة السبعينية[2] التي

2- الترجمة السبعينية هي التي أنجزها سبعون مترجما في سبعين يوماً.

تمت في الإسكندرية، هي اكثر من مجرد ترجمة للنص العبري (وربما تحظى بتقييم يتسم بقليل من الايجابية)، حيث أنها تعدّ خطوة هامة وشاهداً مستقلاً من خلال النص على تاريخ الوحي، إذ أن هذا اللقاء بين الايمان والعقل تحقق بطريقة اكتسبت أهمية حاسمة بصورة جذرية بالنسبة الى نشأة الديانة المسيحية وانتشارها، [9] فاللقاء بينهما يتمحور أيضاً حول التقاء الفكر التنويري السليم مع الدين.

لقد انطلق مانويل الثاني في الواقع من الجوهر الداخلي للعقيدة المسيحية، وفي نفس الوقت من جوهر الفكر الإغريقي المنصهر مع الايمان، ولهذا كان بوسعه أن يقول: بأن التصرف المنافي «للعقل» هو متناقض مع جوهر الذات الإلهية.

من النزاهة ان نقول هنا في هذا السياق بأن الفترة المتأخرة من العصور الوسطى شهدت تطور تلك النزعات في علم اللاهوت، التي حطمت اطار نظام الجمع بين المسيحية والفكر الإغريقي.

فمقابل المذهب العقلي المنسوب إلى دونس سكوتوس وتوماس الأكويني بدأ يتأطر موقف دعاة أفكار الطوعية الاختيارية، الذين لم يفهموا من الله سوى أنه يمنح حرية الاختيار في التصرف. وهناك توجد وراءها حرية الله، التي تعني أنه قادر بالاستناد إليها على أن يفعل بشكل رئيسي نقيض ما فعله أساسا. وهنا تتجلى تلك الرؤى، التي يمكن اعتبارها قريبة تماماً من فكر ابن حزم، والتي من الوارد تماثلها مع صورة لإله تحكمي مزاجي غير مقيد حتى بالحقيقة والخير. يتصف الله بالتنزيه الذي يحول دون تشبيهه بشيء، ويتزايد التأكيد على هاتين الصفتين الى درجة لم تعد فيها جوارحنا وعقولنا مرآة حقيقة له، بالنسبة الى استيعابنا للحقيقة وتقديرنا للخير. وتبقى الإمكانيات التي لايسبر غورها والمستندة اليها قراراته الحقيقية مغيبة عنا، فلا يمكننا التوصل الى ادراكها.

ومقابل ذلك فان الكنيسة تمسكت دائماً بعقيدة الايمان بوجود تناظر فعلي بين الله الروح الخالدة الخلاقة، وبين عقلنا المخلوق، على أساس أن التشابة في نطاق هذا التناظر - كما اتفق عليه في مجمع الكنيسة الكاثوليكية الرابع الذي عقد عام 1215م في لاتيران -

هو أقل بكثير من عدم التماثل، لكن التناظر والتعبير اللغوي عنه بقيا دون إلغاء. ان الإله لايزداد ألوهية من خلال اقدامنا على التهرب منه، في نطاق طوعية اختيارية محضة وغير ملموسة، وإنما الإله ذو الالوهية الحقيقية هو الذي يُظهر نفسة بصفة العقل الذي يحبة فيعمل من اجلنا.

ومن المؤكد كما قال بولص أن المحبة تتفوق على المعرفة (قارن: أفسوس 3،19/ في الانجيل)، وتتيح لهذا السبب استيعاباً اكبر لما يتيحه مجرد التفكير، لكنها تظل معتبرة كمحبة الله ـ العقل، ولهذا فإن عبادة الله، كما قال بولص مرة اخرى ـ هي التي تتوافق مع الكلمة الابدية ـ ومع عقلنا (قارن : رومية 12،1/ في الانجيل)[10]. ان هذا التقارب الذي المحنا الية هنا بين الايمان المسيحي المستند الى الكتاب المقدس من الجهة الاولى، وبين التساؤلات المطروحة في نطاق الفلسفة الإغريقية من الجهة الاخرى، لايعد بمثابة خطوة حاسمة تلزمنا بعمل الواجب حيالها في أيامنا هذه من منظور تاريخ الديانات فحسب، بل في سياق التاريخ العالمي ايضاً. اذا نظرنا الى موضوع الالتقاء بينهما، فلا تتملكنا الدهشة منه، لأن الديانة المسيحية وجدت طابعها التاريخي الحاسم في أوروبا، بالرغم من نشأتها في الشرق وما عايشته من التطورات الهامة هناك. وبوسعنا أن نقول نقيض ما ذكرناه ايضاً: إن هذا الالتقاء بين المسيحية والفكر الفلسفي الإغريقي، مضافاً اليه تراث روما، هو الذي أدى الى تكوين أوروبا، كما أنه يبقى أساساً يستند إليه ما يمكن أن تطلق عليه حقاً تسمية أوروبا.

هنالك طرح يتعارض مع المطالبة بتخليص المسيحية من الفكر الهيليني، وبموجب هذا الطرح يعدّ التراث الإغريقي بعد تصفيته بمعالجة ناقده تابعاً بشكل أساسي الى الايمان المسيحي. وتتزايد سيطرة هذه المطالبة على الجدل اللاهوتي منذ بداية الحداثة. ويلاحظ عند القاء نظرة عن كثب الى مجريات برنامج التخلص من الفكرالهيليني، أنه تعرض إلى ثلاث موجات. وهي بدون شك مرتبطة مع بعضها البعض، إلا أنها حقاً متباينه بوضوح من حيث الهدف [11].

لقد ارتبطت المطالبة بتخليص المسيحية من الفكر الهيليني في البداية باهتمامات دعاة الاصلاح في القرن السادس عشر. فالمصلحون رأوا أنهم كانوا يواجهون إجراءات وضع أنظمة، تحددها الفلسفة تماماً نظراً للتقاليد اللاهوتية السائدة في ذلك الحين، بما يعني بالنسبة اليهم ان الايمان كان محددا بفكر خارجي لم ينبع من داخله، فلم يعد يتجلى بوصفه كلمة تاريخية حية، بل أصبح محصورا داخل هيكل نظام فلسفي. ولهذا فإن مبدأ الاستناد الى النص وحده كان يتضمن بالنسبة الى الاصلاحيين البحث عن البنية الاصلية للعقيدة، كما وردت في نص الكتاب المقدس. وفي هذه الحالة بدت فلسفة ما وراء الطبيعة كأنها من المعطيات التي سبق ورودها من أماكن أخرى، مما يستلزم تحرر العقيدة منها، وإلا فلا يمكن أن تبقى هي نفسها.

ومن الجدير بالذكر أن الفيلسوف كان قد أتى بتصرف ذي صلة بالبرنامج المشار الية، وبصورة راديكالية لم يتوقعها الإصلاحيون، حينما قال بأنه أزاح التفكير جانباً، كي تحل العقيدة في مكانه. ولهذا فانه لم يُبق للعقيدة مجالا تتأطر فيه إلا في نطاق العقلانية العملية، مع إنكاره عليه إمكانية الوصول إلى مجمل الحقيقة الواقعية.

أما علوم اللاهوت ذات التوجهات الليبرالية في القرنين التاسع عشر والعشرين فقد أتاحت انطلاق موجة ثانية في برنامج التخلص من الفكر الهيليني، ويعدّ أدولف هارناك من أبرز ممثلي تلك التوجهات. كان هذا البرنامج فاعلاً بقوة في نطاق علم اللاهوت الكاثوليكي أيضا، عندما كنت طالباً جامعياً، وخلال الفترة الأولى من أنشطتي الأكاديمية.

واستُخدمت آراء باسكال حول التفريق بين إله الفلاسفة وإله ابراهيم واسحق ويعقوب نقطة انطلاق لهذا الطرح. وقد حاولت عبر المحاضرة، التي بدأت بها مهام عملي الأكاديمي في جامعة بون عام 1959م معالجة الموضوع، [12] كما أود ان أباشر باستعراضه مجدداً هنا وبصورة كاملة.

لكنني أريد أن أبرز باكبر قدر من الايجاز على الأقل ماهو جديد في موجة التحرر الثانية من الفكرالهيليني، مقارنة بالموجة الأولى. فالفكرة الأساسية لدى هارناك تتجلى

في العودة إلى المسيح كإنسان بسيط، وكذلك إلى رسالته البسيطة، التي سبقت كل ما يتعلق باعتماد علوم اللاهوت والتداخل مع الفكر الهيليني. فهذه الرسالة البسيطة هي التي جسدت قمة التطور الديني للبشرية، حيث أن المسيح حدّد تعليمات العبادة، كي تكون في صالح الاخلاق.

وهو يُعَرّف في نهاية المطاف بأنه صاحب رسالة اخلاقية، ذات سمات ودية لصالح بني الانسان. وتتمحور المسأله اساساً بالنسبة الى هارناك حول إيجاد التوافق مجدداً بين الإيمان المسيحي والعقلانية الحديثه، وذلك كما يبدو بوسيلة التحرر من عناصر فكرية فلسفية ولاهوتية، مثل الاعتقاد بألوهية المسيح ومبدأ التثليث للذات الإلهية. والى هذا الحد تضمن التفسير التاريخي الناقد للعهد الجديد ـ حسب رؤية هارناك ـ إعادة ترتيب وضعية علم اللاهوت من جديد ضمن مجالات التدريس في الجامعة: فهو يرى بأن هذا العلم يستند بشكل جوهري الى اسس تاريخية، وبهذا يعدّ علماً من العلوم الصارمة.

إذن فإن ما يكشف عنه عبر الكنيسة من تفاصيل معرفية عن يسوع يندرج كما يمكن القول في اطارعقلانية عملية، ويمكن أن يكون ممثلاً بشكل إجمالي في الجامعة أيضاً. أما البُعد الكامن في الخلفية فهو التقييد الذاتي للعقل في العصر الحديث، وفقاً لما تم التعبير عنه تقليدياً ضمن الانتقادات الموجهة الى فلسفة كانط، غير أن هذا التقييد تنامى بشكل راديكالي من منظور دعاة الفكر الطبيعي. ويمكن القول باختصار: إن الفهم الحديث لمصطلح العقل يستند إلى ما تأكد عبرالنجاح التقني من الجمع بين الفكرالمستند الى فلسفة أفلاطون و (ديكارت) وبين التجريبية.

فمن الجهة الاولى تعدّ البنية الرياضية للمادة شرطاً لتكوين تناسقها الداخلي القابل للاستيعاب العقلي، مما يتيح فهم الهيئة التي تتخذها واستخدامها على هذا الأساس. فلنقل أن هذا الشرط الاساسي هو عنصر من عناصر الفكر الأفلاطوني في إطار الفهم الحديث للطبيعة. ومن جانب آخر فإن المسألة تدور حول قابلية الطبيعة لتأدية وظائفها، من أجل الأغراض الخاصة بنا، بينما لاتتوفر امكانية التيقن الحاسم من صحة الفرضية المطروحة أو

دحضها إلا من خلال التجربة. ومن الممكن أن يميل مركز الثقل بين القطبين الأفلاطوني والتجريبي الى هذا الجانب أو ذاك، حسب المعطيات الآنية. وفي هذا السياق وصف أحد المفكرين الوضعيّين المتشدّدين نفسه وهو جي موتوند، بأنه أفلاطوني عن قناعة.

ومما تقدم بالنسبة الى مسألتنا هذه يستنتج بأن هنالك اتجاهين إساسيين حاسمين، يمكن توضيحهما كما يلي: ليس من المتاح التحدث عن معالجة علمية، إلا من خلال صيغة التيقن الناجمة عن التفاعل ما بين الرياضيات والتطبيقات التجريبية، وفقا للاتجاه الأول.

أما بالنسبة الى الاتجاه الثاني فهو المتعلق بوجوب تطبيق معيار التيقن على مايراد أن تضفى إليه تسمية العلم. وهكذا تمت محاولات لتقريب العلوم المتعلقة بشؤون الانسان أيضاً من قاعدة المعالجة العلمية هذه، ومن تلك العلوم الخاصة مثلاً: بالتاريخ وعلم النفس والاجتماع والفلسفة. ولكن من المهم بالنسبة الى أفكارنا استثناء مسألة الإله من مثل هذه الطريقة، واعتبار أن المسألة ذاتها لاتبدو علمية، أو أنها سابقة على العلوم، غير أننا نواجه بذلك حينئذٍ ما يعدّ تقليصاً لدائرة العلم والعقل، مع وجوب طرح التساؤل عن هذا التقليص.

وسأعود الى متابعة الموضوع، بينما لايمكنني موقتاً سوى الاستنتاج بأن القيام بمحاولة محددة في ظل هذا التوجه في الرأي، من اجل الحفاظ على «علمية» الدراسات اللاهوتية، لن يؤدي إلا للابقاء على جزء متواضع من الايمان المسيحي. لكنَّ علينا أن نقول ماهو أكثر من ذلك: اذا كان هذا وحده هو العلم بكامله، فإن الانسان نفسه سيتعرض إلى التقليص. فالقضايا الانسانية الحقيقية، التي تتولد عنها التساؤلات عن جهتي المجيء القدوم والذهاب، وكذلك عن الدين والوعي، لن يتاح لها الأحتفاظ بمكان في الحيز الجماعي للعقل الموصوف في نطاق العلم المدرك، مما يوجب نقلها إلى مجال الذاتي غيرالموضوعي. إنّ الذات هي التي تقرر وفقاً لخبراتها ما تراه تديّناً، بينما يتحول «الضمير» الذاتي في نهاية المطاف الى المرجعية الأخلاقية الوحيدة. وهكذا يفقد الوعي والدين قوتهما التي تشكل مبدأ الجماعية، فيسقطان في هاوية تأويلهما حسب مشيئة المؤولين.

ويُشكل هذا الوضع حينئذٍ خطراً على البشرية : اننا لنرى هذا الخطر فيما يهددنا من حالات مَرضية تطال الدين والعقل، حيث أنها تتفشى كلما تعرض العقل الى التضييق عليه، من خلال القول بأنَّ المسائل ذات الصلة بالدين والوعي لم تعد تابعة له. ولا يكفي ببساطة مايتبقى من محاولات أخلاقية، ضمن قواعد التطور المُتَدَرج أو في اطار علم النفس والاجتماع.

قبل أن أصل الى النتائج، التي أريد أن استعرض ضمنها كلّ ما استنبطه، فانني أود التلميح بايجاز إلى الموجة الثالثة من موجات التحرر من الفكر الهيليني، وهي التي لم تزل شائعة الانتشار حالياً. ويميل الناس، نظراً لإمكانيات الالتقاء مع الكثير من الثقافات، الى القول بأن الجمع الذي حدث بين الكنيسة القديمة والفكر الإغريقي كان أول مثاقفة للمسيحية، وبأن من غير الجائز أن تلتزم بذلك ثقافات أخرى. ومن حق الكنيسة العودة الى ما قبل مثاقفة الفكر الإغريقي، حتى الوصول الى الرسالة البسيطة المُضَمَّنة في العهد الجديد، كي تعمد الى تلقيحها الثقافي مجدداً في الحيزات التي تضُمها. ولا يمكن التبسط واعتبار هذا الطرح خاطئاً، مع انه يتسم بالضبابية وعدم الدقة. فالعهد الجديد كُتب باللغة الإغريقية، ويتلامس مع فكر الإغريق، الذي نضج في خضم التطورات السابقة للعهد القديم. من المؤكد أن هنالك في عملية صيرورة الكنيسة طبقات، ليس من المستلزم أن تندمج فيها جميع الثقافات. لكن تلك القرارات الاساسية، التي تطال الترابط بين الإيمان وبين البحث عن العقلانية الانسانية، هي تابعة لهذه الديانة المسيحية نفسها، ومتطابقة مع تطورها.

وبهذا فإنني بصدد اختتام المحاضرة، حينما أقول: أن محاولة النقد الذاتي للعقلانية الحديثة بمساراته الخشنة تماماً، لاتحمل في طياتها بتاتاً وجهة النظر المتضمنة، بأن على المرء العودة الى ماوراء عصر التنوير والنأي بنفسه عن الرؤى السائدة في حقبة الحداثة، مما يعني اعترافاً كاملاً دون تقليص بالتطور الفكري الحديث: اننا جميعاً لشاكرون على الإمكانيات الكبيرة المستنبطة لصالح الانسان، وعلى الهدايا التي تلقيناها مجسدة في تقدم

الانسانية. أما التدابير والمعالجات العلمية – كما ألمحتم ياأصحاب العظمة - فهي مهما كان الأمر طاعة للحقيقة، كما أنها تعكس إلى هذا الحد تعبيراً عن توجه اساسي تابع للأحكام الأساسية المنبثقة من الديانة المسيحية.

إنَّ المقصود ليس هو التراجع أو توجية الانتقادات السلبية، وانما يتعلق الأمر بتوسيع مضامين مفهوم العقل واستخداماته. فبالاضافة الى سرورنا الكامل برؤية إمكانيات جديدة للانسان، فإن هنالك تهديدات تتصاعد منها أيضاً، مما يلزمنا أن نتساءل عن كيفية السيطرة على هذه التهديدات. ولن نتمكن من ذلك إلاّ في حالة الجمع بطريقة جديدة بين العقل والايمان، وكذلك في حالة تجاوز التقييد الذاتي للعقل، وحصره في التطبيق على ماهو قابل للدحض في نطاق التجربة، وحينما نفتح له آفاقه مجدداً على مدى اتساعها الكامل: ولا يعتبر علم اللاهوت بهذا المعنى تابعاً لدراسات العلوم التاريخية والانسانية فحسب، وانما هو مبحث لاهوتي حقيقي يتجسد في طرح السؤال عن عقلانية الايمان في الجامعة، كما يتسلم دوره في نطاق حوار العلوم شاغلاً حيزه المتسع بينها.

ولايمكن إلا في ظل هذه المعطيات أن نتمتع بالقدرة على إجراء الحوار الحقيقي بين الثقافات والاديان، وهذا هو ما نحن بحاجة ماسة اليه. ولم يزل يسود في العالم الغربي ذلك الرأي، المتضمن بأنَّ العقل الوضعي مع ما يتبعه من انماط التوجهات الفلسفية هو الذي يتسم بالشمولية. لكنّ استبعاد مسألة الألوهية من جامعة العقل يُعَدّ بحد ذاته مساساً بأعمق القناعات، المتأصلة في ثقافات العالم الدينية المتجذرة.

ان العقل الأصم حيال المسائل ذات الصلة بالألوهية، والذي يعمل على حشر الدين في نطاق ثقافات فرعية، لا يتمتع بالقدرة على الحوار. وكما حاولت التبيين فإن العقل الطبيعي الحديث الذي يضم في مكوناته عنصراً من الفلسفة الأفلاطونية، هو مشحون بمسألة تشير اليه والى امكانياته المنهجية.

والعقل الطبيعي نفسه يجب ان يتقبل ببساطة تلك البنية العقلانية للمادة، مثل تقبله التواصل مابين فكرنا والبنى الماثلة في الطبيعة بنظام عقلاني، باعتبار أن ذلك يشكل احدى

المعطيات التي يستند اليها العقل الطبيعي في طريقه المنهجي. ولكن من المؤكد ان السؤال عن سبب سير الأمور بهذا الشكل يبقى مطروحاً، ويجب ان توجه العلوم الطبيعية الى مستويات واساليب الفكر، ممثلة بالفلسفة وعلم اللاهوت.

إنَّ حصيلة الاستماع الى الخبرات العظيمة، والتعاطي مع رؤى التقاليد الدينية للبشرية، ولاسيما المتعلقة بالإيمان المسيحي، تعدّ للفلسفة وبطريقة أخرى لعلم اللاهوت مصدراً من مصادر المعرفة. ولو رُفض الإقرار بهذا المصدر، لتعرضت امكانيات استماعنا وردودنا الى تضييق غير مشروع. وتخطر ببالي في هذا السياق عبارات وجهها سقراط إلى فيدون، حيث خاضا ضمن الاحاديث السابقة بينهما مناقشات حول كثير من الآراء الفلسفية الخاطئة، وبعد ذلك قال سقراط : إن من الطبيعي أن تتملك أحد الناس، وهو في حالة غضب بسبب الأخطاء الكثيرة، مشاعر الكراهية والشماته طيلة الفترة المتبقية من حياته تجاه كل الاحاديث عن الوجود.

ولكنه يخسر بطريقة تصرفه هذا حقيقة ماهو موجود، وتلحق به اضرار بالغة. [13] إن العالم الغربي يتعرض منذ زمن طويل الى التهديد، الذي يشكله النفور السائد فيه من المسائل الاساسية لعقلانيته، ومن الممكن أن يطاله ضرر كبير لهذه الاسباب. إذن فإن البرنامج، الذي يحملة علم اللاهوت الملتزم بعقيدة الكتاب المسيحي المقدس ويستند إليه في خضم الجدل الراهن، يتطلب الشجاعة في توسعة مجالات العقل، وليس التنكر لتوسعتها. فقد انطلق مانويل الثاني من صورة الإله وفقاً للمعتقد المسيحي حينما وجه الكلام الى محاوره الفارسي، قائلاً: «ان التصرف المنافي للعقلانية والمتعارض مع العقل هو متناقض مع جوهر الذات الإلهية».

إننا لندعو المتحدثين معنا للمشاركة في حوار الثقافات، منطلقين من مفهوم هذا العقل الكبير، وهذه السعة المطلوبه للعقلانية، التي يعد العمل المستمر على تجديد الوصول إليها بمثابة مهمة كبيرة من مهام الجامعة.

[1] أضاف ثيودور خوري ملاحظات الى المناظرة السابعة من بين المناظرات التي بلغ عددها ستاً وعشرين. ومهد لها بمقدمة شاملة تعالج نشأة النص بالإضافة الى المخطوط اليدوي المأثورعن الحوار وتسلسل عناصر بنيته. ونشر بيانات مقتضبة عن محتوى المناظرات قبل تحقيقها. وأرفق مع النص الإغريقي الترجمة الفرنسية:

Manuel II Paléologue, Entretiens avec un Musulman. 7e Controverse. Sources chrétiennes Nr. 115, Paris 1966

وبعد ذلك نشر كارل فورستيل في سلسلة:

.Corpus Islamico-Christianum (Series Graeca. Schriftleitung A. Th (Khoury – R. Glei

نسخة إغريقية ـ ألمانية مشروحة:

.Manuel II. Palaiologus, Dialoge mit einem Muslim

Bde. Würzburg, Altenberge 1993–1996 3

وفي سنة 1966م كان ترابّ (E.Trapp) قد نشر النص الإغريقي كمجلد ثان من مؤلفه عن الدراسات البيزنطية، وزوّد النص بمقدمة. أما اقتباساتي التالية فهي مما أورده خوري.

[2] قارن مع ما أورده خوري حول نشأة الحوار وتدوينه في مؤلفه حول الموضوع، بين الصفحات من22 إلى29. ويستعرض كل من فورستيل وترابّ هذا الموضوع بالتفصيل في كتابيهما.

[3] المناظرة Controverse VII2c، كما وردت عند خوري، الصفحات 143/142 وعند فورستيل:

Förstel Bd. I, VII. Dialog 1.5, S. 240/241

لقد فسّر هذا الإقتباس مع الأسف في العالم الإسلامي بأنه يعبر عن موقفي الذاتي، مما يجعل من المفهوم أن يؤدي ذلك الى حالة من البلبلة والقلق. إنني لآمل أن يدرك قارىء

نصّي على الفور بأن هذه الجملة مثار الخلاف لا تعبّر عن موقفي الذاتي تجاه القرآن، الذي أكنّ له شعور الإجلال المستحق، بإعتباره كتابا مقدسا لديانة كبيرة. وبخصوص اقتباس نص من كلام القيصر مانويل الثاني، فإن الأمر بالنسبة لي لا يتعلق سوى بغرض وحيد متمثل في لفت النظر الى الترابط الجوهري بين العقل والايمان. وإنني أوافق في هذه النقطة على رؤية مانويل، بدون أن أتماهى شخصيا مع موقفه العدائي.

[4] المناظرة السابعة ـ 3 ب ـ س، كما وردت عند خوري الصفحات 145/144

Controverse VII 3b–c; bei Khoury S. 144/145

وعند فورستيل، المجلد الأول المناظرة السابعة ـ 1. 6

.Förstel Bd. I, VII. Dialog 1.6, S. 240–243

[5] لم أقتبس ما دار من حوار بين مانويل ومحدثه الفارسي إلا لايضاح هذه الفكرة فقط، وهي التي تدفع الى تناول الموضوع في نطاق الأفكار اللاحقة.

[6] خوري، كما ورد ذكره في توضيحات الهامش الأول، صفحة 144.

[7] إبن حزم القرطبي في:

R. Arnaldez, Grammaire et théologie chez Ibn Hazm de Cordoue. Paris 1956, S. 13

وخوري، صفحة 144

.cf. Khoury, S. 144

في الفقرات اللاحقة من هذه المحاضرة سيشار الى أن علم اللاهوت في العصور الوسطى المتأخرة شهد مواقف قابلة للمقارنة مع ما ذهبنا اليه.

[8] بالنسبة الى ما نوقش من التفسير الخاص بشجرة العليق، فإنني أسمح لنفسي بأن ألفت النظر الى كتابي الذي صدر في ميونيخ عام 1968م بعنوان: «مدخل الى الديانة المسيحية»، الصفحات 84 ـ 102، معتقدا بأن ما ذكر في تلك الصفحات لم يزل موضوعيا كما كان سابقا، على الرغم من تقدم المناقشات بهذا الشأن.

[9] قارن مع:

Vgl. A. Schenker, L«Ecriture sainte subsiste en plusieurs for- mes canoniques simultanées, in: L«interpretazione della Bibbia nella Chiesa. Atti del Simposio promosso dalla Congregazione per la Dottrina della Fede. Città del .Vaticano 2001, S. 178–186

الصفحات 178 ـ 186.

[10] عبّرتُ عن هذا الموضوع بتفاصيل أوسع في كتابي الصادر عام 2000م في فرايبورغ تحت عنوان: «مدخل الى روح الطقوس الدينية»، الصفحات 38 ـ 42.

.Der Geist der Liturgie. Eine Einführung«. Freiburg 2000, S. 38–42«

[11] أود أن أذكر على وجه الخصوص من بين المصادر الوفيرة حول موضوع التخلص من الفكر الهيليني: أ. جريلماير، «هلننة وتهويد المسيحية كمباديء تفسيرية لتاريخ الدوغما الكنسية»، وفي نفس المؤلّف تحت عنوان «معه وفيه. بحوث ووجهات نظر في علم المسيحية»، فرايبورغ 1975م، الصفحات 223 ـ 488.

A. Grillmeier, Hellenisierung – Judaisierung des Christentums als Deuteprinzipien der Geschichte des kirchlichen Dogmas, in: ders., Mit ihm und in ihm. Christologische Forschungen und Perspektiven. Freiburg 1975, S. .423–488

[12] يوسف راتسينجر ـ بينيديكت السادس عشر: «إله الإيمان وإله الفلاسفة. مساهمة في معالجة قضية الثيولوجيا الطبيعية»، إصدار جديد وتعليقات للكاتب هاينو زونيمانز (ناشر)، دار نشر ـ يوهانيس لويتيسدورف، طبعة ثانية مزيدة 2005م.

[13] قارن بخصوص هذا النص الوارد في (c–d 90): ر. جارديني، «موت سقراط»، ماينتس، بادربورن، 1978، الصفحات 218 ـ 221.

الفصل الحادي والعشرون

ما بعد ريجينسبورغ – لهيب جهنمي في وجه بينيديكت السادس عشر

من المألوف أن يشعر البابوات بخيبة الأمل، في حالة عدم إبداء ردود أفعال على أقوالهم. فهم يسمعون دائما رد فعل معبر عنه بهتاف «عاش البابا» وهذا ما يحدث مثلا عندما يتم انتخاب البابا، أو أثناء الاحتفالات المهيبة. وربما يؤدي انعدام الاستجابة التامة لدعواتهم إلى الموت. فقد انتاب البابا بيوس العاشر شعور بالقلق كما قيل، لأن القوى الأوروبية العظمى لم تسمع مناشدته من أجل السلام في صيف عام 1914م، فاندلعت الحرب العالمية الأولى وتوفي بعد فترة قصيرة من اندلاعها: يوم العشرين من شهر آب (أغسطس) من العام المذكور. لكن رد الفعل لا يبدى في أحيان كثيرة بسرعة. فلا يطرح أحد البابوات ببساطة على الكاردينال الأقرب إليه أو على سكرتيره أسئلة، مثل: كيف كان ظهوري؟، وهل تحدثت بصورة جيدة، وما الذي قاله الناس؟، إن هذا البابا بينيديكت السادس عشر بالذات لا يطرح مثل هذه الأسئلة مطلقا.

كان لا بد لكلمات البابا مساء الثاني عشر من ايلول (سبتمبر) عام 2006م أن تنتشر أولا في أنحاء العالم، متضمنة أيضا اقتباس عبارات القيصر المسيحي عن الرسول محمد. وفي اليوم الذي تلاه أوردتها الصحف واضحة تماما كالخط الأسود على الورق الأبيض. وحينئذ بدأت الأسئلة تطرح تباعا: هل يمثل الاقتباس تقييم القيصر فقط ،أم أن البابا يتماهى مع هذا التقييم ؟، أمن الواجب الاستفسار؟، أيجب على المسلمين الشعور بالإهانة، بما تتضمنه العبارات من جرح لكرامتهم ؟، أم أن غضبهم كان لا بد منه، لأن تلك العبارات وجهت إليهم ؟، أجل، لقد كانت ردود الفعل تشبه هبوب رياح عاتية، لم تصل بعد إلى حد العواصف والأعاصير. خصص بينيديكت السادس عشر يوم الأربعاء في الثالث عشر من ايلول (سبتمبر) للشؤون الخاصة، كزيارة أخيه جيورج في ريجينسبورغ – بينتلينج،

وتبريك آلة أورغل موسيقية قبل استخدامها كونه محبا للموسيقى، إذ لا ينبغي أن يعكر صفوه أحد من خلال توافه القيل والقال. وفي اليوم الرابع عشر من ايلول (سبتمبر) وهو يوم الخميس كانت الأمور تماما على ما يرام، بالنسبة الى بينيديكت السادس عشر وتابعيه الملتفين حوله.

لقد بدا منشرح الصدر ومسترسلا في المرح تقريبا، عند لقائه بالقساوسة والرهبان والشمامسة في كاتدرائية فرايزينج، ولوحظت عليه علامات الرضى، بعد وصوله إلى المطار. وعبّر البابا في خطابه الوداعي عن شكره إلى جميع من أسهموا عبر مختلف الندوات الاحتفالية في إنجاح زيارته، وفي بث مشاعر الغبطة بالايمان.

لقد ذكر بينيديكت السادس عشر حرفيا بأن الحماسة والتدين القوي الملموس للجماهير العريضة من المؤمنين «ولدّا في فؤاده انطباعا، غير قابل للانفكاك عنه». وقال بأنه مشحون بهذا الانطباع المحفز، وأنه «استطاع ملاحظة كيف يجهد الكثيرون من الناس أنفسهم ليشهدوا على إيمانهم في العالم الذي تسوده العلمانية في الآونة الراهنة ».

استأنف البابا حديثه قائلا: «إنني استقبلت في كل مكان بلطف واهتمام، مما أثار لدي انطباعا عميقا (..).، وأنا واثق في نطاق الايمان بأن كلمة (الله) تجد طريقها لبناء مستقبل يتيح الحفاظ على كرامة الانسان على هذا الكوكب، فضلاً عن أنها تفضي للوصول إلى السعادة الأبدية.

وقد بحثْت الكنيسةُ مدفوعة من هذا الوعي وتحت قيادة الفكرعن إجابات على التحديات، التي ظهرت خلال الحقب التاريخية، في كلمة الله بشكل دائم ومتجدد".

الوقوع في فخّ الإعلام

نظراً لأن عبارات القيصر المقتبسة انتشرت عبر العالم كالشبح الحائم، وأنّ الوقوع في فخ الإعلام قد حصل، فقد بدأ السيناريو المرعب للصراع الدولي بين الحضارات يتماثل للعيان.

إن ما حدث كان مطابقا لما يدلّ على افتعال الأحداث على المسرح السياسي: أحد الناس يقول شيئا، فيفتح صحفيون ومعارضون وساسة لا غبار عليهم آذانهم جيدا للإصغاء. يستنتج أحدهم بأن كلمة أو جملا بأكملها ليست واضحة، وأنها تعكس سوء الفهم وتنضح بالشر والاستهتار.

يوافق الثاني والثالث من المستمعين على هذا الطرح، ويعقب هذا التسلسل تعبير متهيب عن الاعتراض، مع التبرير بأن القصد لم يكن هكذا.

وكما يقال على إثر ذلك فإن معزوفة القلق المتضخمة بين المهتمين، وربما بين المعنيين في هذا السياق، وهم المسلمون، ستصدح بطرح أسئلة، مثل: ألست مَعْنيا بالإهانة وجرح الكرامة من جراء كلمات القيصر؟، ألا تشعر بالغيظ والانزعاج؟، أتحمل في جسدك كرامة إسلامية، حين يتشفى قائد الكفرة من النبي محمد؟، بهذه الطريقة تنامى وضوح التعبير باستمرار عن الاستياء، ولم تتوفر أية وسيلة مساعدة مجدية ضد توتير الأجواء. وبعد إقلاع طائرة البابا تبين أن هنالك تقييما إيجابيا بدون أية قيود لزيارته، إذ أجمع على هذا التقييم آنذاك كل من رئيس مجلس وزراء حكومة بافاريا «شتويبر»، الكاردينال – رئيس الأساقفة في ميونيخ باعتباره المضيف –، ليمان رئيس مؤتمر الأساقفة الألمان، واسقفي الابرشيتين اللتين زارهما البابا في باساو/(آلتتوتينج) وريجينسبورغ، وهما «شرامال» و«موللر».

ولم يُبد أي من المذكورين ملاحظة ناقدة، بل إن الكاردينال ليمان لم يتردد في الإقرار «بمرتبة عليا لهذه الزيارة»، فقال بأن المطلوب الآن هو «استيعاب دفعاتها التحفيزية والحفاظ عليها باستمرار».

نعم إن ما ذكر أخيرا بخصوص دفعات التحفيز هو الذي حدث في كافة أنحاء العالم الإسلامي، ولكن على نحو مغاير لما هو مرغوب فيه. أصوات التعبير عن النقد والقلق بدأت ترتفع وتعلو نبراتها. وفي هذا السياق قام الأمين العام للمجلس المركزي للمسلمين أيمن مازييك، ورئيس المجلس الإسلامي الألماني علي كيزيلكايا بالتذكير بمسؤولية الديانة المسيحية عن الحملات الدموية للحروب الصليبية، وعن التنصير القسري. وطالب وزير

الشؤون الدينية في تركيا علي برداق أوغلو باعتذار البابا، متهما إياه بأنه «ذو عقلية صليبية» وموقف عدواني.

وأشار إلى أن ما ينبغي على المسيحين القيام به هو توضيح امكانية وجود توافق، بين دينهم وبين العقل.

وطلب رئيس المجلس الإسلامي في فرنسا، دليل بوبكر «توضيحا» من البابا، قائلا بأن على الكنيسة الكاثوليكية توضيح رؤيتها للإسلام كدين، وعدم اعتباره متماثلا مع التيار الاسلاموي المتماهي مع «ايديولوجية سياسية».

توضيحات غير كافية

أوضح المتحدث باسم الفاتيكان فريدريكو لومباردي يوم الرابع عشر من ايلول (سبتمبر) أن قداسة البابا لم يقصد جرح مشاعر المؤمنين بالعقيدة الإسلامية، وأنه ينأى بنفسه عن ذلك. وهذا المتحدث، الذي لم يشغل منصبه إلا قبل شهرين، هو قسيس الطريقة الرهبانية اليسوعية. وكان رئيسا لمحطة إذاعة الفاتيكان سنوات طويلة، مما يعني أنه خبير في شؤون وسائل الإعلام. ولكن ذلك لم يؤدّ حتى هذه اللحظات الى أن تعود المياه الى مجاريها، فقد تصاعدت في البداية ألسنة لهيب الاستياء هنا وهناك، ثم تحولت ليتكون منها بالتدريج حريق واسع.

استمرت محاولات تخفيف التوتر يوم السادس عشر من ايلول (سبتمبر)، الذي صادف حلوله يوم السبت، بمبادرة من الكاردينال بيرتوني، بعد أن عينه البابا رئيساً جديداً لحكومة الفاتيكان بيوم واحد فأوضح هذا الكاردينال من أعلى المستويات الرسمية «أسف» البابا، موجزاً توضيحه بدقة من خلال النقاط الخمس الواردة أدناه:

– «إن موقف البابا من إسلام مذكور في بيان المجمع الثاني للفاتيكان وبوضوح لا لبس فيه :

فالكنيسة تنظر باحترام الى المسلمين، مستندة الى أسس تتضمن قواسم مشتركة في

بعض مبادئ الإيمان، مثل النظرة الى الله والى ابراهيم أو مريم العذراء، بالإضافة الى شعائر دينية مثل الصلاة والصدقات والصيام.

- «خيار البابا بخصوص إجراء حوار بين الأديان وبين الثقافات هو كذلك واضح بدون أي مجال للالتباس في فهمه». ففي نطاق لقائه مع مسلمين في شهر آب (أغسطس) 2005م في كولونيا، أعرب بهمة ونشاط عن تأييده لإجراء حوار بين المسيحيين والمسلمين.

- بالنسبة إلى تقييم القيصر المستنبط من اقتباس عباراته، فإن البابا «لم يكن يقصد على الإطلاق تبنّي تلك العبارات المقتبسة من كلام القيصر» إنه استخدمها كمنطلق كي يطرح على بساط البحث بعض الأفكار حول العلاقة بين الدين والعنف عموما، ولكي يختتم الحديث بالرفض القاطع والواضح لكل عنف ذي دوافع دينية، أيا كان مصدره.

- «ومع ذلك فإن قداسته يشعر بأسف عميق، لأن بعض ما ورد في خطابه كان له وقع الإهانة لمؤمنين ذوي أحاسيس مرهفة، من أتباع العقيدة الإسلامية، كان من المحتمل تفسيرها بطريقة لا تتطابق أبدا مع مقاصده. إن البابا على العكس مما ذكر نبه أتباع الثقافة الغربية، منطلقا من اعتبارات الحماس الديني للمؤمنين بالإسلام، إلى تجنب الإزدراء والتهكم بالذات الإلهية، حيث أن السخرية من القداسات تُعّد في الثقافة الغربية حقا من حقوق التمتع بالحرية».

- «يؤكد البابا على احترامه وتقديره لكل من يعتنق الإسلام، ويرجو أن تفهم كلماته بمعناها السليم، حتى يمكن تجاوز هذه اللحظات غير البسيطة، لكي تدعم الشهادة بتوحيد الله» - لكن ذلك لم يكن كافياً.

ركوع البابا للصلاة

عبّر البابا في ظهيرة يوم الأحد في السابع عشر من ايلول (سبتمبر)، في نطاق تأدية صلاة ملاك الرب التقليدية داخل مقره الصيفي في قصر جاندولفو، عن «أسفه الشديد»، في الوقت الذي احتشد فيه مئات المؤمنين، على الرغم من هطول الأمطار الغزيرة، ليعبّروا

عن تضامنهم معه. وذكر البابا في نطاق تعبيره عن الأسف حرفيا ما يلي:

«لا أود في هذه اللحظات سوى القول بأنني أحسست بالانزعاج الشديد من ردود الفعل، التي انبثقت من فقرة قصيرة، وردت في المحاضرة التي ألقيتها في جامعة ريجينسبورغ، حيث أن تلك الفقرة جرحت المشاعر للمؤمنين بعقيدة الإسلام، بينما يتعلق الأمر باقتباس عبارات نص من العصور الوسطى، دون أن يعبر النص المقتبس عن رأيي الشخصي ولا بأية طريقة».

وختم البابا حديثه في هذا السياق، قائلا:

«إنني آمل بأن يهدف هذا القول إلى تهدئة الخواطر، وإلى توضيح المعنى الحقيقي لخطابي، الذي كان ولم يزل يعتبر بكامله دعوة لإجراء حوار صريح وصادق في جو من الاحترام المتبادل».

بعد أن تحدث البابا بينيديكت السادس عشر بهذه الكلمات في قصر جاندولفو بدأ هطول الأمطار المنهمرة يخف، تلك الأمطار التي كرر الحديث عنها باعجاب، بعد قضائه الأيام المشمسة في بافاريا. وبهذا أصبح بوسع المؤمنين اغلاق مظلاتهم، لتقوية قدراتهم على الانصات إلى أفكار البابا الدينية الأخرى.

ولنقل الآن بالمعنى المجازي، بأن المنخفض الجوي العاصف والزاحف إلينا من العالم لإسلامي لم يدع مجالا للحديث عن تحسن الطقس. لم يعد البابا الآن بصدد طرح تساؤلات مشابهه لما طرحه المسيح عندما تعرض للضرب، من خلال تساؤله: «إذا كان كلامي سيئا، فبرهن على أنه سيء، وإذا كان سليما ما تحدثت به، فلماذا تضربني؟». لم يفعل البابا هكذا، وإنما سعى بنفسه إلى اثبات براءته .لقد بدأت مساعيه تبذل في بادئ الأمر عن طريق شن هجوم دبلوماسي لدى حكومات جميع الدول الإسلامية. وفي هذا السياق أوضح رئيس حكومة الفاتيكان الكاردينال بيرتوني، في حديث له مع صحيفة »كورير ديلا سيرا «يوم

الاثنين الموافق للثامن الثامن عشر من أيلول، أن المسألة تتمحور حول منح النص الكامل للمحاضرة ما يستحقه من التقدير، على أساس العدل واستبعاد الأحكام المسبقة. ولكن ما حدث تمثل في التزايد المخيف لاندلاع تظاهرات معادية، وتوجيه تهديدات صارخة في العالم الإسلامي ضد ما هو مسيحي وغربي وضد الفاتيكان، فقد أحرقت هنا وهناك دمى تمثل البابا، وأعلام وطنية أمريكية وألمانية، سواء نتيجة غضب عفوي، أو بتدبير من جهة مهتمة، وبثت منظمة ارهابية عبر الشبكة العنكبوتية تهديدا بتنفيذ عمل إرهابي ضد الفاتيكان والبابا.

قتل وتهديدات

ومما زاد مشاعر الذعر أيضاً أن جريمة قتل ارتكبت في مقديشو بحق الراهبة الايطالية الممرضة سوور ليونيلا، التي بلغت من العمر حين مقتلها ما يقرب من السبعين عاما، وكانت تعمل في أحد المستشفيات هناك منذ زمن طويل.

وقد أطلق النار عليها وعلى أحد حراسها من قبل مجرم، حينما كانت لتوها عائدة بعد أدائها مهمة تعليمية في المجال الاجتماعي، مما أدى إلى مقتلها.

ونسبت الجريمة إلى اسلاميين راديكاليين منطلقين من دوافع دينية. أما بينيديكت السادس عشر الذي أصابته الصدمة من جراء ما حدث فقد عبر عن الشكوى والأمل، قائلا: «لعل الدم المسفوك بهذه الطريقة يتحول إلى بذرة أمل لبناء أُخوّة حقيقية بين الشعوب، في ظل الاحترام المتبادل للقناعات الدينية بين كل الأطراف».

وعلى أية حال فإن اعتداءات إرهابية ضد مسيحيين كانت تحدث سابقا بشكل متكرر في الصومال. فقد قتل هناك الأسقف الكاثوليكي سالفاتوري كولومبو في شهر تموز (يوليو) عام 1989م. وفي تركيا، التي تشكل الهدف التالي لزيارة البابا، ارتكب مسلم متطرف في شهر شباط (فبراير) جريمة قتل بحق قسيس ايطالي. واتسمت الأوضاع بمزيد من التوتر: فبعد توجيه تهديدات ضد البابا بينيديكت السادس عشر من قبل تنظيم القاعدة، تمت

تقوية اجراءات الأمن في روما، لحماية دولة الفاتيكان والمرافق والمنشآت التابعة إليها، ولا سيما أن مسلمين إرهابيين بثوا عبر شبكة الانترنت رسالة تهديدية، مفادها:

«سوف نفتح روما، طبقا لما وعدنا به النبي (محمد)».

وانطلق المتطرفون أيضا مما حدث في السادس والعشرين من آب (اغسطس) 846م، عندما تعرضت مقدسات القديس بطرس والقديس بولص في روما للنهب والسلب.

حاول رئيس الحكومة الإيطالية برودي تهدئة الوضع، حتى بعد لقائة في نيويورك مع الرئيس الإيراني احمدي نجاد. ووجهت صحيفة الفاتيكان «المراقب الروماني» إشارة ودية الى المسلمين كونها تشكل عاملاً ضرورياً: من خلال نشرها باللغة العربية عبارات النص، التي انتقدها المسلمون. ومن جهة أخرى أكد رئيس مؤتمر الأساقفة الإيطاليين الكاردينال رويني «التضامن الكلي» للأساقفة المذكورين مع البابا، مشيرا الى «شعوره بالمفاجأة من توجيه التهديدات وشعوره بالألم من جرائها»، كما عبر عن وقوفه ضد كل الايماءات المخيفة والتهديدات غير المستحقة»، ودافع عن البابا ساسة ايطاليون أيضا.

بعد ذلك أعرب رئيس مفوضية الاتحاد الأوروبي باروسو عن التذمر، من عدم تضامن القادة السياسيين في أوروبا مع البابا. وقدم طالب البرلمان الأوروبي بإصدار بيان تضامن مع قداسته، إلا أن الطلب لم يحظ بأغلبية الأصوات، مما دفع برئيس البرلمان وهو الاسباني بوريل إلى التخلي عن إطلاق مبادرة من هذا القبيل .وفي يوم الثلاثاء في التاسع عشر من ايلول (سبتمبر) عبّر رئيس بلدية روما فيلتروني في نطاق لقاء بادر إلى عقده مع ممثلي «الديانات الثلاث المنحدرة من سلالة ابراهيم» في مبنى الكابيتول عن تأكيده على أهمية روما، باعتبارها «مدينة السلام»، وكذلك عن التزامها «بدعم الحوار بين الثقافات وبين الأديان».

- وحضر هذا اللقاء كل من رئيس المجلس البابوي لشؤون الحوار ما بين الأديان الكاردينال بوبارد، والحاخام الأكبر لليهود في روما ريكاردو دي سيجني، وإمام مسجد روما سامي سالم.

احترام كل طرف لحرمة مقدسات الطرف الآخر

رفع أعضاء القوى الأمنية يوم الأربعاء الموافق للعشرين من ايلول (سبتمبر) من درجة الانتباه واليقظة المطلوبة، بسبب إجراء اللقاء الأسبوعي التقليدي العام للبابا مع آلاف الحجاج والزائرين من كافة أنحاء العالم.

ومن خلال هذا اللقاء لم تتح لبينيديكت السادس عشر فرصة جرد حسابات الربح والخسارة لزيارته الجميلة الى موطنه في بافاريا، مع عرض المقاصد المتوخاة من محاضرته فحسب، وإنما سنحت له أيضا امكانية استغلال الفرصة لتحسين أجواء العلاقة مع المسلمين، فتضمنت عباراته الموجهة إليهم باللغة الألمانية ما يأتي حرفيا:

«كان أحد اهتماماتي المميزة يدور حول رغبتي في توضيح العلاقة بين العقل والإيمان، وتبيان ضرورة إجراء الحوار بين الأديان وإجرائه بين العلم والدين. ومن المستلزم هنا ممارسة النقد الذاتي، ونحن بحاجة كما أكدّت في ميونيخ إلى التحلي بالتسامح، وإلى احترام كل طرف ما يعدّه الطرف الآخر مقدسا. وأود مرة أخرى من خلال هذه الكلمات أن أعبر عن احترامي العميق للديانات العالمية وللمسلمين، الذين نشاركهم في حماية العدالة الاجتماعية ودعمها، وفي القيم الأخلاقية، وليس أخيرا في السلام والحرية لصالح جميع الناس». أما وصف البابا لمجريات ما حدث من سوء الفهم فعبر عنه باللغة الايطالية، من خلال قوله:

«لقد اخترت مسألة العلاقة بين الايمان والعقل موضوعا لمحاضرتي.

ومن أجل التمهيد للمستمعين بخصوص ما يتعلق بالأهمية الراهنة لهذا الموضوع المثير فقد اقتبست بعض الكلمات التي وردت في حوار مسيحي – اسلامي في القرن الرابع عشر، حيث أراد القيصر البيزنطي مانويل الثاني باليولوجوس أن يشرح من خلالها لمحاوره المسلم إشكالية العلاقة بين الدين والعنف، مستخدما أسلوبا فظا يعدّ عندنا غير معقول (!).

وهذا الإقتباس كان مع الأسف سببا مباشرا لحدوث إساءات فهم. فالقارئ اليقظ للنص الذي أوردته يستنتج بوضوح، بأنني لم أرد ولا بأية طريقة تبني الكلمات السلبية التي وردت في نطاق هذا الحوار على لسان القيصر في العصور الوسطى، وأن محتواها العنيف لا يعبرعن قناعتي الشخصية. فما قصدته كان مغايرا تماما: انني انطلقت من الموقف الايجابي اللاحق للقيصر مانويل الثاني، الذي عبر عنه بكلمة جميلة جدا حول العقلانية، التي يجب أن تكون هي الرائدة لأنشطة نشر الدين. ومن هذا المنطلق أردت التوضيح بأن الدين والعنف ليسا متلازمين، بل إن العقل هو الذي يتلازم مع الدين. إذن فإن موضوع المحاضرة كان يدور حول العلاقة بين العقل والايمان. انني أردت الدعوة الى حوار المسيحية مع العالم الحديث، والى الحوار بين كافة الثقافات والأديان».

واستمر بينيديكت السادس عشر في الحديث قائلا:
«انني آمل أن تسمح لي محطات أخرى من زيارتي بأن أوضّح في نطاقها احترامي للديانات الكبرى، ولا سيما ذلك الاحترام الذي أكنه للمسلمين الذين يعبدون الله الواحد، والذين نلتزم معهم بالدفاع عن العدالة الاجتماعية، والقيم الأخلاقية، والسلام والحرية لجميع الناس، ومساندة كل ما يتعلق بهذه الالتزامات.

ومن تلك المحطات على سبيل المثال كانت ميونيخ التي أبرزتُ فيها مدى أهمية احترام كل طرف لما هو مقدس لدى الطرف الآخر. انني إذن لعلى ثقة بأن كلماتي في جامعة ريجينسبورغ ستؤدي بعد ردود الفعل الأولى إلى إحداث زخم وتشجيع على إجراء حوار إيجابي ومتسم بالنقد الذاتي، سواء بين الأديان أو بين العقلانية الحديثة وعقيدة المسيحيين"، فهل كان بوسع

البابا أن يقول أكثر من ذلك؟

هجوم دبلوماسي

نعم، كان على قداسته، كما يبدو، أن يقول الآن أكثر من ذلك أمام سفراء الدول الاسلامية .فالأمر لم يعد يتعلق بكلمات بابوية (أو قيصرية) فحسب، وإنما أيضا بردود فعل معادية منطلقة من دول إسلامية أو نصف إسلامية، حيث قام ساسة (غير) مسؤولين بالدفع في اتجاهها، كما عبرت عنها جماهير تنزع إلى العنف في مظاهراتها. وكان هنالك موضوع معلق منذ زمن طويل بين الفاتيكان والدول الإسلامية، وهذا الموضوع هو الذي يتمحور حول الأقليات المسيحية، التي لم تزل حقوقها المدنية مرفوضة في تلك الدول، سواء فيما يتعلق بالأفراد أو التجمعات الطائفية.

إنّ حكومة الكرسي الرسولي تتمتع بعلاقات دبلوماسية مع سبع وثلاثين دولة إسلامية، وبهذا فإن هذه الدول تقر بالحق المعترف به دوليا، لتمثيل الكاثوليك في كافة أنحاء العالم، حتى ولو أن الوقائع في حالات كثيرة تبين انعدام وجود سفارات لعدد منها في روما.

وهنالك دول إسلامية لم تكن مرتبطة عام 2006م بعلاقات دبلوماسية مع الفاتيكان، ومنها افغانستان وبروناي وجزر القمر وماليزيا و سلطنة عمان والمملكة العربية السعودية والصومال، بينما تم تبادل العلاقات الدبلوماسية بين الفاتيكان وبين دولة الإمارات العربية المتحدة (منذ عام 2007م). وهكذا انطلق البابا بينيديكت السادس عشر من هذه المعطيات، ليعبّر في الخامس والعشرين من ايلول (سبتمبر) في القاعة السويسرية للمقر الصيفي عن تنبيهه للسفراء المسلمين، ولعدد من قادة التجمعات الإسلامية في ايطاليا، بوجوب التسامح والتخلي عن العنف في نطاق الحوار بين الثقافات والأديان، كما وعظهم بالعمل من أجل السلام. وصرح البابا بأن جزءا كبيرا من مستقبلنا يتوقف على هذا الحوار، فقوبل تصريحه بالتصفيق. وأدت هذه المبادرة غير المألوفة، وهي الأولى من نوعها في هذا الوسط الدبلوماسي، إلى منح قداسته في بادئ الأمر فرصة للإعراب عن تقديره الكامل واحترامه

العميق للمؤمنين معتنقي العقيدة الإسلامية، فقال ما معناه حرفيا: «منذ بداية عهدي وأنا أعبر عن الأمنية بمد جسور الصداقة بين المؤمنين أتباع جميع الديانات، مع تقديري المميز لتنامي وتيرة الحوار بين المسلمين والمسيحين، والاستمرار في ترسيخه».

قال بينيديكت السادس عشر بأنه لم يختر اللحظة ليشرح فيها توجهه، بل لأن ذلك يمثل ضرورة حيويه، فنحن في عالم يسوده مذهب نسبية الحقائق، وتستثنى فيه فكرة تسامي شمولية الدين، مما يدعنا بحاجة لا بد منها، إلى الحوار بين الديانات والثقافات: «إلى حوار يمكن أن يساعدنا على تجاوز كل حالات التوتر في روح مفعمة بالفهم. ولهذا السبب فإن من الضروري تعاون المسيحيين والمسلمين، مع احتفاظ كل منهما بولائه لتقاليده الدينية، وذلك من أجل تجنب كل أشكال التعصب، ومجابهة كل ما من شأنه ابراز التعامل بالعنف».

وفي هذه اللحظات وجّه البابا حديثه مباشرة إلى الدول الممثلة بالسفراء المستمعين إليه، فقال: «لم يزل من الضروري أن نعمل بصفتنا قادة دينيين ومسؤوليين سياسيين على قيادة الشعوب وتشجيعها وفقا لمضامين هذا المغزى».

أما بالنسبة إلى الخبرات المكتسبة من التقلبات التاريخية فمن المحتمل أنها لم تغير شيئا من مضامين هذا الطرح، وحسب ما يراه قداسته فإنها «لم تؤد إلى التخفيف من حدة الخلافات والعداوات»، علما بأنه طالب بمنح الحريات الأساسية للطوائف المسيحية في البلدان ذات الأغلبية الإسلامية من مجموع سكانها، «وخاصة الحريات الدينية».

وقد نقلت تفصيلات ومضمون اللقاء معه وتفاصيل حديثه من محطات إذاعية عربية عديدة، بالبث على الهواء مباشرة. لكن منظمة المؤتمر الإسلامي طالبت بالمزيد، فحسب ما ورد في صحف ايطالية يوم السابع والعشرين من ايلول (سبتمبر) فان وزراء خارجية الدول المتمتعة بعضوية هذه المنظمة لم يكتفوا بالتوضيحات المقدمة حتى ذلك الحين، مع ما تضمنته من الإشارات إلى سوء الفهم، بل انهم طالبوا على هامش لقائهم بمناسبة انعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة باعتذار صريح من البابا.

وكانت منظمة المؤتمر الإسلامي قد اتهمته في الخامس عشر من ايلول (سبتمبر) بإطلاق حملة من الافتراءات ضد الإسلام.

الصيغة النهائية لخطاب البابا في ريجينسبورغ

أعد بينيديكت السادس عشر أثناء ذلك خطابه بالصيغة النهائية، التي أراد اعتمادها لإلقائه، وبما يتضمن كما ذكرنا سالفا تزويد الخطاب ببعض الملاحظات (عبر هوامش توضيحية)، وإجراء تعديلات طفيفة على النص، الذي عُدّ هو الوحيد المعتمد يوم العاشر من تشرين الأول (اكتوبر) من الدائرة الصحفية للفاتيكان. وفي نطاق الصياغة النهائية استخدمت وسيلة الاسلوب العلمي من خلال تزويد النص لاحقا بثلاثة عشر هامشا توضيحيا. فمن خلال الهامش الثالث نأى البابا بنفسه عن التعبير «ما هو سيء وغير انساني، الوارد في الاقتباس: «أرني حقا ما الجديد الذي جلبه محمد، وسوف لا تجد إلا ما هو سيء وغير انساني، مثل هذا الأمر بنشر العقيدة التي وعظ بها، باستخدام السيف».
ويتضمن الهامش الثالث، ما يلي:

«فسر هذا الاقتباس مع الأسف في العالم الإسلامي بأنه يعبر عن موقفي الذاتي، ومن المفهوم أن يؤدي ذلك إلى حالة من البلبلة والقلق. إنني لآمل بأن يدرك قارئ نصي على الفور بأن هذه الجملة مثار الخلاف لا تعبر عن موقفي الذاتي تجاه القرآن، الذي أكن له شعور الإجلال المستحق باعتباره كتابا مقدسا لديانة كبيرة. وبخصوص اقتباس نص من كلام القيصر مانويل الثاني، فإن الأمر بالنسبة لي لم يتعلق سوى بغرض وحيد، يتمثل في لفت النظر إلى الترابط الجوهري بين العقل والايمان. وإنني أوافق في هذه النقطة على رؤية مانويل، بدون أن أتماهى شخصيا مع تهجمه».

وبالإضافة إلى ذلك فقد عمل البابا على زيادة مسافة نأيه عن كلمات التهجم، من خلال تعديلات طفيفة على النص عبر إضافات الى معناه: فمدونته الخطية لدى الدائرة الصحفية للفاتيكان – التي يحدد الحسم فيها طبقا للتعبير الشفوي خلال الإلقاء، حسب

ما هو متفق عليه سابقا – تتضمن التعبير عن أسلوب حديث القيصر، كما يأتي:

«(..). التفت القيصر إلى محاوره موجها إليه الكلام بإسلوب فظ غريب»، أما البابا بينيديكت السادس عشر فقد كرر في ريجينسبورغ إضافة مرتجلة بخصوص وصف أسلوب القيصر، من أجل تخفيف الانطباع بأنه كان متماهيا مع رأيه، فقال: «بأسلوب فظ غريب ومفاجئ لنا».

أما الصياغة النهائية فهي تتضمن الآن ما يلي: «التفت القيصر إلى محاوره موجها إليه الكلام بإسلوب فظ غريب، غير مقبول عندنا (..)».

ومن أجل تخفيف الانطباع الموحي أيضا، بأن البابا بينيديكت السادس عشر يريد التدخل في أمر النبي محمد في الفترة المبكرة والمتأخرة بخصوص القرآن، أو أنه يود المطالبة بذلك، فإنه تناول الموضوع مستندا إلى نتائج بحوث القرآن، وأصبح التعبير في هذا السياق بعد تعديله كما يلي:

علّم محمد أتباعه في بداية أمره «عندما كان ضعيفا وتحت التهديد» ما ورد في الآية 256 من السورة الثانية، أي «لا إكراه في الدين». ويدور الحديث ضمن هذا الترابط عن الإستعانة بخبراء. لقد استخدم ثلاثة عشر هامشا توضيحيا بالإضافة إلى معالجة خمس فقرات من النص بلمسات تنميق – لا تؤدي إلى تغيير المعنى بل إلى توضيحه –، من أجل التوصل إلى حالة يعتبر فيها الاقتباس المسبب للخلاف وكأنه لم يحدث. ولكن البابا نفسه لم يستطع تحقيق هذا الهدف، حتى ولو أنه تقدم مرات كثيرة في السابق بل وللمرة السادسة حاليا بتأويلاته الهادفة إلى تبرير ما حدث. ولم يعتبر ما تقدم به اعتذارا صريحا، ومع ذلك فإن من الممكن تفسيره كلون من الإقرار بالخطأ.

حشو زائد كالورم

كانت الكلمتان المقتبستان اللتان أثارتا غضب المسلمين العفوي أو المدبّر زائدتين عن الحاجة كالورم، لأنهما خلتا تماما من الأهمية البارزة لحجج البابا بإعتباره استاذا جامعيا

أيضا. وبدتا في الوقت ذاته مشحونتين بالشتائم والمسبّات. فمن هو الذي كان بوسعه من أوساط الفاتيكان الاعتقاد بالسماح لقائد ديانة عالمية إهانة رسول دين عالمي آخر؟! إن عبارة «سيء وغير انساني» لوصف ما جلبه النبي محمد هي من ضمن المفردات التي يمكن فهمها، إذا وردت على لسان قيصر بيزنطي ممن كانوا يشنون الحروب في العصور الوسطى الغابرة، ولكنها لا تندرج ضمن التعابير التي تنم عن حكمة أحد البابوات في مطلع القرن الحادي والعشرين، وهو الذي يود الحيلولة دون حدوث الصدام بين الثقافات والأديان.

وإذا كان بإمكان بينيديكت السادس عشر مع ذلك بوصفه الناطق الأعلى باسم المسيحية أن يتخلى من على المنصة عن التوصيف المباشر أو غير المباشر لمسلكية النبي محمد، فإنه يستطيع بصفته في الوقت ذاته البروفسور راتسينجر الجالس على كرسي الرسول بطرس، أن يكون وفيا لما هو مألوف في تاريخ الفكر الأوروبي المسيحي، من خلال تمتعه بحقه البديهي في الاقتباس، ناهيك عن أن ممارسته لهذا الحق تتم في جامعة لا بد وأن تضمن فيها حرية الفكر والتحرر مما تفرضه الدولة أو المؤسسة الكنسية – الدينية من القيود. ففي الجامعات «الغربية» يسمح بوصف مؤسسي الديانات وتقييمهم، بصرف النظر عمن يعبّر عن التوصيف أو التقييم.

وعلى أية حال فإن بينيديكت السادس عشر أتاح لنفسه من خلال التوضيحات المذكورة تمهيد الطريق لزيارته المرتقبة إلى تركيا للقاء البطريرك المسكوني هناك، كما أنه تمكن عبرها من إنقاذ إمكانيات الحوار مع المسلمين.

استفسارات بشأن الحوار الحقيقي

إذن فإن استفسارات بينيديكت السادس عشر الخاصة بإجراء حوار حقيقي تبقى هي المتمحورة حول الجواب عن التساؤلات، عما إذا كان إله محمد هو إله للعنف، وعما إذا كان هو إله العقل الذي يمكن أن يتطابق مع عقلانية الإنسان أم لا. فجميع الذين يشعرون في الآونة الراهنة بالخوف من الإسلام يودون معرفة الإجابة.

وفضلا عن ذلك فإن تشخيصا مسيحيا بابويا كان «كامنا» في محاضرة قداسته. فقد اقتبس مما قاله علماء، ومنهم عالم مسلم توسع في الشرح وقال بأن «الله غير مقيد حتى من خلال كلمته، وأن من غير الممكن إلزامه بإيحاء الحقيقة إلينا، وأنه لو أراد لفرض على الإنسان أن يعبد الأصنام».

إذن فإن هذا الإله كان من الممكن أن يرسل أتباعه أيضا إلى الجهاد. «وهنا يتبين مفترق الطرق بوضوح في فهم الإله مثل وضوحه في الاستيعاب الحقيقي للديانة بصورة محددة بدقة، مما يمثل لنا اليوم تحديا مباشرا بشكل تام»، حسب ما ذكره بينيديكت السادس عشر وهو في حالة تيقظ. وهكذا فإن الإجابة على تلك التساؤلات مطلوبة في نطاق علم لاهوت إسلامي أيضا. لقد ذكر البروفسور راتسينجر عبر ملاحظة جانبية تماما بأن السورة التي وردت فيها الآية السلمية «لا إكراه في الدين»، تعود إلى بداية أمر محمد عندما كان «ضعيفا وتحت التهديد»، وأن السور التي نصت على الجهاد، جاءت متأخرة، عندما أصبح قويا واثقا من نفسه، مما يعني أن تطورا حدث في نطاق القرآن، مثلما تكامل الكتاب المسيحي المقدس مع بعضه عبر مئات وعشرات السنين.

وملاحظته هذه ليست معيبة أيضا، بل إنها منطقية عندما يتشاغل العقل البشري بموضوع الدين، كما يحدث في نطاق الإيمان المسيحي. وهذا يعني أن الحوار بإشكالياته بدأ على التو.

الفصل الثاني والعشرون

بدء الحوار – رسالة مفتوحة من 38 شخصية اسلامية

بعد إلقاء البابا بينيديكت السادس عشر محاضرته في جامعة ريجينسبورغ، وقبل بدء زيارته المقررة إلى تركيا بستة أسابيع، تجاوب مع دعوته إلى الحوار ثمانية وثلاثون شخصًا من ذوي الكلمة المسموعة، والمكانة الرفيعة والاحترام على الصعيد الفكري، سواء من أتباع المذهب السني أو الشيعي، معبرين عن تجاوبهم في رسالة مفتوحة وجهوها الى قداسته، مع تقديمهم اقتراحات موضوعية لإجراء مداولات بين ممثلين عن الكنيسة الكاثوليكية والعالم الإسلامي. ونشرت الرسالة التي يمكن استقراؤها من شبكة الانترنت في الصحيفة الإسلامية، التي تصدر في لوس انجيلوس، وهي «اسلاميكا ماغازين» في الخامس عشر من تشرين الأول (اكتوبر) 2006 م. وتبين فيها أن تطورا بدأ يحدث في العلاقة بين الكنيسة والمسجد، وبما يتناقض مع مجرّد الاحتجاجات المعبّر عنها حتى الآن: فهذا يبشّر بالنجاح ويشع بالأمل لإجراء حوار جاد وصريح، حتى حول المسائل التي ينطلق الطرفان من وجهات نظر متناقضة في تقييمها.

أسماء ومكانات بارزة

تجلّى تمثيل الجانب الإسلامي هذه المرّة بمستوى لم يصل إليه مطلقاً حتى الآن، في ميدان التوجهات نحو الحوار. ويُستدل على هذا المستوى الرفيع من المراتب الرفيعة، التي يشغلها الموقعون على الرسالة المفتوحة، وفي وثيقة حجمها سبع صفحات.

ومن هؤلاء على سبيل المثال: المفتي الأكبر في كل من مصر والبوسنة وكرواتيا واسطنبول وكوسوفو وسلطنة عمان وروسيا وسلوفينيا وأوزبكستان، بالإضافة إلى مرجعيات دينية في: المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة والهند واندونيسيا وايران

والعراق والكويت وماليزيا والمغرب وباكستان. وتضمّن التعليق الصادر من روما على هذا الحدث، بأن المذكورين لا يمثلون العالم الإسلامي بأكمله، وهو الذي لايعرف الإقرار بمرجعية قانونية عليا، ولا بمؤسسة دينية ملزمة، غير أنهم يشكّلون جزءا جديرا بالملاحظة، ومتمتعا بدوره بنفوذ في نطاق الإسلام.

امتدح الموقعون وقوف البابا بينيديكت في محاضرته ضد نسبية الحقائق السائدة في الغرب، لكنهم أشاروا إلى بعض «أخطاء» قداسته المضمنة كما يبدو في رؤيته إلى الإسلام، مع إبداء ما هو مستلزم تجاهه من الإحترام، دون التطرّق إلى ما أثير من الإنفعالات المألوفة في العالم الإسلامي خلال الأسابيع الماضية. وعبّروا عن إدراكهم بسرور لما كرر بينيديكت الإعراب عنه من الأسف على سوء الفهم.

وقد وُجّه اليه التقدير لأنه كما ورد في رسالتهم المفتوحة رأى قبل كل شيء أنّ ما اقتبسه من كلام القيصر البيزنطي من عبارات معترض عليها لايمثل رأيه الشخصي، وأنه نأى بنفسه عن تلك العبارات المقتبسة، «مع احترامه العميق الكامل للمؤمنين معتنقي الدين الاسلامي».

لاحظ المعنيون في الفاتيكان بانتباه مميز أن القادة الدينيين المسلمين تناولوا في رسالتهم مسائل موضوعية، معتبرين أن من المفيد والمطلوب إجراء مداولات توضيحية بشأنها.

وينطبق ذلك قبل كل شيء على تساؤلات أساسية، ومنها مثلا: فيما اذا كان الحكم القرآني الذي تحدده الآية: «لا إكراه في الدين»، ينطبق أيضا على الإسلام في حالة تجسيده للسلطة، وكذلك حول غيبية تنزيه الله وعلاقتها مع العقل ومع العنف المتناقض مع العقلانية، وفقا لوجهة النظر الممثلة في الإسلام.

وتدور هذه التساؤلات بالاضافة إلى ذلك حول مدى تطابق الإجبار على اعتناق الدين مع تعاليم القرآن، وفي نهاية الأمر حول إمكانية إتيان النبي محمد بما هو جديد، طبقًا لقناعة معتنق دين آخر. وبهذا فإن موقّعي الرسالة تناولوا تماما موضوعات تلك التساؤلات، المطروحة في نطاق محاضرة البابا في ريجينسبورغ حول العلاقة بين العقل

والإيمان، وبين الدين والعنف في الديانات العالمية. وتتضمن رسالتهم أيضًا التذكير بأن المسيحيين والمسلمين يشكّلون نسبة 55٪ من مجموع سكان العالم، الأمر الذي يستدعي أن يقوم الحوار بينهم على أساس الإحترام والفهم المتبادلين.

وندرج هنا النص الكامل للرسالة المفتوحة[3] الموجهة إلى قداسة البابا بينيديكت السادس عشر، بهدف بناء تفهّم متبادل:

رسالة مفتوحة من 38 شخصية اسلامية إلى قداسة البابا بينيديكت السادس عشر

في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2006 م

«بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

قال الله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..﴾ (القرآن الكريم، العنكبوت 29: 46)

قداسة البابا، بالنسبة إلى محاضرتكم التي ألقيتموها في جامعة ريجينسبورغ في ألمانيا بتاريخ 12 أيلول/سبتمبر 2006م، نحسب أنه من الملائم في سياق روح النقاش المفتوح أن نتناول استخدامكم لمناظرة جرت بين الامبراطور مانويل الثاني باليولوجوس ورجل «فارسي مثقف» كنقطة بداية لخطابكم حول العلاقة بين العقل والإيمان. ففي الوقت الذي نثني فيه على جهودكم التي تبذلونها في معارضة هيمنة الفلسفة الوضعية والمادية في حياة الإنسان، لا بد لنا أن نشير إلى بعض الأخطاء التي وردت في إطار الطريقة التي أشرتم فيها إلى الإسلام على أنه الجهة المناقضة للإستعمال المناسب للعقل؛ بالإضافة إلى بعض الأخطاء التي وردت في التأكيدات التي سقتموها لدعم حجتكم. «لا إكراه في الدين ..»

لقد ذكرتم بأنه «وفقاً لما يقرّره أهل الدراية» فإن الآية القرآنية التي مطلعها «لا إكراه في الدين..» (البقرة، 2: 256) تعود إلى بداية أمر النبي عندما «كان ضعيفاً وتحت التهديد»، وهذا غير صحيح. والصحيح الثابت أن هذه الآية تعود إلى الفترة التي كان فيها التنزيل

3– النص العربي للرسالة المفتوحة منشور على موقع العربية أون لاين، أما النص الألماني الذي أورده المؤلف في الكتاب فهو مترجم عن النص الإنجليزي بدون تفويض رسمي].

القرآني متوافقاً ومنسجماً مع تنامي السيطرة السياسية والعسكرية للأمة الإسلامية الفتيّة. لم تكن آية، لا إكراه في الدين..، أمراً للمسلمين بالبقاء ثابتين راسخين أمام رغبة الذين ظلموهم وعذبوهم لإرغامهم على التخلي عن دينهم وإيمانهم؛ ولكنها جاءت تذكيراً للمسلمين أنفسهم عندما تحققت لهم أسباب القوة والمنعة أنه لا يمكن لهم أن يرغموا قلوب غيرهم على الايمان. «لا إكراه في الدين..» تخاطب أولئك الذين هم في حالة القوة وليس الضعف.

ولقد بيّنت التفاسير الأولى للقرآن الكريم (مثل تفسير الطبري) بأن المسلمين في المدينة أرادوا إرغام أبنائهم ليتحوّلوا من اليهودية أو النصرانية إلى الإسلام، فكانت هذه الآية جواباً دقيقاً لهم بألا يحاولوا أن يُكرِهوا أبناءهم على الإسلام. هذا بالإضافة إلى أن المسلمين لديهم أيضاً توجيهات قرآنية هادية في هذا الصدد مثل: «وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ..» (الكهف، 18: 29)؛ وأيضاً: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» (الكافرون، 109: 1–6).

تنزيه الله تعالى

لقد قلتم أيضاً أن: «الإله، في التعاليم الإسلامية، مُنَزّه تنزيهاً مطلقاً»؛ وهذا تبسيط يمكن أن يكون مؤدّاه مضلِّلاً. فلقد بَيَّن القرآن أنه: «.. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..» (الشورى، 42: 11)، وبيّن أيضاً: «اللّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ..» (النور، 24: 35)، وقال: «.. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» (ق، 50: 16)، وقال: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ..» (الحديد، 57: 3)، وقال: «.. وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ..» (الحديد، 57: 4)، وقال: «.. فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ ..» (البقرة، 2: 115)؛ وكذلك دعونا نتذكر حديث النبي، صلى الله عليه وآله وسلّم، الذي يبيّن فيه أن الله يقول في (العبد الصالح): «فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله

التي يمشي بها» (صحيح البخاري 6581، كتاب الرقاق).

وفي مجال التعليم المتعلق بالتراث الروحي والفقهي والفلسفي، يعدّ المفكر ابن حزم (المتوفى 1069م) الذي استشهدتم به شخصية مقدرة تماماً لكنها هامشية – وإن كانت ذا شهرة – وهو ينتمي إلى المذهب الظاهري الذي لا يتبعه أي مسلم في العالم اليوم. وإذا أراد إنسان البحث عن نصوص أصيلة بشأن عقيدة التنزيه، فإن هناك شخصيات لدى المسلمين أهم بكثير من ابن حزم من حيث تأثيرهم ومرجعيتهم في مجال العقيدة الإسلامية مثل الإمام الغزالي (المتوفى 1111م) وكثيرين غيره.

لقد عدتم الى مصدر يرى أن الامبراطور «نتيجة تأثره بشدة بالفلسفة اليونانية» فإن فكرة أن «الله لا يرضى عن سفك الدماء» «أمر بديهي» بالنسبة له، وأنّ التعاليم الإسلامية بشأن تنزيه الإله عُرضَت مقابلها كنموذج مضاد. فقولكم أن إرادة الله بالنسبة للمسلمين «غير مقيّدة بأي تصنيف من تصنيفاتنا» يعدّ تبسيطاً أيضاً يمكن أن يفضي إلى سوء فهم. إن لله تعالى في دين الإسلام أسماء كثيرة منها: الرحيم والعدل والبصير والسميع والعليم والودود واللطيف. وإن اعتقاد المسلمين التام بوحدانية الله تعالى وأنه «وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ» (الإخلاص، 112: 4) لم يؤدِّ إلى إنكارهم نسبة هذه الصفات إلى الله تعالى وإلى خلقه، (مع الوضع جانباً الآن فكرة «التصنيفات» فهي عبارة تحتاج إلى إيضاح أكثر في هذا السياق).

وحيث أن هذا أمر يتعلق بإرادة الإله، فاستنتاجكم أن المسلمين يؤمنون بإله مزاجي يمكن أن يأمرنا بالشر أو يمكن ألا يأمر، من شأنه أن يُغفِل قول الله في القرآن: «إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» (النحل، 16: 90)؛ تماماً كما يُغفِل قوله تعالى: «.. كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ..» (الأنعام، 6: 12، انظر أيضاً 6: 54)؛ وبأنه قال: «.. وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ..» (الأعراف، 7: 156). وإن كلمة رحمة يمكن أيضاً أن تترجم إلى الحب واللطف والشفقة. ومن كلمة الرحمة جاءت العبارة المقدّسة التي يستعملها المسلمون يومياً، «بسم الله

الرحمن الرحيم». أليس بديهياً أنّ سفك دم بريء يتعارض مع الرحمة والشفقة؟

ويتضح من استخدام العقل أن العلوم الإسلامية غنية بالدراسات الخاصة بماهية العقل الإنساني وعلاقته بالله وإرادته، ويتضمن ذلك تساؤلات بشأن ما هو بَدَهي وما هو غير بَدَهي.

لكن الفصل بين التفكير المنطقي» من جهة و«الإيمان» من جهة أخرى لا يأخذ منحى مغايرا في الفكر الإسلامي؛ فقد أدرك المسلمون قوة الذكاء الإنساني وحدوده بطريقتهم الخاصة، مقرّين بتسلسل هرمي للمعرفة يقع التفكير المنطقي في جزء هامّ جداً منه. وهناك تطرّفان عمل المنهج الفكري الإسلامي الأصيل على تجنبهما عموماً: الأول، جعل العقل التحليلي هو الحَكَم النهائي على الحقيقة؛ والآخر، هو إنكار قوة الإدراك الإنساني في تناول التساؤلات المطلقة.

والأهم من ذلك، أن البحوث الفكرية للمسلمين خلال العصور في أنماطها الأكثر نضجاً ورواجاً قد حافظت على انسجام وتوافق بين حقائق التنزيل القرآني ومطالب الذكاء الإنساني دون التضحية بأحدهما من أجل الآخر. يقول الله تعالى: «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ..» (فصّلت، 41: 53). هذا وإن العقلَ آيَةٌ من بين آيات كثيرة بداخلنا، دعانا الله للتأمل فيها والتأمل بها، كوسيلة لمعرفة الحقيقة.

ما الحرب المقدّسة؟

نود الإشارة إلى أن «الحرب المقدسة» مصطلح ليس له وجود في اللغات الإسلامية؛ ولابد من التأكيد هنا أن الجهاد يعني المجاهدة والمناضلة، وخصوصاً الجهاد في سبيل الله تعالى. إن هذا الجهاد يمكن أن يأخذ أشكالاً كثيرة، بما في ذلك استخدام القوة. وبالرغم من أن الجهاد يمكن أن يكون مباركاً بمعنى أن يكون في سبيل غاية سامية مباركة، إلا أنه ليس بالضرورة أن يكون «حرباً». وعلاوة على ذلك، تجدر الملاحظة إلى أن مانويل الثاني باليولوجوس يقول بأن «العنف» يتعارض مع طبيعة الإله، ولكن المسيح نفسه (عليه

السلام) استعمل العنف ضد صّرافي الأموال في المعبد، وقال: «لا تظنّوا أنني أتيت لأجلب السلام في الأرض، لم آتِ لجلب السلام ولكن جئت بالسيف..» (متّى، 10: 34–36). وعندما أغرق الله فرعون، هل كان يتصرّف على عكس طبيعته؟، ربما قصد الإمبراطور القول أن القسوة والوحشية والعدوان ضد طبيعة الإله، وفي هذه الحالة، فإن ذلك يتوافق تماماً مع التشريع الأصيل الخاص بالجهاد في الإسلام.

لقد قلتم في المحاضرة بأن «الإمبراطور عَلِم بالطبع التعليمات التي طُوّرت فيما بعد ودُوّنت في القرآن فيما يتعلق بالحرب المقدّسة»، ولكن كما أشرنا أعلاه بخصوص «لا إكراه في الدين ..» فإن التعليمات آنفة الذكر لم تكن فيما بعد على الإطلاق. وعلاوة على ذلك، فإن أقوال الإمبراطور حول اعتناق الدين بالعنف تبيّن أنه لم يكن يدري ما هي هذه التعليمات وكيف كانت دائماً.

ويمكن تلخيص القواعد الإسلامية الأصيلة المعتمدة الخاصة بالحرب في المبادئ التالية:

1. لا يجوز أن يكون المدنيون أهدافاً للعمليات العسكرية. ولقد تم التأكيد على هذا مراراً وبشكل واضح من قبل النبي، صلى الله عليه وآله وسلّم، وأصحابه ومن قِبَل أهل العلم منذ ذلك الحين.

2. المعتقد الديني وحده لا يجعل أيّ إنسان هدفاً للنيل منه. فالمجتمع الإسلامي الأول كان أفراده يقاتلون وثنيين قاموا بطردِهم من ديارهم وظلمِهم وتعذيبِهم وسفكِ دمائهم. وبعد ذلك كان للفتوحات الإسلامية طابع سياسي.

3. يمكن للمسلمين أن يعيشوا بسلام مع جيرانهم وينبغي عليهم ذلك. «وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ ..» (الأنفال، 8: 61). ومع ذلك، فهذا لا يلغي حقهم الشرعي في الدفاع عن أنفسهم والحفاظ على سيادتهم واستقلالهم.

إن المسلمين ملتزمون تماماً بالتقيّد بهذه القواعد كالتزامهم باجتناب السرقة والزنا. وإذا نظم الدين تشريعاً للحرب وحدد الظروف التي تجعلها ضروريةً وعادلة، فذلك لا يجعل

هذا الدين ديناً عدوانياً، كما لو أن الدين وضع نظاماً خاصاً بالعلاقة الجنسية فإن ذلك لا يجعل الدين ديناً شهوانياً. وإذا استخف البعض بالتعاليم والمبادئ الراسخة بقوة وعلى مدى طويل من أجل أحلام يوتوبية حيث الغاية تبرر الوسيلة، فإنّ فعلهم يكون من قبيل الهوى والرغبة الخاصة وليس بتشريع صادر عن الله أو عن نبيّه، صلى الله عليه وآله وسلّم، أو عن أهل العلم.

يقول الله في القرآن الكريم: «.. وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ..» (المائدة، 5: 8). وفي هذا السياق، لا بد من بيانِ أن جريمة القتل التي وقعت في الصومال بتاريخ 2006/9/17 وراح ضحيتها راهبة كاثوليكية بريئة – وأية أعمال عنف فردية عنيفة مماثلة أخرى – كردة فعل لمحاضرتكم في جامعة ريجينسبورغ، لا تمت بصلة إلى الإسلام أبداً، ونحن ننكر مثل هذه الأفعال تماماً.

اعتناق الدين بالإكراه

إن الفكرة التي مفادها أن المسلمين مأمورون بنشر دينهم «بالسيف» وأن الإسلام في الواقع انتشر بشكل هائل «بالسيف» تتهاوى أمام التدقيق وإنعام النظر. وحقيقة الأمر أنّ الإسلام من حيث كونه كياناً سياسياً فقد انتشر بشكل جزئي نتيجة للفتوحات، لكن الجزء الأكبر من توسعه قد تحقق نتيجة للنشاط الدعوي. فالتعاليم الإسلامية لم تنص على أن يتم إرغام سكان البلاد المفتوحة أو إكراههم على الإسلام. وفي الواقع، إن كثيراً من المناطق الأولى التي فتحها المسلمون بقيت أغلب أجزائها غير مسلمة لقرون من الزمان.

ولو أن المسلمين رغبوا بإكراه الناس جميعهم حتى يعتنقوا دينهم، لما بقي هناك كنيسة واحدة أو معبد يهودي في أي مكان من العالم الإسلامي. وإن الأمر الإلهي الذي تتضمنه آية «لا إكراه في الدين ..» تعني الآن ما عنته في ذلك الوقت. وإن مجرد كون الشخص غير مسلم لم يكن مبرراً شرعياً للحرب قط لا في الشريعة ولا في العقيدة الإسلامية.

وبالنسبة لقوانين الحرب، يبدي التاريخ أن بعض المسلمين قد خرقوا المبادئ الإسلامية

فيما يتعلق بإكراه غيرهم على اعتناق الدين وبمعاملة أقوام الأديان الأخرى، ولكن التاريخ يبدي أيضاً بأن هذه التصرفات بلا أدنى ريب هي استثناء يُثبت القاعدة ويبرهن عليها.
وإننا نوافق بالتأكيد على أن إكراه الآخرين على الاعتقاد - إن كان ذلك ممكناً بحال من الأحوال - هو أمرٌ لا يرضي الله، فالله لا يرضى عن سفك الدماء البريئة. ونحن في حقيقة الأمر نؤمن كما آمن المسلمون دائماً بقول الله: «.. مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ..» (المائدة، 5: 32).

شيء جديد؟

لقد ذكرتم تأكيد الإمبراطور بأن «أي شيء جديد» جاء به النبي كان «شريراً ولا إنسانياً، مثل أمره المزعوم بنشر الدين الذي يدعو إليه بالسيف». هذا وإن الأمر الذي فشل الإمبراطور في إدراكه ومعرفته - عدا عن أن واقع مثل هذا الأمر (كما ذُكر أعلاه) ليس له وجود في الإسلام مطلقاً - هو أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يدّعِ أنه جاء بشيء جديد من الأساس. يقول الله تعالى في القرآن العظيم: «مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ» (فُصّلت، 41: 43)، ويقول أيضاً: «قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» (الأحقاف، 46: 9).

وهكذا فإن الإيمان بالله الواحد ليس من خصائص أي ملّة دون غيرها. ووفقاً للعقيدة الإسلامية فإن جميع الأنبياء الحقيقيين (عليهم السلام) كانوا يدعون أقواماً مختلفين في أزمنة مختلفة إلى الحقيقة ذاتها. فمن الممكن أن تكون الشرائع مختلفة، لكن الحقيقة لا تتغيّر.

«أهل الدراية»

لقد أشرتم مرة من دون تحديد إلى «أهل الدراية» (بشأن الإسلام)، وقمتم أيضاً بنقل

كلام باحثَيْن كاثوليكيَين بالاسم، الأستاذ (عادل) ثيودور خوري وروجر أرنالدز. ويكفي القول هنا أنه بينما يَعتبر كثيرٌ من المسلمين أن هناك منصفين من غير المسلمين ومن الكاثوليك الذين من الممكن أن يُعتبروا حقيقة «أهل دراية» في دين الإسلام، إلا أن المسلمين لم يصادقوا حسب علمنا على اللذين أشرتم إليهما ولا يقرّون لهما بأنهما يمثلان المسلمين أو وجهات نظرهم.

لقد كررتم بتاريخ 2006/9/25، ما جاء في بيانكم الهام في مدينة كولونيا في ألمانيا بتاريخ 2005/8/20، أن «الحوار بين الأديان والثقافات فيما بين المسيحيين والمسلمين لا يمكن تقليصه إلى مستوى الشيء «الزائد الإختياري»، فهو في الواقع ضرورة أساسية حيوية يعتمد عليها مستقبلنا بمقدار كبير». وفي الوقت الذي نوافقكم فيه تماماً، إلا أنه يبدو لنا بأن جزءاً كبيراً من هدف الحوار بين الأديان يكمن في أن نجاهد من أجل الإصغاء إلى الأصوات الفعلية لأولئك الذين نتحاور معهم، وأخذها بعين الاعتبار، وليس فقط لأصوات أولئك الذين ينتمون إلى قناعاتنا.

المسيحية والإسلام

إن المسيحية والإسلام هما الدينان الأول والثاني من حيث عدد أتباعهما في العالم وفي التاريخ، حيث يشكل المسيحيون والمسلمون حسب التقارير ما يزيد على ثلث العالم وخمس العالم على التوالي. وهم يشكلون معاً أكثر من 55٪ من عدد سكان العالم، مما يجعل حُسن العلاقة بين مجتمعات هذين الدينين أهم عامل من العوامل المساهمة في إحلال سلام مؤثر حول العالم. وبوصفكم قائداً لأكثر من مليار كاثوليكي ومثالاً أخلاقياً لكثيرين غيرهم في أرجاء المعمورة، فربما تكونون الصوت الأوحد والأهم في مواصلة المضي قدماً في هذه العلاقة باتجاه التفاهم المتبادل.

ونحن نشارككم الرغبة في إقامة حوار صريح مخلص وندرك أهميته في عالم يشتد الترابط فيه بشكل متزايد. وعند إقامة حوار مخلص صريح فإننا نأمل في الاستمرار ببناء علاقات

وئام وصداقة مؤسسة على الاحترام والانصاف المتبادلَين وعلى ما يجمعنا جوهرياً من الإرث المشترك المرتبطٍ بالأنبياء من ذرية إبراهيم (عليه السلام)؛ وخصوصاً «الوصيتين العُظْمَيَيْن» في إنجيل مرقص، 12: 29—31 (وبشكل مختلف في إنجيل متّى، 22: 37—40) «الرب إلهنا رب واحد، وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك»، هذه هي الوصية الأولى؛ و ثانية مثلها هي «تحب قريبك كنفسك» ليس وصية أخرى أعظم من هاتين». وعلى ذلك، فإن المسلمين يقدرون الكلمات الآتية الصادرة من مجلس الفاتيكان الثاني:

تكنّ الكنيسة أيضاً احتراماً عالياً للمسلمين، فهم يعبدون الله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر، خالق السماوات والأرض، والذي كلّم البشر أيضاً.

وهم يجتهدون في الخضوع الكامل لأوامر الله دون تحفظ، تماماً مثل خضوع إبراهيم لقضاء الله، وهو الذي يربط المسلمون دينهم بدينه بشدة. وبالرغم من أنهم لا يقرّون بأن عيسى المسيح إله، إلا أنهم يوقرونه بوصفه نبياً، وهم يجلّون أمه العذراء أيضاً ويذكرونها حتى في أوقات تضرعهم الخاشع؛ ويترقبون أيضاً يوم القيامة والثواب من الله بعد بعث الأموات.

ولهذا السبب هم يعظمون الحياة المستقيمة ويعبدون الله خاصة من خلال الصلوات والصدقات والصوم. (نوسترا إيتاته، 1965/10/23).

كذلك وبنفس القدْر، يثمّن المسلمون كلمات البابا الراحل يوحنا بولص الثاني الذي كان موضع احترام وتقدير كثير من المسلمين:

نحن المسيحيين نعترف بكل سرور بالقيم الدينية التي نشترك فيها مع الإسلام. وأود اليوم أن أكرر ما قلته لشباب مسلمين في الدار البيضاء قبل بضعة سنين: «نحن نؤمن بالإله نفسه، الإله الواحد الحي، الإله الذي خلق العالم وأخرج مخلوقاته في أكمل صورة» (انسجْنَمِنْتي، [VIII/2،] 1985، صفحة 497، اقتبست من كلمة خلال عظة عامة بتاريخ 1999/5/5).

كما يقدر المسلمون أيضاً تعبيرَكم الشخصي غيرَ المسبوق عن الأسف وإيضاحَكم وتأكيدَكم (في 2006/9/17) بأن الاقتباس الذي استعملتموه لا يعكس رأيكم الشخصي، بالإضافة إلى تأكيد أمين سر حاضرة الفاتيكان الكاردينال تارشيزيو بيرتوني (في 2006/9/16) على ما جاء في الوثيقة الوفاقية الصادرة عن مجلس الفاتيكان نوسترا إيتاته.

وأخيراً، فإن المسلمين يقدّرون تعبيركم عن «الاحترام الكامل والعميق لجميع المسلمين» أمام مجموعة مجتمعة من سفراء دول إسلامية بتاريخ 2006/9/25. نأمل بأننا سوف نتجنّب جميعاً أخطاءَ الماضي ونتحاشاها ونعيش سوية في المستقبل بسلام، وتسامح واحترام متبادلين. والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله».

رسالة موضوعية تتسم بالودّ وتخلو من الإنفعال

بثت الرسالة لدى الفاتيكان شعورًا بموضوعيتها واتسامها بودية ملفتة للنظر مع خلوها من الإنفعال. فقد كتب اصحاب المرجعيات العلمية الإسلامية الثمانية والثلاثون إلى البابا، منطلقين من الثقة التامة بأنفسهم. كان بوسع البابا أن يرّد على رسالتهم كعالم لاهوت، غير أن الرد يصعب عليه بدون الخوض في جدل تخصصي كونه البابا، ولهذا فإن الرسالة بقيت بلا إجابة بابوية مباشرة عليها.

لكنّ الفاتيكان وجه بعد أيام قليلة من تسلّمها، وبأسلوب ودي ملفت للانتباه بشكل بارز، رسالة تقليدية بمناسبة انتهاء رمضان، شهر الصيام الإسلامي، إلى أمة المسلمين في جميع أنحاء العالم. ففي اليوم العشرين من تشرين الأول (اكتوبر) 2006 م وجه رئيس «المجلس البابوي لشؤون الحوار بين الاديان» وهو الكاردينال الفرنسي بوبارد، إبّان تقديمه لتلك الرسالة في روما، دعوة إلى المسيحيين والمسلمين لإجراء «حوار مستند إلى الثقة المتبادلة الكاملة، ليجابهوا تحديات عالمنا الراهن، وليشهدوا مع بعضهم على القيم المشتركة بينهم».

وأكّد الكاردينال بالنص الصريح على أن أمنياته «بالسلام والراحة والغبطة في أفئدة

المسلمين» بمناسبة انتهاء رمضان هي مطابقة لتمنيات البابا بينيديكت السادس عشر، التي عبّر عنها في البداية لسفراء البلدان الإسلامية المعتمدين لدى الكرسي الرسولي، في لقاء خاص بهم.



الفصل الثالث والعشرون

بينيديكت السادس عشر في تركيا

كانت زيارة البابا الى تركيا البلد الإسلامي المعادي خلال المدة من الثامن والعشرين في شهر تشرين الثاني(نوفمبر) حتى بداية كانون الأول (ديسمبر) 2006م، بعد عشرة أسابيع من محاضرته في ريجينسبورغ، أمرا لابد منه: إذ كانت مقررة منذ فترة طويلة. وكان سببها يعود، كما هو الحال بالنسبة لزيارتيّ بولص السادس (عام 1967م) ويوحنا بولص الثاني (1979م)، الى الرغبة في لقاء البطريرك المسكوني للقسطنطينية، حامل لقب الحبر الفخري للكنيسة الأرثوذكسية، في مقر إقامته بضاحية فنار من مدينة اسطنبول. وبهذا فإن الأمر كان متعلقاً بحقوق أقلية دينية في بلد إسلامي.

لم تكن رغبة البابا في اللقاء مع «الطائفة الكاثوليكية الصغيرة» في تركيا خالية من الإشكالات أيضا، ناهيك عن نيته في التعبير عن تكريمه لتاريخ المسيحية في أفسوس، الذي تجاوز امتداده الزمني في «آسيا الصغرى» خمسمائة عام. ولم يكن بوسعه أن يتجاهل في برنامج زيارته أيضا تلك الأقلية المسيحية الأرمنية، التي تعرّضت إلى معاناة رهيبة، تحت حكم العثمانيين في بداية القرن العشرين. ومن البديهي حدوث احتجاجات وتوجيه تهديدات بالقتل، مما دفع هذا الصحفي أو ذاك من صحفيّي الفاتيكان الى التفكير، فيما إذا كانت طائرة البابا أمينة من احتمالات تفجيرها فعلاً.

المطالبة باللطف

بدأ بينيديكت العمل الخاص بمهمته الحرجة في نطاق زيارته هذه قبل يومين من موعد إقلاع طائرته، من خلال توجيهه يوم الأحد رجاءً بولغ في التعبير عنه، مما كان متماهيا مع الاساليب التي ألفها الرومان قديماً. فقد وجّه من ميدان بطرس في روما، حيث احتشد

هناك مئات الآلاف من الحجيج والزوار، «تحية قلبية الى الشعب التركي الحبيب»، ورجا المؤمنين بعد أداء صلاة ملاك الرب التقليدية أن يصلّوا بدورهم من أجل أن تؤتي مسيرة الحج كل ثمارها المرجوة من الله. ويشار في هذا السياق الى أن عدد المحتشدين للاستماع إلى البابا في روما بلغ أضعاف تعداد المشاركين في فعاليات الاحتجاج في اسطنبول ضد زيارته إلى تركيا. أجل، إنه وجّه الحديث الى الشعب التركي بعبارات مجاملة، قائلاً:

«أود الإعراب عن مشاعر التقدير والصداقة المخلصة تجاه الشعب الغني بالتراث والتاريخ، وتجاه ممثليه. وإنني لأدعو بالعناية السماوية للمرحوم يوحنا الثالث والعشرين، الذي كان مندوباً رسولياً سفيراً للفاتيكان مدة عشرة أعوام في تركيا، وكان يكن التقدير والمودة لهذه الأمة التركية.»

لقد وجدت كلمات البابا صدى طيبا في تركيا، وفي يوم الاثنين انطلقت من هذه البلاد اشارات ودية أخرى. فالحكومة التركية علّقت كما قيل أهمية قيّمة على عدم فشل زيارة قداسته، بدءاً من تواجده في العاصمة أنقرة. ورأى رئيس مجلس الوزراء أردوغان أن لقاءه مع البابا سيحقق له مكاسب سياسية على صعيد السياسة الداخلية، بعد أن كان في البداية متحفظاً على اللقاء، فاتخذ قراره بالترحيب بالضيف في المطار.

أجل لقد كان من الملفت للنظر بالنسبة الى أردوغان أن عدد المشاركين في التظاهرة الاحتجاجية الكبيرة في اسطنبول يوم الأحد لم يصل الى 150 ألف متظاهر، على الرغم من التوقعات بوصول عدد المتظاهرين إلى مليون شخص.

وعلاوة على ذلك فإن البابا بينيديكت، كما علمت أنا شخصياً، تدارس في نطاق التحضير لخطاباته السياسية الهامة نصوص الدستور التركي بصورة مميزة، بالإضافة إلى التراث الفكري لأتاتورك، مؤسس الجمهورية التركية العلمانية الحديثة غير المتقيّدة بالإسلام.

فمن استقراء هذه النصوص الدستورية اتضح أن المسائل الدينية الكبيرة، والمتعلقة

بالتسامح العقلاني، والتخلّي عن العنف من قبل المؤمنين في تركيا، التي يشكل المسلمون نسبة 98٪ من مجموع سكانها، ليست بمثاليات غريبة في هذه البلاد.

وبهذا أعلمنا بالتلميح: أن محاضرة البابا في ريجينسبورغ أدّت أيضاً – وبصرف النظر عن اقتباس الإساءة إلى النبي– إلى طرح مشكلة طالت موضوع الفهم الذاتي السائد بين المسلمين عموماً، كما أن المشكلة قيّمت بأنها مركزية ضمن نهج السياسة الداخلية، وفي إطار الفهم لمضامين دستور الجمهورية التركية. كان المفروض بعد انجاز التحضيرات أن يبدأ الحراك، وها قد بدأ في الساعة التاسعة من صباح الثلاثاء في 28 تشرين الثاني (نوفمبر) 2006م بمبادرة من البابا بينيديكت الذي لم يكن خائفاً، بل تحدث الى الصحفيين معرباً عن ترحيبه بهم، بعد برهة قصيرة من إقلاع طائرته. وتطرّق بالتأكيد إلى أهداف زيارته بعبارات تقليدية، قائلاً بأنها «زيارة تتم في فترة تاريخية صعبة»، إلا أنه وصف مهمته من خلال القول:

بأنها تكمن في القاء الضوء على العلاقات الخلافية والتوافقية بين الشؤون الدنيوية والدينية في كل من الديانتين المسيحية والإسلامية، مشيراً إلى أن على تركيا إيجاد طريقها بين الحداثة والتقاليد. ولفت الانتباه إلى الفروق والقواسم المشتركة بين الطرفين، بدون تعمّد الإثارة.

اتّسم استقبال البابا بالتحفّظ في أنقرة، فهذه العاصمة الضخمة ابتلعت ضيف الدولة ومرافقيه بين عدد لايحصى من عماراتها السكنية الاسمنتية الشاهقة، ذات المنظر الرتيب. ولم يُستقطب للقائه والتصفيق له أحد من تلاميذ المدارس والشبيبة الأتراك. أما الذين شوهدوا على جوانب الطرقات فكانوا قلة من الناس محبي الاستطلاع. لكن زيارته سرعان ما حظيت بتغطية مكثّفة، وملفتة للانتباه في البرامج التلفزيونية.

آراء مختلفة بشأن السياسة والدين

كان من واجب البابا بينيديكت أن يؤكّد في خطاباته أهمية الحوار بين الديانات

والثقافات المختلفة. لكنّه بادر بدون تأخير الى الحديث كذلك عن اختلاف الآراء بين المسيحيين والمسلمين، بخصوص العلاقة ما بين السياسة والدين. وطالب «بممارسة فعّالة للحرية الدينية وبالتخلي عن العنف كتعبير لتطبيق ديني عملي مشروع»، إذن فإنه لم يُرد الاكتفاء بنطق كلمات منمّقة حلوة المذاق فقط، بل إنه عبّر عن وجهة نظره قائلاً: «إن ضمان الحرية الدينية دستورياً واحترامها الفعلي يمثلان لجميع المؤمنين أفراداً أو جماعات، الشرط الضروري لمساهماتهم المخلصة في بناء المجتمع».

وأعرب عن وصفه لتركيا مقتبساً كلمات أتاتورك، حينما قام بزيارة بروتوكوليّة الى ضريحه، طبقاً للبند الأوّل من برنامج جولته في تركيا، فقال: بأنها تُعَدّ «ملتقى للحضارات والأديان، وجسراً يربط آسيا بأوروبا».

لم يصل البابا في حديثه إلى ما هو أدق من تعبيراته السابقة حتى تلك اللحظات. أما مضيفوه رئيس الحكومة أردوغان ورئيس الجمهورية سيزير ووزير الشؤون الدينية برداق أوغلو فكانوا منشغلين أكثر بموضوعات، مثل المداولات الصعبة وطويلة الأمد حول انضمام تركيا الى عضوية الاتحاد الأوروبي، والتوتر بين الأصوليين المسلمين والمسيحيين المتنورين في المجتمعات الغربية، وكذلك تهمة الإرهاب الموجّهة إلى مسلمين متطرّفين. لقد وجد أردوغان فجأة أن البابا بينيديكت يتخذ موقف «الموافق» على انضمام بلاده الى الأتحاد الأوروبي، على الرغم من أن لحكومة الفاتيكان وجهة نظر واضحة – متسمة بتجنب الموافقة أوالاعتراض–، ومتضمنة الإشارة الى الشروط التي يطالب الاتحاد تركيا بتلبيتها.

محاضرة «ريجينسبورغ» في ثوب تركي

تحدّث البابا أمام أعضاء السلك الدبلوماسي، ولم يقتبس في حديثه عن التسامح الديني عبارات حول الشؤون المسيحية – الأوروبية، وانما حول شؤون تركية، فقال:

«اتخذت تركيا في القرن المنصرم قرارها لصالح نظام العلمانية، الذي يفصل

بوضوح بين المجتمعين المدني والديني، بحيث يكون كل منهما مستقلاً في مجاله، مع احترامه لمجالات الطرف الآخر.

ويجب على الدولة أن تأخذ في حسبانها الحقيقة المتضمنة بأن المسلمين يشكّلون أغلبية سكان البلاد. لكن الدستور التركي يعترف بحق كل مواطن في التمتّع بالحرية الدينية، وحرية الإنصياع الى صوت الضمير. وتكمن مهمة جميع مرجعيات السلطات المدنية في تنظيم حياتهم ضمن الطوائف الدينية الخاصة بهم. ومن البديهي أنني أتمنى بأن يتمتع جميع المؤمنين بحقوقهم باستمرار، بصرف النظر عن المعتقدات التي ينتمون إليها. وإنني لانطلق في ذلك من اليقين بأن الحرية الدينية هي تعبير أساسي عن حرية الإنسان، وبأن الحضور الفعّال للديانات في مجتمع من المجتمعات يشكل عامل تقدّم وإثراء لصالح الجميع. ويتضمّن ذلك بالتأكيد عدم محاولة الأديان من جانبها ممارسة سلطة سياسية مباشرة، لأنها غير مدعوة لذلك، ولا سيما أنها تتخلّى بشكل مطلق عن اللجوء إلى العنف، وعن تبريره كتعبير مشروع عن التطبيق الديني العملي».

كانت هذه الكلمات رديفاً لمضمون نص محاضرة «ريجينسبورغ»، إلاّ أنها منمّقة بما يتطابق مع الحالة التركية. فقد عكست المسارات الأساسية الحديثة لحيادية الدولة تجاه الدين، مع افتقار الحيادية تجاهه في مجتمعات إسلامية.

ومن خلال تلك الكلمات أراد البابا بينيديكت حسب ما أضافه من القول أن تُضمن للأديان امكانيات تلبية مهامها في العالم، في الوقت الذي تعايش فيه تبايناتها التاريخية والثقافية، «بدون تصادم، بل في جو من التقدير المتبادل».

لكنّ الكلمات التي تنم عن الذكاء لم تسفر بعد عن تلاشي الاحتكاك بين الديانات.

فلم يتوان «وزير الشؤون الدينية» برداق أوغلو عن تلقين الدروس في هذا السياق، بل سارع الى القول ببرود بأن على القادة الدينيين ألا يحاولوا «التعبير عن الرغبة في البرهنة

على تفوق دياناتهم، وإضاعة الوقت في مناقشات لا هوتية».

وقد شكا من «الإسلام فوبيا» بوصفه خوفاً هستيرياً على صعيد العالم، علماً بأن المسلمين أناس أبرياء، يتسمون بالودية وتقدير العقل أيضاً، حسب ما يرى وزير الشؤون الدينية في أنقرة.

حسناً، لقد انتهى النقاش، غير أن الوزير برداق أوغلو، الذي كان من أوائل الناقدين للبابا بعد محاضرته في ريجينسبورغ رأى أن زيارة قداسته إلى تركيا شكّلت «خطوة إيجابية». فرؤيته هذه هي تطوّر جيد مهما كان الأمر.

الأخذ بالأقوال

لم تخلُ مشاعر البابا من الرضا، عندما سمع ما ذكره وزير الشؤون الدينية التركي المسؤول عن إدارة شؤون الشريعة لمجتمع إسلامي، في دولة علمانية رسمياً حسب دستورها. فقد أكّد الوزير بإلحاح على أن المسلمين أناس مسالمون، وعلى أن رسالة محمّد مفعمة بالحِلم الكامل والرفق، إذن فلا بد من أن يُؤخذ برداق أوغلو بأقواله. فمحاضرة «ريجينسبورغ» كانت تهدف تماماً إلى تحقيق مثل هذه التأكيدات، التي لا ينبغي الآن سوى إتباعها بالأفعال الخيّرة، أو بترك الممارسات السيئة.

فقد كان بوسع الوزير – وهو مفتي أيضا– أن يقوم كلّما واتته الفرصة بتنبيه الجماهير الهائجة بين المغرب واندونيسيا ومن خلال كلمات واضحة، للتجاوب مع الدعوات السلمية للقادة الدينيين، تطبيقاً للمفاهيم الصحيحة لتعاليم النبي محمّد. وهكذا كانت أنقرة بمثابة سورة تنص على السلم بالتطابق مع كلمات البابا بينيديكت التي تضمنت ما مفاده: أن قتل إنسان بريء باسم الله هو اثم واستهتار بالله وبالكرامة الإنسانية.

وعلى أية حال فإن بينيديكت قام بعد ظهر يوم الثلاثاء بزيارة إلى كل من كنيسة أيا صوفيا والجامع الأزرق [جامع السلطان أحمد] فقّيمت الزيارتان كلتاهما من قبل الحكومة ووزراء الشؤون الدينية في تركيا بأنهما هامتان. واعتُبرتا بمثابة إشارات قيّمة

من البابا، بخصوص الاستعداد إلى استمرار الحوار بين المسيحيين والمسلمين، بروح من الاحترام والفهم المتبادلين، وبدون تعميق شرخ الخلافات الماضية، والفروق الثقافية.

كنيسة أيا صوفيا والجامع الأزرق

هذه الكنيسة التي تعني تسميتها (الحكمة المقدسة) بناها في القرن السابع الميلادي القيصر البيزنطي جوستنيان، وكانت فيما مضى أفخم كنيسة للمسيحيين.

وفي عام 1204م نُهبت بوحشية من قبل الصليبيين البابويين القادمين من الغرب، وحوّلها المسلمون العثمانيون بعد فتحهم القسطنطينية (عام 1453م) إلى مسجد، وبقيت هكذا حتى حُوّلت بأمر من أتاتورك إلى متحف، ولم تعد مخصصة بعد ذلك لممارسة الشعائر الدينية.

وعلى العكس منها فإن الجامع الأزرق هو المسجد الرئيسي في اسطنبول، العاصمة السابقة لأهم دولة إسلامية في حينها، وهي الامبراطورية العثمانية التي كانت مناطق سيادتها تمتد من شواطيء البحر الأسود حتى مصر. ويحظى الجامع الأزرق بتقدير مرموق من المسلمين. وهكذا فإن البابا عبّر من خلال زيارته للكنيسة والمسجد – كما علم من المحيطين به– عن تفهّمه للتغيرات التاريخية، وعن انفتاحه على الإلتقاء مع العقيدة التي دعا اليها الرسول محمد، فهذا هو ما أعرب عنه قداسته بدون نقص أو زيادة.

ويُستنتج موقفه الموصوف هكذا من خلال النظر إلى تعابير وجهه، وملاحظة الارتباك الذي بدا من حركة يديه. إنه لم يكن مسيطراً على نفسه مثل يوحنا بولص الثاني عندما دخل إلى المسجد الأموي في دمشق في شهر أيار (مايو) 2001م. وبالمناسبة فإن وسائل الإعلام لاحظت أن بينيديكت احترم الطابع المتحفي لكنيسة أيا صوفيا، المتسم بناؤها بفن معماري مدهش، ولم يقم بأداء الصلاة فيها. وحظي تصرّفه بالاستحسان، حينما دخل الجامع الأزرق كزائر يقظ وعابد صامت.

وهكذا تناقص عدد المسلمين المحتجين على زيارته، فلم يزد العدد عن بعض مئات

المتظاهرين، حسب ما ذكره المعنيون لدى قوات الأمن التركية، التي كثّفت من وجودها في اسطنبول.

أعرب البابا بينيديكت قبل إقلاع طائرته للعودة يوم الجمعة عن امتنانه لمسؤولي السلطة الأتراك، وشكرهم على نجاح زيارته، إذ تطابق تقييمها بالنجاح مع ما أوردته صحف تركية من تقارير وتعليقات في هذا الشأن. وبهذا تحوّلت صورة البابا في تركيا منذ وصوله إليها من السلبية إلى الإيجابية. وكان الأمر الحاسم الذي أدّى إلى هذا التحوّل كامناً في تكرار البابا بينيديكت تأكيده على احساسه «بالتقدير والودّ تجاه الشعب التركي الحبيب»، مع اقتباسه عبارة من كلمات سابقة ليوحنا الثالث والعشرين، حينما قال: «إنني أحب الأتراك». وبذلك فإن بينيديكت بدّل ريشه كما قيل في الختام، ليتحوّل «من عالم متخصص في اللاهوت إلى دبلوماسي».

ارتياح للخاتمة السعيدة للزيارة

تملّكت مشاعر الارتياح البابا بينيديكت نفسه وجميع القريبين منه وهم في طريق العودة، بسبب النهاية السعيدة للزيارة، فلم تنفّذ أثناءها ضربة عدوانية، ولم تحدث أمور مستنكرة ولو عبر الكلمات، وهذه النتيجة ليست بديهية. ومثلما كانت التهديدات الموجّهة إلى رئيس الكنيسة الكاثوليكية خلال الزيارات البابوية السابقة تؤخذ بمنتهى الجدية، فإنّ شبح الرعب من اعتداء إرهابي قد رافق بينيديكت ومرافقيه هذه المرّة في العاصمة أنقرة، وفي أفسوس الوادعة ذات الجو الشاعري، وكذلك في اسطنبول، حاضرة المساجد.

ولم يكن هناك قبل زيارته مطلقاً تدقيق شديد لكلام البابوات، أما الأستاذ الجامعي لعلم اللاهوت يوسف راتسينجر فقد شكّل استثناء لجميع الحالات السابقة، عندما أصبح بابا وتربّع على عرش الكرسي الرسولي بطرس. إنه استوعب بعد محاضرته في ريجينسبورغ والخبرات المؤلمة من الحملة الموجهة ضده، تلك الدروس التي تتيح

له الاستفادة من امكانيات الاستعراض العلني، واستخدام وسائل اكتساب الشعبية لصالحه من خلال شرح موقفه. أجل إنه كان يعتبر قبل فترة قصيرة عدواً للمسلمين، غير أنه دأب منذ بضعة أيام على الحديث بعبارات تنّم عن الذكاء مثل سابقه، معبّراً عن مشاعر التقدير والصداقة والمحبة تجاه الشعب التركي تحت راية الهلال. وفي ختام الزيارة تبدّى وكأنه فقد قلبه في اسطنبول، لكن عقله لم يفقد، وكذلك فإن رسالته بقيت واضحة.

إن البابا لم يقدّم أي تنازل عن مضامين توجهاته، بخصوص تعاليم اللاهوت المسيحي والنهج السياسي للكنيسة الكاثوليكية، ضمن العلاقة مع الإسلام. فلم يكن ملزماً بشراء رضى الأتراك، ولا بدفع ثمن مقابل إعلان المسلمين عن موافقتهم على التخلّي عن العنف، كما أن قداسته لم يلتزم باصدار تصريح عن الكنيسة الكاثوليكية، متضمناً عدم اعتراضها على انضمام تركيا إلى عضوية الاتحاد الأوروبي. إذن فإن موقف قيادة الفاتيكان في روما بقي على حاله دون تغيير.

تركيا وطابعها الثقافي الآسيوي

تحبّذ دبلوماسية الفاتيكان، كما يمثلها رئيس الحكومة الكاردينال بيرتوني، كل ما تتخذه تركيا من خطوات، وهي تحث خطاها للسير على طريق أوروبي.

أما التقييم البابوي، الذي عبّر عنه الكاردينال راتسينجر قبل أن يترأس الكنيسة الكاثوليكية، فيتم اتخاذ القرار بشأنه وفقاً للحقائق الأساسية: وبموجب ذلك فإن الطابع الثقافي الآسيوي هو الذي يسم تركيا وشعبها. وليست لتوضيح هذا الطابع أبعاد ذات صلة بالحكمة الإغريقية، ولا الوعي القانوني المعروف في روما، ولا العقلانية أو حركة التنوير الأوروبية. ويبدو أن هذا الطرح متطابق مع حقيقة التقسيم الجغرافي للبلاد، إذ أن القسم الآسيوي منها يشكل 97٪، بينما لا يضم القسم الأوروبي سوى 3٪ من مساحتها الكلية.

وبالإضافة إلى ذلك فإن عدد سكان تركيا يصل اليوم إلى 72 مليون نسمة (مع الميل إلى قابلية الزيادة)، وهذا ما يعادل تعداد سكان خمس عشرة دولة صغيرة من دول الاتحاد الأوروبي، من اليونان إلى مالطا.

وينظر المعنيون لدى الفاتيكان إلى هذه الوقائع بعيون اليقظة، فيأخذونها بحسبانهم ضمن وجهات نظر أخرى. أما طريق تركيا إلى الاتحاد الأوروبي، فلا يَقوم أحد لدى الفاتيكان بوضع عراقيل عليها. ومع ذلك فإن هنالك نقاطاً على الطريق لتحديد المسافات حتى الوصول إلى الهدف.

وُيشكّل احدى هذه النقاط على سبيل المثال البطريرك المسكوني للقسطنطينية بارثولومويس، الذي يحمل لقب الحبر الفخري لحوالي 150 مليون نسمة من المسيحيين الأرثوذوكس. وهو يوناني يقيم في تركيا لأسباب تاريخية، ولا يخلو الأمر من تعرّضه مع أتباع طائفته الصغيرة إلى عوائق في هذه البلاد.

وقد طالب البابا والبطريرك في تصريح مشترك وفي سياق موضوع المداولات بخصوص انضمام تركيا الى الاتحاد الأوروبي، بما «لايمكن التصرّف به من حقوق انسانية للشخص، ولا سيما تلك الحقوق المتعلّقة بالحرية الدينية، التي تُعدّ بمثابة دليل وضمان «للاحترام تجاه كل حرية من الحريات الأخرى»».

وعبّر زيادة على ذلك عن المطالبة بالحفاظ على حقوق الأقليات من خلال قولهما:» ينبغي العمل على حماية الأقليات وتقاليدها الثقافية وخصوصياتها الدينية». ولا يمكن للأوروبيين أن يتجاهلوا هذه الأمور وغيرها في نطاق حوارهم مع الإسلام. وفي يوم الأحد التالي، الموافق للثالث من كانون الأول (ديسمبر) 2006م تحدّث بينيديكت عن زيارته الى تركيا، قائلاً بأنه اكتسب منها «خبرة لاتُنسى في شؤون الرعاية الروحية، التي يأمل أن يتنامى منها ما هو جيد للحوار المجدي مع المسلمين المؤمنين بعقيدتهم». وأعرب أيضاً أمام مئات ألاف الحجاج والزائرين الوافدين من مختلف أنحاء العالم والمحتشدين في ميدان بطرس عن شكره إلى الأتراك، قائلاً بأنه يشكر «مرجعيات السلطة في تركيا،

والشعب التركي الصديق، الذي أعدّ له استقبالاً يليق بالروح المنبثقة من تقاليده في إكرام الضيوف».

مسلمون علمانيون

تحدّث البابا بينيديكت في اللقاء التقليدي العام معه يوم الأربعاء في السادس من شهر كانون الثاني (ديسمبر) عن «جرد سعيد» لحصيلة مجريات زيارته الى تركيا.

وطرح مجدداً موضوع ما يثار من النقد التهجمي ضدها، نظراً لأنها «علمانية» حسب دستورها، ولكنها ذات طابع إسلامي، حيث أن المسلمين يشكّلون نسبة 98٪ من مجموع سكانها. فعبّر عن وجهة نظره في هذا السياق من خلال قوله: «إنّ من الضروري أن يعاد التفكير من الجهة الأولى في حقيقة الله وفي الأهمية المعلنة للاعتقاد الديني، ومن الجهة الأخرى يجب أن تضمن حرية التعبير عن الايمان بدون حدوث أية بلبلة أصولية، مع توفر القدرة على نبذ كل أشكال العنف». ولا بد أيضاً – حسب ما ذكر قداسته– من تثبيت حالة «تتأطر فيها قيمة للفصل ما بين الشؤون المدنية والدينية، مع تقديم ضمان من الدولة بمنح المواطنين وأتباع الطوائف الدينية حرية حقيقية في ممارسة الشعائر المطلوبة ضمن معتقداتهم».

وأبلغنا بينيديكت أن العناية الإلهية مكّنته من إبداء لفتة، في نطاق الحوار بين الأديان، وهي التي تمثّلت في «دخوله إلى الجامع الأزرق المشهور في اسطنبول»، قبيل انتهاء زيارته إلى تركيا، مما لم يكن مخططاً له أصلاً، وتطرّق إلى هذا الحدث قائلاً بالنص الحرفي: «جَمَعت تأملاتي لبضع دقائق متوجهاً إلى رب السموات والأرض، الأب الرحيم للبشرية كلها، ودعوته إلى هداية جميع المؤمنين إلى الاعتراف بأنهم من مخلوقاته، وإلى أن يصبحوا شهوداً على أخوّة حقيقية».

الفصل الرابع والعشرون

الحوار يتواصل – الاسلام والحداثة

التقط البابا بينيديكت أنفاسه ليستمر في أنشطته بعد النجاح الخارجي الذي حققه من خلال زيارته إلى تركيا، مدركاً أنّ الأمور حسب الفهم الجديد ليست متعلّقة بالإسلام وحده، بل بجميع الأديان، وأنها غير مرتبطة بأزمة بين الديانات قابلة للتسوية، وإنما بمجابهة الثقافة المضادة المستندة إلى العنف والتدمير في أي مكان تظهر منه. ففي خطابه التقليدي الذي ألقاه على مسامع أعضاء حكومة الفاتيكان في الثاني والعشرين كانون الأول (ديسمبر) 2006 م أعرب عن قلقه من احتمال التصادم بين الثقافات والأديان، معتبراً هذا التصادم المحتمل «خطراً سابقاً ولاحقاً، مما يهدد بإلقاء العبء على هذه اللحظات من تاريخنا».

وتطرّق البابا في خطابه هذا، الذي يُعد مراجعة حسابات لتقييم مجريات العام بكامله، إلى زياراته الرسولية الأربع. وهي التي أوصلته إلى كل من بولندا، ومدينة بلنسية في اسبانيا، وولاية بافاريا الألمانية، ثم إلى تركيا. واعتبر أن زياراته هذه تشكّل منطلقاً لتحليلات في التاريخ السياسي والفكري على صعيد العالم، وأن من الممكن الانطلاق منها للافصاح عن تنبيهات للوعظ.

وتطرّق قداسته إلى ذكرياته بوصفه المواطن الألماني يوسف راتسينجر الذي بدا عليه التأثّر بوضوح، أثناء إلقاء كلمة في معسكر الاعتقال النازي أوسشفيتس – بيركيناو، بصفته رمزاً للوحشية، فقال بأنه رأى وهو يلقي بالكلمة كيف تجلّى قوس قزح من بين السحب، فأحس بأنه يرمز إلى المواساة والمصالحة، ووصف حالته حينئذ من خلال قوله حرفياً: «استصرخت النجدة متضرعاً إلى الله من هول وحشية معسكر الاعتقال هذا، وكنت مهتز الكيان ومصدوماً، مثل أيوب الذي صرخ مستغيثاً بالله، ثم اهتز كيانه عندما

اتضح له احتجاب الله عنه».

إن نسيان الإله في نطاق الحوار بين الأديان هو الذي يشكّل أكبر الأخطاء في العالم الغربي. ولكن قوة المعرفة لدى الانسان، التي تحققت لها «نجاحات لا يمكن تصوّرها» منذ عهد التنوير في القرن الثامن عشر، لا يجوز أن تنغلق على ذاتها، بل يجب أن تنفتح هذه المعرفة على الله باعتباره «العقل الخلاّق». فالعقلانية العلمانية بشكل كامل ليست بقادرة على الحوار مع ديانات وثقافات أخرى، وفقاً لما ذكره البابا بينيديكت باسلوب تحذيري، معبّراً عنه بالقول حرفياً:

«إن العقلانية العلمانية وحدها ليست في وضع يتيح لها الدخول في حوار فعلي مع الأديان. وإذا بقيت منغلقة على الموضوع المتصّل بالله، فإن بقاءها هكذا يؤدي إلى تصادم الثقافات». ولكن قداسته لم يعد يخوض مباشرة في ما أحدثته محاضرته في ريجينسبورغ من ردود فعل في العالم الإسلامي. ولم يقل في هذا السياق إلا عبارات، مفادها: «زيارتي إلى تركيا منحتني فرصة لأعرب وبشكل علني أيضاً عن تقديري للدين الإسلامي».

العالم الإسلامي أمام التنوير

كرر البابا بينيديكت السادس عشر مع ذلك السؤال ذاته الذي طرحه في ريجينسبورغ عن كيفية معالجة رسالة النبي محمد للقضايا ذات الصلة بالعنف وبالعالم الحديث. وعبّر البابا عن هذا الطرح في نطاق توضيحه بأنه يقف إلى جانب الحوار مع الإسلام، قائلاً:

> *« يرى العالم الإسلامي أنه يواجه اليوم مهمة ملحة تماماً، وسبق للمسيحيين مواجهتها في عصر التنوير، حيث وجد لها المجمع الثاني للفاتيكان (بين عامي 1962 و 1965م)، نتيجة المساعي المضنية والجهود طويلة الأمد، حلولاً محددة بدقة لصالح الكنيسة الكاثوليكية».*

وفي هذا الإطار يجب تجنّب «ديكتاتورية العقل الوضعي الذي ينكر وجود الإله» من جهة، ومن الجهة الأخرى احترام منجزات التنوير، ومنها على سبيل المثال: منح حقوق

الإنسان المتضمّنة حرية التعبير وممارسة الشعائر الدينية. إن الإسلام ليقف أمام هذه المهمة الهائلة، تماماً مثلما يتوجّب على المسيحيين مواصلة السعي إلى المصالحة بين العقيدة والعالم الحديث.

فهل أراد بينيديكت من خلال كلامه هذا أن يدخل في مجابهة مع الإسلام مجدداً، على الرغم من أنه لم يكد يستطيع إلا بجهد جهيد تهدئة ردود الفعل على إهانته المزعومة للنبي محمّد إلا مؤخّراً؟، هل حدد رئيس الكنيسة الكاثوليكية مسبقاً وبصلفٍ برنامج الأفكار الخاص بالفترة الزمنية اللاحقة، لقادة الدين ومفسريه من المسلمين؟، أم أنه بث الدعاية بنيّة طيّبة من أجل فهم دين، رأى أنه بصدد مواجهة مشكلات أكبر، (وفي ختام هذه الأسئلة) هل رغب البابا في وجود عقيدة اسلامية جديرة بالتصديق، أم أنه خشي منها؟

حار المعنيون لدى الفاتيكان في بادىء الأمر في ماهية الدوافع التي حفزت بينيديكت على صياغة عباراته الجديدة. أما أولئك الأساقفة الذين يعرفونه كعالم لاهوت ألماني تسلّم منصب البابا، فإن ميولهم في تفسير الحدث تضمّنت أن دوافعه كانت ذات أبعاد فكرية وتصالحية، وليست ذات صلة بالمجابهة أو السياسة الكنسية.

واستعرض هؤلاء حججهم كما يأتي: لعلّه لايوجد سوى عدد قليل من المتخصصين المسلمين في العلوم الإسلامية، الملّمين تماماً بتأثيرات أفكار التنوير على المسيحية خلال قرنين ونصف من الزمن. وهؤلاء هم مطّلعون حتى بدرجة أقل على تلك «المساعي المضنية وطويلة الأمد»، التي بذلها أساقفة وعلماء لاهوت كثيرون من أجل التوصّل إلى حلول لمشاكل التعارض ما بين العقل والايمان، بين الكنيسة والعالم الحديث. أما البابا العالم المتخصص باللاهوت فلديه معلومات ذات مستوى رفيع جداً عن أزمة التناقضات الرئيسية هذه: ما بين العقل العلماني المستقل، وغير الخاضع لمعطيات ما فوق الطبيعة، وبين مطلب الاعتقاد بوحي إلهي مباشر.

وقد تولّت النخب الفكرية الأوروبية، بمن فيهم فولتير (1694 – 1778م) من خلال أدبياته المعممة بشكل واسع، شرح ما كان مقصوداً من أفكار التنوير. وجه فولتير في ذلك

الحين انتقادات تهجمية ضد الصلة المترابطة بين «التاج والمحراب»، ضد المساندة المتبادلة بين السلطتين الدنيوية والروحية، ممثلتين بالملك والقسيس كروح مشتركة كانت تحل في جسد الكاردينال السياسي، من أجل قمع المواطن الحر والمتسم بالوعي.

إذن فيجب الانطلاق من انتقاداته هذه لنقل الأوضاع التي انتقدها إلى العالم الإسلامي في الآونة الراهنة، بخصوص مسألة العلاقة بين الدين والسياسة، في نطاق المطالبة بالفصل بين قانون الدولة وبين التعاليم الدينية الواردة في القرآن.

إن الأمور التي لم تزل تبدو بديهية لمسلمين كثيرين في أيامنا هذه - حتى ولو وُجِدتْ فروقٌ كبيرة جداً بين كل دولة إسلامية وأخرى -، كانت مشابهة أيضاً لما عايشه المسيحيون خلال قرون زمنية سابقة، وتم التعبير عن ذلك بصياغات، مثل: «أمراء بنعمة الله»، أو «مجتمع قائم على أساس ديني كونه ذائداً عن الأخلاق وحارساً عليها».

وإذا كان فولتير قد دأب باستمرار على مطالبته العلنية الصارخة «بتقويض المسلكيات الشائنة»، فانه عنى بذلك: عدم العقلانية وتصَنُّع التقوى وتقاليد النفاق. وكل هذه المسلكيات كانت متبعة من قبل القوى المسيحية وأصحاب السلطان في أوروبا، ولكن ليس لصالح الرعايا.

أسئلة موجهة إلى الله - الإله موضع تساؤل

لكن الأوروبيين كانوا أنفسهم في القرن الثامن عشر قد ابتعدوا عن الله بعض الابتعاد، ونأوا بأنفسهم على الأقل عما يعكسه الإيمان المسيحي من صورة لله، الذي يُبدي اهتمامه بالناس: ابتدأ الانجليز المعروفون بالبراغماتية بالابتعاد عن الله، عبر المناداة بمذهب الربوبية المستند إلى عدم تنزيل الوحي. وفي نطاق هذا المذهب لم يعترف الانجليز المنادون به إلاّ بعلة بعيدة، هي وحدها التي عُزيت إليها احداث العالم. أما الفرنسيون فلم يرغبوا في ادخال إله إلى حياتهم، سواء كان رؤوفاً أم لم يكن. وعلى أية حال فقد طُرح ذلك التساؤل المتوغل في القدم عن ماهية الشر، وعن المعاناة الانسانية في العالم، بطريقة تمس مفهوم الإله لدى

المسيحيين بشكل رئيسي. وقد اهتز فلاسفة العالم الغربي بتأثير هذه النظرية اللاهوتية ذات الصلة بالعدالة الإلهية.

ماذا سيحدث لو أن المسلمين لم يعودوا مكتفين بالثناء على الله العظيم، بل لو أنهم تحولوا إلى طرح أسئلة عقلانية متتالية عليه، عن مغزى الحياة البشرية؟، وكيف يمكن للاسلام مواجهة هذه المهمة الضخمة، الرامية إلى المصالحة بين الايمان والعالم الحديث؟

في ظل حركة التنوير حلّت العلوم الطبيعية في أوروبا مكان الايمان بوصفها منظوراً للعالم، ومساعدة في التوجه المعيشي بالاضافة إلى معالجة الشؤون اليومية.

وبذل العلماء المتسمون بالدقة في ميادين الفكر الانساني عموماً وفي التاريخ والآثار جهودهم المكثّفة لتمحيص نصوص الأناجيل المقدسة، مستنتجين أن النص الحرفي لا يتسم بالصحة دائماً، وأنّ من غير الممكن اعتبار الروح القدس محركاً لكل الأحداث المعنية.

أما في الجانب الإسلامي فيصعب على المسلم أن يفكر في أيامنا هذه في مقاربة التعامل مع القرآن بأسلوب تاريخي نقدي، مستنداً إلى اجراء مقارنات بين النصوص، وإلى بحوث تاريخية حول المصادر، ولا سيما أن الإسلام يتضمّن وجوب الايمان بالقرآن كوحي مباشر من الله إلى نبيه محمّد. فلم يزل الله ومحمد والقرآن داخل سور حماية، غير قابل للاقتراب منه أبداً، علماً بأن مثل هذا السور الخاص بإله المسيحيين وبكتابهم المقدّس قد تهاوى منذ زمن بعيد.

ماذا سيحدث لو رغب المستنيرون في البلدان الإسلامية في أن تُعرَضَ على مسارح مدنهم مسرحية فولتير (التي أُلفت عام 1742م) تحت عنوان: «التعصب أو النبي محمد»– علماً بأنّ هذا العنوان يعدّ برنامجاً بحد ذاته؟، إن نص المسرحية هذا – الذي لا يُعدّ من نصوص فولتير المتميّزة– قد تعرّض للحظر سابقاً، لأن رجال الدين المسيحيين أحسّوا بالتهجم عليهم من خلاله. أجل إن البابا اكتسب خبرة كافية في حالة ابداء التهكّم، والاستناد إلى العقل في ذلك.

لكن المسيحيين والمسلمين يستطيعون الالتقاء على نقطة التقاطع هذه بالذات، وهي

المتصلة بالموضوع المشار إليه. فاللقاء مطلوب بصورة خاصة من المؤمنين الملتزمين، علماً بأن البابا عبّر عن وجوب الإلتقاء من خلال قوله:

«إن المسألة لتتعلق بأوضاع جماعة المؤمنين بالنظر إلى الرؤى والمطالب، التي انطلقت متنامية من توجهات التنوير. من الناحية الأولى فإن المطلوب سريان مفعوله هو الاعتراض على ديكتاتورية العقل الوضعي، الذي يستبعد الله من الحياة الجماعية ومن النظام العام، ويستلب بالتالي من الإنسان معاييره التي يقيس عليها. ومن الناحية الأخرى فيجب استيعاب المنجزات الحقيقية للتنوير، وهي المتمثّلة في حقوق الإنسان وخاصة التمتّع بالحرية الدينية وحرية ممارسة شعائر العقيدة، كونها بالذات عناصر جوهرية لجدارة الدين بالتصديق والوثوقية أيضاً».

وقد انطلق بينيديكت من خبراته التاريخية بخصوص الكنيسة والإيمان المسيحي، حينما تحدّث عن توقعاته للإسلام، قائلاً: «مثلما احتدم بين أوساط المسيحيين جدل طويل الأمد حول موقف الإيمان تجاه هذه الرؤى، دون أن يصل الجدل بالطبع إلى نهايته تماماً، فإن العالم الإسلامي بتراثه الذاتي يقف أيضاً أمام مهمة كبيرة، تكمن في إيجاد الحلول المناسبة. ويجب أن يدور محتوى الحوار بين المسيحيين والمسلمين في هذه اللحظات قبل كل شيء حول الالتقاء في بذل هذه الجهود المطلوبة، وإيجاد الحلول السليمة».

إن نسيان الغرب للإله يخدم في يومنا هذا بعض القوى في العالم الإسلامي، فتستخدمه ذريعة للدعاية لممارسة العنف، بوصفه جزءاً من الدين. ونحن المسيحيين نعرف بأننا متضامنون مع جميع أولئك، الذين ينطلقون بالذات من قناعاتهم الدينية كمسلمين، ليقفوا ضدّ ممارسة العنف، وإلى جانب التعايش المشترك بين العقل والإيمان، بين الدين والحرية. لو تم ذلك، لكان بمثابة تعايش مشترك جديد تماماً.

الفصل الخامس والعشرون

الشخصيات الأساسية الفاعلة لدى الفاتيكان في ميدان الحوار مع الإسلام

تُتّخذ القرارات المتعلقة باختيار الأشخاص لوظائف محددة في الفاتيكان بالاستناد إلى مسّوغات كثيرة. وتُوصَف تلك الأسباب بالجيدة أو التأملية أو الواضحة أو الواقعية أو ذات الصلة برغبة البابا. وينطبق هذا الأمر المتعلّق بأوصاف القرارات على الأسقف الأعلى فيتزجيرالد بدرجة مميّزة.

إنه من انجلترا ومن مواليد 1937م، التحق بعضوية جمعية «مبشّري إفريقيا» الكنسية. وكان هؤلاء المبشرون يضمون بين صفوفهم قساوسة وأعضاء من غير رجال الدين، وأطلقت عليهم تسمية «الآباء البيض» نسبة إلى ما دأبوا على ارتدائه من الثياب البيض تكيّفاً مع تقاليد البلاد التي مارسوا فيها نشاطهم التبشيري. تأسست هذه الجمعية في الجزائر عام 1868م، وانطلقت في ممارسة دعوتها التبشيرية من أوروبا وأميركا الشمالية، أما هدفها فكان نشر الرسالة المسيحية في افريقيا، بما يعني التبشير. وفي نطاق عمل أعضاء الجمعية كان ينبغي عليهم استخدام أساليب مميّزة للتقارب من المواطنين المحليين، واحترام الثقافة السائدة في بلدانهم والعمل على أن يتاح لهم الاستناد إلى تعاليم كنيسة مستقلّة خاصة بهم. وهكذا أصبح هؤلاء «الآباء البيض» بمضيّ عشرات السنين من الملمين الكبار بالإسلام – مما حوّلهم إلى منافسين أيضاً.

إن جهودهم المدعمّة بالمعرفة الغزيرة والموسومة بالتعاطف حين دخولهم في حوار مع المسلمين لم تحظ دائماً بالتقدير، بل انبثق من تصرّفهم إحساس بأن تلك الجهود التي بذلوها تشكّل خطراً، مما عرض باذليها إلى العقاب وحتى إلى الحكم بالموت.

انخرط ميخائيل فيتزجيرالد في السلك الدبلوماسي لحكومة الفاتيكان، وتم تعيينه أسقفاً في شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة 1991م، وسكرتيراً للمجلس البابوي لشؤون

الحوار بين الأديان، إلى جانب الكاردينال النيجيري فرانسيس أراينز.

وبهذا بدا أنه تسلّم المركز الصحيح، وأنّه يستحق ترقيته اللاحقة، حيث أنه شغل منصب رئيس المجلس البابوي في الأول من تشرين الأول (أكتوبر) 2002م، حينما أُعفي منه أراينز ليصبح رئيس ادارة هيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة. ومع ذلك فإن البابا بينيديكت السادس عشر عيّنه في الخامس عشر من شباط (فبراير) 2006م سفيراً رسولياً للفاتيكان في مصر. ويُعدّ هذا التعيين وفقاً لبعض التحليلات بمثابة الحطّ من المكانة والنقل التأديبي.

وكان فيتزجيرالد بوصفه أسقفاً أعلى ورئيساً للمجلس البابوي قد تحدّث في نطاق مقابلة أجرتها معه محطة اذاعة الفاتيكان، قبل عشرة أيام من نقله إلى مصر، في الوقت الذي كانت تتضخّم فيه تداعيات الأزمة بسبب ما نُشِر في الدنمارك من الرسوم الكاريكاتورية عن الرسول محمد. وكانت مادة الاشتعال حول هذا الموضوع قد جُهّزَت خلال أشهر عديدة، وفقاً لأسلوب إخراج معروف منذ زمن قديم، حيث ظهر الجانب الإسلامي وكأنه في حوار يصدر عنه الاستياء والاستنكار.

ففي أيلول (سبتمبر) 2005م نشرت صحيفة «بيلاندس زيوستين» الدنماركية رسماً كاريكاتورياً «لوجه النبي» بشكل يوحي بالبلاهة وعدم الاحترام، مما يُعَد بين أوساط المتنورين الناقدين للأديان في أوروبا أمراً مألوفاً. ولكن هذا التصرّف يُعّد في نطاق عقيدة الإسلام مستنكراً بشكل مضاعف، وتمثيلاً تصويرياً وتجديفاً كذلك.

على أية حال فإن هذا الرسم الكاريكاتوري طُبع في مصر لاحقاً، في شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2005م، كما أن حدّة الغضب والهياج تفاقمت، حينما قام أئمة في الدنمارك بإعداد ملّف عن مثل هذه الرسوم الكاريكاتورية، وأضافوا إليها رسماً لكلب يعلو ظهر أحد المسلمين وهو يصلّي، مما يُشير الى شذوذ جنسي وإهانة، فلا بد أن يشعر المسلمون في العالم بأسره أنها تحولّهم فعلاً إلى موضوع للسخرية. أما الأسقف الأعلى فيتزجيرالد فقد استنكر الرسوم الكاريكاتورية، معبّراً عن استنكاره من خلال القول:

«أعتقد بأنّ علينا إدراك مدى قوة الإحساس الديني، وكيف أن المسلمين في

جميع أنحاء العالم يشعرون بالإهانة من هذه الرسوم الكاريكاتورية، التي لايبدو منها الاحترام لما يعتقدون بأنه مقدّس بالنسبة إليهم. ولا يجوز لنا أن نقلّل من شأن الاحترام الذي يكّنه المسلمون لنبيهم محمد. إن هنالك ميولاً في اتجاه تسويغ نشر مثل هذا النوع من الرسوم، بالاستناد إلى الحرية الدينية وحرية التعبير عن الرأي، ولكنّ لهذه الحرية حدوداً، ويجب أن تتم ممارستها بحذر، فاستفزاز الآخرين هو تصرّف غير سليم.

ولابد لنا بالدرجة الأولى من محاولة الاستماع إلى المسلمين، لكي يتضح لنا فحوى المشكلة، وحتى نستعلم منهم عما يؤدّي إلى شعورهم بالإهانة من هذا النمط من التعبير عن الرأي. وعلينا بعد ذلك أن نتحدّث معهم بكل هدوء، وهذا أمر يستطاع فعله. ومن واجبنا أيضاً مبادلتهم الحديث عن حق التعبير عن الرأي وعن حدوده كذلك. فلو تمكّنا من تبادل الحديث حول هذا الموضوع بروية، لكانت الأمور جيدة، علماً بأن ذلك يمثّل مهمة من مهام القادة الدينيين، ووسائل الإعلام أيضاً».

وقد أدان الأسقف الأعلى فيتزجيرالد الاحتجاجات ذات الطابع العنيف في العالم الإسلامي، إلاّ أنه عبّر عن وجوب تفهّمها أيضاً. ولكن رأيه هذا تم تقييمه من قبل الساسة الكنسيين في الفاتيكان، وعلى الأخص من رئيس الحكومة الكاردينال بيرتوني، بأنه تفَهُّم زائدعن الحدّ، فذكر بهذا الصدد أن زيادة التفَهُّم إلى هذه الدرجة يؤدي إلى تصعيب إجراء حوار واضح وجادّ.

في شهر آذار (مارس) عام 2006 م كُلّف الرئيس المحنّك للمجلس البابوي لشؤون الثقافة، وهو الكاردينال الفرنسي باول بوبارد المعروف بلطف المعشر، بالمشاركة في الإشراف مؤقتاً على مجلس شؤون الحوار. لكنه لم يقدّم مساعدة جدُّ كبيرة في تلطيف أجواء الأزمة، التي تعرّض لها البابا بعد يوم الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) 2006 م، بسبب الحديث عن الرسول محمد آنذاك، ولم يُرَد له كذلك أن يلعب دوراً أساسياً في تسوية تلك الأزمة.

فالفاعلون الأساسيون كانوا غيره، ومنهم مثلاً الكاردينال تارسيسيو بيرتوني الذي عُيّن يوم الخامس عشر من أيلول (سبتمبر) 2006 م رئيساً لحكومة الفاتيكان، أي بعد مضي ثلاثة أيام بالضبط على محاضرة البابا في ريجينسبورغ. وبعد تعيينه في منصبه تولّى صلاحية الإشراف على النهج السياسي لحكومة الفاتيكان، بينما اختص البابا نفسه بالقضايا الشمولية الكبرى.

كان بيرتوني في شهر حزيران (يونيو) 2006 م قد عُيّن من البابا بمرتبة «الرجل الثاني» في الفاتيكان، بوصفه أسقفاً أعلى وحاملاً لقب كاردينال في جَنوَة. وهو ينتمي على أية حال إلى بيمونت، حيث وُلدَ في الثاني كانون الأول (ديسمبر) 1934م في رومانو جانوفيسه التابعة لأبرشية ايفريا. لكن الناس هناك، في المنطقة التي ينتمي إليها من شمال ايطاليا، يعرفون من اطلاعهم على أحداث التاريخ أن الإسلام كان يشكّل تهديداً. وهذه المعرفة تميّزت بها جمهورية جنوه السابقة بالذات قبل غيرها، إذ أنها بوصفها جمهورية بحرية، خاضت حرباً ضد قوى إسلامية من الجهة الأولى، وارتبطت مع المسلمين من الجهة الأخرى بعلاقات سلمية تجارية.

ولذلك فإن التوجهات الفكرية الرئيسية للكاردينال بيرتوني تقوم على أساس تحديد نوعية التصرَف حسب الوقت الملائم، مع التركيز على عدم التنازل عن المبادىء والحقوق الذاتية وإهدائها للطرف الآخر.

ولربما لا يبدو هذا التوجّه مسيحياً بصورة مميزة، غير أن الكاردينال بيرتوني هو حقوقي كنسي، إذا أُخذت خلفيته العلمية بعين الاعتبار، وينتمي إلى طريقة الصاليين الرهبانية، التي كانت جديرة بالتقدير لأنشطتها في ميدان تربية الناشئة اقتداءً بمنجزات دون بوسك.

وفي نهاية المطاف فإن بيرتوني أصبح كاردينالاً لدى حكومة الفاتيكان في روما، مع انتمائه الى التوجهات الفكرية القديمة، وإدراكه لقوته المكتسبة من السلطة، لكنّ مسلكيته الودية الظريفة تخفف من تداعيات هذا الإدراك.

إذن فإن الكاردينال بيرتوني المنتمي إلى شمال ايطاليا يشغل مركزاً مفصلياً بصفته

«رئيس مجلس الوزراء» لحكومة الفاتيكان البابوية في روما، مما يُلزمه بتدبير الشؤون التي تتيح للإدارة المركزية للكنيسة الكاثوليكية تأدية الوظائف المطلوبة منها داخلياً وخارجياً. وهو المنتمي إلى منطقة بيمونت، ذو القدرة على تلبية مهامه، والمتسم في أغلب الأحيان بمزاج جيد، مع ميله إلى الإتيان في حديثه بفكاهة بين الفينة والأخرى. وقد شهد له البابا بينيديكت نفسه «بالجمع ما بين أحاسيس الرعاية الروحية والإلمام بعلم العقيدة». ولابد أن البابا يعلم صحة شهادته، فقد عمل ما بين شهر حزيران (يونيو) 1997م وكانون الأول (ديسمبر) 2002 م بوظيفة سكرتير لبينيديكت، الذي كان آنذاك كاردينالاً مفوّضاً لإدارة هيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة، ومعروفاً باسمه الحقيقي راتسينجر، قبل تسلّمه رئاسة الكنيسة الكاثوليكية، مما يعني أن بيرتوني كان ثاني أهم أعضاء تلك اللجنة.

إنه لم يكن متخصصاً باللاهوت، بل كان حقوقياً كنسياً ولم يكن دبلوماسياً، بل رجل السرعة في التعبير واتخاذ القرارات، والقوة الحاسمة في فرض آرائه.

وعندما كانت وثيقة أو أخرى من وثائق هيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة لاتتضمَن سوى القليل من الإسناد الفرضي الاجتهادي، بل تُلاحَظُ منها حدة التوجه الكاثوليكي الروماني، فربما كان من المحتمل أن يُعزى سبب ذلك إلى نفوذ بيرتوني، الذي يشار إليه أيضاً من خلال توقيعه بشكل دائم.

ومن جانب آخر فقد شهد تاريخ 15 أيلول (سبتمبر) 2006 م تعيين الأسقف الأعلى دومينيك مامبيرتي وزيراً جديداً للخارجية في حكومة الفاتيكان. ولم يكن بوسعه تصوّر ما هو أصعب من مرحلة البداية في شغل مهام منصبه. ففي اليوم السابق من تعيينه كان رئيسه الأعلى في العمل، وهو البابا بينيديكت، قد ودّع بهدوء واطمئنان من مطار ميونيخ موطنه في ولاية بافاريا الحبيبة وسكانها. في تلك الأثناء تأججت مشاعر الاحتجاج، وارتفعت أعاصيرها في العالم الإسلامي. حينذاك باشر العمل لدى الفاتيكان في اليوم نفسه كل من: الأسقف الأعلى مامبيرتي «سكرتيراً للعلاقات مع الدول» [أي: وزير الخارجية] في الشعبة الثانية لدى حكومة الفاتيكان، والكاردينال بيرتوني.

لقد بدا تعيين مامبيرتي بوصفها حظ سعيد بالنسبة إلى العلاقات الصعبة بين الكنيسة والمسجد. إنه من مواليد مراكش في السابع من آذار (مارس) 1952م، ووالداه من كورسيكا. وبما أنه كاثوليكي «فرنسي» عاش في بلد إسلامي، فهو ملمّ إذن بسرعة غضب الجماهير، ومطّلع على ما يتعلّق بالمرجعيات الدينية، وأصحاب السلطة السياسية، ورجال الدين والمثقفين، في البلدان الواقعة ما بين المغرب واندونيسيا، بين نيجيريا والبلدان الاسكندنافية. لنقل باختصار إنه على معرفة بأنّ صيحات الاستياء والغضب، وكذلك الصرخات الشديدة والشتائم المقذعة في البازار لايجب أن تؤخذ دائماً مأخذ الجدية.

ومن البديهي أيضاً أنه ينظر إلى النبي محمد وكأنه «أقدس القديسين» سواء من قبل المسلمين المتدينين المؤمنين أو الذين لايتصفون بدرجة كبيرة من التديّن والايمان. ومن المرجّح أن الأسقف الأعلى مامبيرتي كان بوده لو سُئل أن ينصح البابا بعدم استخدام التعبير «ما هو سيء وغير إنساني» ضمن الإقتباس من كلام القيصر مانويل الثاني عن الرسول محمّد.

أجل، إنه تعلّم حرفة دبلوماسي بابوي بعد الاحتفال التبريكي بحمله لقب قسيس (عام 1981م)، وبعد استكماله دراسة الحقوق. وكان يلّم بلغات عديدة، ومنها الفرنسية والإيطالية والانجليزية والاسبانية، بينما لم يسعفه الوقت لتعلّم اللغة العربية.

في شهر آذار (مارس) من عام 1986م ابتعثه الكرسي الرسولي لأداء مهام في العالم البعيد، فوفد إلى الجزائر وتشيلي، والى المقر الدائم لهيئة الامم المتحدة في نيويورك، وإلى لبنان، ثم أعيد من أجل تهذيب نتاج خبراته إلى المركز في ادارة الشعبة الثانية لوزارة خارجية حكومة الفاتيكان. وأُرسل في شهر أيار (مايو) 2002 م – بغرض اختبار حقيقة قدراته في شغل منصب منهك للغاية – الى السودان سفيراً، ثم الى الصومال منتدباً رسولياً. وبعد ذلك عُين مامبيرتي في شهر شباط (فبراير) 2004 م سفيراً في ارتيريا. أما بالنسبة إلى الخرطوم التي شغل فيها منصب سفير الفاتيكان فكان بإمكانه أن يردّد فيها معزوفة تعيسة، عما واجهه من الصعوبات مع المسلمين هناك، تماماً مثل سابقه الأسقف الأعلى ايندر،

الذي شغل فيما مضى منصب سفير بابوي في ألمانيا.

وعلى وجه العموم فقد كان مامبيرتي كمن يسير في حقل قاحل بالنسبة الى الكنيسة متميّزا بالاطلاع ورباطة الجأش في محك التجربة والاختبار، بشأن إمكانية السماح له والزامه بتميثل سياسة الفاتيكان في الدول الإسلامية.

أما فيما يتعلّق بشخصيات فاعلة أخرى فقد أوردت الدائرة الصحفية للفاتيكان معلومة عن تعيين بابوي جديد، في الخامس والعشرين من تموز (يوليو) 2007 م في سطرين فقط، حيث تضمنا أن البابا بينيديكت عين رئيساً جديداً لمجلس الحوار بين الأديان، وهو الكاردينال جان- لويس تاوران، علماً بأنه كان حتى تاريخ تعيينه في المنصب الجديد متخصصاً في الأرشيف، وإدارة مكتبة الكنيسة في روما.

وُلد الكاردينال تاوران في مدينة بوردو الفرنسية بتاريخ 5 نيسان (ابريل) 1943م، ومع ذلك فإنه شغل منذ عام 1990م - بوصفه واحداً من جيل الشباب آنذاك- مركزاً قيادياً لدى الفاتيكان. أمّا تعيينه في منصبه الجديد فيعني أن ما ينبغي عليه هو أن يتخلّى عن تشاغله بين المخطوطات القديمة ومجلدات الكتب السميكة، في رفوف المتاحف الممتدة إلى مسافة كيلومترات عديدة، ليباشر في نطاق العمل الدبلوماسي الحوار مع قادة الإسلام السياسيين والدينيين. وتَمّ التعبير عن استكمال المعلومة في سطر آخر، يتضمّن تسلّم تاوران منصب رئاسة مجلس الحوار بين الأديان من الرئيس السابق «ذي الخبرة القديمة» باول بوبارد (من مواليد عام 1930م)، بدءاً من أوّل شهر أيلول (سبتمبر).

وبهذا فإن البابا بينيديكت ورئيس حكومته بيرتوني تحمّلا وعالجا نتائج قرارات كانت خاطئة، أو بحاجة إلى تحسين. فالكاردينال بوبارد تسلّم في شهر آذار (مارس) 2006 م مهمة ادارة مجلس الحوار من (الأسقف الأعلى فيتنزجيرالد)، بالإضافة الى مهمته الكامنة في الإشراف على المجلس البابوي للثقافة، وذلك لأنه كان يبدو مثقّفاً لطيف المعشر، وقادراً على إقناع جميع أصحاب المعتقدات الأخرى بالنأي عن الأفكار المتطرّ.وعلى هذا الأساس أُجري التغيير في مهام العمل، وبالإضافة الى ذلك فإن قرار تعيين شخص واحد

لرئاسة مجلسين في الوقت ذاته كان يهدف إلى تقليص عدد مسؤولي حكومة الفاتيكان.

لكن الخطة لم تحقق أغراضها، على الإطلاق، لأسباب عديدة. فبعد محاضرة البابا في ريجينسبورغ أُتيحَت للمسلمين فرصة تسخين أجواء الحوار مع ممثلي الديانة الأساسية في الغرب.

فضلاً عن ذلك فقد شمل التغيير رئاسة الحكومة، بعد أن تسلّم رئاستها الكاردينال انجيلو سورانو، معيّناً من البابا يوحنا بولص الثاني في شهر كانون الأول (ديسمبر) 1990م. واحتفظ بمنصبه كرئيس لمجلس وزراء حكومة الفاتيكان لمدة ست عشرة سنة، فكان أقوى شخصيات الحكم بعد كل من البابا يوحنا بولص الثاني ثم بينيديكت السادس عشر بعده، إلاّ أنه لم يستطع صرف البابا عن الاقتباس من كلام القيصر مانويل الثاني بخصوص الإساءة إلى النبي محمّد.

وبعد ذلك خلفه الكاردينال بيرتوني في منصب رئيس الحكومة سنة 2006 م، وهو الذي يستطيع التأثير في الأشخاص وفي القضايا الطارئة حسب تفكيره، بالإضافة الى قدرته على السيطرة والتحكّم بدرجة تفوق تصورات البابا في هذه الأثناء. وفي نهاية الأمر عبّر الكاردينال بوبارد عن تقييمه الذاتي لعمله، فقال بأنه ليس مديراً للأزمات، وبأنّ الحوار مع المسلمين لايمكن أن يتم التعامل معه، كأنه تزجية لأوقات الفراغ. فحسب وجهة نظره ينبغي الآن على الكاردينال تاوران أن ينجز مزيداً من المهنيّة، حيث أن قدرته على ذلك ليست موضع تساؤل، ولا سيما بعد ما أُكتُشِف بأن اصابته بمرض الرجاف ليست شديدة، كما كان متوقعاً.

استُدعِيَ جان- لويس تاوران إلى روما، تاركاً عمله في مجال الرعاية الروحية في الريف الفرنسي. وفي شهر كانون الأول (ديسمبر) 1990م ألقيَت على كاهله مهمة ادارة الشعبة الثانية لدى حكومة الفاتيكان. وهذه الشعبة (التي تبدّلَت أسماؤها عبر تاريخ الحكومات البابوية) هي المختصة في شؤون العلاقات مع الحكومات والمنظمات الدولية. أشرف رئيس الشعبة الكاردينال تاوران حتى شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2003م على ادارة

السياسة الخارجية للفاتيكان، متسماً بالترفّع عن التحيّز والحصانة من الفساد، وبقي يمارس أنشطته حتى أنهكه المرض إلى حد بعيد. إنه كان يميل دائماً الى الصمت، مفضّلاً بسرور أن يسمع من الآخرين عن مجريات أحداث العالم.

لقد دأب على التصرّف بهذه الطريقة عندما يكون بوسع أحد تزويده بمعلومة هامة في حالة عدم معرفتها بها، على الرغم من أن نظام الاتصالات الشمولي في الفاتيكان فريد من نوعه. لم يكن الكاردينال تاوران مُلمّاً بأوضاع البلدان التي يسكنها مسلمون من خلال ما يسمعه من الآخرين ولا من مجرّد دراسة الملفات فقط، بل كان ينطلق من رؤيته الذاتية، التي تجدّدت دائماً عبر تقارير البطارقة ورؤساء الأساقفة والقساوسة من بلدان إسلامية، فيها طوائف مسيحية قليلة العدد، تُعّد نقاط اختبار لفاعلية الحوار. إذن فلم يكن الوقت بالنسبة إليه متوفّراً لمتابعة حبه للموسيقى، وخاصة لمعزوفات يوهان سبستيان باخ، فالمطلوب الآن هو تعديل الإيقاعات غير المتناغمة.

في هدوء صيف روما عام 2007م شعر الساهرون على أمن الفاتيكان بالرعب، بسبب التقارير التي أعدّها الجهاز الذي تم تشكيله حديثاً تحت تسمية «المخابرات السرّية للأمن الداخلي». ففي تلك التقارير ورد أن مسجداً يُفتَتح كل أربعة أيام في ايطاليا. والمقصود بالمسجد هنا هو في غالب الأحيان مكان متواضع للصلاة، بدون إمكانية للمقارنة مع مسجد روما الفخم. وفي بعض الأحيان يتم التخطيط لافتتاح ما هو أكبر قليلاً من منزل بسيط للعبادة، ولكن البناء في تلك الحالة يصبح ملفتاً لانتباه المواطنين حتى في مرحلة التخطيط، فيصطدم برفضهم في غالب الأحوال. وتضمّن التقرير أيضاً أن تسعة وثلاثين مسجداً تم افتتاحها خلال الأشهر الخمسة من سنة 2007م، وأن عدد المساجد تضاعف منذعام2000م إلى 735 من أصل 351 مسجداً.

وذُكِرَ أيضاً بأن عدد المساجد سيتزايد، وأنّ السبب لا يعود إلى ما يتطلّبه روادها المنتظمون، الذين تتراوح نسبتهم بين 5٪ و8٪ من مجموع عدد المسلمين في ايطاليا، الذي يصل الى حوالي مليون شخص.

يكمن السبب الحقيقي في أنّ هنالك أهدافاً سياسية يتم توجيهها من بعيد، و ينبع كذلك من رغبة قادة دينيين في زيادة افتتاح المساجد الى درجة كبيرة. على أية حال فإن الإسلام هو ثاني أكبر الأديان في ايطاليا، منذ فترة زمنية طويلة.

وبوسع المسلمين التعّويل على تفهّم رؤساء البلديات ذوي التوجهات اليسارية على الأغلب، في المدن الكبيرة مثل روما وبولونيا ونابولي وجنوه وفلورنسا، حيث أنهم يتوقّعون اعتدالاً وانضباطاً من مسلمي مدنهم.هذا التعويل ليس هو الذي يراه المسلمون في صالحهم، بل إن بإمكانهم كذلك الاستفادة من الدعم المالي الذي تقدّمه الجهات الادارية ومراكز الدوائر المحلية، أو من القطع العقارية التي توضع تحت تصرّفهم لبناء المساجد. ومن جانب آخر فإنّ المساجد تتعرّض للاحراق بدوافع عُدوانية أيضاً، مثلما حدث في سيجراته بإقليم لومباردي، أو في أبيا تيجراسه على مقربة من مدينة ميلانو. لكن قوى الأمن لم تعرف بالتحديد، فيما إذا كان الجناة هم من المسلمين التابعين لأحد التيارات الإسلامية المعادية، أم من صفوف متطرّفي اليمين الإيطاليين.

الفصل السادس والعشرون

مبادرات خاصة في البندقية وفي ألمانيا
الكاردينال – البطريرك سكولا ومجلة «أوآسيس»

أهل البندقية (فينيسيا) خبراء بالتعامل مع الإسلام، فقد كانوا اكثر الأوروبيين الغربيين فضولاً وحباً للإطلاع على العالم الإسلامي، وعلي البلدان والشعوب والناس في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، ولايزال الكثيرون منهم محبين للاستطلاع حتى الآن. أما الكاردينال انجيلو سكولا فهو أحدهم، إنه يشغل منصب بطريرك البندقية ويُعدّ المروّج الرئيسي لفصلية « أوآسيس» نصف السنوية، التي أصبحت في هذه الأثناء مشهورة فيما تنشره من الدراسات العميقة عن الإسلام، وعن ترسيخ الحوار مع المسلمين. وهي تشكّل بذلك مثالاً ضمن أمثلة كثيرة في الكنيسة الكاثوليكية، للحوار مع الإسلام.

الكاردينال أنجيلو سكولا هو الوحيد من بين الأساقفة الطليان، الذي يحمل لقب «بطريرك»، أمّا البابا نفسه باعتباره اسقف روما فلم يُعَد يستخدم لقب «البطريرك اللاتيني للغرب» منذ عام 2006 م. إنه يشعر بالسرور في مقره الرسمي المحاذي لقاعة سان ماركو ذات القبّة، بطابعها الشرقي الظريف، لأن أهل البندقية فخورون بشرف حمله لهذا اللقب. وقد أكدت له ذلك مؤخراً احدى السيدات، على متن زورق بخاري في هذه المدينة الفريدة ببحيراتها الشاطئية.

ومن البديهي أنْ يستخدم الكاردينال المواصلات العامة في تنقلاته، وبما أنه ابن لسائق شاحنة، فإنه لا يعرف الخوف من الإحتكاك مع المنتمين الى عقيدته، ولا من التماس مع المسلمين، الذين كانوا سبباً لوصول لقب البطريرك الى البندقية، إذ حصلت عليه المدينة في القرن الخامس عشر هدية من جرادو– أكيليريا القريبة منها حسب تقليد قديم. فخلال ذلك القرن الزمني (بين عامي 1451 و 1457 م) تقوّضت الدولة المسيحية البيزنطية، على

يد العثمانيين الذين احتلّوا القسطنطينية. وحينذاك هرب مسيحيون كثيرون، ومنهم ذوو الفكر الإنساني والمتمكّنون من اللغة الإغريقية، الى الغرب، مشكّلين عامل إثراء فكري للعالم الغربي.

وُلِدَ الكاردينال – البطريرك في السابع من تشرين الثاني (نوفمبر) 1941م في مدينة مالجراته الصغيرة. (على مقربة من ليكو شمال ميلانو) في إقليم لومباردي. وهو لا يُخفي بأن البندقية ساهمت بشكل حاسم في تأسيس مجلة «أوآسيس» التي صارت بمثابة مركز للدراسات. بعد أن استكمل سكولا صعوده متربّعاً على قمة سلّم الترقيات الحيوية والمتسمة بالتنوّع، أجريت مراسيم تبريكه بمرتبة قسيس عام 1970 م، حيث أثبت جدارته في دراسة (الفلسفة السياسية وعلم اللاهوت الأخلاقي)، بعد أن اتخذت تلك الدراسة طابع حراك سياسي، مضاد للتهديدات اليسارية المتسمة بالتطرّف. وأبدى التزامه في العمل مع حركة العلمانيين التي اتخذت لها تسمية: «العمل الجماعي والتحرّر».

لقد واصل دراساته الجامعية، ومارس أنشطة الرعاية الروحية في النطاق الجامعي في مدينة فرايبورغ السويسرية، وفي ميونيخ وباريس. تم تعيينه بوظيفة بروفسور في روما، وفي سنة 1991 م أصبح أسقفاً لأبرشية كروسيتو في توسكانا، وشغل عام 1995 م منصب رئيس جامعة لاتيران البابوية في روما.

تمتّع بلقب البطريرك منذ شهر كانون الأول (يناير) 2002 م، بينما أصبح كاردينالا بدءاً من شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2003 م. وكان من المنتظر أن يخلف البابا يوحنا بولص الثاني بعد وفاته، باعتباره بطريرك البندقية الملِّم بالكثير مما كان يدور في مجتمع الكرادلة المختص بانتخاب البابا، وبصفته مرشحاً قوياً لترؤس الكنيسة الكاثوليكية.

تحدّث البطريرك من مقره عن مدينة البندقية فقال بأن تاريخها يزيد على ما ذُكِر، فهي التي أثارت الاهتمام بالشرق. وينطبق ذلك على سكانها الذين قُدِّر لهم أن يحافظوا خلال مئات السنين على طريق التواصل البحري مع الشرق، حتى قضى نابليون على جمهوريتهم سنة 1797 م، علماً بأن الشرق تحوّل الى دائرة الاهتمام بعد انهيار الامبراطورية الرومانية

القديمة، واندلاع أزمة الصراع بين الدولة البيزنطية والقوى الإسلامية في البلدان الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسّط. إذن فإن أهل البندقية لم يكترثوا بالايديولوجيات، وكانوا لا يفكرون بغير مصالحهم الذاتية التي تحدد مواقفهم، مصطفّين تارة إلى جانب المسيحيين البيزنطيين ضد القوى الإسلامية المنضوية تحت لواء الرسول محمد، وتارة أخرى مع هذه القوى ضد المناوئين الممقوتين من منافسيهم على التجارة، كما أنهم كانوا يتضامنون أحياناً مع بلدان الغرب المسيحية ضد البيزنطيين إخوتهم في الدين (كما حدث مثلا خلال الحملة الصليبية عام 1204 م).

ولعب موقع البندقية الجغرافي على شاطىء البحر الأدرياتيكي و– ربما – العامل المتعلّق بتراث تأسيس جمهوريتها دوراً في هذا التطوّر منذ القرن التاسع الميلادي: إذ قيل بأن تاجرين آنذاك جلبا رفات كاتب أحد الأناجيل، وهو القديس ماركوس، من الاسكندرية في مصر إلى هذه المدينة، وهكذا أُسِسَت فيها بعد ذلك «جمهورية القديس ماركو». ويُستوحى من الكنيسة التي سُمّيَت باسمه ترابطاً ما بين الشرق والغرب، متجلياً في المظهر الخارجي الشرقي للقباب ولبرج الأجراس، الذي يمكن تشبيهه بمئذنة تقريباً. بالإضافة إلى ذلك فقد نُظِّم في صيف عام 2007م في قصر دوجين على مقربة من موقع الكنيسة معرض فني يتناسب مع هذه المعطيات تحت عنوان: (البندقية والإسلام، بين عامي 828 و 1797م). فكان بوسع الزائرين لهذا المعرض أن يشاهدوا بعيون الاعجاب مئتي عمل فني، تمثل حالات التغير التاريخي والنتاج الجميل لوقائع التواصل، خلال ألف سنة من العلاقات ما بين الطرفين.

أعرب رجل الكنيسة بطريرك البندقية الذي انطلقت منه إشعاعات القوة والحسم عن رأيه بكلمات واضحة، عما يتعلّق بالمجابهات الراهنة بين الصليب والهلال، فقال: « من البديهي أننا مستعدون للحوار مع الإسلام، لكنّ على المسلمين أيضاً أن يحترموا قيمنا، وألاّ يكون هذا الاحترام من قبل عدد محدود فقط من المعتدلين المثقفين منهم»، وأضاف إلى قوله بعد ذلك: «هناك أزمة انتماء في نطاق الإسلام، وهي منبثقة من العولمة ومن

ادعاءات الغرب توفير السعادة للانسان، بالوسائل التكنولوجية- العلمية، بدون الاستناد إلى ما في كيانه الداخلي من الأبعاد الروحية. ويتبلور اتجاه هذه المعطيات في امتداده كأنه خط أحمر، يتخلل معالم الإسلام المختلفة ومحطاته ما بين المغرب واندونيسيا، فالأمر يتعلّق بنوع من الجدلية بين الراديكالية والاعتدال».

وبالنظر لكون المشكلات مع الإسلام والمسلمين متنوعة في أسبابها - التي تعود مثلاً: إلى بناء المساجد واندماج المهاجرين وتحجب النساء وتعدد الزوجات وتعليم القرآن في المدارس -، ونظراً لأن إيجاد حلول لتلك المشاكل يُعَدّ ذا أهمية حاسمة لمستقبل المجتمعات في أوروبا، فقد قام الكاردينال بطريرك البندقية بتأسيس هذه المجلة الفصلية «أوآسيس»، لتكون منتدى للمعلومات واللقاءات.

واوآسيس (الواحة) دورية إعلامية متجاوبة مع المتطلبات العالية، وتُنشَر بخمس لغات: الإيطالية والعربية والانجليزية والفرنسية ولغة الأوردو (المنتشرة في الهند وباكستان).

وقد أكّد الكاردينال سكولا على الإشادة بالأساقفة وأعضاء الطرق الرهبانية في منطقة الشرق الأوسط، قائلاً بأن الفضل يعود إليهم في اكتساب معرفته بالإسلام والمسلمين، وأقرّ بأن ما أسهم في تلك المعرفة يتمثّل أيضاً في لقاءاته في إدارة تحرير «أوآسيس» مع علماء من كافة البلدان الإسلامية، خلال سنوات طويلة. وبهذا أصبح بوسعه الوصول إلى تقييم أفضل للمشاكل المتنامية بخصوص التعامل مع المهاجرين المسلمين، ضمن اختصاص أبرشيته في البندقية، وكذلك في منطقة فينيتين المتمتّعة باقتصاد مزدهر.

ومن جانب آخر فانني سعيت منطلقاً من دوافع الحسد للوصول إلى مكتب إدارة تحرير هذه الفصلية، الواقع في الجهة الأخرى من القناة الكبرى (كانال جرانده). غُرَف الإدارة هي في قصر قديم مُشيد على اللسان الأرضي لموقع سانتا ماريا ديلا سالوته، ولها إطلالة فريدة على الامتداد من ناحية الغرب إلى الشرق لميدان الجوقة الموسيقية لكنيسة القديس ماركو. ويبدو أن المنظر بحد ذاته يوحي بأن هنالك أمراً صادراً للقاء بين الشرق والغرب. أما كلمة «أوآسيس» فقد أُريد لها أن تمثّل برنامجاً للمسلمين والمسيحيين على

حد سواء. وهي مقتبسة من خطاب ألقاه البابا يوحنا بولص الثاني، حينما زار المسجد الأموي في دمشق في شهر أيار (مايو) 2001 م، إذ تحدّث في ذلك الحين عن: «ماء يتدفق من أوآسه (أي من واحة) فيمنح الحياة». أما ضمان ذلك، مثل ما أوضح ماريا لاورا كونته من مجلس الاستشارات العلمية، فيتحقق من خلال عدم الاكتفاء بالحديث النظري المجرّد من جانب واحد (مونولوج)، بل عند الأخذ بعين الاعتبار أن ما يحتل مكان الصدارة في الاهتمامات هو ما تعكسه تقارير تنّم عن الخبرة، بحيث تكون مستندة الى الواقع، وموجّهة إلى المثاليات المنطبقة عموماً على حقوق الأنسان، مثل حق التمتّع بالحرية الدينية.

لم يعد من الممكن منذ فترة طويلة إجراء حوار غير ملزم، ولا يستطاع القبول بإجرائه. وبينما يتم التخطيط لبناء مساجد في روما ويتم بناؤها فعلاً، فإن الحديث في البندقية يدور حول استعداد المسيحيين لتحمّل التضحيات في البلدان الإسلامية، سواء في تركيا أو اندونيسيا، حيث يتعرّض القساوسة للملاحقة، ويسقطون ضحايا من أجل عقيدتهم. فوزير خارجية حكومة الفاتيكان مامبيرتي والكاردينال تاوران قاما وهما يشعران بالذعر بتوجيه عبارات تحذيرية، مفادها أن الطوائف المسيحية في عدد غير قليل من البلدان الإسلامية هي مهددة بالانقراض، وأن المعنيين في أوروبا لايودّون معرفة الكثير عن ظروف الحياة المزرية لأتباع هذه الطوائف، وعما يحيق بهم من الظلم.

وتشير أجهزة الإستخبارات الإيطالية في الآونة الراهنة إلى أن أخطاراً على الأمن القومي، تنشأ من بين أوساط التجمّعات الإسلامية في أوروبا. ولا تعتبر الأنشطة المثيرة والحيثيات الدالة على إمكانية تنفيذ أعمال إرهابية، على شاكلة أحداث ميلانو وبيروجيا، إلا كالقمة من جبل تغطيه الثلوج. نعم، إنّ بطريرك البندقية هزّ رأسه موافقاً على هذا الطرح، علماً بأن لكلمته وزناً في روما أيضاً.

هيئة اللقاءات والتوثيق «سيبيدو» الخاصة بمؤتمر الأساقفة الألمان

لقد أدرك المشاركون في مؤتمر الأساقفة الألمان في الوقت الذي كان فيه يوسف راتسينجر لم يزل اسقفاً أعلى لمدينة ميونيخ أن هنالك مشكلات بخصوص التعامل مع الإسلام والمسلمين، فعملوا على دعم تأسيس الهيئة المعبّر عنها بالمختصر الحرفي «سيبيدو». وحروف هذاالاختصار تعني «الهيئة المسيحية- الاسلامية لتنظيم اللقاءات والتوثيق». أسسّ هذه الهيئة هانس فوكينج من جمعية «الآباء البيض» التبشيرية (أنظر الفصل 25) في مدينة كولونيا مقراً أوّليّاً، ثم قام بتطويرها بمضي السنين.

وأصبحت في الآونة الراهنة مؤسسة خاصة بالاساقفة الألمان لأغراض الحوار المسيحي- الإسلامي، متخذة مقرها في فرانكفورت على نهر الماين (رقم هاتفها: 069/726491 ورقم الفاكس 069/723052 وموقعها على الانترنت www.cibedo.de

أثبتت هذه المؤسسة المحترمة بوصفها مركز عمل في ميادين الحوار جدارتها في تأدية المهام المطلوبة، في «تدعيم الحوار بين المسيحية والإسلام، والتعايش بين المسيحيين والمسلمين»، بفضل العاملين النجباء المتعاونين معها. وتزايدت أهميتها مع الزمن، لتتناسب مع تضخّم إشكاليات التعامل مع الروابط الإسلامية والمسلمين.

أما ندواتها وخدماتها الاستشارية، والتعليمية في اطار الحوار بين المثقفين، فتحظى بتقدير المسيحيين والمسلمين وغير المنتمين إلى عقائد دينية. وكثيراً ما تُستخدَم مرافقها المتمثلة في مكتبة عامة، وأرشيف صحفي، وصفحات على شبكة الانترنت. وهي تُصدر دورية كل ثلاثة أشهر تحت عنوان «مساهمات سيبيدو»، فيكون ما يُنشَر فيها مكملاً لما تعرضه من الخدمات الأخرى. إنها تعدّ معيناً لا ينضب لما هو متعلّق بمجريات الأحداث الراهنة، وبمواضيع تاريخية، وايضاحات نظرية، وشروحات دينية وعلمية وتأويلات لاهوتية.

ومن الجدير بالذكر أن البروفسور كريستيان ترول يُعَدّ من أهم شخصيات هيئة «سيبيدو»، وهو يتمتّع بعضوية طريقة اليسوعيين الرهبانية، كما أنه ملتزم منذ عشرات

السنين بالحوار بين الأديان. واكتسب خلال السنوات الأخيرة – مع علماء آخرين ينتمون الى طريقته– سمعة رائعة، وبصورة رئيسية في مجال الحوار مع المسلمين.

ويقدّم البروفسور ترولّ في روما – كلما واتته الفرصة دائماً– تلك الخبرات التي يكتسبها، في المداولات الرسمية على أعلى المستويات.



الفصل السابع والعشرون

أبعاد جديدة – خطاب الى البابا من 138 شخصية إسلامية

اكتسب الحوار بين الكنيسة والمسجد في خريف عام 2007م بُعداً جديداً. فقد تم في الوقت المذكور لقاء لاهوتي رفيع المستوى بين البابا والمسلمين.

حدث هذا اللقاء بعد مضّي سنة على المحاضرة الجديرة بالتأمّل، وهي التي ألقاها البابا بينيديكت في جامعة ريجينسبورغ. لكن الثاني عشر من شهر ايلول (سبتمبر) من عام 2007 م لم يكن هو اليوم الذي أراد فيه معنيون في مرجعيات إسلامية مواصلة الحوار، بل إن قادة مسلمين يتمتّعون بالأهمية قاموا بعد انتهاء شهر رمضان، وانقضاء عام على الرسالة التي وجهّها ثمانية وثلاثون عالماً إسلامياً رسالة إلى البابا، بنشر رسالة أخرى إلى بينيديكت وإلى «جميع قادة الكنائس المسيحية في العالم أجمع».

بلغ عدد ممثلي المرجعيات العلمية الإسلامية ذوي الصلة بتلك الرسالة حوالي مئتين وخمسين شخصاً. إنها لم تكن مجرّد رسالة بل أكبر من ذلك، ولنقل كانت خطاباً دينياً تعليمياً عن الإسلام، طويلة جداً ومدوّنة في ما يقرب من عشرين صفحة، متضمنّة في فقرات واسعة شرحاً عن تفاصيل العقيدةالإسلامية.

وكان ينبغي إجراء الحوار بالنسبة إلى الطرف الإسلامي بوعي غير قابل للاهتزاز، فما السبب الذي يمنع ذلك، إذا كان يشكّل عاملاً مساعداً؟، أما حالة استثناء الحوار فهي التي تؤخذ بعين الاعتبار، عندما يكون هنالك استعداد لإبداء الشكوك الافتراضية حتى بالمواقف الذاتية. لكنّ الاستعداد للتشكّك بحد ذاته يشكّل شرطاً لإمكانية التحاور أصلاً، أويتحوّل إلى شرط في مرحلة لاحقة. وفي نفس الوقت فإن الايمان الراسخ بالعقيدة الذاتية ينطبق على كلا الطرفين.

وهكذا فإن الأمر كان يتعلّق بما هو أكبر من مجرّد رسالة يراد من خلالها مواصلة الحوار

بصيغة الحديث والردّ عليه، وبالاستناد الى الفهم والتفاهم المتبادل. إن الخطاب الديني التعليمي الذي تم توجيهه الى القادة المسيحيين هو شرح ذاتي للعقيدة الإسلامية في جزئيه الأوّل والثاني.

ثقافة التنوير والشك المنهجّي

يصعب على القارىء «الغربي» تفهّم الخطاب الاسلامي، لأن ثقافة التنوير هي التي وسمت الغرب بطابعها منذ مئات السنين، بينما بقي الإسلام بعيدا عن معايشتها. فالشك المنظّم من أجل اكتساب الايمان باليقين هو جزء من علم اللاهوت الغربي. ولهذا فإن جزءاً من الحوار اللاهوتي يتشكّل عبر الرجوع إلى الوراء لمتابعة التطوّر الفكري الأوروبي والإسلامي خلال القرون الزمنية الماضية، وهذا ما دفع بينيديكت السادس عشر عندما ألقى محاضرته في ريجينسبورغ الى مثل هذه الشطحات في تاريخ الفكر.

وكرر ذلك بأسلوب يُعَد بحد ذاته نموذجاً، عندما تحدّث في باريس في الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) 2008 م، بعد أن مضت سنة بالضبط على محاضرته المثيرة للجدل منذ القائها في جامعة ريجينسبورغ، مما يعني أن البابوات يعلمون أيضاً كيفية تقدير إحياء الذكريات الشتوية. فقد انطلق البابا من كلية بيرنادا الباريسية التي تعدّ صرحاً لتخريج صفوة علماء اللاهوت منذ العصور الوسطى، ليتجوّل أمام مسامع نخبة الساسة والمثقفين الفرنسيين، في الآفاق المطلّة على «أصول العلوم اللاهوتية الغربية وجذور الثقافة الأوروبية»، شارحاً آراءه بالاستناد إلى مثال: «الرهبانية». وليس هذا سوى ملاحظة هامشّية ومثال للدلالة على المستوى الضروري للحوار تحت اشراف هذا البابا.

وفي نطاق الفلسفة المدرسية التي تداولها المسيحيون في العصور الوسطى تعلّم الأوروبيون آنذاك التفريق بين الايمان والإعتقاد به أو لنقل بين محتواه بما يعني الايمان بأن الله هو الخالق والمخلّص، وبين الانصياع والتسليم الكامل لله بموجب العقيدة، مما يفرض على المؤمن أن يحبّه من صميم فؤاده. وهذا التفريق أفسح الطريق كي تعتمد جامعة

السوربون بالذات تداول علم لاهوت متسم بالعقلانية، إلّا أن هذه الجامعة الباريسية لم تنجُ من الاتهام بالكفر. بالإضافة إلى ذلك فإن هذا التطوّر أدّى إلى تحرر الفكر العقلاني من مراعاة تعاليم الدين، واعتراضات المؤسسات الدينية، حيث أصبح من الممكن فصل مجالات البُعدَين الديني والدنيوي عن بعضهما، بما يتيح تطوّر كل منهما بصورة مثمرة.

الوصيّة الأولى

يرى الأوروبيون أن الفصل والتفريق بين الدين والسياسة أدّيا منذ حدوثهما إلى احراز التقدّم، غير أن المسلمين يرون أن تفريقهما عن بعضهما يشكّل ردّة عن الدين وغواية مضللة تقريباً. فالله يطلب بأن ينفتح الانسان عليه ويسلّم أمره إليه بشكل كامل، بدون السماح بخروج أي شيء عن إحاطته. ولهذا فإن الجزء الأوّل من الرسالة، الموجهة من قبل مائة وثمان وثلاثين شخصية إسلامية، يتمحور حول الإشارة إلى أن الوصية الأولى والأهم في الكتاب المسيحي المقدّس تعني أيضاً وجوب التسليم الكامل لله. لقد استند كاتبوها إلى (إنجيل مرقص، الاصحاح الثاني عشر من 28–31)، حيث ورد فيه:

«ولهذا ينبغي أن تحبّ الرب إلهك، من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك».

إذن فإن تضمين العقل الأوروبي المتنوّرلأفكار توحي بإمكانية الابتعاد عن الله، إنما يشكّل قبل كل شيء عامل إغاظة للمسلمين. ولابد في هذه الحالة ألاّ يتبلور عن الحوار انتزاع ملكوت الله، وموته في نهاية المطاف - وفقاً للفكر المؤطّر في جزء من الفلسفة الأوروبية وحتى في بعض العلوم اللاهوتية ذات الطابع العلماني–، بل إنّ المطلوب في سياق التحاور هو تنقية أبعاد التديّن، حسب ما يبيّنه تاريخ الفكر الأوروبي من تطوّرات الإيمان المسيحي.

أجل، إنّ الأمر يتعلّق برسالة دينية موجهة إلى المسيحيين، وكأنها تتنفّس بالإيمان والتديّن من منطلقات الفكر الإسلامي. وفي تلك الرسالة يتم التركيز بلهجة منبرية على

فحوى العنوان: «كلمة سواء بيننا وبينكم»، ثم بعد التسمية بالله الرحمن الرحيم على الآية القرآنية:

«أُدعُ إلى سَبيلِ رَبِكَ بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهُم بالتي هي أحسن، إنّ ربّكَ هو أعلَمُ بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين».

لقد كُرِّس الجزء الأوّل من الرسالة وهو أوسع أجزائها لموضوع «محبّة الله» في «الإسلام»، وفي «الكتاب المقدّس المسيحي». أما الجزء الثاني فهو أقصر بكثير من الأوّل، وتم استعراض محتواه حسب ما هو وارد في «الإسلام» وفي «الكتاب المقدّس المسيحي» أيضاً.

إنه لمن الرائع تماماً إحاطة قراء الرسالة بهذه الشروحات المستفيضة عن المحبة والإيمان، حتى ولو لاحظوا كثرة العبارات المتكررة. فهي تكشف حقاً عن الكثير من القواسم المشتركة بين اليهود (بمزاميرهم)، والمسيحيين (بصلواتهم وتراتيلهم الكنسية) على سبيل المثال، مع أنّ أتباع هذه الديانات كوّنوا ثقافات مغايرة. لكن «العهد الجديد» الذي يصغر حجمه كثيراً عن العهد القديم (توراة اليهود) وعن القرآن، هو وحده الذي يتيح التزويد بفكرة المنطلقات المختلفة لحوار مستند إلى الكتب المقدسة.

نصّ الجزء الثالث من الرسالة

لهذا السبب فإن من الممكن أن يشكّل الجزء الثالث أساساً لمواصلة الحوار، وفقاً لرؤية الطرف الإسلامي. ويتطرّق كاتبو الرسالة في هذا الجزء إلى فحوى الجزئين السابقين، للتوصّل إلى خلاصة استنتاجاتهم. وفيما يلي النص الأصلي[4]، الذي ترجمته السيدة مارجريت شتيل من اللغة الانجليزية -بدون اعتماد رسمي- إلى الألمانية، ثم نُشر في صحيفة «دي تاجز بوست» الألمانية في 16 تشرين الأوّل (أكتوبر) 2007 م:

4- النص العربي للخطاب منشور في موقع مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي في العاصمة الأردنية، تحت عنوان «كلمة سواء».

ثالثا: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم

كلمة سواء

في الوقت الذي يعتبر فيه الإسلام والمسيحية دينين مختلفين بوضوح – وفي نفس الوقت لا يوجد تقّليلٌ لبعض الاختلافات الشكلية بينهما – من الواضح أن الوصيتين العظيمتين تشكلان مجالاً لأرضية مشتركة وصلة بين القرآن الكريم، والتوراة، والعهد الجديد. وإن الذي يمّهد للوصيتين في التوراة والعهد الجديد، وما تنبثقان منه، هو وحدانية الله – بأن هناك فقط إلهاً واحد. إذ أن نص «السماع» في التوراة (سفر التثنية 6: 4) تبدأ بعبارات: «اسمع يا إسرائيل: الربّ إلهنا رب واحد». ومثل ذلك، يقول المسيح عليه السلام (إنجيل مرقس 12: 29):

«إن أوّل كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل الربّ إلهنا رب واحد». ويشبه ذلك، ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص، 112: 1–2). وعلى ذلك تشكّل وحدانية الله، وحبّه، وحبّ الجار، أرضية مشتركة يتأسس عليها الإسلام والمسيحية (واليهودية).

ولايمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك، لأن عيسى المسيح عليه السلام قال: (إنجيل متى 22: 40) «بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء». وعلاوة على ذلك، فإن الله يؤكد في القرآن الكريم أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لم يأتِ بشيء جديد بصورة أساسية أو جوهرية: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ...﴾ (فصلت 41: 43). و﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف، 46: 9). وهكذا فإن الله أيضاً يؤكد في القرآن الكريم أن الحقائق الأزلية ذاتها بشأن وحدانية الله، وضرورة الحبّ الخالص

لله والإخلاص التام له سبحانه (ومن ثمّ اجتناب الطاغوت)، وضرورة حب إخوانك من بني البشر (ومن ثمّ العدالة)، كل ذلك يرتكز عليه الدين الحق برمته:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (النحل 16: 36) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...﴾ (الحديد، 57: 25).

تعالوا إلى كلمة سواء!

يخاطب الله تعالى المسلمين في القرآن الكريم بأن يعلنوا الدعوة التالية للمسيحيين (واليهود – أهل الكتاب):

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران، 3: 64).

ومن الواضح أن الكلمات المباركة «ولا نُشرك به شيئاً» ترتبط بوحدانية الله. ومن الواضح أيضاً أن عبارة « ألاّ نعبد إلاّ الله» ترتبط بالإخلاص التام لله تعالى، ومن ثمّ فهي ترتبط بالوصية الأولى والأعظم. ووفقاً لأحد أقدم تفاسير القرآن الكريم وأكثرها مرجعية، وهو جامع البيان في تأويل القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (توفي سنة 310 هجرية /923 ميلادية) – فإن معنى: «ولا يتخّذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله»، أي«لا ينبغي لأيّ منا أن يطيع الآخرين فيما فيه مخالفة لأمر الله»، وأن لا نعظّمهم بأن نخرّ ساجدين أمامهم كما السجود لله تعالى». وبعبارة أخرى، إن المسلمين، والمسيحيين، واليهود، يجب أن يكونوا أحراراً في الاستجابة لأمر الله بأن يتبع كلّ منهم

ما أمرهم الله به، وأن لا يخرّوا ساجدين أمام الملوك وأشباههم، ذلك أن الله تعالى يقول في مكان آخر في القرآن الكريم:

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ (البقرة، 2: 256). وهذا يرتبط بصورة واضحة بالوصية الثانية وبحب الجار حيث تشكل العدالة (22) وحرية الدين جزءاً أساسياً هاماً منهما.

يقول الله في القرآن الكريم:

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة 60: 8).

وهكذا فإننا معشر المسلمين ندعو المسيحيين إلى أن يتذكروا كلمات عيسى المسيح عليه السلام في الإنجيل (إنجيل مرقس، 12: 29–31)، وهي أن:

«....الربّ إلهنا ربّ واحد. / وتحبّ الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى. / وثانية مثلها هي «تحبّ قريبك كنفسك». ليس وصية أخرى أعظم من هاتين».

وكمسلمين، نقول للمسيحيين إننا لسنا ضدهم، وإن الإسلام ليس ضدهم – ما داموا لا يشنّون الحرب ضد المسلمين بسبب دينهم، أو يضطهدونهم ويخرجونهم من ديارهم، (وفقاً للآية الكريمة في القرآن الكريم – الممتحنة، 60: 8 – المستشهد بها أعلاه). إضافة إلى ذلك، يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران، 3: 113–115)

وهل الديانة المسيحية بالضرورة ضد المسلمين؟، يقول عيسى المسيح عليه

السلام في الإنجيل:

«مَنْ ليس معي فهو عليّ ومن لا يجمع معي فهو يفرّق» (إنجيل متّى12: 30) «لأنّ مَنْ ليس علينا فهو معنا» (إنجيل مرقس، 9: 40) «....لأنّ من ليس علينا فهو معنا» (إنجيل لوقا، 9: 50)

ووفقاً لشرح العهد الجديد لغبطة الأسقف ثيوفيلاكت، فإن هذه العبارات ليست متناقضة، لأن العبارة الأولى (في النص اليوناني الفعلي للعهد الجديد) تشير إلى الشياطين؛ بينما تشير العبارتان الثانية والثالثة إلى الناس الذين اعترفوا بالمسيح، ولكنهم لم يكونوا مسيحيين. والمسلمون يؤمنون بعيسى عليه السلام باعتباره المسيح، ليس بالطريقة ذاتها التي يؤمن بها المسيحيون (إلا أنه على كل حال، لم يتفق المسيحيون أنفسهم جميعاً أبداً على طبيعة عيسى المسيح عليه السلام)، وإنما إيمان المسلمين به بالطريقة التالية: ﴿... إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ.. ﴾ (النساء، 4: 171). ولهذا فإننا ندعو المسيحيينإلى أن لا يعتبروا المسلمين ضدهم بل يعتبرونهم معهم، وفقاً لكلمات عيسى المسيح عليه السلام التي أوردناها.

وفي الختام، فإننا كمسلمين، نطلب من المسيحيين، استجابة للقرآن الكريم، أن يلتقوا معنا، على الأساسيات المشتركة لدينَينا... ﴿... أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ...﴾ (آل عمران، 3: 64).

ولتكن هذه الأرضية المشتركة هي أساس جميع اجتماعات الحوار بين الأديان في المستقبل فيما بيننا، لأن هذه الأرضية المشتركة هي التي بها «يتعلق الناموس كله والأنبياء» (إنجيل متّى 22: 40). يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة، 2: 136 – 137).

بيننا وبينكم

إن إيجاد أرضية مشتركة بين المسلمين والمسيحيين ليس مجرد مسألة حوار «مسكوني» مهذب بين صفوةٍ مختارة من القادة الدينيين. فالمسيحية والإسلام هما الدينان الأول والثاني من حيث عدد أتباعهما في العالم وفي التاريخ؛ حيث يشكل المسيحيون والمسلمون حسب التقارير ما يزيد على ثلث العالم وخمسه على التوالي.

وهم يشكلون معاً أكثر من 55٪ من عدد سكان العالم، مما يجعل حُسن العلاقة بين مجتمعات هذين الدينين أهم عامل من العوامل المساهمة في إحلال سلام مجدٍ في أرجاء العالم. وإذا لم يكن المسلمون والمسيحيون في حالة سلام، فلا يمكن للعالم أن ينعم بالسلام. ومع وجود الأسلحة الرهيبة في العالم الحديث، ومع تشابك المسلمين والمسيحيين في كل مكان كما لم يُعهد من قبل، لا يمكن في صراع بين أكثر من نصف سكان العالم أن يحرز جانب واحد نصراً وحْدَه. ولذلك فإن مستقبلنا المشترك في خطر. وربما كان بقاء العالم نفسه في خطر.

ونقول لأولئك الذين يستسيغون النزاع والدمار من أجل أهوائهم بالرغم من ذلك، أو يحسبون أنهم سوف يحققون الفوز في نهاية المطاف من خلال النزاع والدمار: إن أرواحنا الخالدة ذاتها في خطر أيضاً إذا ما أخفقنا في بذل كل الجهود المخلصة الممكنة لإحلال السلام والالتقاء معاً بانسجام.

يقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل، 16: 90). ويقول عيسى المسيح عليه السلام: «طوبى لصانعي السلام...» (إنجيل متّى 5: 9)، ويقول أيضاً: «لأنّه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كلّه وخسر نفسه؟» (إنجيل متّى 16: 26).

ولذلك فلنعمل على أن لا تسبّبَ اختلافاتُنا الكراهيةَ والشقاقَ بيننا. ولنتنافس فقط فيما بيننا في ميادين الفضيلة والخَيْرات. وليحترم بعضنا بعضا، ولنكن منصفين، وعادلين، و ودودين، بعضنا تجاه البعض الآخر، ولنعش في ظلال سلام مخلص، وبانسجام ونيّة طيبة متبادلة. يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة، 5: 48). والسلام عليكم.

أجاب البابا على الرسالة في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة 2007 م، غير أن إجابته لم تكن بالأحرى مباشرة، بل عن طريق رئيس حكومة الفاتيكان الكاردينال بيرتوني. لم يقصد قداسته من خلال تعمّد الرد غير المباشر أن يقلل من شأن رئيس مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي، الأميرغازي بن محمد بن طلال، صاحب الفضل في المبادرة الى توجيه تلك الرسالة، وإنما كان هذا التصرّف عائداً إلى أسباب خاصة تتعلّق بالبروتوكول: بما أن البابا هو رئيس الكنيسة الكاثوليكية والسيد الحاكم لدولة الفاتيكان، فإن نظيره المكافىء لمرتبته هو ملك الملوك.

الفصل الثامن والعشرون

اللقاء بين خادم الحرمين الشريفين والبابا

لقد وقع حدث تاريخي بين توجيه «الرسالة من قبل مائة وثمان وثلاثين شخصية إسلامية، وبين الإجابة البابوية عليها عبر رئاسة حكومة الفاتيكان، حسب ما ذُكر بعد مضي فترة قصيرة من وقوع الحدث، الذي تمثّل بلقاء عاهل المملكة العربية السعودية الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود مع البابا بينيديكت السادس عشر، في السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) 2007م في القصر الرسولي في الفاتيكان. ومن الواضح أن ملك السعودية خادم الحرمين الشريفين في مكة والمدينة كان يدرك السبب، الذي حفزه على أن يُشرِّفَ بينيديكت بزيارته.

فقد بدا البابا بالنسبة للمسلمين الشريك المفضّل في الحوار، بصفته ناطقاً باسم المسيحيين. ويعود أحد أسباب تفضيله التي يتردد ذكرها إلى تقييم متطابق مع تفكير مسلمين معتدلين، ورجال دولة مسؤولين ومتسمين بالذكاء بخصوص رؤيتهم للتطورات التاريخية التي مرّت عبرها الكنيسة الكاثوليكية. فهم يفكّرون بأن قداسته والمعنيين في الكنيسة كان بإمكانهم تجاوز جميع المواجهات بين العقل والايمان، بين الحقيقة والعنف، بين الدين والسياسة وبين قوة الروحانيات وعجزها - بما يعني إمكانية تجاوزهم لكافة التناقضات، التي تؤدي إلى بث الذعر والفزع في العالم، من جرّاء النظرة إلى الإسلام، علماً بأن الكنيسة تجاوزت كل ذلك بدون أن تتخلّى عن قناعاتها، وحافظت على وجودها العالمي، ليس في أوروبا والعالم «الغربي» فقط.

أجل، إنّ البابا طرح سؤالا عن ممارسة العنف في نطاق أحد الأديان، فلاحظ عدد متزايد من المسلمين بشكل مستمر، سواء كانوا من الساسة أو رجال الدين، بأنه لم يقصد بسؤاله استنكار الضربات الإرهابية ضد «الغرب» فحسب، بل عنى أيضاً ذلك العنف

الذي يندلع داخل الدول الإسلامية ذاتها، مع الاستناد في ممارسته إلى الله، على أساس أن استخدام العنف في هذه الحالة ربما لايسبب وقوع أزمات صراع دولي فحسب، وإنما يؤدي إلى اندلاع حروب أهلية ذات طابع ديني أيضاً.

مغازلة العنف تشكل خطراً على الدين

لقد كانت مساهمة حرب الثلاثين عاماً في ألمانيا على سبيل المثال بين عامي (1618–1748 م) – التي انطلقت من دوافع دينية إلى جانب الأسباب السياسية – أكبر حجماً مما ساهمت فيه النية الحسنة على صعيد إحلال السلام بين المذاهب، وكذلك في ميادين إضعاف مشاعر التدّين، وتقوية حركة التنوير في أوروبا. أمّا في الآونة الأخيرة فإن مغازلة العنف تشكّل خطراً على الإسلام وعلى صوره المختلفة أكثر مما يشكّله الغرب من أخطار، ومن الممكن تَعَلُّم ذلك من تاريخ الكنيسة.

لابدّ أن يكون العنف بالنسبة إلى أذكياء المسلمين أمرا مريبا ومستنكرا، علماً بأنّ المعنيين لدى الفاتيكان قيّموا الملك السعودي على أساس أنه في طليعة هولاء الأذكياء ومن الجانب المقابل فإنّ مستشاري ملك السعودية يرون بأن بينيديكت لا يُعّدُ من المستفزّين، الذين يحرّكون الفتن.

وهكذا انطلق من لقائهما بصفتهما رئيسين لدولتين توجّه مزدوج، أي نحو الساحة الداخلية لكل منهما، وصوب ساحة الطرف الآخر في الوقت ذاته. وكما كان يحدث دائماً، فإن اللقاء الخاص لخادم الحرمين الشريفين مع البابا أُجرِيَ في هذه الحالة أيضاً تلبية لرغبة الملك.

أمّا بالنسبة إلى المداولات بينهما فقد أجريَت، وفقاً لما أوردته الدائرة الصحفية للفاتيكان في تقرير رسمي موجز في جو من المشاعر القلبية الحميمة بين الطرفين، كما أتاحت التطرّق إلى موضوعات تَمَسّ اهتماماتهما الأساسية. وتّم فيها التأكيد بصورة خاصة على دعم العمل من أجل الحوار بين الثقافات والأديان، بهدف التوصّل إلى تعايش

سلمي ومثمر بين الناس وبين الشعوب، والحفاظ على قيمة التعاون بين أصحاب الديانات السماوية ودعم السلام والعدالة.

الهدايا

بعد انتهاء اللقاء أصبحت بعض تفاصيل مجرياته معروفة: كانت مدّته المقررة حسب الخطة نصف ساعة، غير أن هذه المدّة اتسعت لتصل حوالي سبعين دقيقة، أُجريَ خلالها تبادُلٌ مكثّف لوجهات النظر باللغتين الإيطالية والعربية. أمّا بالنسبة الى الهدايا المتبادلة فقد قدّم الملك للبابا تمثالاً ومُجَسّماً يمثّل راكباً على بعير تحت نخلة، بالإضافة إلى سيف مذّهَبٍ فاخر. أما البابا فقدّم لجلالته ميدالية ذهبية عن العهد البابوي، ومنضدة تاريخية.

ومن هذه المنطلقات أصبح من المتعيّن أن تُستوعَب بطريقة مميّزة تلك المبادرة المنعكسة من رسالة المثقفين والقادة الدينيين المسلمين، الذين بلغ عددهم مائة وثمان وثلاثين شخصية (وأكثر)، بحيث تُدرَجُ مبادرتهم كموضوع «حلقة دراسية» في روما. فكاتبو الرسالة هؤلاء نأوا بأنفسهم عن قوى متطرّفة في نطاق الإسلام، وعن الأصولية الإسلامية، وفقاً لما ورد في ملاحظة تتضمّن الإشادة بهم.

وذُكِرَ في هذا السياق أن لقاءات عديدة أُجريَت بين قادة مؤسسات الفاتيكان المختصة، ومنها المجلس الوزاري «للحوار بين الأديان» و«معهد الدراسات الاسلامية»، وبين المعنيين في حلقة دراسية علمية، يُشرف عليها اليسوعيون في جامعة جريجوريانا الكنسية.

أمّا البابا بينيديكت فإنه سوف لايكتفي بلقاء المشاركين من الكاثوليك والمسلمين في الحلقة الدراسية وفقاً لوعد سابق، بل إنّه سوف يتولّى بنفسه الإشراف المباشر من خلال حضوره الشخصي، بالإضافة إلى القائه خطاباً توجيهياً، وكأن مساهمته هذه تُعَدُ بمثابة تقديم مكافأة على نتائج اللقاء، وفقاً لما أصبح معروفاً، من خلال الخطة التي أُعدّت في نهاية شهر كانون الأول (ديسمبر) عام2007 م في روما.

المسألة ليست متعلّقة بالدين فحسب

سارع الأمير الأردني غازي بن محمّد بن طلال بإبداء ردّ فعله، بصفته متمتّعاً بأعلى رتبة مقارنة بالموقعين على الرسالة، وأعرب في اجابته على رسالة من رئيس حكومة الفاتيكان الكاردينال بيرتوني عن رغبته في مواصلة تطوير المبادرة، ونقل ما جاء فيها إلى حيّز التنفيذ العملي. أشار الأمير بالنص الصريح إلى لقاء البابا مع خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبدالعزيز في بداية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) في الفاتيكان. وقال بهذا الصدد بأن الذين ينبغي العمل معهم ليسوا الأصوليين، بل هم المعتدلون في نطاق الإسلام، مما يوضّح وجود توافق مدهش حقاً حول التوجهات نحو الهدف (الديني) السياسي.

وزيادة على ذلك: فإن لقاء البابا بخادم الحرمين الشريفين الملك حسب ما أوردته تقارير الفاتيكان لم تُتح المجال لاجراء حوار بشأن مسائل التطرف فحسب، بل أتاحت أيضاً مناقشة تلك المشاكل، التي تطرأ بتأثير دور وأهمية الدين في المجتمع الحديث، بما يعني أنّ الفرصة سنحت لتخفيف حدّة التوتّر، الذي ينبثق من التطرّف الديني.

قفزة نوعية مثيرة

كان من المحتمل طبقاً للمعطيات أن تشهد العلاقات بين الطرفين تحت إشراف البابا قفزة نوعية مثيرة، فمسؤولو مجلس الحوار و«اللجنة الخاصة للعلاقات الدينية مع المسلمين» تناولوا في المداولات حتى الآن مواضيع تتعلّق بالتديّن، وتوصّلوا في أجواء حوار جيدة الى استنتاج كثير من الوقائع الجميلة المشتركة لأتباع الديانتين، بدءاً من الانتساب إلى أبيهم ابراهيم، ومروراً من الاستهلال بالتسمية «بسم الله الرحمن الرحيم»، حتّى التوجّه إلى اعتماد القيم النبيلة. لكنهم لم يتحدّثوا في البداية عن النظام الاجتماعي المعاصر، أمّا الآن فإنّ المسألة تدور حول الدين والسياسة.

وهكذا ألقى البابا أمام أعضاء حكومة الفاتيكان، في الحادي والعشرين من كانون الأول (ديسمبر) 2007م قبيل عيد ميلاد المسيح، خطاباً تقليدياً أكّد فيه أيضاً على إجراء «حوار

بسلام» مع الإسلام، وأوضح وجهة نظره في هذا السياق مبدئياً من خلال قوله: «إن الايمان المشترك (للمسيحيين والمسلمين) بوجود إله واحد، وموصوف بأنه خالق حكيم، وبأنه القاضي الشمولي بشأن المسلكية الأخلاقية لكل إنسان، – إن هذا الايمان هو الذي يشكّل شرط العمل المشترك في إطار الدفاع عن الاحترام الحقيقي للكرامة الانسانية لكل شخص، الشرط اللازم نفسه لتطوير مجتمع عادل وتضامني».

ومع ذلك فإن الناس لم يلاحظوا لأسباب عديدة أن هنالك تطوّرات مثيرة. ومن هذه الأسباب ما يعود إلى أنّ المضمون الأساسي لرسالة الأمير قد تّم بثهُ من محطة اذاعة الفاتيكان، خلال فترة عيد ميلاد المسيح 2007 م، بحيث يَصُعب على الرأي العام أن يستمع إليها تقريباً. ففي تلك الفترة كانت التحضيرات تتم بسكون وصمت، في دوائر الفاتيكان وفي جامعة جريجوريانا. ولكن الناس كانوا يعلمون بأن المسألة ربّما تتعلّق بما هو في غاية الأهمية، فكانت هنالك رغبة في تجنّب العمل الصاخب المبكّر، لئلا يتحفّزَ المتطرّفون لإبداء ردود الفعل، ومن أجل درء الأخطار المحتملة كي تؤثر في النتائج الجيدة.

ويُضاف إلى ذلك سبب مبتذَل ذو صلة بوسائل الإعلام: فلم تحظ فيها الرسالة الموجّهة من مائة وثمان وثلاثين شخصية اسلامية في منتصف شهر أكتوبر، ولا الإجابة البابوية عليها بما هو مُستَحَقّ من الاهتمام الإعلامي، فالأجهزة الإعلامية كانت مشغولة بمتابعة أنشطة البابا، حيث أنّ قداسته أعلن في الموعد الأوّل خلال تلك الفترة عن هوية الكرادلة الجدد، وفي الموعد الثاني عن المنشور البابوي حول الأمل.

في تلك الفترة قام خبراء من الكاثوليك بجسّ النبض حول مدى ابتعاد المسلمين عن المبدأ الأساسي لفلسفة كانط، وهو مبدأ يتضمّنُ بأنّ الديانة لايمكن أن تحافظ على بقائها الدائم، إذا كانت في حالة تناقض مع عقل الإنسان. وأراد الخبراء أيضاً معرفة إذا كان المسلمون يسعون إلى توضيح معاني النصوص القرآنية المختلفة بخصوص العلاقة مع غير المؤمنين بعقيدتهم. فهي نصوص متسمة بالودية تارةً وبالعنف تارةً أخرى.

ويخشى المعنيون لدى الفاتيكان من احتمال شعور المتشددين من الأوساط الإسلامية

التقليدية المحافظة بالإثارة، من الكلام عن الاختلاف بين الآيات في هذا الموضوع. ومن الممكن رفض المفهوم البابوي لتفسير القرآن، ولكن هذا المفهوم ربما سينجذب بطريقة أو أخرى نحو التوجّهات التي تستدعي طرح أسئلة جديدة، أم طرح السؤال عن البديل، أي عن المدّة التي يمكن للإسلام فيها الاستمرار في منع تداول الحديث الناقد عن القرآن. فهل يعود سبب المنع إلى أن الإنشغال الجذري في موضوع القرآن يؤدّي إلى طرح تساؤلات أكثر من الإجابات، التي يمكن التوصّل إليها، وإلى أنه بالإضافة إلى ذلك يسفر عن اهتزاز سلطة رجال الدين المسلمين، أو يؤدّي إلى حدوث انشقاق بين أوساطهم؟

اختلافات داخل الإسلام

يبدو أن في القرآن حواجز أمام العقل غير المتحيّز، وأنّه يحتوي جزئياً على تناقضات. وهذه الحواجز والتناقضات لا تكاد تصبح قابلة للإحتواء الدائم من خلال التفسيرات التقليدية، فهكذا هو الاتجاه الذي لابّد من تخمينه للتطوّرات المستقبلية.

ومن شأن هذه الإختلافات الواضحة للعيان في الإسلام أن تؤدّي إلى تحديد مدّة زمنية لا يبقى القرآن إلاّ في نطاقها بوصفه نصاً إلهيا موحى به، وغير قابل للمساس به. أما الإنجيل والتوراه فيعتبران وفقاً للفهم اليهودي – المسيحي بأنهما من الإيحاء النابع من «نفحة الروح القدس».

والتعبير عن هذه النفحة هو ما يجب تكرار قوله، بالكلمات اللاتينية: «ديفينو أفلانتي سبيرتيو»، وهي التي شكّلت عنوان منشور دوري للبابا بيوس الثاني عشر عام 1943م. وهكذا فإنّ هذا الفهم يَدَعُ مجالاً للتأويلات، سواء كانت مستندة إلى تفويض رسمي أم لم تكن كذلك.

إن أوضاع الإنغلاق والتوتّر والانقسام في نطاق الإسلام، سواء في السابق أو حالياً – بالرغم من الشعور المدهش بوحدة جميع المسلمين–، هي التي تتحوّل كذلك إلى مواضيع للتساؤل والشك والتأويل، بل وربما تصبح مدعاة للسخرية والتهكّم، تماماً كما حدث

في انتقادات التوراة والانجيل المستندة إلى الدراسات الفكرية، حيث تعرّض الدين إلى تهجّمات شريرة لتقويضه، وإلى شتائم تاريخية منعكسة من روح حركة التنوير المعادية.

وسيؤدّي التطوّر في نهاية المطاف إلى مجابهة تحدّ أكبر من التحديات السابقة، بحيث تتبلور حالة تستدعي وجوب تحديد العلاقة من جديد بين القرآن والحداثة، بين الإسلام ومجتمع القرن الحادي والعشرين.

فهل من المحتمل أن يكون بوسع حتى بينيديكت بصفته البابا أن يساعد الإسلام على إيجاد طريقه نحو الحداثة، حيث أن قداسته كرّس جزءاً كبيراً من أعماله اللاهوتية والفكرية لمعالجة مواضيع العلاقة بين العقل والايمان، وبين المجتمع الحديث والانتماء إلى الدين المسيحي؟، إن هذا السؤال المطروح هو واحد من أسئلة متتابعة – ولكنها تفتقر إلى الإجابة حتّى الآن.

الفصل التاسع والعشرون

شيعة وسنّة في الفاتيكان
مثقفون في جامعة جريجوريانا البابوية في روما

تشهد الآونة الراهنة تقدّماً، ينعكس في تحسُّن أجواء العلاقة بين روما ومكة. ففي السابع من كانون الثاني (يناير) عام 2008م ألقى البابا بينيديكت خطاباً بمناسبة بدء السنة الجديدة، تحدّث فيه أمام أعضاء السلك الدبلوماسي المعتمدين لدى الكرسي الرسولي في تقييم لطيف عن مجريات الحوار بين الأديان. وقال في هذا السياق بأن «الكنيسة هنا تبدي به التزاماً قوياً»، وذكر في خطابه، بأنّه يتكلّم «بسرور» عن «الرسالة الموجهة من مائة وثمان وثلاثين شخصية اسلامية»، وعن «أفكار نبيلة» وردت في تلك الرسالة. وتضمّن خطاب قداسته بأن دولة الإمارات العربية المتحدة بدأتْ بتبادل العلاقات الدبلوماسية مع الفاتيكان، في «جو متسم بالروح العائلية».

يبدو أنّ المسألة لم تكن تتمحور حول تعَرّف أفضل على الإسلام بالنسبة للبابا وإلى المسيحيين في نطاق الحوار، ومن المحتمل أن الأمر لم يكن حتى متعلّقاً باستيعاب فكرة أو أخرى مستعارة من الإسلام. ولكن البابا قد اعترض بشدّة على قبول كل ما يتصل بفلسفة النسبية والتوفيقية، ووقف ضد نمط الحوار الذي لا يمنح الطرف المشارك فيه أهميّة تامة لنفسه أو لمحاوره الآخر، بل يستعد لقبول المزيج من فكر الطرفين.

فالحوار ينبغي حسب رؤية قداسته أن يؤدي عبر التفاهم إلى الكشف عن مزيد من الحقول، الممتدة خارج ساحة المعتقد الذاتي. وأعرب عن وجهة نظره بخصوص تلك الساحات، قائلاً بأنها ممثلة في: «الكرامة الإنسانية للشخص، وفي السعي الى تحقيق المصلحة العامة، وإرساء دعائم السلام والتنمية»، دون الالتزام بتسخير الحوار بين الأديان والثقافات للشعور بالارتياح الديني الذاتي. وأضاف البابا الى عباراته السابقة في هذا

السياق: «من أجل أن يكون الحوار حقيقياً أصيلاً فلا بد أن يتسم بالوضوح، وبالاحترام الصادق للآخرين، وأن ينبثق من روح التصالح والأخوّة».

وبالتطابق مع هذا المغزى فإن مجلس الحوار برئاسة الكاردينال تاوران استطاع أن يُبرز ما حققه من المنجزات الناجحة. ففي بداية شهر آذار (مارس) 2008م حدّد الكاردينال موقفه علنا، لصالح الحلقة الدراسية الأولى للمنتدى الكاثوليكي – الإسلامي الجديد، بين يومي الرابع والسادس من تشرين الثاني (نوفمبر) في العام المذكور. وكانت الأسس التي يُستَنَد إليها لإختيار المشاركين في الحلقة واضحة تقريبا، بالنسبة إلى ممثلي الكنيسة. أما بالنسبة لممثلي المسجد فكان اختيارهم يتم بموجب إجراء سرّي، في نطاق علاقات مستترة وطويلة الأمد مع «المجلس»، الذي كان يبذل أقصى الطاقات من أجل تجنّب الأزمات– حسب ما عبّر عنهَ «رئيس مكتب الأسلام في المجلس البابوي المونسنيور خالد عكشة» وهو يبدي ابتسامته العريضة أثناء الحديث.

إذن فإنّ هذا العمل هو الحوار، الذي لايُرى ولايُسمَع، ولايتسرّب إلى الرأي العام، وهو يحظى بالتقدّم من هذا المنطلق بالذات، أو ربما لهذا السبب.

نجاحات غير مألوفة

استطاع الكاثوليك والمسلمون بعد تلك الفترة، أي في نهاية نيسان (أبريل)، أن يعلنوا على الملأ في الفاتيكان بعد عمل تمهيدي دؤوب أنهم حققوا نجاحاً خارقاً للعادة. فبعد إجراء مشاورات لمدة ثلاثة أيام مع ممثلي «مركز الحوار الديني لمنظمة الثقافة الإسلامية والعلاقات»، في «جو متسم بالانفتاح والودّية» في طهران، تحدّث خبراء الفاتيكان والمشاركون في لقاء المشاورات من ممثلي المرجعيات الإسلامية عن انتهاء اللقاء بنتائج «مُرضية».

كان من المتيسّر ملاحظة تلك النتائج، عبر استقراء البيان الرسمي الصادر باسم كل من المجلس البابوي والمركز المذكور في طهران، حيث أُدرِجَت في البيان سبعة مبادىء

أساسية مشتركة، ومنها مبدآن رئيسيان يتمحوران: حول «الإستحالة التامة لوجود تناقض بين العقل والايمان»، وعدم السماح بإساءة استخدام «العقل والايمان، على الإطلاق، لأغراض تبرير وشرعنة العنف». ونظراً للتوقيع على البيان المتضمّن لمثل هذه المبادىء من قادة الكنيسة الكاثوليكية، والأهّم من ذلك مشاركة مرجعيات إسلامية في التوقيع، فإن المعنيين في روما رأوا في هذا التطور «حدثاً مثيراً من المنظور السياسي الديني»، كما وصفوه «بالثورية من وجهة النظر اللاهوتية»، دون أن ينطبق هذا التقييم على المحتوى، بل على قبول الطرفين بالتوقيع المشترك.

ومن البديهي أن الكاردينال تاوران كان يتفاوض بتكليف من البابا، وكذلك فإنّ مهدي مصطفوي رئيس المنظّمة الرسمية لشؤون الحوار في طهران لم يكن بوسعه التصرّف ولا التفاوض، سوى بالإستناد إلى دعمه من قبل قادة الدولة والدوائر الدينية المختصّة في ايران. ولاشك بأن مصطفوي غير جدير باكتساب أهمية تُخَوّلُهُ تمثيل جميع معتنقي الإسلام، الذين يزيد تعدادهم على مليار نسمة. فهو يقف أمام عقبة انقسام المسلمين إلى سنّة وشيعة، بالإضافة إلى افتقار الإسلام إلى سلطة مركزية منظّمة وذات تسلسل هرمي.

ومع ذلك فإنّ الاتفاق بين الكاثوليك والشيعة يُعَدّ بحد ذاته تقدماً هائلاً، وفقاً لما استعرضه لاحقاً مهدي مصطفوي الذي قدّم تقييمه أيضاً بالتفصيل، في نطاق مقابلة أجرتها معه الصحيفة الكاثوليكية «30 جيورني» في شهر ايار (مايو) عام 2008م.

لقد كان مضمون بيان المشاورات أكثر أهمية من الأفكار الخاصة بزيادة عدد المشاركين المسلمين في المداولات، وبتدعيم كل وفد من الطرفين من خلال إضافة سبعة أعضاء الى كل طرف من ممثلي مرجعيته الدينية المعروفين، حيث أن الأهمية الأكبر عُلّقَت على النتيجة التي تمخّضت عنها المشاورات، كما وردت موضّحة في البيان.

طروحات بينيديكت السابقة

تحادث المشاركون في ملتقى المشاورات بعد إجراء تحضيرات جذرية حول الموضوعات

الأساسية للمفاهيم المختلفة بين المذهبين الكاثوليكي المسيحي، والشيعي الاسلامي، بما يعني أنهم تداولوا الحديث كما ذُكِرَ حرفياً عن مضامين ما هو مُستَعرَض أدناه:

1) العقل والايمان – ما العلاقة بينهما؟

2) علم اللاهوت وعلم الكلام: بوصفهما وسيلة لتفحّص ودراسة عقلانية الايمان.

3) العقل والايمان من حيث الصلة بظاهرة العنف.

إذن فإنّ ما تّم التداول بشأنه كان يمثّل تماماً تلك الموضوعات، التي تطرّق إليها البابا بينيديكت في محاضرته بجامعة ريجينسبورغ. ولاغنى عن القول أخيراً بأن الزيارة الرسمية لخادم الحرمين الشريفين إلى الفاتيكان أدّت إلى التأكيد على أن الحوار لم يكن مُقْتصراً على مسائل دينية، بل شمل تلك المواضيع التي تم التوجّه عبرها نحو الوصول إلى المجال السياسي– الاجتماعي، الذي يحظى بالقبول والمساندة من قبل قادة الدول أصحاب الشأن في بلدان العالم الإسلامي.

سبعة مبادىء أساسية

شكّلت المبادىء الأساسية السبعة، التي تّم التوصّل الى اتفاق بشأنها بعد إعداد أوراق عمل تمهيدية لمناقشتها، مُرتَكَزاً يُستَنَدُ اليه بعد التوافق كي يتواصل الحوار بالانطلاق منها. وهي تتضمّن بشكل رئيسي ما يلي:

1) العقل والايمان هما هبتان من الله إلى البشرية

2) العقل والايمان لايتناقضان مع بعضهما، ولكن العقيدة تدرَجُ في مرتبة أعلى من العقل في بعض الحالات، بدون أن تتناقض معه مطلقاً.

3) العقل والايمان لايحملان العنف في داخلهما، ولا ينبغي استخدام أي منهما من أجل ممارسة العنف، غير أنهما يتعرّضان مع الأسف لسوء الاستغلال، بغرض ارتكاب ممارسات عنيفة. ولا يمكن أن يؤدّيَ الانطلاق من تلك الممارسات الى التشكك في العقل ولا في العقيدة على الإطلاق.

4) يتفّق الطرفان على مواصلة العمل المشترك الهادف إلى دعم التديّن الحقيقي، وخاصة فيما يتعلّق بالمشاعر الروحيّة، لتشجيع مراعاة حرمة الرموز الدينية بوصفها مقدسات، وكذلك لمساندة التحلّي بالقيم الأخلاقية.

5) ينبغي على المسيحيين والمسلمين أن يتجاوزوا مسلكية التساهل في سياق الاعتراف بوجود الفروق بين ديانتيهما، كما يتعيّن عليهم إدراك القواسم المشتركة وشكر الله على ذلك. ويكمن المطلوب من الطرفين في الاحترام المتبادل بينهما، ويُطلَب منهما لهذا السبب استنكار السخرية من الإيمان الديني.

6) ينبغي تجنّب اللجوء إلى التعميم في نطاق الحوار حول الأديان، فالفروق بين المذاهب في المسيحية والإسلام مع اختلافات السياق التاريخي تشكّل عوامل هامة جديرة بالاهتمام.

7) لا يُستَطاعُ الحكم على تقاليد دينية بالاستناد إلى آية منفردة، أو مقطع من نص في الكتب المقدّسة بالنسبة إلى الطرفين، فمن الضروري في هذه الحالة الاستناد الى نظرة شمولية، أو اعتماد أسلوب تحليلي من أجل الوصول إلى فهم سليم.

لقد رأى المعنيون في روما أن التوقيع على هذه المبادىء الأساسية السبعة من ممثلي المرجعيات الكاثوليكية والإسلامية يُعدّ حدثاً تاريخياً. فالأمور التي يمكن أن تبدو بديهية لمتخصصي اللاهوت المسيحيين أو المتنورين وفقاً للنمط الغربي تعكس نوعاً من التداعيات، التي لايمكن التنبؤ بها بخصوص العالم الإسلامي والعقيدة التي يعتنقها المسلمون. أما البابا بينيديكت فقام بدوره بترتيب لقاء، استقبل في نطاقه المشاركين في الحلقة الدراسية وعبّر عن «ارتياحه المميّز لاختيار الموضوع ومجريات النقاش بشأنه في مؤتمرهم». وقيل بأنّ المؤتمر التالي للحوار مع الشيعة سينعقد في عام 2010م، بعد القيام بتحضيرات جذرية قبل انعقاده.

ومع ذلك فإنّ الحوار لا يزال يُنظر إليه بوصفه مهمة صعبة، حتى لو صار أمراً مُلحّاً وارتفع مستواه الثقافي، وعلى الرغم من أنّه حقق في عهد بينيديكت تقدّماً واسعاً.

إذن فلا بدّ من طرح أسئلة في هذا السياق، مثل:

ما هو الحوار على وجه التحديد الدقيق؟، ما الذي يَنْتُج، عندما يجلس ممثلو مرجعيات كاثوليكية وإسلامية في روما، ويدخلون في دردشة عقيمة مع بعضهم بعضاً؟، أتكون حواراتهم مشابهة للحديث المتبادل بين سقراط وأفلاطون، حيث تجلّت من ذلك الحديث الحقيقة المخيفة، التي يُسهم الذات والآخر في بلورتها؟، ما الذي يعرفه متنورون ولايجهله إلا متديّنون؟، ما هو الذي يحدث فعلاً في نطاق الحوار سوى الخطابات الجميلة المطوّلة؟.

إن الإجابة على هذه الأسئلة فهي معروفة بالنسبة إلى الفاتيكان، لكنها ليست هكذا عند المسلمين.

مثقّفون في جامعة جريجوريانا

شهدت القاعة الكبرى لجامعة جريجوريانا البابوية في بداية شهر أيار (مايو) من عام 2008 م مناقشة مفتوحة حول الرسالة الموجّهة من «مائة وثمان وثلاثين شخصية إسلامية».

وهذه الجامعة التي تقع في ميدان بيلوتا وسط روما هي جامعة النخبة للكنيسة الكاثوليكية. وكان محور النقاش يدور حول نظرة المتديّنين إلى العنف، وحول العلاقة بين العقل والإيمان، وفقاً للمفهوم الإسلامي.

وكان من بين المشاركين في النقاش أفضل خبيرين كاثوليكيين، هما البروفسور اليسوعي المتقاعد من جامعة جيورجين في فرانكفورت، وهو كريستيان ترولّ ذو السمعة الحسنة بين الأوساط الإسلامية، بالإضافة إلى زميله البروفسور نيسبين الوافد من القاهرة، والمنتسب إلى «الكلية القبطية - الكاثوليكية للعلوم الإنسانية واللاهوت، متخصصاً في الدراسات الإسلامية».

عندما كان الحاضرون يستمعون إلى كليهما في جامعة جريجوريانا، فإنهم كانوا

يكتسبون انطباعاً إيجابياً، موحياً بأن هنالك تقدّماً ولكنه بطيء. ولوحظ بالاستنتاج كذلك أن الحوار مع الإسلام كان هو الموضوع الشاغل للكنيسة على صعيد العالم، في مؤتمرات الأساقفة وفي نطاق الأبرشيات. لقد شكّل الإسلام مادة للدراسة والبحوث في الجامعات العامة وكليات علوم اللاهوت، وفي المعاهد والأكاديميات والمؤسسات الوقفية والجمعيات المهتمة، وكانت ألمانيا متميّزة في هذا المضمار أيضاً. فعلى سبيل المثال قُدّم في أكاديمية برلين الكاثوليكية في اليوم الأوّل من شباط (فبراير)2008م موجز عن النتائج المحدودة للحوار، وعن الأمل الأكبر من محدودية ما تّم التوصّل إليه، بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاد كريستيان ترولّ، الذي بلغ من عمره سبعين سنة حينذاك.

ومن البديهي أيضاً أن ثمة مساعي تُبذَلُ في كنائس كاثوليكية أخرى، وفي أوساط المجتمعات الغربية عموماً، بغرض إجراء التواصل مع مسلمين.

وفي كثير من الأحيان يحدث مصادفة احتكاك وتبادل حديث مع مسلمين نمطيين، ممن يدركون أهميتهم بشكل مفاجيء ويبدون ردود أفعال متباينة، علماً بأنّ معظمهم مقتنعون جداً بعقيدتهم. وتلاحظ التباينات عند التحدث مع مسلمين في مناطق مختلفة.

فهم في ألمانيا مختلفون من حيث ردود الأفعال عن أتباع دينهم في تركيا والهند واندونيسيا، ويتبيّن الاختلاف عند التحادث صدفة مع مسلمين في أحد مراكز دبي التجارية، مقارنة بالحديث مع آخرين منهم في جامعة القاهرة أو في بازار داخل دمشق.

إنهم يُظهرون أنفسهم أحياناً كمعتدلين، وفي بعض الأحيان الأخرى تتبدّى منهم التصرفات العدوانية. وهم يمارسون الدفع باتجاه الحوار مرّةً، بينما يحتاجون مرّةً أخرى إلى من يحملهم على الأكتاف إلى ساحة الحوار.

ففي هذا السياق يمكن القول أن بعض الحراك يحدث في كنيسة البابا وفي أماكن أخرى، ومن المدهش أنّ الكثير من مثل هذا الحراك، هو الملاحَظُ حدوثه في نطاق الإسلام.

تعكير المزاج ليس مطلوباً

لابُدّ للمعنيين في روما أو أي مكان آخر أن يتجاهلوا في البداية تلك المعاملة السيئة، التي تتعرَض لها الأقليات المسيحية في الدول الإسلامية، لأن الحديث عن تلك المعاملة يؤّدي كما قيل إلى تعكير المزاج وإفساد جو الحوار، ويُعدّ نقداً تهجميّاً.

ومع ذلك فإنّ ما حدث عموماً حتى الآن هو تطوّر مدهش، بالنظر إلى ما هو ماثل على أرض الواقع بخصوص الاستماع المتبادل بين الطرفين، حتى ولو لم يكن من المتيسَر دائماً تحديد المعلومات الدقيقة من الجانبَ الإسلامي، من حيث مستوى الحوار ومدى الالتزام به والتقيّد بنتائجه.

إن تعذّر التحديد الدقيق هذا لينطبق حتى على جميع ممثّلي الطرف الإسلامي، الذين يفدون إلى روما، ليتحدّثوا مع ممثلي الفاتيكان، معبّرين عن «أفكار نبيلة» (كما وصفها بينيديكت)، ثم يضعون إمضاءاتهم تحت كلمات رائعة.

ومن يرى أن كل ذلك هو مجرّد إضاعة للورق، فإنه يجد أسباباً لتبرير ما يراه. ويبدي خبراء مستندون إلى خبرات عقود زمنية في آسيا وأوروبا، ومنهم البروفسور ترولّ، اعتراضهم على عدم الدقة والتعميم، قائلين بأنه لم يزل من غير الممكن اكتساب الكثير في نطاق الحوار، طالما بقي المتحاورون قابعين في طيف العموميات، بدون اعتماد الدقّة في الجانبين اللاهوتي والعملي.

ومع ذلك فهنالك إشارة سياسية دينية هامة، وهي المتضمنة إلزام المسلمين – سنة أم شيعة– بمثاليات التناغم بين العقل والإيمان، وبخلّو الدين من العنف.

لقد ألمح المعنيون في الفاتيكان إلى امكانية التصرّف مع المسلمين، بأسلوب قابل للمقارنة مع ما حدث في «هلسنكي عام 1975م».

ففي ذلك الحين وقّع رؤساء الدول والأحزاب الشيوعية على «الوثيقة الختامية لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا، مُقَلّلين من شأن فصل ورد في الوثيقة بمبادرة من الفاتيكان عن الحرية الدينية. فانبعثت من الاعتقاد بالحرية ولو على الورق حينذاك بعض التأثيرات في

الدول الشيوعية، مما شجّعَ الرعية في براغ ووارسو ودانزيج على الحراك.

ولهذا، فإن ما حدث بعد التوقيع على وثيقة هلسنكي يمكن أن يستخدم، كما قيل، لطلب المزيد من المسلمين، في سياق الإفادة بأنهم يعتقدون بمثاليات خلو الدين من العنف، وتطابق العقل مع الإيمان!، فهكذا هي الرؤية السائدة في روما.

بالإضافة إلى ذلك فإن أساتذة اللاهوت المسيحي مستمرون في مراعاة فكرة، تتضمّن بأن الحوار مع الإسلام تعرّضَ إلى خطأ منذ انطلاقته الأولى، مما يعني وجوب التعويض عن الخطأ.

فلم تكن للحوار معهم أولوية قبل انعقاد المجمع الثاني للفاتيكان، أي قبل خمسين سنة. في ذلك الحين أراد الأساقفة أن يعالجوا بشكل رئيسي علاقة المسيحيين المتضررة مع اليهود، ثم أدخلوا في جدول أعمالهم لأسباب سياسية- تكتيكية مسألة العلاقة مع ديانات أخرى أيضاً، ضمن الجوانب اللاهوتية، وكأنها عوملت مثل معاملة الديانة اليهودية.

ويُقالُ حالياً بايجاز إنّ التبادلَ السلمي للأفكار بين الديانتين الكبيرتين في العالم، وهما المسيحية والإسلام، لم ينتقل إلى صدارة السياسة الدينية في نطاق العولمة، إلاّ بعد صحوة الإسلام واكتسابه مزيداً من القوّة، وكذلك بعد أن تأطّرَ تأثير عوامل أخرى مثل تدفّق ملايين المهاجرين المسلمين إلى أوروبا، وتورّط متطرّفينَ مسلمين في الإرهاب الدولي، وأخيراً وليس آخراً: بسبب تداعيات محاضرة البابا في ريجينسبورغ.

خطوة أخرى مع ممثّلي السنّة

لقد أتى السنّة إلى ميدان الحوار مع المسيحيين بعد الشيعة. ففي هذا النطاق استطاع المعنيون في روما التبليغ عن خطوة أخرى، إذ أنّ «لجنة الارتباط الإسلامي- الكاثوليكي» اختتمت أعمالها في اللقاء الرابع عشر بين أعضائها بعد مشاورات لمدّة ثلاثة أيام في مدينة جدّة، برئاسة كلّ من الكاردينال تاوران، والعلاّمة الإسلامي المعروف حامد بن أحمد الرفاعي، رئيس «المنتدى الإسلامي الدولي للحوار»، حول الموضوع الذي يشكّل حدث

الساعة، تحت العنوان: » المسيحيون والمسلمون شهوداً لإله العدالة والسلام والرأفة في عالم يعاني من العنف». إن المشاركين في اللقاء، الذين استقبلهم البابا بينيديكت وشجّع مساعيهم، وافقوا في بيان صحفي رسمي على اعتماد الأسس التالية:

1) من صميم الكرامة الإنسانية تولد حقوق لكل شخص وتترتب عليه واجبات أساسية.

2) العدالة هي إحدى الأولويات في عالمنا، وهي تتطلّب احترام الاحتياجات الأساسية لجميع الأفراد والشعوب، من خلال المحبّة والأخوّة والتضامن.

3) السلام هبة من الله، أمّا المطلوب من المؤمنين بشكل خاص فهو القيام بواجبهم كشهود متيّقظين على العمل من أجل السلام، في عالم مثقَلٍ بعنف ذي أشكال شتّى.

4) المسيحيون والمسلمون يؤمنون بأنّ الله رؤوف رحيم، ولهذا فإنهم يرون بأن من واجبهم التعامل بالعطف والرحمة الإنسانية مع كل شخص، وخاصة مع المحتاجين والضعفاء.

5) عندما تُعاشُ الديانات بصدق حقيقي، فإنها تُتيحُ تقديمَ مساهمةٍ هامةٍ في الأخوّة والانسجام داخل الأسرة البشرية.

وقد ثمّن الكاردينال تاوران هذا البيان المشترك مع أهل السنة والجماعة، مثلما سبق له أن ثمن ذلك البيان الذي صدر في نهاية نيسان(أبريل) في طهران مع الشيعة.

الفصل الثلاثون

الحوار الكبير والمنتدى الكاثوليكي ـ الإسلامي في روما
خلال الفترة من 4 إلى 6 تشرين الثاني (نوفمبر) 2008 م

تبقى غالبية مجريات الحوار بين روما ومكة غير مرئية، ولا تتكشف الا في وقت لاحق وعلى أبعد تقدير، عندما يُقابل المهتمون مسؤولي الفاتيكان ويطرحون عليهم الأسئلة للإستفسار عن التفاصيل، ومن الأفضل القول حينما تكون هنالك رغبة في الاستفسار منهم، بل وبصورة أدق: عندما يريد السائل الحصول على إجابات مناسبة للإقتباس.

إنّ أفضل وسائل الإستفسار وأجداها في حالات كثيرة، هي الكامنة في الإتفاق على موعد مع المعنيين، للتحادث معهم، والتوصّل إلى النتائج بالاستناد إلى الاطلاع على خلفية مجريات الحوار.

فالمسؤولون يحبّون السرّية، دون أن يعني ذلك بأنّ عليهم الخشية من الظهور علانية أمام الجماهير. لكنهم لا يستطيعون إدراك ما تعنيه التداعيات، إذا تحوّلت معلومة محددة إلى ملكية عامة للجميع، فهم يخشون من حدوث تأثيرات سلبية في تلك الحالة.

ففي هذه الشؤون تعرّضَ رجال الكنيسة سابقاً إلى مشاكل أكبر، كان من غير الممكن تجاوزها في أحيان كثيرة. لقد طرأ بعض التخفيف من تهيُّب الأساقفة والكرادلة في الإنفتاح على هذا الموضوع بفضل اللقاءات في المجمع الكنسي ومن خلال العمل الصحفي، الذي تزايد فيه مدى الانفتاح والمعالجات الصريحة بشكل دائم.

أما المسلمون فهم في معظم الأحوال إمّا أشدّ حذراً، أو أنهم يتّسمون بالمسارعة إلى الحديث ذي الصبغة الدعائية التامة.

ومن الجدير بالذكر أنّ المعنيين لدى الفاتيكان في هذه الشؤون يختارون كلماتهم دائماً بعد الترّوي وإنعام الفكر، وهؤلاء هم كل من رئيس مجلس الحوار الكاردينال جان-

لويس تاوران، وسكرتير المجلس الأسقف الإيطالي بيير لويجي كيلاتا، والخبير الحقيقي في الشؤون الإسلامية لدى الوزارة المكلّفة بالتعامل مع الديانات غير المسيحية، وهو المونسنيور خالد ب . عكشة كونه صاحب الصلاحية الخاصة «رئيس مكتب الإسلام» في هذه الوزارة. ويُشرف الثلاثة المذكورون على «لجنة العلاقات الدينية مع المسلمين»، القسم الذي أسسه البابا بولص السادس بتاريخ 22 تشرين الأوّل (أوكتوبر) 1974م.

وكما ورد في وثيقة التأسيس فقد عُدّت الديانتان المسيحية والإسلامية «مختلفتين ولكنهما مترابطتان». كان البابا في حقبة السبعينات من القرن الماضي، التي أُعدّت فيها خطط لبناء مسجد في روما، مدركاً تزايد أهمية الإسلام، حتى بالانطلاق من حقيقة كونه ديناً مجاوراً للدين المسيحي من المنظور الجغرافي. أمّا بالنسبة إلى البوذيين والهندوس فلا شك بأنّ لدى مجلس الحوار خبراء بشأنهم، ولكن بدون أن تشكّل لشؤونهم لجنة خاصة.

هكذا كان الوضع قبل ما يزيد على ثلاثين سنة، حيث دأب الكرادلة وحاملو لقب المونسنيور منذ ذلك الحين على خوض حوار داخلي، أشّد كثافة من الحوارات العلنية، غير أنه متسم بالهدوء. ولو انطلقنا من الأبعاد الروحية إلى المادية، لوجدنا تشابهاً قليلاً في هذا السياق، كما يحدث مثلاً حينما تجرى المداولات بين نقابات العمّال وأرباب العمل.

فممثلو الطرفين يرتبطون خارج نطاق المؤتمرات بعلاقات متعددة الجوانب، إنهم يلتقون معاً أو يصطدمون، لكّن أمور المقابل المادي المتعلّق بالأجور والترتيبات الأخرى بين الطرفين يجب أن تكون موضوعاً للتداول بين الحين والآخر، ولابّد من تعديلها لتتكيّف مع تغيّر الاحتياجات.

لا تفعل لغيرك ما لا تريده لنفسك

لابّد من التروّي أيضاً عند اختيار الشركاء في الحوار،مع العلم بأنّ الأمر بالنسبة إلى المعنيين في حكومة الفاتيكان والبابا، في موضوع تحديد هويّة المشاركين عن الكنيسة

الكاثوليكية في الحوار أمر سهل. ومع ذلك فإنّ التغيير المتكرر لقيادة مجلس الحوار – بدءاً من الكاردينال أراينز مروراً بالأسقف الأعلى فيتزجيرالد، ثم الكاردينال بوبارد، وانتهاءً بالكاردينال جان لويس تاوران – يدل على التقلّب في التوجيهات أو الاجراءات الإدارية. أمّا فيما يتعلّق بقادة المسلمين فبوسعهم الاستناد إلى خبرات لسنوات طويلة مع مجلس الحوار، وينبغي أن يكون المنتدبون منهم أصحاب مكانة، بما يعني إذن أن يكونوا مخوّلين بالتمثيل، وقادرين على خوض الحوار.

وفي حقيقة الأمر فإنّ تحلّيهم ببعض الخصائص لايشكّل عاملاً مساعداً لانجاح الحوار، ومن الصفات التي تُدرَج كخصائص غير مساعدة على سبيل المثال: تمتّعهم بسمعة بالاعتدال والحداثة، وتوجهاتهم الناقدة بخصوص التقاليد والشريعة الإسلامية وتفسير القرآن، وكذلك حتى احتمال انطلاقهم من موقف الانفتاح تجاه الاهتمامات المسيحية.

وما يُؤخَذُ بعين الاعتبار، عند توجيه الدعوات للمشاركة في الحوار، هو أنّ المسألة ذات صلة بأتباع ديانة يزيد عددهم على مليار شخص. إذن فإنها ليست مسألة تدور حول ما هو سائد في مجتمعات غربية، بخصوص الرغبة في تفضيل الإستماع الى التعبير عن رؤى متسمة بالمسالمة والعصرية.

فالمشاركون في الحوار في روما يضمّون بين صفوفهم متصلّبين، ممن يريدون أيضاً أن تُراعى حججهم أو أحكامهم المسبقة. فليكن التعاطي معها من خلال حجج أقوى، وفقاً للمبدأ الأساسي المتضمّن: بأنّ ما لا يريد قبوله أحد الطرفين (المسيحي أو المسلم)، لا يجوز أن يُلقى على كاهل الطرف الآخر.

التقى ممثلو المرجعيات الكاثوليكية والاسلامية في اليومين الرابع والخامس من آذار (مارس) 2008م، في مجلس الحوار في شارع فيا ديلا كونسليا زيونه رقم 5 في روما، على مقربة من نهر تيبر على الطريق المؤدية إلى النهر من إنجيلسبورغ. ومُثّلَت كل ديانة في هذا اللقاء بخمسة أشخاص:

المشاركون الكاثوليك:

1) رئيس المجلس البابوي للحوار مع الأديان، الكاردينال جان – لويس تاوران

2) سكرتير المجلس المذكور، الأسقف الأعلى بيير لويجي كيلاتا.

3) رئيس مكتب الإسلام في المجلس، المونسنيور خالد عكشة.

4) رئيس المعهد البابوي للدراسات العربية والاسلامية، بيتر ميجويل آنجيلو أيوسو جييكسوت.

5) البروفسور الدكتور كريستيان دبليو. ترولّ.

المشاركون المسلمون:

1) الأستاذ الشيخ عبد الحكيم مراد، رئيس الاتحاد الأكاديمي للمسلمين في بريطانيا.

2) الأستاذ الدكتور عارف علي نايض، مدير المركز الملكي للدراسات الاسلامية في العاصمة الأردنية – عَمان.

3) الدكتور ابراهيم كالين من مؤسسة سيتا الخيرية في العاصمة التركية.

4) الإمام يحيى بالفيشيني نائب رئيس جمعية كوريس الدينية–الإسلامية في ايطاليا.

5) سهيل ناخودا، رئيس تحرير المجلة الاسلامية عَمان – الأردن.

أجمع ممثلو الطرفين على تحديد موقفهم الداعي إلى اقامة أوّل حلقة دراسية للمنتدى الكاثوليكي – الإسلامي، خلال الفترة من 4 الى 6 تشرين الثاني (نوفمبر) 2008م في مجلس الحوار في روما. ويتّخذ هذا المجلس مقره في الطابق الرابع من القصر، الذي يضّم في نفس الطابق أيضاً «المجلس البابوي لتعزيز وحدة المسيحيين»، برئاسة الكاردينال الألماني كاسبر. لقد وضع الكاردينال بسرور، قاعة الاجتماعات الكبيرة للمجلس الذي يترأسه، مع ما يتوفّرُ فيها من إمكانيات الترجمة الفورية تحت تصرّف المشاركين في الحوار.

وكان من المستطاع بالإضافة إلى ذلك حجز غرف أيضاً في الفندقين الأقرب إلى كنيسة القديس بطرس، وهما فندق «كولومبوس»و «الكاردينال كيسي».

الحوار الكبير بين وفدين – كل وفد من أربعة وعشرين عضوا

اتفق العشرة، أصحاب الشأن، المتفاوضون من الطرفين كذلك على زيادة عدد كل وفد منهما، ليصبح مجموع أعضائه أربعة وعشرين شخصاً، بحيث يكون الأعضاء المضافون الجدد من الخبراء والقادة الدينيين والمستشارين. وذُكِرَ بأن موضوع المناقشات الرئيسي حُدِد ليتمحوَر حول: «محبة الله ومحبة القريب»، كما تقّرر التحادث بخصوص المواضيع الفرعية، موزّعةً على ثلاثة أيام كما يلي: «أسس لاهوتية وفكرية» (في اليوم الأوّل). «الكرامة الإنسانية والاحترام المتبادل» (في اليوم الثاني). أما اليوم الثالث فقد خُطِطَ ترتيب لقاء فيه مع البابا بينيديكت السادس عشر، مما يوحي بعدم ورود احتمالات الفشل.

وهكذا بدأ في روما في الرابع من تشرين الثاني (نوفمبر) 2008م، أي بعد سبعة أشهر من يوم الاتفاق المسبق كما كان مقرراً، إجراء الحوار الكبير بين ممثلي الكنيسة الكاثوليكية ونظرائهم رفيعي المستوى من العالم الإسلامي. وبالنسبة إلى التقييم فقد ذكر أحد المشاركين الكاثوليك في الحوار، مع رغبته في الحفاظ على السرّية، بأنّ أحداً لا يتصوّر القدرة من خلال اجراء حوار واحد على طمس الفروق الشديدة ما بين الكنيسة والمسجد.

إنّ الحوار الصادق يعني على العكس من ذلك عدم إنكار الفروق، حسب رأي المشارك المذكور، بل يتطلّب من الطرفين السير على طريق القيم المشتركة، التي تضمّ بين طياتها مثلاً احترام متطلبات السلام والتخلّي عن العنف، والعمل من أجل التضامن بين الناس، واحلال العدالة بين الشعوب، وكذلك التمسّك بحق الجميع في التمتع بالحرية الدينية.

وضع المرأة وكرامتها

تصرّف الأساقفة بالتماهي مع المفهوم الكاثوليكي، حينما أبرزوا موقفهم الداعي للوقوف الى جانب المطالبين بمنح المرأة حق المساواة مع الرجل، من حيث تمتّعها بالكرامة والاعتراف بمكانتها. وتجلّى هذا الموقف خلال مؤتمرهم الذي انعقد في روما لمدة ثلاثة

أسابيع، بين اليومين الخامس والسادس والعشرين من تشرين الأوّل (أكتوبر) عام 2008م.

ومن جهة أخرى فإن الأسرة الدولية لم تعد تتقبّل وفقاً لما ذُكِرَ في مؤتمر الأساقفة أن يتعرّضَ المسيحيون في بلدان إسلامية إلى الاضطهاد، بسبب عقيدتهم أوالتعامل معهم كمواطنين من الدرجة الثانية.

لقد تضمّن بيان صحفي صادر عن الفاتيكان إشارة بالنص الصريح إلى سوابق التسلسل الزمني كدوافع للحوار، ومنها على سبيل المثال:

محاضرة بينيديكت السادس عشر في ريجينسبورغ في الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) 2006م، والرسالة المفتوحة الموجّهة من مائة وثمان وثلاثين شخصية اسلامية من ذوي المكانة في شهر تشرين الاوّل (اكتوبر) 2007م، ثم إجابة البابا عليها عن طريق رئيس حكومة الفاتيكان الكاردينال بيرتوني. ومن الجدير بالذكر أنّ ممثلي المسلمين المشاركين في الحوار مع الكنيسة البابوية أقرّوا بأنه حظي بالترحيب في العالم الإسلامي أيضاً، وبأنه يبدو مجدياً من المنظور السياسي. وقيل بأنّ ما كان ذا أهميّة في هذا الشأن يكمن في تلك الزيارة، التي قام بها العاهل السعودي الملك عبد الله، خادم الحرمين الشريفين، إلى الفاتيكان واجرائه مداولات مع البابا، مما أدّى إلى ادراج مواضيع سياسية في الحوار الديني.

وكان من البديهي مراعاة التوافق على إصدار بيان مشترك حول القيم المشتركة بين المسيحيين والمسلمين، بعد لقاء ممثلي المجلس في نهاية شهر نيسان (أبريل) 2008م في طهران مع ممثلين عن الشيعة، وينطبق ذلك تماماً على البيان المشترك الآخر مع ممثلي السنّة في منتصف شهر حزيران (يونيو) من العام المذكور.

وأقّر أولئك المشاركون في «لجنة ارتباط اسلامية – كاثوليكية»، عبر بيان صحفي رسمي، بموافقتهم على المبادىء ذات الصلة بالكرامة الإنسانية للأشخاص، وبالعدالة والسلام والتضامن على مستوى الأفراد والشعوب. وكان من المستطاع حينذاك التأسيس على معطيات هذا التطوّر في شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، دون أن تنشأ رغبة في النظر إلى الوراء.

وراء أبواب مغلقة

استمر المتحاورون في مناقشاتهم وراء أبواب مغلقة يوم الأربعاء، في الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) 2008 م. التي كانت تدعم التقييم الإيجابي لمحاضرة البابا بينيديكت في ريجينسبورغ، وفقاً لما سمعناه من أوساط المشاركين في الحوار، الذين ضمّوا بين صفوفهم سيدتين.

فقد دافع عن تلك المحاضرة البابوية على سبيل المثال طارق رمضان، المتخصص في العلوم الإسلامية في سويسرا، الذي تعّد ممثلاً عن تيار إسلام أوروبي، معَبِّراً عن وجهة نظره بالقول: «بأن من الأولى اعتبار نتائج المحاضرة إيجابية قبل أن تكون سلبية»، وبأن بينيديكت «افتتح مواقعَ بناءٍ يَجدُر استغلالها بشكل إيجابي من أجل اقامة جسور» للتواصل.

وفي سياق تقييم الصفة التمثيلية في الحوار قيل بأنّ الطيف العريض للاسلام تم تمثيلُه عبر مشاركين من السنّة والشيعة وممثلين عن التوجّهات الصوفية.

أمّا الكاردينال تاوران فقد عبّر بدوره عن اعتراضه الحاسم على اعتبار المسيحية متماثلة مع السياسة الغربية، ضمن ردّ فعله كما يبدو على اتهامات اسلامية من هذا القبيل. فالاتهامات بتماثلهما ربّما يؤدي إلى حدوث حالات توتّر بين الكنيسة والمسجد، علماً بأنّ المسيحيين ليسوا بمسؤولين عن قرارات الساسة الغربيين. وهذا التقييم هو مطابق للحقيقة.

في يوم الخميس في السادس من تشرين الثاني (نوفمبر) تقدّم المشاركون في المنتدى ببيانهم المشترك. وتضمّن محتواه الحديث عن تلك القيم التي يستوعبها ويعكسها مجتمع مدني عصري من القناعات الأساسية، وبهذا شقّ ممثلو الديانتين على الصعيد الرسمي طريقهم للوصول إلى صياغات حول مضامين معبّرة على سبيل المثال، عن قيم الحرية والكرامة الإنسانية للأشخاص، أو الإقرار بمساواة المرأة مع الرجل من حيث المكانة

والتقدير، علماً بأنّ من البديهي عدم القبول المؤكّد بهذه الصياغات من المسلمين في كل مكان.

وفيما يلي ندرج نص البيان المشترك [الذي نُشر في حينه على موقع وكالة زينيت العالمية على شبكة الإنترنت]:

1. بالنسبة إلى المسيحيين، يكمن مصدر ومثال محبة الله والقريب في محبة المسيح لأبيه وللبشرية، ولكل شخص. «الله محبة»، (1يو 4–16) و»هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو 3، 16). إن محبة الله توضع في قلب الإنسان من خلال الروح القدس.

الله هو الذي يحبنا أولاً ويجعلنا قادرين على مبادلته المحبة. إن المحبة لا تؤذي القريب بل تسعى إلى العمل للآخر بما يريده الإنسان لنفسه» (1 كور 13: 4 – 7). المحبة هي أساس وخلاصة جميع الوصايا (غل 5، 14). لا يمكن فصل محبة القريب عن محبة الله، لأنها تعبير عن محبتنا لله. هذه هي الوصية الجديدة «أن يحب بعضكم بعضاً كما أنا أحببتكم» (يو 15، 12) التي تتأسس في محبة المسيح الذي بذل نفسه لأجلنا.

إن المحبة المسيحية تسامح ولا تستثني أحداً، وهي تشمل أيضاً محبة الأعداء. يجب ألا تكون فقط بالأقوال بل بالأعمال (1يو18،4) هذه هي علامة صدقها.

أما بالنسبة إلى المسلمين، وكما هو محدد في «كلمة سواء»، فإن المحبة هي قوة فائقة سرمدية ترشد الى الاحترام المتبادل بين الناس. هذه المحبة، وكما يشير النبي الحبيب محمد، تسبق محبة البشر لله الواحد الحق. ويشير حديث نبوي إلى أن محبة الله الرؤوفة للبشرية هي أعظم من محبة الأم لابنها (مسلم، باب التوبة: 21)؛ لذلك، فهي موجودة بشكل مستقل قبل الإستجابة الإنسانية للأوحد «الودود». هذه المحبة الرؤوفة هي عظيمة جداً لدرجة أن الله قد تدخل لإرشاد وخلاص البشرية بشكل كامل عدة مرات في العديد من الأماكن، بإرسال أنبياء وكتب مقدسة. أما آخر هذه الكتب وهو القرآن، فإنه يصور عالماً من الرموز، ويبني كوناً رائعاً من الفن الإلهي يستجمع محبتنا وإخلاصنا لكي يحظى المؤمنون بأقصى

محبة الله (2، 165)، ومن يحظون بها هم الذين يؤمنون ويقومون بالأعمال الصالحة (19: 96). وقد ورد في حديث نبوي: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (بخاري، باب الإيمان: 13).

2– إن الحياة البشرية هي هبة ثمينة منحها الله لكل إنسان. لذلك، يجب الحفاظ عليها واحترامها في جميع مراحلها.

3– إن كرامة الإنسان تنشأ عن فعل أن كل شخص بشري خلقه الله الودود من المحبة، ومنحه مواهب العقل والإرادة الحرة، التي تجعله قادراً على محبة الله والآخرين. وعلى أساس هذه المبادئ، يحتاج المرء إلى احترام كرامته الأصلية أو دعوته البشرية.

لذلك، يحق له أن يعرف بالكامل هويته وحرياته من قبل أفراد، وجماعات، وحكومات يدعمها القانون المدني الذي يضمن المساواة في الحقوق والمواطنة التامة.

4– نؤكد على وجود جانبين عظيمين في خلق الله للبشرية، إذ خلق الإنسان رجلاً وامرأة؛ ونلتزم معاً بضمان حصول الرجل والمرأة على قاعدة المساواة على الكرامة والا حترام.

5– تقتضي محبة القريب الحقيقية احترام الشخص وخياراته في مسائل العقل والدين، وتتضمّن حق الأفراد والجماعات في ممارسة شعائرهم الدينية سراً وعلانية.

6– للأقليات الدينية الحق في أن يتم احترامها بقناعاتها وشعائرها الدينية الخاصة بها. كما لها الحق في أماكن العبادة الخاصة بها. ويجب ألا تتعرّض صورها ورموزها الأساسية التي تعدّها مقدّسة إلى أي شكل من أشكال التهمكم والسخرية.

7– يجب علينا، كاثوليكا ومسلمين مؤمنين، أن ندرك الدعوة والحاجة إلى الشهادة لبعد الحياة السامي، من خلال روحانية تغذيها الصلاة في عالم يتحول أكثر فأكثر نحو العلمانية والمادية.

8– نؤكد وجوب عدم إقصاء أي ديانة وأتباعها من المجتمع، إذ يجب أن تكون كل

منها قادرة على المساهمة الأساسية في مصلحة المجتمع، وبخاصة في خدمة الأكثر فقراً.

9- نقر بأن خلق الله في تنوع ثقافاته وحضاراته ولغاته وشعوبه يشكل مصدر ثروة، لذلك يجب ألا يصبح أبداً سبب توتر وصراع.

10- نحن على اقتناع بأنه يجب على الكاثوليك والمسلمين تأمين تربية سليمة على القيم الإنسانية والمدنية والدينية والأخلاقية لإخوتهم، وتعزيز معلومات دقيقة عن ديانة ال آخر.

11- نعترف بأن الكاثوليك والمسلمين مدعوون إلى أن يكونوا أدوات محبة وتناغم بين المؤمنين، ومن أجل البشرية جمعاء، بنبذ القمع، والعنف والإرهاب المرتكب باسم الدين، ودعم مبدأ العدالة للجميع.

12- ندعو المؤمنين إلى العمل من أجل نظام مالي وأخلاقي تُراعى فيه الآليات التنظيمية وضعَ الفقراء والمحرومين كأفراد وكأمم مستدينة. وندعو أثرياء العالم إلى مراعاة المحنة التي يشهدها المعانون بشكل خطير من أزمة إنتاج الأغذية الحالية وتوزيعها، وندعو المؤمنين من جميع الطوائف، وأصحاب النوايا الحسنة إلى العمل معاً على تخفيف معاناة الجوع، وإزالة مسبباته.

13- إن الشباب هم مستقبل الجماعات الدينية والمجتمعات بشكل عام. وسوف يعيشون أكثر فأكثر في مجتمعات متعددة الثقافات والأديان. لذا، فإن من الضروري إعدادهم في تقاليدهم الدينية الخاصة بهم، ومدهم بالمعلومات الكافية عن الثقافات والديانات الأخرى.

14- تم الإتفاق على اكتشاف إمكانية تشكيل لجنة كاثوليكية مسلمة دائمة تعنى بتنسيق الردود على الصراعات وحالات الطوارئ الأخرى.

15- نتطلع إلى عقد حلقة ثانية من المنتدى الكاثوليكي الإسلامي بعد حوالي السنتين في بلد ذي أكثرية مسلمة.

نص واضح وغير محرج

استقبل البابا بينيديكت المشاركين كما كان مقرراً في لقاء خاص، بقاعة كليمينتينا التابعة للقصر الرسولي في الفاتيكان. ولم تتضمّن العبارات الأولى من حديثه إليهم ما يدّل على الملامة، كما أنه لم يتكلّم بعد ذلك عن أي أمرٍ يجدر توجيه اللوم بشأنه. فإما يكون قد عبّر عن وجهة نظره قائلاً بأنّ الكاثوليك والمسلمين أعضاء نفس الأسرة، أو أعرَبَ عن تقديره لجهود المشاركين في التفاعل مع بعضهم، وفي تعميق التفاهم المتبادل، أو تطرّق إلى محبّة الله ومحبة القريب، على أساس أنها تشكّل «القلب النابض للإسلام والمسيحية».

ولكنه اتسم بوضوح أكثر وثقة أقوى بالمسيحية، عندما أبرز في كلامه اعتقاد المسيحيين بأنّ يسوع المسيح هو كلمة الله النهائية، معبّراً عن ذلك باشارته إلى أن الله خلق الكون من المحبة، وأنه جعل محبته تظهر مرئية، متجلّيةً بصورة كاملة في شخص يسوع المسيح بالتحديد. وهكذا أتى الله للإلتقاء بنا نحن البشر متخذاً طبيعتنا، بينما بقي هو الله ذاته، وبذل نفسه ليعيد الكرامة لكل إنسان، وليأتنيا بالخلاص. وذكر البابا في هذا السياق أنّ «الله يطالبنا لهذا السبب بتكريس أنفسنا لدعم ضحايا الحروب والأمراض والمجاعات والفقر والظلم والعنف».

أمّا بشأن موضوع الحرية الدينية وحرية تصرّف الناس بما يرضى ضمائرهم فقد عبّر عنه البابا بينيديكت بنص واضح. فكان تأثير كلماته على بعض المشاركين المسلمين مشابهاً للإستحمام تحت الماء البارد، وذلك عندما أوضح بأنّ «من واجب القادة السياسيين والدينيين أن يضمنوا لكل فرد التمتّع بجميع حقوقه، مع الاحترام الكامل لحرية الجميع الدينية، وحرية تصرّفهم بما يرضي ضمائرهم». لم يكتف قداسته بهذه الكلمات، بل إنه زاد عليها بقوله حرفياً: «لايمكن قبول الملاحقات ولا تبريرها، وهي مدعاة لتذمّر أكبر، عندما تُمارَسُ باسم الإله».

لم يكن أحد من المشاركين بحاجة للاستفسار من قداسته عن الدول، التي عناها بعباراته. ففي الدول ذات الحكم الإسلامي تسود أسوأ الأوضاع، المتعلّقة بالحرية الدينية

وحرّية التصرّف بما يرضي الضمير، مع مراعاة حقوق الأقليات الدينية (أوغيرها) طبقاً لجميع التقارير الدولية. ولم ينقشع الغمام عن أمزجة بعض المستمعين إلى البابا عندما دعا الطرفين إلى المشاركة في عمل الخير. ومن الكلمات التي تضمّنها حديثه: « لِنُوّحِد قوانا من أجل تجاوز جميع حالات سوء الفهم والخلافات!».

كانت مخاطبته للطرفين «مسلمين ومسيحيين» ذات وقع مشجّع على الأقل، انها بدت أيضاً وكأنها مزوّدة بخطّاف مؤلم، حينما قال بأن المسيحيين والمسلمين «يجب أن يلتزموا بالعمل معاً، من أجل دعم حق الشخص بالتمتّع بالكرامة الانسانية، مع تمتّعه بحقوقه الأساسية». إذن فينبغي أن يحدث مزيد من بعض التطوّرات وبوتيرة أسرع، حسب ما تضمّنه الطلب الذي عبّر عنه البابا بوضوح.

لذا لا يجوز أن يتعرض الحوار إلى تأثيرات سلبية من وقع الكلمات البابوية هذه، بل إن كلماته ربما ستؤدّي إلى تنشيط الحوار، لأنها ستنزع النقاب للكشف عن واقع يشكّل الحواجز، ويحمل في طياته ما يدعو إلى الأسف.

لم يزل مزيد من الحوار ضرورياً

سرعان ما تبّدت من جديد تأويلات مختلفة لنفس الكلمات المسموعة، في نطاق جلسة علنية للمنتدى مساء يوم الخميس، في القاعة الكبرى لجامعة جريجوريانا في روما.

لكن الكاثوليك والمسلمين لن يتمكنوا من تحديد أهمية الكلمات والتنبيه لها سوى عبر نقلها إلى حيّز التطبيق العملي.

لقد بدا أيضاً أن مشاركة النساء بصفة المراقبة في الحوار الرسمي تشكّل تضارباً بحد ذاتها.

أجل، إن الأمر يتعلّق بنساء مسلمات يعبّرنَ بفصاحة عما يجول في خواطرهن، ويتسمن بإيمان راسخ بعقيدتهن، وبالإخلاص لوجهات النظر التقليدية، ومن البديهي أنهن ارتدين غطاء الرأس في جلسات الحوار.

فمن الممكن والحالة هذه أن تشكّل مشاركتهن في الحديث العام تناقضاً، مما يجيز طرح أسئلة عما إذا كانت النساء في الغرب يشعرن بالانجذاب إلى مثل هذا الوضع.

فهل يبتعدن عنه مستغربات، أم يستخلصن منه إمكانية تحقيق تصوّرات امرأة عصرية في الإسلام، بخصوص احتمال معايشة وجود مسلمات يمثّلن الحركة الأنثوية، المطالبة بالمساواة الكاملة مع الرجال عما قريب؟، لقد أُجرِيَت خلال حفل الاستقبال في الميدان الكبير للجامعة أحاديث لا تُحصى بين الحاضرين، وتمخّضت عن تلك الأحاديث بشكل رئيسي خلاصة مفادها: أنّ مزيداً من الحوار لم يزل ضرورياً كما يبدو.

الباب الرابع

نظريات بابوية ـ لمحات تاريخية ـ بابوات مناوئون للإسلام ـ
شروحات الفيلسوف سبينوزا



الفصل الحادي والثلاثون

نظريات بابوية

الإكراه في الدين

لماذا يقرأ البابا بينيديكت عن حوارات تعود إلى الحقبة المتأخرة للعصور الوسطى؟ وما سبب قراءته لتلك المواضيع المتعلّقة بالعقل والإيمان، المرتبطة بشكل رئيسي بالعلاقة بين الدين والعنف، بين المتدينين والحرب؟، حسناً إنّ الأمر يتمحور حول قراءته بالذات «لذلك الحوار الذي أجراه القيصر البيزنطي العلامة مانويل الثاني من مقرّه الشتوي في أنقرة عام 1391م مع مثقّف فارسي، حول الديانتين المسيحية والإسلامية وبخصوص حقيقة كل منهما».

لقد ذكر بينيديكت عَرضَاً بمناسبة إلقاء محاضرته في ريجينسبورغ أنه قرأ «(مؤخراً)» جزءاً من هذا الحوار (الذي أشار إليه بين القيصر والمثقّف الفارسي)، وأنّه اندهش واستلهم أفكاراً من النص الذي قرأه، مما دعاه حتى إلى قراءة الأصل بالإغريقية. وأشار إلى أنّه اختار فترة الانتهاء من العمل، بعد أن تكون جميع أشغاله اليومية قد استكملت، حتى يقرأ وهو في حالة استرخاء. فلماذا قرأه باللغة الاغريقية؟، وما سبب تكريسه وقت الفراغ لهذا الغرض؟، وهل لاحظ وجود النص المذكور على سبيل الصدفة؟

إن الحقيقة لم تكن على هذه الشاكلة، وإنما تتمثّل، حسب ما سمعناه، في دعوته عندما كان استاذاً جامعياً باسمه الحقيقي يوسف راتسينجر لطلبته السابقين، ولمن كانوا يُعدّون تحت إشرافه رسائل دكتوراه ولعلماء من ذوي المكانة، للحضور إلى المقر البابوي الصيفي في قصر جاندولفو، بعد أن تسلّم منصب البابا في شهر نيسان (ابريل) 2005م. وكان هدفه كامناً في التحادث الأكاديمي مع المدعوين خلال ثلاثة أيام حول موضوع رئيسي هو الإسلام، بالإضافة إلى العلاقة بين الكنيسة والمسجد.

وتمخّضت عن مناقشات اللقاء في هذا المكان، وجهات نظر أكاديمية ذات طابع يتراوح بين الأستاذية والبابوية، منتهية بنتائج أُخضِعَت للسرّية الصارمة، تماماً مثل تلك الرؤى المشتركة التي تمّ التعامل معها تحت إشراف عالي المستوى، والتي تبلورَت من وجهات نظر خبراء متعددين في شؤون الديانات، وعلماء لاهوت مُلّمينَ بمضامين المعرفة التاريخية التخصصية. فلم تكن هنالك رغبة في الثرثرة عن الحديث الذي دار في ورشة بينيديكت الفكرية!، ومع ذلك فإنّ التقييم الأساس لتوجّهات المشاركين في اللقاء لايُعدّ خاطئاً، حينما يتضمّن بأنّ معظمهم لم يستسلموا بعد تفاعلهم مع مثل هذه الأفكار الجديدة المفاجئة التي تمّ تداولها في خضم النقاش إلى التصوّر بأن الإسلام قادر على الحوار، مما يعني أنّ هذا التقييم كان متفقاً عليه قبل فترة زمنية طويلة من إلقاء البابا محاضرته في جامعة ريجينسبورغ.

فقد قيل بناء على ما يُستَقرَأ بموجب التحليل الذي توصلّوا إليه بأنّ من الصعب للغاية حدوث تكيّف لتعاليم النبي محمّد مع الضرورات المعيشية في العصر الحديث، وبصورة مشابهة مما حدث من تطوّرات التكيّف بشأن الكنيسة الكاثوليكية، حيث أنها أوجدته حلاً في نطاق الرسالة المسيحية للتأقلم الضروري مع متطلّبات الحياة العصرية، بعد تدارس هذا الموضوع خلال مدّة انعقاد المجمع الثاني للفاتيكان في حقبة الستينات، بطلب من البابا يوحنا الثالث والعشرين، وتحت سلطة خلفه بولص السادس. وأنجزَت الكنيسة آنذاك بعد تحضيرات طويلة الأمد ومخاض عسير إصلاحات داخلية، وأخرى موجّهة نحو الخارج. لكن الحوار مع المسلمين بالرغم من صعوبة تكيّفهم مع الحداثة يمكن أن يُسفِرَ عن مفاجآت إيجابية،وفقاً لما يتردد سماعه من أقاويل تنم عن عدم النضج في التفكير. ومن جانب آخر فقد تسرّب مما دار من أحاديث سرّية في جولة المداولات في ذلك اللقاء ما مفاده، بأنّ الاقتباس الذي كان يُرادُ اختياره لابُدَ وأن يُتيحَ إظهار مشكلة الإسلام دفعة واحدة بخصوص مسألة «الإكراه في الدين». ولم يكن المقصود هو اختيار اقتباس مشابه لقاعدة أرخميدس، التي أدّت إلى تغيير كل ما سبقها من النظريات الفيزيائية في موضوعها

على صعيد العالم، قبل التوصّل إليها.

لقد تبنّى بينيديكت هذا الاقتباس بشكل كامل، أما نتائجه – التي عكست موجات الاستياء والغضب في العالم الإسلامي، مع ما تبعها أيضاً من انطلاق للشرارة الأولى في اتجاه الحوار اللاحق – فهي معروفة، كما سبق وصفها.

روابط مشتركة وأزمات

أما الظروف التاريخية السالفة فلم توصف بعد، وينطبق انعدام الوصف هذا على الأوضاع في عهد القيصر البيزنطي، وفي عهود البابوات. فلم يكن هنالك استعراض وصفي على الأقل حتى لبعض الحلقات من تلك السلسلة التاريخية، التي تربط الديانتين المسيحية والاسلامية منذ 1400عام. وهي كذلك سلسلة لأزمات تصاعدت مراراً وتكراراً من تهديدات مستترة ومتبادلة بين ديانتين متنافستين، فتحوّلت إلى حروب مفتوحة بين ثقافتين عالميتين.

إن الروابط والأزمات الراهنة هي أقوى مما كان يفكّر الناس به قبل عشرين أو ثلاثين عاماً. فيجب إذن تقديم معلومات ولو كرؤوس أقلام عن بعض الأشخاص الذين تربّعوا على عرش بطرس، بخصوص ما أحاط بهم من وقائع تاريخية، كما يجب أن تُستَعرَض بإيجاز على الأقل تلك المشكلة الأساسية، ذات الصلة بالإكراه والعنف والحرب بين الاديان، وبين المتدينين أيضاً.

كان بوسع المسلمين أن يُعربوا في شهر أيلول (سبتمبر) 2006م عن غضبهم من أحد البابوات، لأنه تلفّظَ بكلمة مسيئة لرسولهم محمّد. ولكنّ من الصعب عليهم مؤاخذة قيصر بيزنطي عاش بين نهاية القرن الرابع عشر وبداية الخامس عشر الميلادي، وهو في هذه الحالة مانويل الثاني، الذي لم يكن من المنتظر منه إبداء وجهة نظر إيجابية، تجاه الرسول وأتباعه المسلمين الأتراك في عهد الامبراطورية العثمانية.

ومن المدهش أنّ المسلمين قد وجّهوا إلى البابا بسبب أمورٍ أخرى انتقادات، أشدّ مما

وُجّه إليه من جراء الاقتباس المسيء لنبيهم. وتكمن هذه الأمور في كونه أحد البابوات، الذين كانوا ـ من خلال مراكزهم كقادة روحانيين للكنيسة أو ممثلين للمسيحية عبر التاريخ – في تنافس وتعارض وخصومة مع الإسلام، بصرف النظر دائماً عن التسمية التي يُرادُ إضفاؤها على هذا التناقض بين أديان مختلفة. كان لابّد للبابوات أن يتّخذوا هذا الموقف البديهي، فكيف يتسنّى لهم اتخاذ مواقف مغايرة؟! ولكن، هل كانوا منافسين دينيين أم دعاة حروب ومحرّضين عليها؟

يتبيّن من تاريخ الديانة المسيحية، مع تطوّرعلم العقيدة ومبحث اللاهوت الأخلاقي، أنّ التحوّل شمل تعاليم البابوات بشأن الحرب أيضاً. فالمفاهيم التقليدية بخصوص إمكانية خوض «حربٍ عادلة» أخلت طريقها لمفهوم يتضمّنُ رفضاً مبدئياً للحروب، بناءً على خبرات الأوروبيين المرعبة بشأنها، وفي ظل التهديد بحدوث التدمير الشامل من خلال إحتمالات استخدام الأسلحة النووية، وبالنظر في نهاية المطاف إلى معاناة الناس: فما الذي يمكن اكتسابه، عندما يتعرّض كل شيء من جراء الحرب إلى الضياع؟، من المحتمل أن المسلمين أيضاً لا يتماهون مع وجهة النظر هذه بسرعة وسهولة.

من البديهي أن يستنكر الأوروبيون في القرن الحادي والعشرين الحرب مهما كان نوعها، وأن يرفضوا اعتماد أي مسوّغ لها، معتبرين الدين كأوّل المبررات المرفوضة. وهم يستفظعون بعفوية ممارسات العنف والتطرّف والإرهاب، الرامية إلى تحقيق أهداف سياسية أو غيرها، إنهم تعبوا من الحرب التي لا تملؤهم إلا بالترويع والذعر. ولكنّ ما هو محرّم وفقاً للمفهوم الأوروبي، لايسري مفعوله بالضرورة في قارات وثقافات أخرى.

الحرب بوصفها محرّكاً للتاريخ

تُعدّ الحرب – مع الأسف– محرّكاً للتاريخ، بصفتها صراعاً ومجابهات بين قوى وأمم وثقافات وأديان، وكذلك بين دول ومدن متنافسة، وبوصفها أيضاً عنفاً يُمارَس بين أفراد من الناس، متجاوزاً حدود أسلوب المناقشة المؤدّب. فالحرب، كما عرّفها الفيلسوف

الاغريقي هيروقليط قبل خمسمائة عام من ميلاد المسيح، هي «الأب لكل الأشياء»، وبقيت حقيقتها مطابقة لرأيه حتى الآن. أمّا الجنرال البروسي كارل فون كلاوزيفيتس (1831 - 1780م) فقد هذب التعبير عن معلوماته بهذا الصدد، وأتى بمفهومه المعروف عن الحرب، قائلاً «بأنها ليست سوى استمرار للسياسة بوسائل أخرى».

فأصبح هذا المفهوم هو الرأي السائد مدّة طويلة من الزمن في تاريخ البشرية، بين المسيحيين والمسلمين. ولم تزل نظرية كلاوزيفيتس بهذا الخصوص تُدَرّس في الأكاديميات العسكرية، وتُنقل إلى حيّز التطبيق العملي حتى في الآونة الراهنة. ولوحِظَ ذلك في أفغانستان بالنسبة إلى الاتحاد السوفييتي سابقاً، كما يُلاحَظُ حالياً من خلال تمركُز قوات حلف شمال الأطلسي هناك. ولنوجّه أبصارنا إلى بلدان الخليج العربي، إلى العراق وايران، وإلى الولايات المتحدة الأمريكية مع محور الدول الراغبة في التحالف معها.

لم يتخذ البابوات موقفاً صارماً ضد الحروب، إلاّ في الفترة الأخيرة. وفي هذا النطاق تحوّل البابا يوحنا بولص الثاني إلى مسالم على الصعيد العملي، إلاّ أنه لم يرغب في صنع إيديولوجية من فكر المسالمة هذا. تعدّ الحرب بالنسبة إلى البابوات والى الرأي العام العالمي مستنكَرَة بالدرجة القصوى، ويعود سبب هذا الموقف قبل كل شيء إلى أنّ الحرب واستخدامات العنف الحربية أو المشابهة لخوض الحروب تشكّل عبر إمكانية استخدام الأسلحة النووية، خطراً أشدّ من المألوف، حيث أصبحت ذات طابع تدميري شامل، نظراً لحساسية المجتمع المتميّز بمستويات تطوّر عليا.

وهنالك مشكلة لم تزل حقاً تدق ناقوس الخطر: ومفاد تلك المشكلة يتمثّل في أن سكان المغارات لايشعرون بالقلق من ممارسة العنف، بالدرجة التي يستشعرها أولئك الذين يَؤُمّون شققاً أو مكاتب في ناطحات السحاب. وكذلك فإنّ المتطرّفين محتقري أساليب الحياة الغربية في أوروبا وأمريكا الشمالية هم أقل اعتدالاً على سبيل المثال من التجار والمدراء في أية دولة، مع ما يرسمه الأخيرون من مخططات لمستقبلهم. وما يستحق اللعنة حقاً قبل غيره هو ما يتبدّى، حينما يُطَبّق على الدين تعريف الحرب: بأنها ليست

سوى مجرّد استمرار للسياسة بوسائل أخرى. فلا يجوز تحت أي ظرفٍ من الظروف أن يكون العنف مجرّد استمرار للسياسة الدينية بوسائل أخرى.

رب الجنود

ولكن السياسة ذات صلة بالدين على مدى التاريخ. ففي توراة اليهود يظهر «يهوه» ربّاً للجنود، على الرغم من أنه لم يكن قد تجلّى بهذه الصورة في الديانة اليهودية المبكّرة في أزمان ما قبل المسيحية. لكنّ ربّ الجنود يمكن أن يكون محارباً، غير أنه كإله قوي لم يرتفع بالشعب اليهودي حتى يتحوّل إلى قوّة سياسية عالمية عظمى في الشرق، ولم يتح حتى لليهود باعتبارهم من نسل الجد الأوّل ابراهيم أن يتكاثروا لكي يصبحوا في كثرتهم «مثل نجوم السماء ورمال ساحل البحر»، وفقاً لما وُعِد به ابراهيم. وغدا المسيحيون كأنهم اتخذوا هذا الإله نفسه، عندما اعتمدوا العهد القديم والمزامير، التي صار القساوسة الكاثوليك على سبيل المثال يرددونها بانتظام في صلواتهم اليومية. وبهذا فإنهم تبنّوا صورة نمطية للصديق والعدو، بما تعكِسُه هذه الصورة من أصدقاء للإله الحقيقي، وأعداء للآلهة المزيّفة.

إن تعاليم يسوع المسيح لا تكاد تعرف شيئاً عن الحرب والعنف. وفي حقيقة الأمر فقد وردت مرّة واحدة (في الاصحاح العاشر، الآية رقم 34 من انجيل متى) كلمات يصعب تفسيرها وهي: «لاتظّنوا أنني أتيت لأجلب السلام في الأرض، لم آتِ لجلب السلام، ولكن جئت بالسيف». لكن هذا القول يتناقض مع أغلب الكلام الوارد في «العهد الجديد» عن السلام. وعندما اقتضى الأمر على وجه الخصوص استخدام السيف، فإنّ يسوع نهى بطرس عن استخدامه، قائلاً:

«ردّ سيفك إلى غمده».

وهذا القول هو الذي حدد جوهر العقيدة المسيحية ديناً لا يقبل العنف، بالرغم من كل التفسيرات العلمية والحذلقات اللفظية. وكانت التوجهات السلمية للمسيحية بالذات

هي التي دفعت بالناقدين المتشددين للدين مثل فريدريك نيتشه إلى اعتبارها من مثالب يسوع الناصرة.

أما الإسلام فكانت بداياته في القرون الزمنية الأولى بعد نشأته مختلفة تماماً بالنسبة للرسول محمّد والمؤمنين بالله من أتباعه، مقارنة بالديانة المسيحية. فالإسلام كما يتبيّن من تاريخه حقق أعظم مستويات النجاح في الفتوحات، التي تكوّنت في نطاقها دول إسلامية كقوى عُظمى في محيط واسع، حول المنطقة الجنوبية من حوض البحر الأبيض المتوسّط ممتدّة في مساحاتها حتى شبه جزيرة البلقان في الاتجاه الشمالي، ومن شبه جزيرة العرب إلى اندونيسيا المليئة بالجزر.

إنّ من غير الممكن تاريخياً ظهور النبي محمّد بمظهر المسالم تماماً، واستعراض رسالته لتتجلّى بصورة لا تدع أي مجال لرؤية العنف فيها، عبر طمس أحداث الحرب والعنف باعتبارهما من عوامل إنجاح الفتوحات.

لكن توضيح تاريخ نجاح الإسلام لايمكن بأية حال أن يتمّ بالاستناد إلى العنف والحرب فقط. ومقابل ذلك فإن ما وعد الله إبراهيم به تحقق لصالح أتباع محمّد، حتى أنّ تحقيق هذا الوعد أدّى إلى إمكانية تدفّق موجات المهاجرين المسلمين إلى أوروبا، استناداً إلى التزايد الكبير للنسل وإلى النسبة العالية للفائض السكاني، مما يعني أنّ المسلمين عوّضوا بتدفّق مهاجريهم إلى أوروبا، ما كانوا يفعلونه بين القرنين السابع والسابع عشر الميلاديين، عبر استخدام الأساطيل والجيوش في مجابهة المسيحيين، مما أسفر عنه إبقاء النتيجة النهائية مفتوحة بالنسبة إلى الأديان حتى الآونة الراهنة.

النجاح التاريخي للإسلام

حقق الإسلام نجاحاً تاريخياً، إلاّ أنّ نجاحه تعثّر في الفترة الزمنية التي تدعّمَت فيها القوى الأوروبية الحديثة. فهل كان أمر النجاح هكذا، أم أنه لم يتعَرّض سوى للانقطاع مرحلياً بسبب تدخّل الدول الأوروبية كقوى استعمارية مسيطرة على بلدان وشعوب

الإسلام، علماً بأنّ تلك القوى بدأت تتراجع بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية (1945م)، في خضمّ هذه التطورات وبالإضافة إلى عوامل مختلفة تأثّر البابوات، كونهم من الذين تعرّضوا إلى المعاناة. وبصفتهم حملة أقدم ثقافة عالمية وُجِدَت بدون انقطاع، فانهم يتّسمون بوعي هذا التراث الضارب في القدم، في محيط عالمي شامل.

كان عليهم خلال القرون الزمنية الثلاثة أو الأربعة الماضية أن يتقبّلوا في الوقت ذاته وقائع تضعضع الديانة المسيحية، وضعف شموليتها الدينية المطلقة في أوروبا. ولهذا السبب فإنّ من الممكن أن يمرّ الإسلام، الذي يصغر المسيحية بستمائة عام، في تفاصيل هذا التطوّر التدريجي. فالمقاربات المتوازية تشكّل أمراً ملحّاً، حتى ولو كانت تعكس وقوع الأحداث في مراحل زمنية مغايرة.

لقد اهتزّت السلطة الدينية للبابوات جرّاء حركة الاصلاح في القرن السادس عشر الميلادي. فالمسيحيون اعترضوا في ذلك الحين على فرض الوصاية عليهم من قادة الدين التقليديين. واتضح التضارب خلال القرن السابع عشر الميلادي، منعكساً على سبيل المثال من وقائع مشهودة حيوية – كما حدث مع جاليليو–، إذ اتسعت الهوّة بين معارف علمية مؤكّدة وقابلة للتيقّن العقلي من الجهة الأولى، وبين تصوّرات دينية تقليدية من الجهة الأخرى. وتعلّم الناس من تطوّر التكنولوجيا والعلوم الطبيعية تخفيض سقف توقعاتهم من مساهمة الدين في رفع مستوياتهم المعيشية.

ومن خلال أفكار التنوير في القرن الثامن عشر تم اكتشاف الاختلافات ذات الصلة بالأبعاد الانسانية للأديان، بما في ذلك الدين المسيحي والشؤون الكنسية. وتزايدت قوّة هذه الاتجاهات خلال القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين. فتاريخ الكنيسة البابوية في هذا الزمن المشار إليه هو صراع ضد المنجزات الحديثة. ومع ذلك فإنّ الديانة المسيحية والكنيسة بقيتا محافظتين على وجودهما حتى اليوم بصورة دائمة.

لا مكان للمجاملات

لنعد حقاً إلى القيصر البيزنطي ومشكلة الحرب لديه: خلال فترة حكمه (بين عامي 1391م و 1425م) كانت دولته المسيحية (الامبراطورية الرومانية الشرقية) تتعرّض إلى ضغط المسلمين، المستمر منذ نشأة الإسلام في القرن السابع الميلادي، أي منذ ثمانمائة عام حتى ذلك الحين، كما أنها تقوّضت تماماً بعد جيل واحد فقط، حينما فتح المسلمون القسطنطينية. ولم تكن الاحداث الطاغية على سنوات حكمه تتمحور، في المجالين الدبلوماسي والعسكري، إلاّ حول متطلبات صدّ هجمات المسلمين العسكرية. فهكذا كانت حقائق التاريخ، إذن كيف ينبغي التوقّع بأنّ مانويل الثاني كان بوسعه إبداء المجاملات أكاديمياً بخصوص الحوار بين الأديان! ، إنّ العدو كان أمام أسوار القسطنطينية، حسب ما عبّر عنه البابا بينيديكت السادس عشر من خلال قوله: «يُظَنّ بأنّ القيصر دَوّن الحوار في فترة حصار القسطنطينية بين عامي 1394 و 1402م».

كان لدى بينيديكت وهو يلقي خطاب محاضرته من على المنصّة ما يكفي من الأحاسيس المرهفة، التي تحول دون اختياره من المخزون التاريخي اقتباسات من كلام بابوات، كما تمنعه من الحديث عن أعمال لهم ضد الإسلام والمسلمين. ولو فعل ذلك، لصُنّفَت حصيلة اختياراته ضمن الوثائق والحقائق المستقاة من التاريخ أيضاً. فمن البديهي أنّ الحرب كانت تُعدّ في تاريخ المسيحية والبابوات كذلك بمثابة استمرار للنزاعات الثقافية والدينية بوسائل العنف، تماماً مثلما حدث في سياق توسّع الإسلام، من مدينة عربية صحراوية صغيرة إلى نصف العالم.

لقد استخدم بينيديكت هذا الاقتباس عن القيصر واستند إلى جولته الفكرية السريعة في التاريخ عبر محاضرته من أجل توضيح أحد اهتماماته العامة: وهو المتعلّق بعدم جواز الإقرار بأية صلة بين العنف والدين. ويعود السبب في ذلك وفقاً لما قاله حرفياً إلى «أنّ العنف يتناقض مع عقلانية الله». ولهذا فإنّ الله لا يمكن أن يوجّه الناس للعنف، كما ينطبق ذلك على محمّد أيضاً، إلاّ إذا كان من المحتمل أن يأمر بما «هو سيء وغير إنساني»، بما

يعني في تلك الحالة أن المسلمين ربما لايتّبعون ما أمرهم الله ونبيهم محمّد به. فهل يُعَدّ ما ذُكِرَ الآن رأياً خاصاً للبابا الحالي فقط؟، ألا يقف قداسته ضد العنف سوى في أوقات الإرهاب الدولي والتطرّف الإسلامي؟، أم أنّ بينيديكت أراد معالجة تصوّر واسع الانتشار في أيامنا هذه حول الدين، بوصفه فكراً يتيح الاستعداد لممارسة العنف، أو كمؤسسة تميل لمثل هذه الممارسة، لكي يكشف عن سوء فهم التصوّر المذكور؟، وهل من المحتمل اعتبار الديانة المسيحية بأنها هي وحدها التي أصبحت مسالمة بعد خبرات مليئة بالمعاناة؟، فالنتيجة التي توصّلَ إليها البابا تعني عموماً: بأنّ العنف يتناقض مع عقلانية الله، وأنه لهذا السبب لا يُصَنّفُ ضمن مكونات الدين، ولا يُعتَبَر من العلامات الأساسية للشأن الديني أو الفكري.

الجدّ المشترك ابراهيم الخليل

نظراً لوجود الكثير من المسائل المعلّقة بخصوص تفسير الأحداث التاريخية، فإنّ تذكّرَ الانتماء المشترك إلى سلالة إبراهيم قد يشكّل عاملاً مساعداً على الإقلاع عن ممارسة العنف من أيّ طرف كان، وعن الإكراه على اعتناق أحد الأديان. فإبراهيم هو «الجد الأوّل» لليهود والمسيحيين والمسلمين. وهو من أور الكلدانيين، التي يمّر بها نهر الفرات مستمرّاً في جريانه حتى يصّبَ في الخليج العربي، حيث كانت تندلع هناك حروب مراراً وتكراراً. ويحظى إبراهيم بالاحترام والتقدير كونه جداً مشتركاً لأبناء شعوب كثيرة، والأب الأوّل لديانات التوحيد الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام.

وهو بالإضافة إلى ذلك الجد الذي ينتمي إلى سلالته يسوع من بيت لحم، وفقاً لما هو وارد في انجيلَي متّى و لوكاس. فلا بدّ أنهما بحثا بدقّة أو توصّلا إلى معلومات سرّية عن شجرة الانتماء العائلي ليسوع المنحدر من سلالة داود، لكي يصبح من الممكن متابعة سلالة الانتماء حتى الوصول إلى الأب الأوّل ابراهيم من أور الكلدانيين.

إنّه يُعَدّ لليهود والمسيحيين والمسلمين بمثابة قدوة، تعكس الايمان والاتكال على الله.

وتبيّن ذلك عندما اقتنع بجدوى الأمر الإلهي، وقرر بموجبه الهجرة من أور إلى الغرب باتجاه الأرض الموعودة في منطقة البحر الأبيض المتوسّط، علماً بأن هنالك اثباتات تاريخية على حدوث هجرات (من بلاد ما بين النهرين إلى سوريا وأرض كنعان، خلال الحقبة الزمنية الممتدّة بين عامي 2000 و1700 قبل ميلاد المسيح).

لكنّ امكانية الاقتداء به تجلّت أيضاً حينما لم يتشكك بحكمة أمر الإله القدير وغير المرئي يهوه بذبح ابنه اسحق فوضع السكين على عنقه ليذبحه امتثالاً للأمر، إلاّ أنّ ملاكاً إلهياً حال دون تضحيته بالإبن. وفي السياق خوطب بالكلمات الحاسمة:

«بما أنّكَ فعلت هكذا كما أُمِرتَ ولم ترحم حتى ابنك الوحيد، فإنني أوّدُ أن يكثر نسلك حتى يكون مثل عدد النجوم في السماء، وذرّات الرمال على ضفّة البحر، وحتى يمتلك حصون الأعداء. وأَوّدُ أن أبارك من خلال سلالتك جميع الشعوب، لأنّكَ امتثلتَ إلى أمري».

فهل هناك خلاف بين الأديان حول هذا الأمر، أم أنّ سبب الخلاف غير موجود إطلاقاً؟ وهل يعود السبب إذا وُجِدَ إلى أنّ الإله الرّب قطع على نفسه عهداً شاملاً مع ابراهيم، يرمز إليه بختان الأطفال الذكور؟، فقد قدّم الله الوعد من خلال القول: » «فأجعلُ عهدي بيني وبينك وأكثرك تكثيراً وتكون أباً لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً، ومنك ملوك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم». إنّ الكثيرين هم من يتبعون الآن إلى تلك السلالة. كل ذلك يستقرأ من السفر الأوّل في الكتاب المقدّس. ومن هذا الكتاب استُقيت المعلومات الواردة في القرآن[5]، أو أنّ محمّداً استقاها قبل ذلك من استماعه إلى يهود ونصارى في شبه جزيرة العرب. وهكذا حظي المؤمن الأوّل الواثق بالله والمتَكل عليه إبراهيم بهذه الدرجة الجيّدة من اعجاب مؤسس الدعوة الإسلامية، حتى أنّ اسمه ورد في السورة الثانية والثالثة والرابعة والسادسة والثانية والعشرين من القرآن، فوُصِفَ في هذه السور بأنه أول المسلمين. أمّا السورة الرابعة عشرة

5- المؤلف هنا أسير النظرة الإستشراقية في الإعتقاد بأن القرآن خليط من مصادر يهودية ومسيحية، وليس وحياً من الله تعالى.

من كتاب العقيدة الإسلامية فقد سُمِّيَت باسمه أيضاً.

ورد في القرآن كذلك بأنّ إبراهيم شكر الله الذي «وهبه على الكبر – 99 عاماً كما يُقال – ابنه اسماعيل [من زوجته المصرية هاجَر]، واسحق [من زوجته الكبيرة في السنّ ساره]».

ربّما يكون بوسعِ علماء لاهوت ليبراليين أو متشددين في التديّن، وعلماء في الأديان المقارنة، مسالمين أو متزمتين، أن يتحدّثوا عن هذا الشأن. أمّا الذي يبقى مؤكّداً فهو واقع مفاده: أنّ اليهود أبناء اسرائيل (الذي يُسمّى يعقوب أيضاً وهو ابن اسحق)، «وأشقاؤهم الأصغر» – المسيحيين– ومَن وُلِدوا أخيراً، أي المسلمون، هم جميعاً أبناء إبراهيم. وعلى الأخيرين التفكّر في أنّ كثيرين هم المنتمون إلى سلالة إبراهيم، وأنّ في القرآن خمس عشرة سورة وثلاثاً وتسعين آية ذُكِرَ فيها يسوع كعبد لله وكابنٍ لإبراهيم.

إذن فإنّ من المحتمل أن البابا كان ينبغي عليه اقتباس عباراتٍ من كلام إبراهيم.

الفصل الثاني والثلاثون

ليو الرابع وأسوار الفاتيكان
على ساحة «ديلا سيتا ليونينا»

ظل عنوان الكاردينال يوسف راتسينجر في روما كما هو لمدة تزيد على ثلاثة وعشرين عاما كما يلي: «ساحة ديلا سيتا ليونينا رقم 1، 00193 ـ روما». وقد شغل منصب رئيس هيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة عندما استدعاه البابا يوحنا بولص الثاني في نوفمبر 1981م من ميونيخ الى روما. ولم يسكن من عام 1982 الى عام 2005م في القصر المخصص لوزارته الواقع الى يسار مبنى القديس بطرس، وهو القصر الذي كان من حقّه أن يسكن فيه، بل ترك أحدا غيره يحتفظ بسكناه في شقة العمل الجميلة التي كانت مخصصة له هناك. واكتفى بالسكن في شقة للفاتيكان تقع على «ساحة ديلا سيتا ليونينا» الصاخبة بسبب حركة المرور، حيث توجد فيها مواقف للحافلات العامة وسيارات الأجرة. بهذا كان بإمكانه على الأقل التمشي بعض الشيء من بيته عبر الممر المألوف الموصل من الفاتيكان الى «إنجلزبيرج»، متجاوزا أروقة الأعمدة لبيرنيني «كولونادن ديس بيرنيني» ،وعابرا ميدان بطرس، ثم داخلا مرة أخرى عبر غابة الأعمدة لفنان عصر الباروك (بيرنيني) ليصل أخيرا الى مكتب عمله.

عندما كان المرء يصادفه هناك وهو يرتدي الحلة الطويلة السوداء «التالار» حاملا حقيبة ملفاته، فإنه كان يلاحظ في العادة أن قداسته على استعداد تام لتبادل أطراف الحديث معه، ولإعطاء معلومات عن هذه الساحة أيضا، التي تعج بالحيوية والنشاط أمام أسوار الفاتيكان الى جانب ميدان بطرس العظيم وحول الإسم الذي تحمله. قال مرة بادئا الحديث، أنه لم يتم تسمية هذه الساحة نسبة الى البابا ليو الثالث المشهور في ألمانيا على وجه الخصوص وإنما نسبة الى البابا ليو الرابع، ثم حدث ما جعل حديثه ينقطع، فكان علينا أن نحصل على

بقية المعلومة بطريقة أخرى.

حقا لقد سطر ليو الثالث بنفسه، حينما كان أسقفا لروما من عام 795 الى عام 816م تاريخا عالميا. ودخل الى التاريخ الألماني عندما ضايقه مناوئون له في مدن أخرى، حيث تعرض لإعتداء أثناء مسيرة موكب احتفالية في شهر نيسان (أبريل) 799م وأسيئت معاملته وأصيب بجروح. فهرب من روما وعبر جبال الألب متوجها الى ملك الفرانكيين «كارل» في مدينة بادربورن[6]. وهناك نضجت أفكار حول تجديد الإمبراطورية الرومانية اللاتينية الغربية، التي أصبح لها تأثيرات على الإسلام، الذي كان يوصف في ذلك الوقت: بما «عند الكفار».

فالإمبراطورية الرومانية الغربية كانت قد تلاشت، حيث أن تاريخ إنهيارها وانتهائها تحدد في سنة 476م، وكان يجب أو يفترض أو يمكن أن ينشأ، إنطلاقا مما أصبح قديما، شيئ جديد ينمو بقوى طازجة.

كانت القوة الروحية الحضارية للكنيسة قد انصبّت لتملأ هذا الفراغ الذي نجم عن غياب السلطة السياسية.

لقد تطوّرت المسيحية التي انطلقت من مذهب يهودي تدريجيا، من خلال رسالتها الكونية حول الخلاص لجميع الناس في الإمبراطورية الرومانية. فالإنجيل الذي هو «البشارة» جاء للجميع بدون تمييز بين الشعوب وبغض النظر عن المراتب والأجناس والأعراق والأصول ومستويات التعليم، مثلما كتب بولص الرسول في رسالته الى أهل غلاطية (الإصحاح الثالث، الآية 28): «لاَ فَرْقَ بَعْدَ الآنَ بَيْنَ يَهُودِيّ وَيُونَانِيّ، أَوْ عَبْدٍ وَحُرّ، أَوْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ». وهكذا تجاوز الايمانُ بالمسيح الحدود كلّها.

6– الفرانكيون هم المنتمون الى إحدى القبائل الجرمانية في العصر الوسيط وما زال لهم إسم ومنطقة في ولاية بافاريا الألمانية. وسميت فرنسا باسمها نسبةً إلى الفرانكيين، وتحولت التسمية عند العرب في حقبة الحروب الصليبية الى «فرنجة». أما بادربورن فهي مدينة في شمال ألمانيا محتفظة بإسمها القديم.

تجاوز الاعتراف بالمسيح كل الحدود، بدون إكراه أو عنف. هكذا نمت المسيحية بشكل لم يكد أحد يلحظه، ملغية جميع الفروق. وسهّل التطور الإجتماعي في المدن الواقعة حول البحر المتوسط إنتشارها، وأصبح أساقفة العاصمة روما الحامون لضريحي الرسولين بطرس وبولص تدريجيا سادة الكنيسة الأكثر شرفا في الغرب.

إن الهيبة التي تمتعت بها روما والقدرات التنظيمية الهرمية التي اكتسبها الأساقفة عبر الأجيال سهّلت من مطالبتهم بحق السيادة هذا، وكانوا في بداية طريقهم لتأسيس البابوية ذاتها. ولكن صعودهم تسارع على أيدي رجال كنسيين عباقرة من أمثال ليو الأول (440 ـ 461م) و جريجور الأول (590 ـ 604م)، اللذين اكتسبا لقب «الكبير» نظرا لتأثيرهما السياسي على الصعيد الدولي.

وأوردت الروايات كما هو مصوّر لدى الفاتيكان في «رسومات روفائيل الجدارية» أن ليو الكبير لم يقم بالتصدي لقبائل «الهون» بقيادة «أتيلا» بقوة عسكرية، بل بسلطة روحية أخلاقية. لكنّ جريجور الكبير بالمقابل لم يجد حرجا في الإستعانة بوسائل خارجية جبرية من أجل تسهيل تحويل «الوثنيين العنيدين» في جزيرة سردينيا القريبة عن دينهم لتنصيرهم، الا أنه لم يرد ولم يستطع إرسال جيوش الى بريطانيا البعيدة، حيث أرسل بدلا من ذلك رهبانا مبشرين للتعريف بتفوق الايمان المسيحي والحضارة الرومانية. لهذا السبب حصل إزدهار للكنيسة ولأساقفة روما لأنهم عرفوا كيف يحوّلون سلطتهم الروحية الى سلطة سياسية، دون أن يخلطوا بين ملكوت الله وهذا العالم. إن الفصل المبدئي بين الإمبراطورية (أو الحكم) وبين ما هو قدسي أي بين السيادة القيصرية (أو الملكية) وبين المجال الروحي (تحت سلطة البابا) كان منذ العصور الوسطى سمة أساسية لتاريخ العالم الغربي ـ على عكس تاريخ الإسلام، وظل هذا من حيث المبدأ قائما في أوروبا ذات الطابع الغربي.

وعندما حصل مزج بين العرش والمذبح أي بين ما هو سياسي وما هو ديني في ظل إساءة إستخدام السلطة، تمرّد العقل الأوروبي وقام بإحداث ثورة على النظام.

قلنا إن ليو الثالث التجأ الى كارل الكبير في بادربورن باحثا عن الحماية، ليس ضد مناوئيه في روما ومحيطها فحسب، بل ضد المسلمين الذين بدأوا منذ القرن السابع الميلادي يضغطون على أوروبا وشبه جزيرة الأبنين من الجنوب. تجاوب الملك الفرانكي مع ليو الثالث تحت الشرط التالي، الذي كتبه الملك بخصوص الفصل بين السلطات:

«إن مهمتنا هي الدفاع بمعونة الله عن كنيسة المسيح المقدسة نحو الخارج في كل مكان بقوة السلاح، ضد غزوات الوثنيين وأعمال التخريب التي يقوم بها الكفار، وتعزيزها نحو الداخل من خلال معرفة الإيمان الحقيقي. أما مهمتكم، قداسة الأب، فهي أن ترفعوا ذراعيكم مثل ما فعل موسى للصلاة، من أجل مساعدة جيشنا (..)..

لقد قام أسقف روما مقابل ذلك بتسليم ملك الفرانكيين «كارل» مفاتيح ضريح الأمير الرسول بطرس وراية روما، وبتتويجه في الختام يوم الأحتفال في كنيسة بطرس في روما بعيد ميلاد المسيح سنة 800م، ليصبح قيصرا.

غزوات الوثنيين ـ أعمال التخريب التي نفذها الكفار

كان المعنيون بإشارة «غزوات الوثنيين وأعمال التخريب التي يقوم بها الكفار» هم بالدرجة الأولى العرب المسلمون. فهل قام القيصر الجرماني ـ الروماني بهذا بتثبيت حجر الأساس للحروب الدينية المستقبلية؟، لقد سبق لشارل مارتيل جد كارل أن هزم المسلمين في تور بواتيه عام 732م. وصدّهم نحو الخلف باتجاه إسبانيا. ولكن العرب المسلمين تمكنوا بالمقابل من التغلغل في إيطاليا والبقاء فيها، في البداية على الجزر بدءا من بانتيليريا وصقلية وسردينيا، وبعد ذلك في جنوب إيطاليا وكلابريا وأبوليا.

ولا يجوز النظر الى هذه الفتوحات بوصفها حروبا دينية بالمعنى الدقيق، فهي كانت حملات قام بها ذوو القوة والسلطان، وهم في هذه الحالة المسلمون، ضد من هم أضعف منهم أي الإيطاليين الذين فقدوا حماية الإمبراطورية القديمة. فالقوي هاجم الضعيف، وكان هذا هو مايحدث دائما طوال عصور التاريخ.

بعد عشرين عاما من وفاة ليو الثالث تقريبا طلب أمير نابولي مساعدة المسلمين في صراعه مع منافسه المسيحي الأمير بينيفينت. وكان العرب المسلمون الممارسون للقرصنة بالمقابل يشكلون عامل إزعاج وتهديد للأماكن الساحلية بالنسبة للجمهوريات البحرية الصاعدة في الجنوب: أمالفي ونابولي وجيتا (ولتجارتها مع بيزنطة والسلطنات الإسلامية «النظامية»).

بعد مضي ثلاثين عاما على وفاة ليو، هزّت العالم الغربي غزوة نهب قام بها العرب المسلمون ضد روما. وقد وصف تطورات الوضع فيرديناند جريجوروفيوس (1821 - 1891م)، وهو أفضل العارفين ومؤلف كتاب «تاريخ مدينة روما في العصر الوسيط». ولا يشك أحد بأنه كان متعاطفا يتباكى على سوء طالع روما والبابوية، باعتباره بروتيستنتيا، ولأن الكنيسة أدرجت كتابه عام 1874م في عهد بيوس التاسع ضمن «قائمة الكتب المحظورة» بسبب مواقفه الناقدة، في الكتاب الخامس، المجلد الأول والثاني، مستندا الى المصادر ومؤرخي العصر الوسيط. ولخص وصفه للأحداث كما يلي:

«بينما عشعش هؤلاء العرب على اليابسة في الجنوب، (..). فان رغبات هؤلاء القراصنة الجسورين كانت تتجه نحو روما؛ آملين برفع راية النبي فوق موقع القديس بطرس وبنهب المدينة المليئة بكنوز الكنيسة. وفي شهر آب (أغسطس) 846م أبحر أسطول للعرب المسلمين في مصب نهر التيبر، حيث تم التغلب على الحرّاس البابويين في أوستيا - الجديدة أو تم تجاهلهم.

ولا نعرف فيما إذا قاموا حقا باجتياح روما، لأن أحدا من المؤرخين لم يذكر ذلك، إلا أن من المحتمل جدا أن سكان روما قاموا بالدفاع عن أسوارهم جيّدا، بينما تم التخلي عن موقع القديس بولص غير المحاط بالأسوار. وبالرغم من أن السكسون واللانجوبارديين والفريزيّين والفرانكيّين الذين كانوا مقيمين في بورجو التابعة للفاتيكان أبدوا مقاومة، إلا أنهم إنهاروا أمام القوة المتفوقة، مما مكّن العرب المسلمين من نهب موقع القديس بطرس بدون عوائق».

إنتهاك فظيع للحرمات أثار العويل في العالم المسيحي

«لقد أصبح هذا المعبد عبر خمسة قرون من الزمن، منذ القرن الرابع الميلادي عندما اكتسبت المسيحية قوّة، وعبر الأعمال الكبيرة لتاريخ العالم مقدّسا عند كافة المسيحيين. وبدا كأن آثار خطى القرون الزمنية وحياة وحج وموت الإنسانية في العالم أصبحت مطبوعة على أرضية هذه الكنيسة، التي لم تتعرض حرمتها للإنتهاك أبدا. كم من القياصرة والملوك عاشوا فيها، وفي أي الأوقات دخلوا اليها وخرجوا منها؟، لقد اندرست أسماؤهم واندثرت ممالكهم، وكم من البابوات كانوا راقدين هناك في أضرحتهم؟، إن العالم الغربي لم يعرف مكانا أكثر إجلالا منها. وهذا البيت الكنز لطقوس العبادة المسيحية الذي لم يمسّه القوطيون ولا الوندال ولا اليونانيون ولا اللانجوبارديون أصبح الآن نهبا لأسراب اللصوص الأفارقة.

إن الخيال لا يتسع لإدراك ثروة الكنوز التي تم تجميعها هناك: فمنذ قسطنطين قام قياصرة وأمراء العالم الغربي وملوك الكارولينج والبابوات بتقديم هبات فاخرة للمكان، بحيث أصبح من الممكن النظر إلى كنيسة القدّيس بطرس عبر خمسة قرون من الزمن بوصفها أعظم متحف للأعمال الفنية في العالم الغربي (..).. وكل هذه الكنوز حملها القراصنة العرب المسلمون معهم. لقد انتزعوا حتّى الصفائح الفضّية من الأبواب، والذهبية من أرضية الكنيسة كما سحبوا المذبح العالي معهم، كما خرّبوا قبو ضريح الرسول بطرس، وبما أنهم لم يتمكنوا من حمل التابوت البرونزي الكبير معهم، فإنهم قاموا بخلعه. وإتلاف محتوياته وقذفها الى الخارج.

إن على المرء أن يتخيّل أن قبو الضريح هذا يضم جثمان أمير الرسل، كما يعتقد العالم بأسره، وأن خلفاءه أطلقوا على أنفسهم لقب أسقف روما، وهو الجثمان الذي يضع أناس من كل الشعوب جبهاتهم في الغبار أمام رماده

وكذلك كل الأمراء: على المرء أن يستحضر في الذهن كل هذا حتى يتمكن من إدراك فظاعة إنتهاك الحرمة بحد ذاتها وضخامة عويل العالم المسيحي مما ألم به»

ونهبت في ذات الوقت كنيسة القديس بولص، الواقعة على طريق أوستيانزي، وهو الطريق الموصل الى مدينة الميناء أوستيا، كما تم تخريب ضريح الرسول بولص فيها. وأبدى سكان روما والشعب الريفي مقاومة بدون نجاح.

هل كان هذا أولى الخطايا؟

هل حدث هنا إرتكاب أول إثم في العلاقة بين المسيحيين والمسلمين، ألا وهو إنتهاك حرمة أماكن مقدّسة تحت راية الهلال؟، لم يبق في الذاكرة العامة للعالم الغربي سوى القليل من هذا.

ربما لم يرغب بابوات روما في المحافظة على بقاء هذا الإنتهاك اللصوصي للكفار حيّا في الأذهان، كعلامة إذلال للمسيحية. ولكن الأمر تواصل. والسرد لجريجوروفيوس مرة أخرى، فهو يروي أفضل من غيره، حيث يقول:

«وأخيرا انسحب اللصوص بعد أن خرّبوا كامبانيا (..). والتهم إعصار الكثير من سفن النهب، وقذفت الأمواج جثث العرب المسلمين الى الشاطيء، حيث كانت تخرج من جيوبها بعض التحف النادرة مرة أخرى. توفي البابا سيرجيوس الثاني تعيساً في 27 كانون الثاني (يناير) 847م في نفس كاتدرائية الرسول، التي ربما كان تخريبها سببا لإنكسار قلبه، ووري الثرى في قبوها».

لقد تم إنتخاب بابا جديد، وهو ليو الرابع، الذي قدّم نفسه لسكان روما بوصفه هو الذي أوقف من خلال صلواته واشارة الصليب ذلك الحريق الكبير الذي اشتعل في حي بورجو، وهو الحيّ الذي يسكن فيه السكسون وهذا الحدث تم تخليده أيضا في الرسومات

الجدارية لروفائيل.

لكنّ البابا الجديد لم يراهن في مواجهة خطر العرب المسلمين على العون الإلهي فحسب، بل انه أمر ببناء الأسوار، وجمع الأموال من أصحاب السلطة في أوربا للقيام بهذا العمل الكبير. ويواصل جريجوروفيوس سرده، قائلا:

« في غضون ذلك جذبت غنيمة روما الثرية قراصنة إفريقيا للقيام بمغامرة جديدة.

فبينما قام سكان هذه المدينة بتحصين أسوارهم وتدعيم حي القديس بطرس، وصلتهم أنباء عن تجهيز أسطول كبير للعرب المسلمين في سردينيا، كان هذا هو ماحدث في عام 849م. وتكوّنت لحسن الحظ رابطة تضم المدن البحرية الجنوبية، وهي الرابطة الأولى في تاريخ العصور الوسطى وضمت في عضويتها مدن: أمالفي وجيتا ونابولي، التي كانت مزدهرة من خلال التجارة وشبه مستقلة عن بيزنطة. وبناء على دعوة ملحّة من البابا ليو الرابع قامت هذه المدن بتوحيد سفنها وعقدت تحالفا معه (..).. وخرج البابا (..). على رأس قوة ميليشيا من سكان روما الى أوستيا لاستخدام الأسطول والجيش (..)، وركع على ركبتيه وأدّى الصلاة، وعاد بعد ذلك الى المدينة. في اليوم التالي ظهرت أشرعة سفن العرب المسلمين أمام أوستيا. فتقدم النابوليّون نحوهم، وشنّت سفنهم هجومها بشجاعة، ولكن عاصفة مفاجئة فضّت المعركة البحرية التي اندلعت وأربكتها، وتفرّقت السفن المعادية أو تم إغراقها. ونجا كثير من الموريين المنكوبين الى جزر تيرين، حيث قتلوا هناك، ووقع كثيرون منهم في قبضة رؤساء الرومان، حيث أعدموا في أوستيا أو تم تقييدهم بالأغلال وجيء بهم الى روما. وكما في سالف الزمان (..). قام الرومان بإجبار أولئك السارسانيين [العرب المسلمين] على أعمال السخرة في بناء مدينة الفاتيكان».

إنتصار على المسلمين ـ أسرى حرب في روما

كان نصرا بابويا لا ينسى على المسلمين، فأصبح لروما من جديد بفضله عبيد مسلمون هذه المرة. وتم الإحتفال بهذا الإنتصار البحري باعتباره معجزة جاءت من أمير الرسل وخليفته. وقد خلّد روفائيل، كما أسلفنا، في بداية القرن السادس عشر الميلادي معجزة ليو هذه.

وصادف في القرن الميلادي نفسه أن حقق أحد البابوات، وهو بيوس الخامس مجدا عسكريا باعتباره أدميرالا للعالم الغربي أيضا، من خلال الإنتصار في معركة ليبانتو البحرية في عام 1571م، حيث انتصر كذلك من خلال الحظ أو نتيجة مشيئة إله المسيحيين، وانتهت المعركة مرة أخرى بالقبض على أسرى حرب مسلمين، وتشغيلهم سخرة في روما في ترميم أسوراها المتهدّمة.

ويستمر في سرده، قائلا:

> *«كان ترميم الأسوار قد بدأ قبل سنة من تلك المعركة البحرية، وكان للخطر الداهم تأثير كالمعجزة، وأظهر البابا الحماسة الشديدة، حيث كان يتفقّد الأعمال ويحث على الإستعجال.*
>
> *وتم تعزيز جميع البوّابات (..). لكنّ العمل الأمجد الذي قام به ليو هو تحصين منطقة الفاتيكان، حيث أصبح ذلك حدثا في تاريخ المدينة، اذ نشأت من خلاله بلدة ليونينا، فأصبحت حيّا جديدا من أحياء روما، وحصنا اكتسب أهمية كبيرة في القرون الزمنية اللاحقة»، وذكرت تلك البلدة باسم «سيتا ليونينا».*

وبوسع المرء اليوم أن يطوف مندهشا حول الأسوار العالية، التي أنشئت في ذلك الزمن. ومن الغريب أن الفاتيكان ومعه موقع القديس بطرس كانا بحاجة الى تحصينات دفاعية في القرن التاسع الميلادي، فالأعداء الجدد لم يكونوا مسيحيين. ولهذا السبب استعدّ القيصر الألماني لوتار لتقديم دعم ماليّ كبير من أجل إنجاز هذا العمل العظيم، وتم توزيع تكاليف

البناء على كافة الجماعات الكنيسة والمناطق الأميرية والأديرة في دولة الكنيسة.

وقد نظم إحتفال بعد أربع سنوات بمناسبة إتمام ليو الرابع عمله ضد التهديد ألإسلامي، ويقول جريجوروفيوس هنا أيضا بالاستناد الى معرفة دقيقة :

«*لم تحتفل مدينة روما، التي أصبحت الآن موسومة بسلطة البابوات، خلال قرون زمنية إحتفالا أكبر من الإحتفال الذي أقيم بمناسبة الإنتهاء من بناء ألأسوار في السابع والعشرين من (يونيو) 852م. فجميع المنتمين للإكليروس طافوا حول الأسوار وهم يغنّون حفاة الأقدام معفّرين رؤوسهم بالرماد. وكان الأساقفة الكرادلة السبعة يرشون الماء المقدّس على الأسوار وهم يمرّون من أمامها، ويتوقّفون أمام كل بوّابة، حيث يقوم البابا بالتضرّع لإنزال البركة على المدينة الجديدة*».

وهناك نقش فيه نص يتضمن الاشادة بالبابا والقيصر، ويوحي برؤية روما وهي تعود الى تألقها السابق، ولكنها كانت لم تزل بعيدة عن هذا. وكان من الجائز الابتهاج لمجرّد عدم رغبة «الأشرار» في شن حرب على مدينة المدن مرة أخرى، وابداء السرور»بعدم السماح بانتصار» أعداء الإيمان والغرباء.

أسلحة روحية

كانت الكتابة أسهل من الفعل، وظلت الخبرة السابقة السيئة ذات تأثير يسبقه الخوف. ربما أصبح هذا المكان المقدّس لأمير الرسل آمنا آنذاك، إلا أن العالم المسيحي كله بما فيه ايطاليا ظل مهددا. وهكذا شعر البابا بما يدفعه الى جانب القيصر، ولكن بوسائله الخاصة. فعندما قام لودفيغ الثاني بحملة جديدة ضد العرب المسلمين في إيطاليا عام 852م، قدّم له ليو الرابع المساعدة بأسلحة روحية.

وكما يقول المؤرخ الكنسي البروتيستانتي يوهانيس هاللر (1865 ـ 1947م) فإنه أصدر نداءً موجها (الى جيش الفرانكيين للقتال ضد أعداء العقيدة المسيحية، ووعد كل من

يلاقي الموت في سبيل ذلك بالقبول في ملكوت السماء، «لأن الله القدير يعلم أن من قدر له الموت منكم، كان قد سقط في سبيل حقيقة الايمان ومن أجل خلاص روحه والدفاع عن الأرض المسيحية. ولذلك فإنه سوف ينال الأجر المذكور»).

هذا ما قاله البابا، بما يعني أن المسلمين والمسيحيين أصبحوا متساوين، بخصوص الأجر الذي يناله المؤمنون المحاربون.



الفصل الثالث والثلاثون

أوربان الثاني ـ الحملتان الصليبيتان:
الأولى و«الأخيرة»

شرف كبير لجورج دبليو بوش

لقد ردد الرئيس الأميركي بوش عندما استقبله البابا بينيديكت السادس عشر يوم الجمعة في الثالث عشر من حزيران (يونيو) 2008م مرحّبا به في دولة الفاتيكان، ثلاث مرات عبارة، قال فيها: «يا له من شرف!». كان بوش محقّا في ترديد عبارته، فنادرا ما كان يحظى قبل ذلك رئيس دولة من أحد البابوات بهذا القدر من الإهتمام المتعاطف الكبير، مثل ما حظي به جورج دبليو بوش خلال رحلته التوديعية في أوروبا.

فهل تم إيلاء هذا الشرف للرئيس بسبب الإرتياح لإقتراب إنتهاء مدة رئاسته التي استمرت ثمانية سنوات تعيسة؟، أم أن الواجب كان يتطلب معاملته بعناية أيضا باعتباره رئيسا لسبعة وستين مليون ونصف كاثوليكي أميركي، دون الاستمرار في النظر اليه كأمير حرب ومحارب صليبي؟

قاد الرئيس بوش الأب في الفترة السابقة (1990/1991م) حربا في بلاد إسلامية، ضد إرادة يوحنا بولص الثاني الرافضة لها.

كان بالإمكان في ذلك الحين تنحية الإتهام بقيادة «حملة صليبية» غربية بالنظر الى أن الدكتاتور العراقي صدام حسين قام بغزو الكويت، أما بخصوص بوش الإبن فقد جاء الرفض البابوي للحرب أكثر وضوحا وشدة. فيوحنا بولص الثاني وساسة الفاتيكان كانوا مقتنعين بأن الحرب لا تجلب الموت والمآسي على الناس في العراق فحسب، بل أنها ستخلق أيضا مشكلات كثيرة أكبر تتطلب وقتا أطول لحلها، ومن

تلك المشاكل ما يتسم بطبيعة دينية. فكان هناك خشية خوف مسوّغ من تعرض المسيحيين في العراق للأذى. وهكذا كان البابا في بداية الحرب بحاجة الى قول كلمات ذات تأثير أشد، كما كان من المستلزم لديبلوماسيي الفاتيكان استخدام أشكال عديدة من فنون الإقناع، من أجل عدم النظر الى الحملة العسكرية التي قامت بها الولايات المتحدة الأميركية في العراق وكأنها أزمة أو رد فعل بين الأديان ـ مع الرجاء النظر إليها على أنها حملات صليبية .

لم يكتف المعنيون في الفاتيكان بإدانة التدخل العسكري الأميركي فحسب، بل تم النظر إليه ضمن تقييمهم المحق عبثا وعملا غير بنّاء أيضا. وبالرغم من ذلك وجه في العالم الإسلامي الإتهام المتضمن بان هناك حملة صليبية جديدة ـ أخيرة؟، بما يعني أن الاتهام كان منعكسا من تأثير الجرح التاريخي الكامن في الوعي الجماعي للإسلام.

كانت للرئيس جورج دبليو بوش في الفاتيكان مكانة مرموقة بسبب مواقفه في سياق الصراعات السياسية الداخلية إلى جانب القيم التقليدية المحافظة، ولكن بدون مبالغة زائدة في تقييم مكانته.

فتديّن الرئيس وبعثه الجديد المزعوم المنبثق من الحماس للمسيحية، أيقظا بالأحرى تحفظات لدى أحد العقلانيين مثل الكاردينال راتسينجر (البابا بينيديكت) وغيره من الديبلوماسيين البابوين الحصيفين. وأدت حتى صياغته لتوجهاته السياسية انطلاقا من إيحاءات دينية، كما قال هو ومساعدوه الرئيسيون أحيانا، الى أثارة الشكوك به.

فافتتاح جلسة وزارية في البيت الأبيض بالصلاة كان أمرا ينطوي على مخاطرة وذا حدّين، لأن نتيجة القرار السياسي كانت ستفسد المظهر الديني الجميل. وكان الرأي في القصر الرسولي [البابوي] أن يظل الشأن الديني بيد الفاتيكان، وفي هذا السياق صرّح أغلب العاملين في الفاتيكان بأن ما حظي به جورج دبليو بوش من معاملة خاصة لا يعود في الواقع الى سياسته وقناعته الدينية.

خوف هستيري

إن رئيس الولايات المتحدة الأميركية هو الذي كاد يفرض هذه المعاملة التفضيلية. فبينيديكت أراد، راضياً أم ممتعضاً، أن يرد على العناية المتميّزة الذي خصّه بها بوش الإبن أثناء الزيارة البابوية لواشنطن في أواسط شهر نيسان (أبريل)، كاستقباله في المطار وإقامة حفل في البيت الأبيض بمناسبة بلوغ يوسف راتسينجر سن الواحد وثمانين عاما في السادس عشر نيسان (أبريل).

ومن جهة أخرى ربما أراد بينيديكت الذي وقع في الأسرالأمريكي ثم أفرج عنه آسروه في نهاية الحرب العالمية الثانية، اذ كان يخدم وهو شابّ مساعداً ضمن بطارية مدفعية مضادة للطائرات، أن يكرّم بوش الأب أيضا، لأنه هو الذي أبدى الموافقة الحاسمة على اعادة توحيد ألمانيا بين عامي 1989 و 1990م.

لقد أراد السادة في الفاتيكان بالدرجة الأولى منع قوى الأمن الأمريكية، المتسمة بهستيرية خوفها الدائم من احتمال وقوع عملية اعتداء، من انتزاع زمام السيطرة منهم على القصر الرسولي، وتجنّب حدوث جدل حاد حول إجراءات الأمن الضرورية، كما حدث في زيارات سابقة. هكذا تم الإنجرار الى مخرج خاص، مع احتمال تعرضه للفشل: لم يستقبل البابا الرئيس في مكتبه كالمعتاد، وإنما وقف بانتظاره في الخارج أسفل برج يوحنّا في الزاوية الغربية من زوايا أصغر دولة في العالم، في موقع مرتفع فوق حدائق الفاتيكان والمدينة الأبدية، علما بأن يوحنا الثالث والعشرين كان يحب هذا الموقع.

وقد أمر بترميم البرج الدفاعي ذي الإستدارة غير المعتادة، وهو الذي تم تشييده في عصر النهضة. هنا كان يجوز لأفراد الأمن الأميركيين أن يراقبوا.

تحدّث البابا والرئيس حوالي نصف ساعة حول مصير العالم ـ وإلا حول ماذا إذن؟، فهذا المصير يظل في نهاية المطاف وفقا لقناعة الطرفين بيد الله.

وحتى لو أن الرئيس سرد في ذهنيته المتفتقة هنا حكايات ذات نتائج غير مرضية، إلا أن النظرة الرائعة من البرج العالي على المدينة الخالدة وعلى مدينة الفاتيكان التي تضم

كنيسة بطرس كانت مسلية. كان القياصرة والملوك سابقا في مثل هذه المناسبات يسألون خليفة بطرس الرسول وبوّاب السماء عن الذي ينتظرهم «فيما بعد»، حينما ينتهي عهدهم في الحكم و بعد الموت. كاد هذا اللقاء في شهر حزيران (يونيو) القائظ ينزلق عن منحاه بفارق شعرة، لأن تمثالا برونزيا للبابا أوربان الثاني يوجد بجانب برج يوحنا، ذلك البابا الذي دعا لأول مرة الى تجهيز حملة صليبية، وحظي حتى في نهاية القرن التاسع عشر (عام 1881م) بالتكريم، المعبر عنه بصنع تمثال تذكاري له ونصبه في حدائق الفاتيكان. وفي هذا الجو السائد على المشهد كان بإمكان بوش أن ينادي قائلا: انظر.. رجاءً.!

وقوع مدينة ملك الملوك المقدّسة في الأسر

كان البابا أوربان الثاني فرنسيّا، درس في ريمس، وتولى إدارة الدير الإصلاحي في كلوني، ونجح في دعوته عالم المسيحيين للقيام برحلة حج مسلحة الى الأرض المقدسة، الموطن الأرضي للمخلّص، بعد أن فشلت قبله محاولة جريجور السابع (1073 ـ 1085م).

وكان دعاة مشهورون مثل الفرنسي بطرس الناسك من أمينس قد مهّدوا الطريق لدعوة أوربان.

وفي عام 1095م ألقى البابا في بلدة كليرمونت الفرنسية خطبة وعظ لم ينقل محتواها بشكل مباشر، إلا أن فيرديناند جريجوروفيوس، وهو المؤرخ موضع ثقتنا قد استعرض ما حدث إستنادا الى تقارير، قائلا بأن أوربان:

«قام بوصف مقتضب للأسر الذي تتعرض له مدينة ملك الملوك [السيد المسيح] المقدّسة،حيث مشى هناك وتألّم ومات. واستعان بالدموع والتنهدات وأقوال الأنبياء، وطالب عالم المسيحية ليهب كله متقلدا السيف من أجل تحرير المسيح من سلاسل قيود الأتراك».

كان هذا دافعا كبيرا ويشكل أكبر الحوافز، لكنّ ثمّة دافعا آخر يضاف اليه: وهو أن العالم الغربي كان في القرن الحادي عشر الميلادي منقسما وممزقا بين سلطتين هما سلطة

الكنيسة الروحية والسلطة الزمنية. وبلغة حديثة، كان يتعيّن تحويل العداء من الداخل الى الخارج، لذلك قال أوربان:

«إنهضوا، وحوّلوا أسلحتكم، التي تقطر من دماء المقتولين من إخوانكم، نحو أعداء الايمان المسيحي. أنتم يا من تضطهدون اليتامى والأرامل، أنتم أيها القتلة المأجورون ويا منتهكي حرمات المعابد وسارقي ممتلكات الغير، أنتم يا من تتلقون أجور العسكر من أجل إراقة دماء مسيحيين، ويا من تجذبكم رائحة ميادين المعارك مثلما تجذب العقبان، سارعوا طالما كنتم تحبون أرواحكم الى الخروج تحت قيادة الرئيس الميداني يسوع من أجل حماية بيت المقدس.

أنتم كلكم يا من ارتكبتم مثل هذه الجرائم التي تفصل بينكم وبين ملكوت الله اشتروا أنفسكم بهذا الثمن، لأن هذه هي إرادة الله».

كانت هذه الأقوال مقنعة، حيث قام الأمراء والفرسان والأساقفة والأحبار والفلاحون والأقنان بتخييط صليب أحمرعلى ثيابهم وانطلقوا خارجين، مما عزز غريزة العنف الطبيعية في الإنسان بحماسة دينية.

ترآى لفيرديناند جريجوروفيوس في أواسط القرن التاسع عشر ميلادي أنه أصبح من نافلة القول ومن «الغباء» في أزمان التنوير مواصلة تكرار إدانة الجنون الديني، الذي انفجر آنذاك في العصور الوسطى بوصفه عملا أحمق»، أما سبب تبرير وجهة نظره فكتب عنه متفائلا:

«أصبح الجنس البشري لحسن الحظ غير قادر على القيام بتسيير رحلات جيوش قاتلة من أجل تصورات دينية».

لم يكن جريجوروفيوس يتصوّر أن تُرتكب قريبا في العقود الزمنية اللاحقة مذابح جماعية من أجل أفكار جنونية من نوع آخر تماما، لأنها ذات أصول إلحادية: إيديولوجيات قومية وشيوعية وعنصرية، ولم تدر في خلده امكانية انبعاث كابوس إرهاب ديني مرة

أخرى، خلال فترة التحول بين الألفين الزمنيين.

ما الذي يدفع المتدينين الى ممارسة العنف؟

ما الذي حفز أوربان الثاني لإلقاء خطبة الوعظ هذه، وما الذي دفع الناس نحو العنف في نهاية القرن الحادي عشرالميلادي وبعده حتى انهيار الحملات الصليبية؟، وما الذي يحرّك اليوم إرهابيين متدينين للقيام باعتداءات أو يدفع بمتدينين نحو ممارسة العنف؟، إن الأحداث التاريخية الموازية تبدو مثيرة للقلق.

في نهاية القرن الحادي عشر ميلادي تبلور وضع دولي جديد. فمنذ ما يقارب خمسمائة عام نجحت القوى الإسلامية القادمة من بلاد العرب في الضغط على عالم المسيحية، بعد أن تقدّمت سريعا جنوب البحر الأبيض المتوسط. وضغطت في الشرق على الإمبراطورية البيزنطية ذات المذهب المسيحي الأرثوذكسي، الذي انفصل لتوه سنة 1054م عن الكنيسة اللاتينية التي يرأسها البابا، كما أن ضغط هذه القوى في الغرب وصل الى الممالك التي نشأت بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية.

وفي نهاية القرن الحادي عشر تزايدت لأسباب عديدة قوة الجميع في غرب أوروبا: الملوك والمدن والأبرشيات الكنسية وأخيرا وليس آخرا الجمهوريات الإيطالية البحرية أمالفي وجيتا ونابولي والبندقية وجنوة وبيزا.

بدا العالم الغربي مستعداً، بتعزيز من العامل الديني، الى الدخول في صراع مع ثقافة أجنبية، وخوض الحرب ضد دين آخر، في سبيل الحفاظ على الهوية واحترام الذات.

وقد كان قبل وقت قصير متعرضا للتمزق بسبب ما احتدم بين البابا والقيصر من صراعات، بلغت ذروتها في نطاق ادعاء كل منهما بحق التصرف وحده بمنح منصب الأسقفية، مما أسفر عن حدوث إنشقاقات في الحياة اليومية في جميع المجالات. وسلّمت شعوب العالم الغربي قيادها لدعوة البابا الموحّدة، بعد أن أصابها الملل من الصراعات الداخلية. أما البابا نفسه فإن «اطلاقه العنان لحرب عقائدية دينية كبيرة» اكسبه مكانة

وسلطة، كما يروي المؤرخ يوهانيس هاللر الذي وضع موازنة تقييمية، مضيفا الى ما رواه:

«أمّنت روما لنفسها السيطرة على العالم الغربي، ولم تعد مجرد حكومة للكنيسة فحسب، بل انها قامت بإدارة الدول والحكّام أيضا. وعندما انتزعت إدارة المشروع المشترك (..).أصبح لها تأثير موجّه لسياسات هذه الدول والحكام».

إن هذا المؤرّخ وهو من مؤرخي القرن العشرين هو الذي يمد بشكل مأساوي ـ ساذج خطا رابطا مع الإستعمار، عندما يتحدث عن حكم مسبق مألوف في «الغرب» حول:

«رسالة الأمم الأوروبية في تبليغ جميع الشعوب عن بركات الحضارة الغربية، حتى ولو تم ذلك عبر تدمير دولها وإحتلال أراضيها».

فهل يقول هاللر هذا ساخرا، أم أنه يستشرف المستقبل بصورة تنبؤية ـ مأساوية؟

الشكوى من معاملة الحجّاج

وفقا لما تورده المصادر التاريخية لم تكن حالة المسيحيين في الشرق سيّئة الى ذلك الحد. والحجّاج لم يكونوا على الأغلب يصادفون في الأرض المقدّسة مخاطر أمنية أشد مما يصادفونه أثناء قيامهم برحلة في العالم الغربي عبر جبال الألب، مرورا بقطّاع الطرق والغابات المعتمة، والمسالك الخطرة.

لا شك بأن شكاوى كانت تتكرر حول المعاملة السيّئة، التي تعرض لها الحجّاج المسيحيون من المسلمين.

ومن المؤكد أن القياصرة البيزنطيين كانوا يقومون بتضخيمها بهدف اكتساب وضع أمني أفضل لإمبراطوريتهم المتعرضة للمضايقة، من خلال تحسين حماية الحجاج. لكنّ إلقاء نظرة واقعية يبيّن أنه لم تكن هناك حاجة ضرورية، تجبرعلى القيام بمثل هذا المشروع الخطير، من أجل الوصول الى الأماكن المقدّسة. إن لمن الصعب تسويغ هدف بهذه الكلفة، لو لم تكن هناك تعبئة إيديولوجية ـ دينية.

ويأتي يوهانيس هاللر بالمزيد من التوضيح، بدون أن يحيد عن الصواب من خلال قوله:

> « *لقد امتزجت الدوافع الدينية بأخرى دنيوية، فإلى جانب الأجر الأبدي في السماء كانت هناك إغراءات الربح الزمني على الأرض. فكم من الناس الذين حملوا الصليب كانوا يبحثون من خلال قيامهم بهذه الخطوة عن مخرج: من وضع يائس ومن البطالة والمديونية والضيق؟! لقد حصلوا بأمر من البابا على سماح بتأجيل الوفاء بجميع إلتزاماتهم، وعلى تحريم المساس بنفوسهم وأموالهم، وأصبح لهم أمل بالوصول الى الهدف كحجاج على حساب غيرهم، حيث سيتمكنون عندها من تحقيق مكتسبات تضع حدا لجميع الهموم. ولم يكن الحال عند الأسياد مختلفا أيضا* ». *جميل وحسن، لكنّ شيئا آخر كان يجب أن يضاف الى هذا بالنسبة لشعوب ما وراء الألب، وهو ما لا يستطيع أحد أن يمنحها إيّاه سوى بوّاب السماء بطرس وخليفته، ليجعلها «تندفع من مواطنها نحو قبر آسيا المفتوح» كما يقول جريجوروفيوس.*

هنا يقوم المؤرخ هاللر بشكل مفاجيء، ومن موقع بعيد كونه بروتستانتيا، بمد خط رابط: فهل قام البابا باستعارة التصورات الإسلامية حول الجنة؟، حسب رأي هذا المؤرخ الذي قال حرفيا:

> «*لكن الدافع الأقوى، الذي علينا أن نعتقد به بدون تحفظات، كان حقا هو الديني. فالأجر الأكبر والأكثر قيمة للجنود قدّمه البابا بمنحهم الأمل بغفران الخطايا والحياة الأبدية. انه تتبع بهذا خطى العدو وحاربه بنفس السلاح، فسعادة الجنة التي وعد بها محمد أتباعه المقاتلين من أجل العقيدة تمت ترجمتها الى المسيحية بوصفها غفراناً للخطايا وسعادة أبدية، يراد منهما تعزيز وتوجيه روح التوثب للقتال، تلك الروح المنبثة بالوراثة في دماء الأجداد الجرمانيين لشعوب العالم الغربي. فهل خطر هذا ببال البابا، أم*

علينا أن نعتقد بوجود تقليد واع ومنقول من تجارب الحروب مع الموريين في إسبانيا مثلا؟».

فإما أن الأمر يتعلق بسعادة الجنة كأجر للمساعي والتضحيات في الحياة الدنيا وربما حتى التضحية بالحياة، وهذا يبدو لنا الآن شيئا معروفا، وإما أن البابا قام باستغلال الإعتقاد القديم الذي ساد في القرون الزمنية الأولى للمسيحية حول اعتبار أن رحلات الحج الى الأرض المقدسة تقرّب الحجاج من نيل السعادة الأبدية،وتحويله بالتالي الى عمل عسكري. إن الإسلام رفع الحج الى مكة الى مرتبة الفرض الديني، وما زال هذا الفرض يؤخذ مأخذ الجد حتى بعد مرور ما يقرب من 1600 عام على وفاة النبي محمد».

حرب وعنف من أجل الجنة

لم يكن لغفران الخطايا ودخول الجنة من خلال الحرب والعنف مسوغات من منطلق لاهوتي مسيحي، حيث أن رسالة مؤسس المسيحية اللطيفة بالعباد لاتبرر ذلك أصلا.

فهل أتى أوربان الثاني ومن خلفوه بأقوالهم هكذا بكل بساطة ورددوها بعد ذلك، لأنها لقيت على ما يبدو صدى وتجاوبا معها؟، وهل كان البابوات أنفسهم مندهشين في النهاية من التأثيرات التي نجمت عن دعواتهم لإطلاق الحملات الصليبية؟

يشير المؤرخ الكنسي من مدينة مونستر ارنولد انجينيد في مؤلفه المرجعي: «التسامح والعنف ـ المسيحية بين الإنجيل والسيف» الصادر عام 2007م الى شيء مثير للدهشة، حيث يقول:

> « *إن لمن المدهش أن تكون فكرة التبشير قد غابت عن الحملات الصليبية: فمن التقارير العديدة التي وصلتنا حول النداء الذي أصدره أوربان لم يتضمن أي تقرير بأن البابا دعا للتبشير بين العرب المسلمين، كي يحوّلوا دينهم الى المسيحية. وكذلك فان النداءات والبيانات، التي صدرت عن الأحبار في وقت لاحق، لم تتضمن المطالبة بتحويل الكفار عن دينهم*».

فلم يكن الغرض من الحملات الصليبية سوى إعادة السيطرة على الأماكن المقدّسة في الشرق، أما الحق فلا بد أن يكون الى جانب الدين القويم فقط. فهل كان المسيحيون والمسلمون وما زالوا يتمتعون بالمناعة ضد التبشير والارتداد؟

إن من بين الذين لم يجعلوا أنفسهم يتأثرون إلا قليلا بدعوات البابا أسقف روما أو لم يتأثروا بها إطلاقاً هم أهل روما أنفسهم، حيث أنهم غابوا من تحت رايات المنقذ وفرسان الصليب المسيحيين «منقذي» الأماكن المقدسة الذين يقطرون بالدماء.

فحتى فيرديناند جريجوروفيوس الذي يعرف كل شيء عن تاريخ روما في العصور الوسطى لم يكتشف وجودهم تحت تلك الرايات، مما دعاه على سبيل المثال الى أن يكتب ما يلي:

> *«كان أعضاء المجلس الديني (السنات) والشعب سيضحكون على الأغلب ساخرين، لو كان أوربان قد طلب منهم ملء أنفسهم بالغبطة المقدسة، ومغادرة ركام روما من أجل تحرير مدينة بيت المقدس، التي دمّرها قياصرة روما في الماضي، والتي ما زال قوس تيطوس يذكّر بسقوطها (..).. إن التحمس للأفكار الكبرى لم يكن يوقد شعلة الحماس في نفوس أهل مدينة روما إلا ما ندر».*

إن أساقفة المدينة لم يتمكنوا من تحميس سكانها، ولكنهم عوضا عن ذلك أشعلوا حماس محيط الأرض.

توفي أوربان الثاني وهو متعرض للضيق من خصومه السياسيين والكنسيين في روما في التاسع والعشرين من (يوليو) 1099م، أي بعد أسبوعين من سقوط بيت المقدس والمذبحة التي ارتكبها فرسان الصليب ضد الكفار، لقد عاجله الموت قبل تلقيه نبأ هذه الأحداث. وفي الفتره التي اكتسبت خلالها الكاثوليكية الفرنسية أرضية صلبة في بلد، بعضه ليبرالي وبعضه الآخر مناهض لنظام الإكليروس، تم تثبيت تبجيل أوربان رسميا (عام 1881م) بمنحه لقب «المطوّب»، كما يقال في المصطلحات الكنسية، وأقيم له تمثال في حدائق الفاتيكان.

الفصل الرابع والثلاثون

ما هو سلميّ بين الأديان ـ أمثولة الخاتم عند بوكاشيو

كان البابوات هم الذين قاموا في البداية بالدعوة للحملات الصليبية.

فقد دعا البابا جريجور السابع (1073ـ 1085م) اليها بدون نجاح، ثم دعا:

- أوربان الثاني للحملة الأولى (1096 ـ 1099م)،
- ثم أويجين الثالث للحملة الثانية (1147 ـ 1149م)،
- ثم جريجور الثامن للحملة الثالثة (1189 ـ 1192م)،
- ثم إينوسنس الثالث للحملة الرابعة (1202 ـ 1204م)،
- ثم جريجور التاسع للحملة الخامسة (1228 ـ 1229م).

ومن الغرابة وكذلك من حسن الحظ أنهم لم يشاركوا شخصيا بأية حملة صليبية. بعد ذلك تولّى الملوك المسيحيّون بأنفسهم بدون دعوات بابوية رحلات الحج المسلّحة، وقادوا الحملة السادسة (1248 ـ 1254م) والحملة السابعة (1270م)، وبهذا أظهروا أن الحملات الصليبية أصبحت أداة سيطرة سياسية للعالم الغربي على الإسلام.

مبادرات عسكرية ـ دينية

كان نصيب البابوات من مبادراتهم العسكرية ـ الدينية يتراوح بين الاشادة والإدانة، فكانوا يحصلون في السابق على المديح غالبا، أما اليوم فإنهم يدانون.

ويبدي مؤلف «بلوتس» المرجعي الذي شكّل الهيكل العلمي التاريخي لأجيال متعاقبة من المثقفين الألمان، في طبعته السابعة والعشرين التي صدرت منذ وقت ليس ببعيد (عام 1968م)، وجهة نظره في هذا السياق، قائلا:

«برزت الوحدة العظيمة للعالم الغربي المسيحي من خلال الحملات الصليبية، التي تمت

في نطاقها التضحية بالأموال والدماء من أجل فكرة دينية. فقد توحّدت طبقة الفرسان المسيحيين مخترقة كافة الحدود القومية ووجدت الهدف الأسمى لطموحاتها المثالية، وارتفعت المكانة المرموقة للبابوبة التي حرّكت الحملات، الى ذروتها».

لا يكاد يوجد اليوم أحد له هذه الرؤية الإيجابية، وخاصة لأن البحوث التاريخية الدقيقة حول الحملات الصليبية خلال العقود الزمنية الثلاثة الماضية بلغت حد الإنفجار. فيبدو أنّ مما يثير الإهتمام بما هو أكثر من إصدار تقييم عام بديهي هو تزايد تناول جوانب منفردة مثيرة للدهشة، مثل اللقاءات الأولى للحوار بين الأديان، (بما فيها من مواضيع مثل: الخوض في الدماء ونشوة القوة عند الفرسان الصليبيين، وملاحقات اليهود، وتربية الأطفال على التعصب، أو مثل الاستيلاء على القسطنطينية المسيحية ونهبها عام 1204م).

ويرى الباحث البريطاني ريتشارد فليتشر في الحملات الصليبية تعصبا، يمكن وصفه حتى بالإرهاب المنظم، فهي كانت حروب فتوحات وتمرينات أولية هادفة الى الإستعمار وارتكاب فظائع ضد اليهود.

ولكنه يعتقد بأن التطرف الديني كان موجودا عند الطرفين: الاسلامي والمسيحي، أي «تعصب السلاجقة المتحمسين المتحولين الى الإسلام والطائفيين المغاربة، والمحاربين الفرانكيين الذين يعبدون ربّين، وحملة الألقاب المسيحية الجليلة بأعمالهم التحريضية» (المصدر: «كتاب فيل الى شارلمان. المسيحيون والمسلمون في العصر الوسيط»، 2005م).

مجتمع متعدد الثقافات في الأرض المقدسة

أشاد مؤرخ الأديان البرليني كارستن كولبي بالجانب الآخر، مكتشفا مجتمعا كاد يكون متعدد الثقافات في دولة الفرسان الصليبيين في الأرض المقدسة، وعبر عن اشادته قائلا:

> *«لا يجوز تصوّر الحياة في الشرق زمن الحملات الصليبية، أي من عام 1098 الى 1291م وكأنّها حالة حرب متواصلة. فالجيل الثاني للمستعمرين الفرانكيين كان ينظر الى الحرب على الأغلب بوصفها شراً لا بدّ منه. وانتهج*

الأمراء الفرانكيون في سوريا سياسة تفهم ليبرالية بشكل زائد عن المألوف. فكانت الحالة الإعتيادية بين الحملات الصليبية والحملات المضادة لها تتمثل في الهدنة، التي كان يتم تمديدها دائما بالموافقة الصامتة من الطرفين مرة تلو الأخرى. وأقيمت علاقات متسمة بدرجة عالية من روح الفروسية بين أمراء الحصون الفرانكيين وجيرانهم من أمراء الحصون العرب، ودوّنها المؤرّخون الغربيون والعرب في حولياتهم على حد سواء»، (المصدر: «الإسلام كمشكلة» 1994م).

ويبدو أن هنالك أدلة من التاريخ تعزز وجهتي النظر كلتيهما. ومما يتطابق على أية حال منذ العصر الوسيط مع طيف الأحكام الواسع في أيامنا هذه يكمن في حقيقة، مفادها أن الذين عاصروا الحروب الصليبية كانوا يتفاعلون داخل حيز كبير من إختلاف الآراء، حول رحلات الحج المسلحة والصراع مع المسلمين.

فكان بالإمكان سرد حكايات عن مسلمين طيّبين كالسلطان صلاح الدين (1169 ـ 1193م) على سبيل المثال، أو كان من غير الوارد حدوث تضاد أشد داخل الكنيسة مما كان يحدث بين إينوسنس الثالث (1198 ـ 1216م) سيد القياصرة والملوك، وبين فرانتس فون أسيسي (1181/1182 ـ 1226م) المسالم القدّيس الأكثر حبا في عالم المسيحية، ومؤسس طريقة الفرانسيسكانيين الرهبانية المتسوّلة.

لقد أراد إينوسنس الثالث دفع القيصر فريدريك الثاني للإنخراط في الحملات الصليبية، وهو ذلك القيصر الذي كان يستند عسكريا كما يشاع الى العرب المسلمين، ولاهوتيا الى الإسلام، وسياسيا الى الهدنة مع المسلمين.

أراد فرانتس فون أسيسي إقناع السلطان (الأيوبي: الكامل بن العادل) بالتحول عن الإسلام الى المسيحية، من خلال «الكلام الطيّب والتفكير القويم»، كما ورد على لسان (القيصر مانوئيل الثاني).

ربما كانت مثل هذه الأفكار مجرد أحلام في بداية القرن الثالث عشر الميلادي، إلا

أنها كانت قوية الى درجة تحولها في مخيلة المعاصرين الى تصورات واقعية ومهمة أيضا، لأنها كانت تروى وكأنها حدثت بالفعل ودخلت الى ذاكرة العالم الغربي بهذه الصورة. كان حلم الشعب البسيط في أوروبا يتمثل في إمكانية أو وجوب حل الأزمة الكبرى بين المسيحية والإسلام، أي بين يسوع المسيح والنبي محمد: سلميا وليس حربيا. وهذا الحلم التصق بالشخصية التقية الأكثر شعبية في ذلك الزمن، وصاحبها هو فرانسيسكو من بلدة أسيسي في مقاطعة أومبريا في إيطاليا الوسطى.

حدث ذلك في بداية القرن الثالث عشر الميلادي: عندما رفع البابا إينوسنس الثالث نفسه الى مرتبة سيد العالم، وحينما كان قيصرالإمبراطورية الرومانية المقدسة وملك ألمانيا فريدريك الثاني فون هوهنشتاوفن يثير دهشة أوروبا من وراء جبال الألب شمالا الى صقلية في الجنوب.

وفي الوقت نفسه كان السلطان المسلم الملك العادل هو حاكم مصر، وكان الناس في بغداد يتذكّرون أيام العز في عهد العباسيين والسلاجقة.

أحلام فرانتس فون أسيسي

كان فرانتس فون أسيسي واعظا متجولا ومؤسسا لطريقة رهبانية (الرهبان المتسوّلون «إخوان المرتبة الأدنى»).

ولد على وجه التقدير عام 1181م ومنح عام 1228م بعد سنتين من وفاته لقب القدّيس بسبب التبجيل الكبير الذي كان يتمتع به بين عامة الشعب. كان قبل كل شيء صديقا للناس البسطاء، الذين ملّوا وعانوا بما فيه الكفاية من فوضى السياسة ومن النزاع بين أصحاب السلطة: بين البابوات والقيصر وبين الملوك والخلفاء، وسئموا من الكوارث الخاصة ذات الصلة بحملة أطفال صليبية (في عام 1212م)، ومن المضايقات التي سببتها لهم جيوش الفرسان.

هنا طفق فرانسيسكو يحلم بقدرته على التوصل بطريقة سلمية تماما الى تسوية تتعلق

بالأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين والواقعة في قبضة المسلمين، وبالحملات الحربية المربكة في حوض البحر الأبيض المتوسط. كان هذا لا يتطلب منه سوى الذهاب بكل بساطة الى السلطان المعني، وتحويله عن معتقده الى المسيحية. يبدو أن فرانسيسكو هذا لم يكن مدركا لمتطلبات «السياسة العليا» للحرب. وإلاّ، فلماذا إذن توجهت الحملة الصليبية الرابعة (1202 ـ 1204م)، التي هي جيش الغرب على سبيل المثال، أولا الى القسطنطينية المسيحية الغنية، التي كان يحكم فيها القيصر الروماني الشرقي والبطريرك الشرقي، واحتلتها ونهبتها، بدلا من التوجه المباشر نحو بيت المقدس؟، وعن أي خطأ قدم البابا يوحنا بولص الثاني عام 2004م بمناسبة الذكرى السنوية الثمانمائة لاحتلال القسطنطينية ونهبها، إعتذاره، خاضعاً، للبطريرك الأرثوذكسي بارثولومايوس الأول؟، أم لماذا كان يجب على القوة البحرية لمدينة البندقية تحت حكم الدوق إينريكو داندولو أن تتابع الحفاظ على مصالحها التجارية بصورة دموية بمساعدة المحاربين الصليبيين؟، ولماذا حقق البعض مكاسب من «رحلات الحج المسلحة» الى الأرض المقدسة هذه: فالبابا اكتسب مكانة روحية أعلى، وغيره حقق مكاسب سلطوية دنيوية؟، ولماذا كان البابوات يؤيّدون الحروب الصليبية، بينما كان القيصر الذي تم تعميده في بلدة أسيسي غير مؤيد لها؟ ولماذا كان ينظر فريدريك الثاني الى الحملات العسكرية بتحفظ مما جعل البابا يعاقبه، بينما حصل قداسته من السلطان على حرية الوصول الى الأماكن المقدسة في بيت المقدس وبيت لحم والناصرة بطريق التفاوض؟، وكيف توصل أطفال(بين سن العاشرة والخامسة عشرة بلغ عددهم ثلاثين ألف طفل راغب في الإنتحار) الى فكرة القيام بحملة صليبية خاصة بهم، بينما لم يتمكن الأسقف الأعلى في كولونيا من جعلهم يحيدون عن هذا الجنون؟

وبما أن فرانسيسكو لم يفهم كل هذا مثله مثل الناس الذين كانوا يستمعون الى مواعظه، فإنه عقد العزم عام 1219م على السفر بنفسه الى الشرق، الى مدينة دمياط الشهيرة الواقعة على مصب نهر النيل، لينطلق بعد ذلك من هناك ...ولنترك المؤرخ «فولفرام فون دين شتاينن» يصف الحدث كما يلي:

«ذهب فرانسيسكو نحو معسكر العرب المسلمين بجسارة، حيث تم استقباله من مقاتلي المعسكر في البداية بعداء، الا أنه تمكّن من دفعهم الى الموافقة على عرضه بين يدي السلطان، الأمير الكامل، الذي كان من كبار الأمراء وشاعرا وعالما في ذات الوقت.

استمع الأمير اليه بانتباه، وبعد مرور بضعة أيام أخلى سبيله مكرّما، وقال له: (صلّ من أجلي كي يكشف الله لي الدين الأفضل الذي يرضيه)، ثم أمر بمرافقته وإرجاعه الى فرسان الصليب؛ ولم يرغب في منحه فرصة، التبشير بين أفراد جيشه».

التعاليم التي رسمها جيوتو

لكن هناك مؤرّخين آخرين يلاحظون بأن فرانسيسكو لم يزر الشرق أبدا، إلا أن هذا لم يمنع من دخول هذا اللقاء بين القدّيس المسيحي والسلطان المسلم الى الأسطورة الثقافية في العالم الغربي. لقد قام الرسام جيوتو برسم هذا المشهد في الكنيسة العليا من سان فرانسيسكو في أسيسي، حيث رسم اللقاء مضيفا اليه فكرة، مفادها أن فرانسيسكو اقترح على السلطان المسلم القوي «تجربة نار» للبرهنة على حقيقة العقيدتين، إلا أن الأمر لم يصل الى ذلك الحد. ورسم جيتو في الكنيسة العليا نفسها أيضا ذلك المشهد، الذي يتبدى منه كيف يقوم فرانسيسكو وهو الراهب المتسوّل بمساندة البابا في تدعيم الكنيسة للحفاظ عليها من السقوط.

فالتعاليم التي رسمها جيوتو (1266 ـ 1337م) تبيّن أن سياسة القوة من خلال الحملات الصليبية ليست هي التي تثبت البابوبة والكنيسة، بل العودة الى القيم المسيحية الحقيقية المتصلة: بالفقر والتخلي عن العنف والتواضع.

كانت تروى في إيطاليا حتى منذ ذلك الوقت تلك الحكاية اليهودية ـ الإسلامية حول الخواتم الثلاثة، التي تمثل الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلامية، حيث

أن واحدا منها هو الخاتم «الأصلي» فقط. لكن الأب أو الله أو إبراهيم جعل خاتمين آخرين يصنعان لأبنائه الثلاثة، حتى يبرهن كل واحد منهم طيلة حياته على «أصلية» الخاتم الذي معه.

أمثولة الخاتم في رواية بوكاشيو

وجدت هذه الأمثولة صيغتها الأدبية في إحدى المجموعات التي تحتوي على روايات قصيرة من العصر الوسيط والتي تبلغ مئة رواية قصيرة. وقد أدخل جيوفاني بوكاشيو (1313 ـ 1375م) هذه القصة الى مؤلفه الرئيسي الريادي الذي صدر له بعنوان: »ديكاميرون«، وكان له تأثير كبير على عامة الشعب وعلى الحكماء، لأن الزمن كان قد تحوّل، اذ تلا صعود نجم البابوات في القرن الثالث عشر ووصلوهم الى أعلى مكانة مرموقة مرحلة هبوط، مما أجبرهم على مغادرة روما والإنتقال الى المنفى في مدينة أفينيون الفرنسية: الى «الأسر البابلي للكنيسة» الذي استمر من عام 1309 الى عام 1377م.

انتهت الحروب الصليبية الى الفشل، وتحوّلت القوى ألإسلامية وخاصة قوة الأتراك الى الهجوم مرة أخرى، وبدأوا يضغطون على أوروبا بأساطيلهم في البحر المتوسط وجيوشهم البرية، منطلقين من آسيا الصغرى نحو جنوب أوروبا حتى وصلوا الى هنغاريا (المجر).

في منتصف القرن الرابع عشر ميلادي من عام 1347 الى عام 1353م انتشرت موجة وباء طاعون مخيفة ذهب ضحيتها ثلث سكان أوروبا في ذلك الحين. فتساءل كثيرون أمام المشاهد المرعبة والمآسي التي سببها الموت الأسود ولم تسلم منها أمة أو مدينة أو قرية أو عائلة، عن معنى الفروق بين الأديان.

أمام هذه الخلفية يروي الأديب في إحدى فيلاّت فلورنس حكاية «أمثولة الخاتم» عن صلاح الدين وملكي صيديق: عن الخواتم الثلاثة والبحث عن دين الحق. هذه الرواية لم يضعها البابوات بالتأكيد تحت وسائد نومهم، لكنّها مثّلت تحديا لأي مطلب بالأحقية

الدينية.

بدأ بوكاشيو سرد حكايته قائلا:

«ألّمت بالسلطان الإسلامي صلاح الدين ضائقة مالية، وأراد أن يبتزّ المبلغ المالي الكبير الذي يحتاج اليه من اليهودي الغني ملكي صيديق الذي يعيش في الإسكندرية ويمارس الإقراض بالربا. ولم يرغب صلاح الدين في استخدام العنف، إلا أن الحاجة كانت ملحّة.

وهكذا فكّر باستخدام حيلة لإجباره تحت ذريعة قانونية ظاهرية (..)، فدعاه واستقبله بحفاوة بالغة، وأشار اليه أن يجلس الى جانبه ثم تحدث اليه قائلا:(يا صديقي، لقد سمعت بأنك حكيم وخاصة أن لك نظرة عميقة في الأمور الإلهية، وأريد الآن بكل سرور أن أعلم منك أيّ الشرائع الثلاث تعدّها أنت أنها الحق: الشريعة اليهودية أم الإسلامية أم المسيحية).

كان هذا اليهودي بالفعل رجلا حكيما وأدرك حقا بأن صلاح الدين لم يطرح عليه مثل هذه المسائل إلا ليكون له مستمسك عليه من أقواله، كما أدرك أنه لو فضّل أيا من هذه الشرائع على الأخرى، فان صلاح الدين سيكون قد بلغ مرامه، مهما كانت الشريعة المفضلة حسب اجابة الرجل اليهودي.

هكذا جمع الرجل سريعا كل ما عنده من حدة الفكر حتى يتمكن من الافصاح عن جواب لابد منه، دون أن يتيح تقديم مستمسك عليه، وقال عندما خطرت له الفكرة التي أراد أن يفُصح عنها كي يضمن نجاته: (مولاي، إن المسألة التي طرحتموها عليّ هي حسنة وعميقة المعنى، فإن كان يراد أن أقول رأيي فيها فإنني مضطر أن أقص عليكم هذه الحكاية القصيرة: (..). عاش في سالف الزمان رجل غني من علية القوم، وكان يولي من بين المجوهرات المختارة التي يحتفظ بها في كنزه قيمة لخاتم ثمين رائع الجمال.

وحتى يظل مقدّرا لقيمة هذا الخاتم وجماله ومحافظا على بقائه في نسله من بعده، ارتأى أن يعطي الخاتم لوريثه من بين أبنائه، و أن تكون له المنزلة الأولى في تقديم الإحترام، بحيث يكون الخاتم الذي معه هو الدليل على ذلك.

سار الإبن الأول الذي حصل على الخاتم سيرة أبيه، وسلك الطريق الذي سلكه والده من قبله، وملخص الحديث أن الخاتم انتقل من يد الى يد أجيالا عديدة. وفي النهاية وصل الى رجل له ثلاثة أبناء كلهم وسيمو الطلعة وفضلاء ومطيعون لوالدهم بشكل تام، ولهذا كان يحبهم بكل عطف.

كان الصبيان يعلمون عن الخاتم، وكل واحد منهم يود أن يكون هو المقدّم المبجّل بين إخوته، وطلب كل ابن على إنفراد وبغاية الإستعطاف من والده الذي بلغ سن الهرم أن يهديه الخاتم. كان الرجل الطيّب يحبهم جميعا بنفس المستوى، ولم يكن بمقدوره أن يختار واحدا منهم، ولهذا وعد كل ابن منهم بإعطائه الخاتم، وطفق يبحث عن وسيلة لإرضائهم جميعا.

وفي النهاية كلّف معلما حاذقا بأن يصنع له سرا خاتمين آخرين شبيهين تماما بالخاتم الأول، بحيث لا يستطيع هو نفسه معرفة الحقيقي من بين الخواتم الثلاثة. وعندما كان مستلقيا على فراش الموت قام خفية بإعطاء كل واحد من أبنائه خاتما منها.

بعد وفاة الأب طالب كل واحد منهم لنفسه بحق الوراثة والتفضيل على كلا الأخوين، الا أن كل ابن رفض مطلب أي واحد من أخويه، وأبرز الخاتم الذي حصل عليه دليلاً على أحقية مطلبه. وهكذا ظل السؤال حول تحديد هوية الوارث الحقيقي للأب غير محسوم، ويظل الأمر اليوم بدون حسم كذلك، اذ تبين أن الخواتم تشبه بعضها البعض، بحيث لم يستطع أحد تمييز الأصلي من بينها))».

إذن فإن أمثولة الخاتم هذه تحرّك العواطف وتهز النفس اليوم أكثر من أي وقت مضى.

وما ذكره اليهودي «ملكي صيديق» في النهاية للمسلم صلاح الدين، ويعني به البابا في ذات الوقت، هو درس غزير المعاني، وكان يقصد التعبير عن وجهة نظره بالقول:

«لهذا أقول لكم يا مولاي عن الشرائع الثلاث التي وهبها الله لأمم العقائد الثلاث التي سألتموني عنها أيضا، بأن كل أمة تعتقد أنها تملك ميراثه وشريعته الحقيقية وفرائضه لإتباعها. ولكن السؤال عن هوية من يملكها في الحقيقة يظل، كما في السؤال عن الخواتم، بدون حسم» (المصدر: جيوفاني بوكاشيو: «الديكاميرون» ترجمة كارل فيتي، 1859م).

لقد قرر شاعر عصر التنوير الألماني جوتهولد إفرايم ليسنج وضع صياغة شعرية جديدة «لأمثولة الخاتم» لبوكاشيو في مسرحيته «ناتان الحكيم» مؤكدا على العبارة التالية: «لقد ضاع الخاتم الأصلي في أغلب الظن».

ولعل فرانسيسكو قد ذهب حقا الى السلطان لهذا لسبب، مثلما ينطلق الناس من مختلف الثقافات والأديان ومن جميع التوجهات السياسية والقومية تكرارا للصلاة أو للمشاركة «بمسيرة سلام» نحو البلدة الصغيرة للمسيحي الخارق في أومبريا، منذ أن تم إسباغ لقب «القديس» عليه بوصفه مسيحيا حقيقيا من طرف البابا جريجور التاسع (1227 - 1241م)، وهو البابا نفسه، الذي أعلن الحرمان على القيصر فريدريك الثاني بسبب تقصيره بالمشاركة في الحرب الصليبية. فقد بدا القيصر للبابا مسالما جدا في التعامل مع المسلمين، بسبب هدنة براغماتية عقدها معهم. وأراد هذا البابا أن يعرف بالضبط موضوع الخواتم الثلاثة، مما دفعه الى تعزيز إجراءات التفتيش والملاحقة ضد ذوي العقائد المغايرة.

الفصل الخامس والثلاثون

أمراء الحرب الغربيون بين عامي 1453 و1571م
ألكسندر السادس وكليمنس السابع ـ فرسان رهبانية مالطا

تبلغ المسافة بين مدينة بلنسية الإسبانية الواقعة على شاطيء البحر الأبيض المتوسط ومدينة غرناطة أكثر من خمسمائة كيلومتر، وهي لا تشكل اليوم مشكلة مع وجود الطرق السريعة والقطارات. لكن السفر كان يعدّ مشكلة كبيرة، عندما ولد المدعو «رودريجو دي بورجا ي بورجا» في بلدة كساتيفا القريبة من بلنسية عام 1430 أو 1431م.

فقطع هذه المسافة بين المدينتين مشيا على الأقدام بوتيرة سريعة كان يستغرق قرابة اسبوعين، الا أن خط حدود موثر كان يمتد بينهما، فاصلا بين ثقافتين غريبتين عن بعض، بين دينين متعاديين: بين المملكة الإسلامية للمرابطين والموحدين وبني ناصر من الجهة الأولى، وبين مملكة أراغونا الكاثوليكية من الجهة الأخرى.

ومن المدهش أن الإسبان الطموحين لم يكونوا في العصر الوسيط الآيل الى الإنتهاء منجذبين كثيرا نحو طرد المسلمين من الأرض الإسبانية. انهم كانوا يطلقون منذ وقت طويل على ما يرتبط بهذا الطرد تسمية «ريكونكيستا» أي إعادة الفتح، بينما كان المسلمون يطلقون علي مبرر وجودهم هناك «كونكيستا» اي الفتح فقط،.

في تلك الأثناء كان الأسبان يرغبون في البحث عن حظوظهم في إيطاليا المسيحية وفي الممالك الجنوبية في صقلية أو نابولي. إن تفضيل الأراغونيين لجنوب إيطاليا أدى الى نشوء خطوط اتصال بحرية في غرب البحر الأبيض المتوسط، لا تتعرض للتشويش كثيرا من طرف المسلمين.

إن طموحات العمّ رودريجو، «ألونسو دي بورجا» المولود عام 1378م أوصلته الى روما، في خضم تقلبات الحياة المألوفة في ذلك الزمن. فقد نجح بسيرة حياته الكنسية

أثناء الفوضى التي دبت بسبب الإنقسام في العالم الغربي (1378 ـ 1417م) مع ظهور عدة بابوات متنافسين وإمكانيات البابوية الصاعدة مجددا بتوجهات نهضوية. فالنجاح الذي حققه وصل الى درجة انتخابه ليصبح البابا في الثامن من نيسان (أبريل) 1455م.

ألونسو دي بورجا ـ كاليكستوس الثالث

ومرة أخرى نقول أن ألونسو دي بورجا أصبح الآن كاليكستوس الثالث، وأخذ معه معرفته بالأزمة المسيحية ـ الإسلامية السائدة في موطنه عندما اعتلى عرش بطرس. كان قد مضى على فتح القسطنطينية من طرف الأتراك المسلمين في التاسع والعشرين من أيار (مايو) 1453م وعلى ذوبان الإمبراطورية البيزنطية الرومانية الشرقية في الدولة العثمانية سنتان تماماً. وسبّب هذا الحدث صدمة للعالم الغربي، فقد كتب المفكر الإنساني الكنسي «إينيا سيلفيو بيكولوميني» الذي أصبح فيما بعد البابا بيوس الثاني (1458 ـ 1464م) حول هذه الكارثة المسيحية ما يلي:

«إن يدي ترتعش ونفسي تهتز وأنا أكتب هذا: فالغضب يمنعني من الصمت فالألم يمنعني من الكلام. واويلاه على المسيحية التعيسة»

كان بيكولوميني حينها موجودا في فيينّا عاصمة آل هابسبورغ، الذين أحسّوا بعد مضي بضعة عقود من الزمن بعد ذلك لأول مرة برغبة العثمانيين في التوسع عبر البلقان، وانشغلوا لاحقا لمدة قرن ونصف بصد المسلمين. وشاركهم في ذلك البابوات، الذين كان عليهم إقامة جبهة عسكرية ضد الأتراك، وتثبيتها، وإقامة جبهة دينية ـ روحية ضد البروتيستانت بعد ظهور حركة الإصلاح الديني، فهل كان أصحاب القداسة أمراء حرب العالم الغربي؟

أمر البابا في البداية في تموز (يوليو) 1456م عبر مرسوم بابوي بزيادة اليقظة في مواجهة المسلمين من خلال قرع أجراس الكنائس يوميا بانتظام، وكان الرنين العالي للأجراس يختلط مع الدعوة لأداء صلاة ـ ملاك الرب ظهرا ومساءا. لكنّ التصحيحات والقوى

الذاتية الأوروبية التي بدأت تتعافى كانت قد بدأت تفعل مفعولها في ذلك الوقت، حيث تقدّم رجال متعلمون أتقياء للقيام بالإصلاحات الكنسية الضرورية. ولم تكرّس القوى والوسائل المالية الجديدة في روما للملذات فحسب، وإنما أوليت الرعاية عبرها للفنون والفنّانين أيضا. وجاء كل هذا ممزوجا بمسحة إنسانية بارزة، وخاصة عند عائلة بورجا الإسبانية، التي تم تحويل اسمها في إيطاليا الى بورغيا. لكنّ الإنزعاج الإخلاقي من سلوك بابوات وكرادلة عصر النهضة وطباعهم كان يجب تنحيته، حتى يستطاع تقييم تأثيرهم التاريخي الذي يستحقونه على نحو مناسب.

في مواجهة الإسلام على البر

حكم البابا الإسباني كاليكستوس الثالث ثلاث سنوات ونيّف فقط (1455 ـ 1458م)، لكنّها كانت كافية من أجل رفع إبن أخيه رودريجو، الذي كان في السادسة والثلاثين من عمره، الى مرتبة الكاردينال وتزويده بعدد لا يحصى من الإمتيازات الكنسية المربحة. كان الكاردينال رودريجو دي بورجا غنياً وذكيا بما فيه الكفاية: صفتان جعلتاه لا يذوب في الحياة المتحللة من الأخلاق في روما.

في الوقت الذي تزايد فيه الخطر التركي في الشرق على البحر المتوسط وفي شبه جزيرة البلقان، حدث في إسبانيا ما هو ملائم للعقيدة المسيحية. فقد قامت إيزابيلا ملكة قشتالة وفيرديناند الثاني ملك أراغونا «كلاهما كاثوليكي» بتوحيد مملكتيهما عبرالزواج، وعززا هذا الكيان الكبير الموحد بإصلاحات داخلية حاسمة ليصبح دولة إدارية حديثة. وعندما قامت إيزابيلا مع فيرديناند عام 1481م بتجديد العمل بمحاكم التفتيش، التي كانت ناشطة في العصر الوسيط، فإنهما اكتسبا خبرة (مقصودة)، مفادها أن التدين البارز وحتى المتسم منه بالتعصب يمكن أن يؤدّي الى تقوية سلطة الدولة. وهكذا أنهى الملك والملكة الكاثوليكيان بالإضافة الى ذلك فتح آخر مملكة إسلامية في إسبانيا، عندما دخلا عاصمتها غرناطة في الثاني كانون الثاني (يناير) 1492م. في هذا «العام الإسباني» نفسه كان رودريجو

دي بورجا وكريستوفور كولومبو قد وصلا بتكليف من الملك والملكة الكاثوليكيين الى غاية أمانيهما.

رودريجو دي بورجا ـ ألكسندر السادس

تم انتخاب رودريجو دي بورجا لمنصب البابا في العاشر من آب (أغسطس) 1492م عندما بلغ من العمر اثنتين وستين سنة. إن الطعن بألكسندر السادس لم ينل منه إلا نزرا يسيرا، بفضل المبالغ الطائلة التي صرفها رشاوى، رغم كثرة الأطفال الذين أنجبهم والإتهامات التي وجّهت اليه، بسبب بيعه المناصب الكنسية وسلوكه حياة شبيهة بحياة الآلهة الوثنية على جبل الأولمب. وفي العام المذكور اكتشف البحّار كولومبوس غرب الهند كما كان يعتقد، اذ تمكن من ذلك في شهر تشرين الأول (أكتوبر). وبصرف النظر عن اعتقاده، فانه اكتشف قارّة أميركا.

كيف سيكون الأمر، اذا تصور المرء بأن ايزابيلا ليست هي التي قامت بتمويل أنشطة المسيحي الجنوي نظرا للأعباء الثقيلة، التي كانت ملقاة على عاتقها بسبب حملتها الصليبية ضد المسلمين في شبه الجزيرة الايبيرية، بل أن العثمانيين هم الذين أرسلوا أساطيلهم باتجاه الغرب عبر الأطاسي؟. ان من الممكن تصور ذلك، لكنّ أفكار التطرف الديني، والتشدد في الايمان، وإعطاء القناعات الذاتية ميزة على غيرها، تخفي في طيّاتها منذ البداية بذور الإنهيار. فالملكة إيزابيلا والملك فيرديناند الكاثوليكيان جسّدا أيضا وهما يناضلان ضد الكفر والكفار أفكارا، تفيد بأن العمل القاسي في فلاحة الأرض و ممارسة الحرف الشريفة ليسا على قدر قيمة المسيحيين.

إن إنعدام الثقة والصبر تجاه اليهود والمسلمين بعد سقوط غرناطة وممارسة العنف ضدهم وضد الذين حوّلوا دينهم منهم بصورة حقيقية أو شكلية أيضا، أي من كان يطلق عليهم وصف «كونفيرسوس»، ثم طردهم من موطنهم، لا يستحق الإدانة بوصفه إنتهاكا للإنسانية فحسب، بل إن هذا السلوك ثأر من نفسه بنفسه بعد حين، حيث ظهر ذلك من

خلال إنهيار إسبانيا إقتصاديا.

أما البابا ألكسندر السادس فلم يطلب الا تزويده بتقارير عمّا حدث:

ففي عام 1499م تم تجميع كومة من الحطب في ساحة سوق غرناطة بناء على أمر صادر عن رئيس أساقفة طليطلة «جيمينيز دي سيسنيروس»، من أجل حرق كتب إسلامية عن الشريعة والفلسفة والتاريخ والعلوم الطبيعية. واتسع الحدث المثيرالقاتل للفكر، ليتحوّل الى مذابح جماعية ضد غير المسيحيين، ذهب ضحيتها يهود بوجه خاص.

وعندما نهض المسلمون الذين كان يطلق عليهم إسم الموريسكيين لمقاومة الإضطهاد الذي حاق بهم من خلال منعهم من ممارسة شعائر دينهم ومصادرة ممتلكلتهم، تم توزيعهم الى أماكن أخرى من إسبانيا والبرتغال، ثم طردوا بعدها الى إفريقيا. وهكذا ذوت غرناطة واضمحلّت، حتى عادت مرة أخرى تفخر بماضيها الإسلامي، عندما أصبحت، هي وقرطبة المجاورة لها، تدركان في القرن الواحد والعشرين أهمية تعدديتهما الثقافية، من خلال تنظيم فعاليات واحتفاليات هامة في هذا المجال.

كليمنس السابع ـ جيليو دي مديتشي

كانت المرحلة الأولى لإعتلاء «لجيليو دي مديتشي» عرش بطرس (الرسول) مبررة في انتمائه للعائلة المالكة الفلورنسية.

فعمّه كان «لورينتسو صاحب الفخامة» الحاكم الذي لا مثيل له لمدينة الفن على نهر آرنو (فلورنسا) من عام 1449 الى عام 1492م، وتقلد ابن عمه «جيوفاني»، الأكبر منه بثلاث سنوات، منصب البابوية وأصبح «البابا ليو العاشر» (1513 ـ 1521م)، وهو الذي أراد دحض مقترحات الإصلاح الديني التي قدّمها «مارتن لوثر» من خلال مرسوم بابوي. أما والده شقيق لورينتسوس (لورينتسو) فهو «جيليانو دي مديتشي»، الذي ذهب ضحية مؤامرة سياسية قامت بها «عائلة بازّي» من طبقة النبلاء، ضد سيطرة «آل مديتشي» في مدينة فلورنسا.

وتتميّز جريمة الإغتيال هذه التي ارتكبت قبل شهر واحد من مولد «جيليو» في السادس والعشرين من أيّار (مايو) 1478م، بتبعيتها لمرحلة عصر النهضة الإيطالية: لقد نفذت أثناء قدّاس يوم الأحد في الكاتدرائية، وكان رئيس الأساقفة يعلم بالخطة وساهم في تنفيذها، كما أن «البابا سيكستوس الرابع» في روما وافق على المؤامرة، على أن تتم بدون اقتراف جريمة قتل.

وهكذا كان نصف اليتيم هذا على علم بمكاسب السياسة ومخاطرها منذ وقت مبكّر.

تمثلت المرحلة الثانية بالنسبة الى المساعي الخاصة بشغل منصب الأسقف في روما، في أن جيليو دي مديتشي كان منذ سنوات شبابه الأولى منتميا الى «طريقة فرسان يوحنا الرهبانية». لكنّه لم يكن يصلح لتقلد منصب للحكم في فلورنسا كونه إبنا «طبيعيا» غير شرعيّ لوالده «جيليانو»، بينما فتحت له «طريقة القدّيس يوحنا المقدسية الرهبانية» بالمقابل آفاقا، وجعلته على معرفة بالعلاقات الصعبة بين المسيحيين والإسلام على البحر الأبيض المتوسط، لكي يستفيد من ذلك مهما كانت الإحتمالات. ومما ساعده في الأرتقاء من منصب الأسقف الى رئيس للأساقفة ثم الى كاردينال في روما أن البابا «ليو العاشر» كان إبن عمّه، حيث أصدر بحق جيلو مرسوما إستثنائيا بسبب مولده غير الشرعي، وأقرّ بأنه طفل ناتج عن «زواج سرّي»، بما يعني عدم وجود موانع تحول دون تقلده مناصب كنسية.

هكذا أصبح أحد الخبراء بالإسلام في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) 1523م بابا إسمه «كليمنس السابع». لكنّه كان وفقا لتقييم المؤرخ الكنسي البروتستنتي «ليوبولد فون رانكه» (1795 ـ 1886م):

«تعيسا في كل ما عمله أو تركه، وربما كان الأكثر كارثية من بين جميع البابوات الذين اعتلوا كرسي البابوية في روما». ومن المحتمل أنّ الوضع كان هكذا بتأثير عصر النهضة، الذي تشرّب مما كان في القرون الزمنية الماضية، إلا أنّ هذا البابا تجاوز حينئذ المألوف والمقاييس المعتادة، مثلما حدث مع الفرسان تقريبا.

طريقة القدّيس يوحنا المقدسية الرهبانية

إعلام سليل آل مديتشي ما يفيد بأن طريقة القدّيس يوحنا المقدسية الرهبانية تأسست عام 1099م خلال الحملة الصليبية الأولى في كنيسة القدّيس يوحنا في القدس، بإذن من الخليفة [الفاطمي] في مصر وأن مؤسسيها هم تجّار من مدينة أمالفي الواقعة جنوب نابولي، التي كانت جمهورية بحرية قويّة. وقد حدد الفرسان أهدافهم الكامنة في ضمان مساعدة وحماية الحجاج الى الأرض المقدّسة وتقديم المساعدة للمرضى والدفاع عنهم أمام الهجمات والتهديد العسكري. ومن أجل تحقيق هذه الأهداف تم تنظيم الطريقة الرهبانية التي يرأسها «معلّم أكبر» الى أقسام: قسم الفرسان ويتولى الشؤون العسكرية، وقسم الإخوان الخادمين في مجال رعاية المرضى، وقسم القساوسة برئاسة «قسّيس أكبر» للرعاية الروحية. كان لباس الأعضاء يتكون من: زيّ أسود كما يلبسه رهبان الطريقة البينيديكتية، مقلدين ما كان يرتديه المؤسس «فرا جيراردو»، مع رسم صليب أبيض ذي ثمانية خطوط على الزي من جهة الصدر. وهذه الخطوط الثمانية للصليب ترمز الى التطويبات الثمانية، كما وردت في الإصحاح الخامس من إنجيل متّى، ومنها الوعد الجميل المتضمن:

«طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، فَإِنَّهُمْ سَيُدْعَوْنَ أَبْنَاءَ اللهِ».

لكنّ الفرسان لم يتمكنوا في الوقت اللاحق من أن يكونوا دائما هكذا، لأن الإسلام انتشر في البحر الأبيض المتوسط من جهة الجنوب بقوة، وواجهته شعوب العالم الغربي من الشمال إنطلاقا من القلق على الأماكن المقدّسة، اذ كان للقلق حوافزه بشكل من الأشكال.

لقد نذر»فرسان القديس يوحنا» أنفسهم للإلتزام بالفروض الإنجيلية الثلاثة وهي: الفقر والعفة والطاعة، وعاشوا وفقا لذلك على الأغلب أجيالا متعاقبة.

ورغم جميع التعقيدات الحربية أصبحت رهبانية يوحنا في وقت لاحق قريب غنيّة وقوية ومستقلة، حيث انضم اليها أفراد من عائلات طبقة النبلاء العليا في أوروبا المسيحية، الذين لم يكن من حقهم وراثة سلطة الحكم أو الحصول على الميراث الأساسي من أمثال «جيليو

دي ميديتشي»)، إلا أنهم كانوا دائما ثريّين ومحبين للمغامرات وأذكياء بما فيه الكفاية، بحيث كان بإمكانهم إثراء الطريقة الرهبانية ورفع شأنها.

كان الفرسان يملكون سفنا سريعة للأسفار البحرية، تصلح أيضا عند الحاجة للقيام بأعمال قرصنة في المناطق المعادية. وامتلكوا بالإضافة الى ذلك حصونا في أماكن استراتيجية هامّة. لكنّ السفن والحصون لم تحل دون تعرض فرسان الطريقة لهزائم أمام القوة الإسلامية المتفوقة.

انهم طردوا من منطقة العمليات التي تبنّوها: في البداية من الأرض المقدسة عام 1291م، ثم من قبرص وفي النهاية تم طردهم من جزيرة رودوس عام 1522م على يد السلطان العثماني سليمان صاحب العظمة [القانوني]، وبعد طردهم منها اتخذوا لهم اسما آخر.

كان «كليمنس السابع» مطّلعا بنفسه على هذا التطور عندما بدأ حكمه البابوي في نهاية عام 1523م، كونه أحد الفرسان الذين قاتلوا في رودوس. بدأ فرسان يوحنا بعد ذلك بالبحث عن ملجأ لهم، وكان «كليمنس السابع» قادرا على مساعدتهم.

لم يكد البابا يبدأ بممارسة حكمه حتى وجد نفسه في مواجهة المطالب والصعوبات التي يعانيها «القيصر كارل الخامس»، فحاول استغلالها من خلال حبك الدسائس، مما تسبب له بخسارة لعبة القوى السياسية. وكان الوضع في أوروبا مضطربا، دون أن يخفى هذا الأمرعلى العثمانيين. فقد تحالف الملك الفرنسي «فرانس الأول» [أو فرانسوا الأول] مع الأتراك من أجل تحقيق مطالبه في إيطاليا والضغط على القيصر ـ الملك الألماني. وكان الأتراك قد فتحوا بلغراد عام 1521م ووقفوا أمام أسوار فيينّا عام 1529م بجيش قوامه مائة وعشرون ألف جندي. فالقيصر الكاثوليكي أصبح محاطا من طرف البروتسانت الثائرين في ألمانيا، ومن فرنسا المنافسة، ومن الأتراك المندفعين من جنوب أوروبا، ومن بابا يقوم بحركات إلتفافية بين جميع الأطراف(!).

وقامت قوات المرتزقة التابعة «لكارل» بدورها بنهب وتحريق المدينة الأبدية في شهر أيار (مايو) 1527م بشكل مخيف، وكأن ما فعلوه كان عملا يساعد على مواجهة المسلمين.

لكنه في الحقيقة ظل بثابة جرح أحدثته قوات «مسيحية» في تاريخ روما.

بعد ذلك اقترب كليمنس وكارل مرة أخرى من بعضهما، حيث تم في بولونيا في شهر شباط (فبراير) 153م تتويج كارل الخامس من طرف البابا ليصبح قيصرا «للإمبراطورية الرومانية المقدسة ذات الأمة الألمانية». وهكذا تمكن البابا من قول كلمة طيّبة لصالح طريقته الرهبانية، بوصفها حليفة في مواجهة المسلمين أيضا.

مالطا إقطاعية أبدية

تصادف أن تمكن القيصر في العام ذاته من فصل جزيرة مالطا عن مملكة صقلية، فوهبها لهذه الطريقة الرهبانية.

وبكلمات أخرى فان كارل الخامس وهب جزيرة مالطا لرهبانية القدّيس يوحنا المقدسية لتكون «إقطاعية أبدية». كانت جزيرة مالطا قد عرفت في القرون السالفة البيزنطيين والوندال والقوط الشرقيين والعرب (الذين تركوا أثرهم في لغة المالطيين الشعبية) والنورمانيين والشتاوفر والأنجو والأراغونيين، وجميعهم أتوا اليها ورحلوا عنها.

لكن فرسان القدّيس يوحنا عندما سمعوا بجزيرة مالطا وأرادو تملّكها، بكوا على رودوس جزيرتهم الجميلة، كما أن طبقة النبلاء المحلية في مالطا التي كانت تستوطن عاصمتها القديمة «مدينة» كانت تشعر على أغلب الظن بالميل الى القيصر البعيد عنها، أكثر من ميلها الى أسياد الطريقة الرهبانية الجدد القريبين منها، وهناك سبب آخر وهو أن فرسان القدّيس يوحنّا جذبوا من ناحيتهم أنظار المسلمين الى الجزيرة. فلم يؤدّ استعراض القوة الذي قام به القيصر كارل الخامس عبر احتلاله تونس الواقعة على الشاطيء الإفريقي المقابل عام 1535م إلا الى تمديد فترة بقائهم في مالطا.

وربما يمكن القاء نظرة ايجابية الى هذا الأمر، حيث أن القيصر قام عام 1532م في نورينبيرج بعقد إتفاق سلام ديني مع طبقات البروتستانتيين في الإمبراطورية، حتى يخفف من الضغط الداخلي من أجل مواجهة خطر الأتراك.

بزغ في مالطا مع مجيء الفرسان عام 1530م فجر زمن جديد ثريّ، بالرغم من أن سكان الجزيرة العاديين كانوا غالبا ما يجدون سببا للشكوى من تطاولات هؤلاء الفرسان. لكن الأتراك جاءوا قبل أن تتمكن رهبانية القديس يوحنا، التي أصبح اسمها الغالب منذ ذلك الحين رهبانية فرسان ـ مالطا، من أن تبني الجزيرة وتجعلها جوهرة في البحر المتوسط،، وقبل أن يكون من المستطاع تحويل حجارة مالطا الكثيرة الى منشآت محصّنة بما فيه الكفاية.

انتشر في أوروبا المسيحية الكثير من الروايات والحكايات العجيبة حول الأعمال البطولية للفرسان في مواجهتهم للمسلمين وحول: «الحصار والهجوم الذي تعرّضت له جزيرة مالطا من طرف الأتراك عام 1565م»، وتم نشر عدد لا يحصى من الرسومات والكتب بهذا الخصوص. وهكذا نشأت أسطورة الفرسان التي طالب البابا الحاكم بيوس الرابع (1559 ـ 1565م) بحق المشاركة بجزء منها. كل هذا رفع من شأن فرسان القديس يوحنا ـ فرسان رودوس ـ فرسان مالطا. وعُدّتْ مقاومتهم للأتراك أساسا هاما لكبح جماح الإمبراطورية العثمانية، وذلك عندما تمت هزيمة الأتراك بعد ست سنوات في المعركة البحرية، التي خاضها أسطول من العالم الغربي بقيادة «دون جوان دي أوستريا» بالقرب من ليبانتو، الواقعة بين جزيرة بيلوبونيس والبرّ اليوناني في السابع من تشرين الأول (أكتوبر) 1571م، والتي شارك فيها البابا الحاكم بيوس الخامس (1566 ـ 1572م) بإضفاء البركة من خلال الصلوات المتضرعة المرفوعة الى السماء المسيحية.

شغلت مالطا موقعا متقدما مجيدا لعالم المسيحية، الذي أصبح حينئذ من منظور موضوعي منقسما على نفسه. فالبابوات كانوا فخورين بفرسان مالطا كما قدّموا لهم العديد من الإمتيازات، بينما أراد هؤلاء بدورهم إظهار أنهم كانوا أهلا لذلك. فاستدعوا معلمي بناء الحصون ومهندسين معماريين بارزين، من أجل اقامة منشآت تحصين منيعة وزاخرة بالفن.

أقوى التحصينات وأكثرها إثارة للإعجاب في العالم

بُنيت في جزيرة مالطا أثناء الحصار التركي لها عام 1565م أسوار حماية وقلاع وحصون في كل مكان كان خاليا منها. وفي ذلك الوقت مرّ الحصار بسلام نتيجة عون السماء وما أبداه الفرسان من بطولة، وبعد ذلك أصبح من المستلزم بناء قلاع غير قابلة للإقتحام، لإبعاد الأتراك عن الجزيرة ولتأمين رهبانيتها بشكل دائم.

بدأ بذلك المعلم الأكبر للطريقة «فرا جيوفاني دي لا فاليتا ـ بارسيوت» الذي حكم بين عامي 1557 و1568م، فأطلق على العاصمة الجديدة الناشئة إسم «لا فاليتا» نسبة الى إسمه. وتمت إحاطة لسان اليابسة الرئيسي والأراضي المتشعبة من الشمال والجنوب بالأسوار، فنشأت بذلك أكبر منشآت التحصين في العالم، وبالتأكيد أكثرها إثارة للإعجاب. فلا بد أن الخوف من الأتراك كان عظيما، وأن ذكرى حصار عام 1565م كانت مخيفة، الى درجة شكلت عامل تحفيز لتشييد سواحل صناعية من الصخور شديدة الإنحدار وممتدة لمسافة كيلومترات، وأقيمت فوقها قلاع ومراكز محصّنة لتعزيزها. وكان يراد لهذا الموقع المتقدم للمسيحية في مواجهة المسلمين أن يبرز الغرض الروحي منه أيضا. وهكذا ارتفعت في كل مكان من فوق المنازل الحجرية المسطّحة لسكان الجزيرة أبراج وقباب الكنائس، ولم تزل حتى اليوم كثيرة وفخمة، بما يزيد عما هو متوقع وجوده في محيط من القرى البسيطة.

إرتفعت فوق المنازل المسطّحة للعاصمة الجديدة «لا فاليتا»، التي تمتد شوارعها متقاطعة بزوايا قائمة تماما، بيوتات الإيواء، التي كانت تقيم فيها الجماعات اللغوية المختلفة لرهبانية فرسان مالطا «لينجوا»: من أراغونا، وقشتالة وليون، وفرنسا، وإيطاليا، والأرياف، بالاضافة الى الألمان– الأنجلو سكسون (وهم البافاريون)، وكان أبرزها قصر المعلّم الأكبر في مركز المدينة.

استجلب فرسان مالطا فنانين من أوروبا لبناء كاتدرائية القديس - يوحنّا، التي تبدو من الخارج منيعة و متقنة التصميم، ليظهروا بمهارتهم مدى القدرة على إحداث تعابير فنية من خلال اسلوب متفرّد، متمثلا في معالجة الحجارة المستخدمة في البناء بعناية.

إن كاتدرائية القديس يوحنا هي كنيسة لضريح، ولا يمكن لأشكال الزينة الحجرية فيها أن تضفي البهجة على داخلها القاتم. لقد أراد فرسان الصليب أن يجدوا فيها مثوى لراحتهم الأبدية، فأرضيتها تتكون كلها من صفائح أغطية القبورالحجرية فقط، ويقرأ الزائر: «سيستي، ميمينتو، فياتور!» أي: (توقف أيها المتجول برهة وتذكّر)، وتنسب الى الموتى فضائل مجيدة، بينما تجول في ذهن المتجول فكرة، عما إذا كانت تلك الفضائل تستحق المديح في أيامنا هذه.

إن أزمان فرسان الصليب أصبحت من الماضي، فالتاريخ كنس أشكال الحياة الأرستوقراطية والإمتيازات، التي أضطر سكان مالطا الى تحمّلها رغما عن إرادتهم.

لم يكن المسلمون هم الذين قاموا بتدمير رهبانية فرسان مالطا، لكنّها تعرضت ببساطة الى الانهيار. لقد سيطر نابليون على مالطا وهو في طريقه الى مصر بدون أن يطلق طلقة واحدة، ولم يتمكن أيّ من البابوات من الحؤول بينه وبين ذلك (كان البابا وقتئذ بيوس السادس)، لأن البابوية كانت هي نفسها واهية. كان المعلّم الأكبر للرهبانية حينها هو الألماني «فيرديناند فون هومبيش» الذي ترأس 600 فارس و8000 رجل من القوات المساندة، لكنّه ارتأى أن إراقة الدماء لا مبرر لها، فتنازل لأمير الحرب الفرنسي عن غنيمة وفيرة. أما حماية أوروبا من الاسلام فتولت أمرها القوى الإستعمارية الكبرى.

خدمات إغاثة، لا طريقة رهبانية محاربة

كان على فرسان الرهبانية أن يغادرو مالطا خلال ثلاثة أيام بعدما عاشوا فيها 268 عاما. وحينذاك هاموا في إيطاليا على وجوههم، وظلوا كذلك حتى خصص لهم البابا عام 1834م مقرا في روما ومنحهم الإستقلال، دون أن تكون لهم مهام عسكرية.

إن الحملات الصليبية لم يعد لها وجود إلا في الذاكرة فقط، وينطبق ذلك على فرسان الصليب أيضا، هذا بالرغم من أن «طريقة رهبانية مشفى القديس يوحنا المقدسية الرودوسية المالطية المستقلة» لم تزل موجودة مع فروع خدمات الإغاثة العديدة المتفرعة

عنها والعاملة في مجال الشؤون الإجتماعية والصحية في كل أنحاء العالم، وهي مستقلة ومتمتعة بشخصية إعتبارية قانونية دولية غير حكومية.

عادت الطريقة الرهبانية الى جزيرة مالطا، عندما أصبحت السياسة الداخلية فيها تتحرك على مياه هادئة، خلال فترة التحول الى الألفية الثانية تقريبا، فكانت العودة صامتة وبدون صخب، حتى أن الرأي العام العالمي لم يكد يلاحظها، ولم تحظ الطريقة بالكثير من التكريم من سكان الجزيرة.

«فالمالطيون» لم يعودوا يقدمون الخدمات لما هو حربي، بل أصبحوا يقدمونها لما هو إنساني. لقد استقرّوا في قلعة سان أنجيلو (قلعة الملاك المقدّس) التي لا تمثل سوى جزء يسير من منشآتهم المحصنة في السابق، مما يمثل حضورا رمزيا. ومن هناك يرى الناظر مشهدا مبهرا للأنفاس، حيث تمتد شواطيء صناعية شديدة الإنحدار أقامها أناس خائفون من دين غريب عليهم، ومن متديّنين معادين لهم. ومن منظور الأقزام تظهر الأسوار الضخمة والمنشآت العملاقة مخيفة، بيد أنها خارجة عن سياقها التاريخي، فزمن الحروب الدينية قد ولّى.

الفصل السادس والثلاثون

سبينوزا ـ المفكر التنويري الصارم للمسيحية
وغيرها من الأديان المستندة الى الوحي

لا يستطيع أي متدين أن يتجاوز سبينوزا، سواء أكان هذا المتدين مسيحياً أم مسلماً، وسواء أكان بابا أم إماماً. ولد «باروخ» أو «بينتو سبينوزا» في أمستردام عام 1632م وتوفي في لاهاي في هولندا في الحادي والعشرين من شباط (فبراير) 1677م. ولإسمه قراءات متعددة وهي: «بينيديكتوس دي سبينوزا» وفقا للغة اللاتينية أو «باروخ دي إسبينوزا» أو «ديسبينوزا» وفقا لانتمائه البرتغالي ـ اليهودي. وهو يمثل محك الإختبار لكل دين، حينما يراد له الدخول في حوار مع العقل. كان من أوائل الذين فكّروا وتحدثوا وكتبوا لعامة الناس في العالم الغربي عن ماهية الدراما الفكرية، التي يجب خوض غمارها بين الإيمان والعقل، إن أراد أي طرف منهما الحصول على ما هو من حقه.

تخاض اليوم كما كان الحال في القرن السابع عشر مجابهة بين الدين المعتقد به والعلم القابل للبرهنة عليه، وعلى وجه الخصوص بالنسبة الى تلك الأديان التي تستمد حقيقتها من إنكشاف الوحي، مثل اليهودية والمسيحية، ومثلما ينطبق اليوم بشكل خاص على الإسلام.

إن قيام سبينوزا بنشر بحثه بعنوان «بحث لاهوتي ـ سياسي» عام 1670م أدى في العالم الغربي المسيحي الى بدء هزة خلخلت الأسس التي يرتكز عليها، وقيل بأنها كانت تهدد قناعاته الأساسية، مثلما كانت أوروبا مهددة سلطويا ـ سياسا وعسكريا من خلال هجوم الأتراك عبر البلقان باتجاه فينّا، وبلوغه ذروته بحصار جيش العثمانيين لعاصمة إمبراطورية آل هابسبورغ عام 1683م.

ولد «البابا إينوسنس الحادي عشر» في كومبو الواقعة في شمال إيطاليا في التاسع عشر

من أيار (مايو) 1611م في خضم الأحداث المخيفة والتصدعات، بسبب الحروب الدينية الداخلية الأوروبية التي بلغت أوجها بنشوب حرب الثلاثين سنة خلال الفترة من 1618 الى 1648م. وتم اختياره لمنصب البابا في الحادي والعشرين من أيلول (سبتمبر) 1676م وتوفي عام 1689م.

لم يعرف البابا إينوسنس الحادي عشر كيف يتصرف حيال ما استعرضه سبينوزا من أفكار، سوى وضع كتابه عام 1679م على قائمة الكتب المحظورة. وأورد كاتب تبرير الحظر أن الشروحات «لا يراد منها إظهار ما يفيد بأن حرية الفلسفة لا يمكن الاعتراف بها لمصلحة التقوى وسلام الدولة فحسب، بل وبأن الغاءها غير ممكن أيضا، إلا بإلغاء سلام الدولة والتقوى معها». إذن فما هو الضرر الحاصل من العقل الذي يطرح تساؤلات، إذا كان من المتاح له أن يشكل الأساس، الذي يقوم عليه التقوى والسلام؟

لقد توصل سبينوزا بشكل حاسم الى حكمه المتضمن عدم امكانية وجود دين حق بدون حرية، وقام باستخدام عقله من أجل البرهنة على صحة مبدأ هذا الحكم بالحد الأقصى.

لكنّ هذا التوجه عند سبينوزا لم يكن في القرن السابع عشر هو البرنامج الذي يسير عليه الدعاة المسيحيون في أوروبا، حيث بدت مقولات سبينوزا بمثابة فخ عقلاني منصوب لهم. كان الموضوع الأوّل يتمحور حول حماية دينهم الذي يؤمنون به، أما الحرية فإنها ستجد طريقها ـ أو لا تجده أيضا.

بحث دراسي بوضوح مثالي

ومن أجل مواجهة هؤلاء كتب سبينوزا رأيه في «البحث الدراسي» ذي الوضوح المثالي. ولهذا السبب أصبحت قراءة هذا البحث تكاد تكون واجبا ملزما للمتدينين في أوروبا منذ ما يزيد على ثلاثمائة عام، ومن الأولى أن يلتزم المسلمون اليوم بقراءته، اذ يمكنهم أن يروا بفضل هذا البحث كيف أن دينهم سوف ينضج من خلال الجدل مع

رافعي المطالب الإنسانية وحقوق الإنسان بالحرية والعقلانية، وان يستفيدوا من ذلك علنا في سياق الصراع بين الآراء المتضادة.

وقد قدم البابا «بينيديكت السادس عشر» للمسلمين في محاضرته التي ألقاها في ريجينسبورغ نصيحة في هذا الاتجاه. لكن الأمور سوف تنضج ببطء، فليس بإمكان أمة المليار نسمة الإسلامية أن تقفز بكل بساطة من فوق ثلاثمائة عام من التطور الفكري. إن على المسلمين أن يدرسوا في مدرسة سبينوزا، لأن المسيحيين، وعلى الأقل أغلبهم، ومنهم بالتأكيد البابا بينيديكت السادس عشر، سبقوهم بالتخرّج فيها.

تراءت لسبينوزا في البداية فكرة «اللاكفاية»، التي انتابت أعدادا غير قليلة من المفكرين في التاريخ الفكري للعالم الغربي مرة تلو الأخرى، وكما هي تجول اليوم أيضا في أذهان الكثيرين من المسلمين الذين يحملونها في نفوسهم، سواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا، أو كان من المسموح أوغير المسموح لهم التشكك بها، أو أنها كانت محظورة بشدة أو مقبولة بواقع الحال من مفهوم ليبرالي.

لم يستطع باروخ سبينوزا الذي نما وترعرع في التقاليد والتعاليم اليهودية الإنسجام مع إله الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين: أولا، لأن هذا الإله لم يكن كافيا لادراك تصوراته الفكرية الكبيرة عن ذاته، وخاصة ما يتعلق بالفكرة المتضمنة أن «الله كائن سرمدي ولامتناه»، وبما «يتناسب من المعرفة بشأنها مع حدود قدرة التفكيرالبشري»- وثانيا، لأن سبينوزا يقرأ النصوص من زاوية نقدية وينزع عنها هالة التبجيل والوقار والتحريم، ولا يفسح مجالا للإقرارالأعمى باللمعان المبهر للوحي الإلهي، ويمتنع عن قبول نير الخضوع وعدم إعمال الفكر.

شاكّ حديث

إن ما وجهه النقّاد المتدينون الورعون من الكنيس اليهودي والممثلون الرسميون للكنيسة البروتسانتيّة المسيحية في أمستردام الى سبينوزا لم يكن هو الاتهام بالتعسف الفكري، وانما

اتهموه ببساطة بالامتناع عن الايمان نتيجة التجديف، إلا أن المتدينيين كانوا ينظرون اليه كذلك. وأول من بدأ بالهجوم عليه هم القائمون على إدارة كنيس أمستردام.

كان باروخ سبينوزا شاكاً حديثا ومتكلما معارضا، أثار الإنطباع بفكره وهو في سن العشرين، حيث تجمعت حوله حلقة صغيرة من المؤيّدين. وتمكن بنضوجه الفكري المبكّر من خلخلة أسس البديهيات الدينية التي سادت آنذاك، مما كان حدوثه غير مقبول بالنسبة الى الطائفة اليهودية.

في البداية قام أحد المتعصبين بمهاجمته بسكين، بعد ذلك كان الإنشقاق بينه وبين شعبه ودين آبائه في السابع والعشرين من تموز (يوليو) 1656م. لقد توجب عليه وهو في سن الرابعة والعشرين سنة، أي قبل بلوغه سن الرشد القانوني، الذي حدد وفقا لأحكام ذلك الزمن بخمسة وعشرين عاما، أن يتحمل نتائج تفكيره المستقل. إن بيان فصله الرسمي من الإنتماء الى الطائفة اليهودية، الذي تلي في الكنيس في إطار مراسيم احتفالية بغياب سبينوزا، لم يزل يهزّ النفس حتي يومنا هذا، أو بالذات في هذه الأيام.

تضمن ذلك البيان ما يأتي:

> «*بتوجيه من الملائكة ووفقا لتعليمات القديسين نقوم بفصل باروخ دي إسبينوزا من الإنتماء للطائفة، ونعلن عليه الحرمان واللعنة والإدانة (..). عليه اللعنة في النهار وفي الليل، ملعون عندما يجلس وعندما ينهض، وعندما يغدو ويروح. ولن يجعله الرب يسْلم، بل على العكس من ذلك، فغضب الرب وغيرته سوف ينزلان على هذا الإنسان. إيّاكم من التعامل معه كلاما أو كتابة، ولا يجوز لأحد أن يقدّم له معروفاً، أويسكن معه تحت سقف واحد، أو يقترب منه، أو أن يقرأ ما قام بتأليفه*».

لقد ضُربت عليه العزلة إنسانيا وإجتماعيا من الجهة الأولى، أما من الجهة الأخرى فكانت هناك أسئلة حثيثة، مثل: من هو هذا الرب الغاضب، الغيور، المنتقم، المعاقب؟، ما الذي جعله يثور وجعل المؤمنين (اليهود) يثورون بشكل خاص ضد شاب قاصر لم يبلغ

السن القانوني؟، أليس الله الأبدي اللامتناهي هو حقا الذي وهب الإنسان نور العقل؟، فهل هذا الاله هو الله؟

إنها أسئلة راهنة يجب على اليهود والمسيحين والمسلمين أن يجدوا أجابات عليها، وربما بمساعدة بعضهم بعضاً.

نقد الكتاب المقدّس بوصفه دواءً مرّاً

بعد أربعة عشر عاما من ذلك خاطر سبينوزا في «بحثه الدراسي» بكل شيء. وقام بتوجيه نقد حديث للتوراة والإنجيل معتمدا على ما هو مألوف لديه من المعرفة بلغة التبليغ الإلهي، كما هو معتقد، وهي هنا اللغة العبرية. لم يكن سبينوزا هو أوّل من توجه بهذا النقد في أوروبا، ولكنه كان الأعظم تأثيرا. وتم رفض نقده للكتاب المقدّس بوصفه يمثل معاداة للكنيس اليهودي والكنيسة المسيحية أيضا.

لكنه فعل مفعوله مثل الدواء المر بالنسبة للإيمان، فطعمه مرّ لكنّه شاف في مناحي أخرى. وفرض النقد نفسه ببطء خلال قرن زمني من التفاعل، متجاوزا العديد من المقاومات. في البداية تفاعل بشكل أسرع داخل الكنائس البروتستانتيّة من تفاعله داخل الكنائس الكاثوليكية، ولكنه فرض نفسه، ففي عالم أوروبا الغربي لم تعد هناك عشبة دواء ناجعة ضد الحجج العقلية و المعارف العلمية.

لم يمرّ الإسلام بالمقابل سوى ببدايات عملية مشابهة حول القرآن، فالأمر لا يتعلق على وجه الاجمال بكلام الله خارجا من فم النبي، والويل لمن يجرؤ على معارضة القرآن والمفسّرين ذوي النفوذ.! اذ أنه سيتعرض للإدانة والملاحقة وأحيانا للموت. وتبدو كلمة الله عند المسلمين أحيانا وكأنها سيف تهديد معلق فوق العالم في القرن الواحد والعشرين، فهل يتوجب على الحوار بين الكنيسة والمسجد أن ينزل كلمة الله هذه من هناك؟

عارض باروخ سبينوزا «كلمة الله» في القرن السابع عشر!، وفي ذلك الحين قام الإصلاحيون مارتن لوثر (1483 ـ 1546م) وأولريخ تسفينجلي (1484 ـ 1531م) ويوهانيس

كلفن (1509 ـ 1564م) لتوّهم بجعل الإيمان المسيحي يتأسس على كلمة الله كما هي واردة في الكتاب المقدّس، أي على النص المكتوب فقط، وأحدثوا بذلك نهضة للحرية في أوروبا، وثورة برجوازية داخل المجتمعات التي أصبحت حينها بروتيستانتيّة وفي مقدمتها مجتمعا هولندا وأمستردام.

وتمكنت دعوة الإصلاحيين البروتستانت الى الإيمان إنطلاقا مما هو وارد في الكتاب المقدّس، وهي الموجّهة ضد أصحاب السلطة الكنسية ذات التنظيم الهرمي بخصوص تدرج المناصب، من الوصول الى الحرية الثقافية (وكان يمكنها ذلك). لكن التناقض المذهبي سبب صراعا بين المصالح المتنافسة وأثار حروبا فظيعة، وكانت كارثة الألمان في حرب الثلاثين سنة قد انتهت للتو بعد جهد جهيد، بالتوصل الى سلام بموجب معاهدة صلح فستفاليا.

سلطة ونقد

اعترض سبينوزا على الكنيسة الكاثوليكية في روما، عندما أرادت استعادة سلطة البابا والأساقفة في النصف الآخر من أوروبا، من خلال حركة إصلاح ديني مضادة بوسائل عديدة، وحينما اعتقدت بخصوص التعامل مع «جاليليو « أن من واجبها الدفاع عن المعاني الحرفية للكتاب المقدس ضد البحوث العلمية الطبيعية، بينما أخضع الفيلسوف سبينوزا بالمقابل كلمة الله في الكتاب المقدّس مبدئيا الى عقله.

شرح سبينوزا برنامج نقده للكتاب المقدّس في الجزء الأول من «بحوث» المكوّن من خمسة عشر فصلا. وكان قد قام بالتحضير للبحث منذ وقت طويل، حيث نُشر في أمستردام عام 1670م باسم مجهول وناشر وهمي من مدينة هامبورغ.

وتُعد «مقدمته» بمثابة إختصار له، ويمكن اعتبارها بياناً أصلياً بخصوص الانتقاد الأوروبي للدين والكنيسة والوحي والكتاب المقدّس. ويبدو أنه لا يوجد اليوم أساس أفضل لحوار له أبعاد فلسفية ـ لاهوتية من مقدمة هذا البحث الدراسي، ولو وجد ذلك

لكان مرغوباً فيه. وأعلن سبينوزا الحرب على الإيمان الزائف من بداية الجمل الأولى في المقدمة، قائلا:

«لو كان الناس قادرين على تسيير كافة شؤونهم وفقا لخطة محددة، أو لو أن الحظ حالفهم في كل مرة، لما ظلّوا أسرى للاعتقاد بخرافة من الخرافات. ولكن، نظرا لأنهم كثيرا ما يقعون في مثل هذه الإحراجات ولا يعرفون أبدا أي حل للخروج منها، ولأنهم في سعيهم المفرط نحو قيم سعادة غير أكيدة غالبا ما يتأرجحون بصورة تعيسة بين الخوف والأمل، فإن تفكيرهم يميل في العادة الى الإعتقاد كيفيا وبما يشاؤون».

إن العمل الفكري لسبينوزا موجّه ضد هذا الإيمان الزائف اللاعقلاني، الذي يخلق الدين من الرغبة الإنسانية في السعادة. وهو يقول منتقدا: إن الخوف يفعل مفعوله أيضا. فالذين يتأثرون بالخرافات هم على وجه الخصوص أولئك «الذين يحبّون المجهول بشكل مفرط، عندما يكونون في خطر ولا يدرون كيف يتصرفون (..). وحينما لا يتاح لهم بالعقل رؤية الطريق نحو تحقيق رغباتهم التي تنم عن الخيلاء والغرور. وبالمقابل فانهم يعدّون الحماقات والأحلام والأفكار الصبيانية النابعة من مخيلتهم بأنها وحي إلهي.

إن الذي يدفع بالإنسان الى مثل هذا الجنون هو الخوف، الذي هو إذن المصدر، الذي تنبع منه الخرافة، وهو الذي يحافظ عليها ويغذيها» .

انه يود فصل الدين الحق عن الزائف، استنادا الى استنتاجه، الذي عبر عنه، قائلاً:

«إنطلاقا من الاعتقاد بالخرافات هذا فان من المستنتج تباعا أن الناس بطبيعتهم مهيّؤون كما يبدو الى إستقبال المعتقدات الخرافية، حتى لو قال آخرون بأن السبب يعود الى أن لدى البشر تصورات مضطربة عن الله. إن مثل هذا الإيمان الزائف يجب أن يكون بطبيعة الحال متبدّلا ومتأرجحا، مثل كل ألاعيب الذهن ونوبات الغضب. فليس بإمكان من يعتقد بالخرافة حماية نفسه، إلا من خلال الآمال والكراهية والغضب أو الحيلة، لأن الاعتقاد بها ليس من نتاج العقل، وإنما من نتاج العفوية المجرّدة، ولا سيما الشديدة منها بالتأكيد».

«الأتراك هم أفضل من نجحوا بذلك»

ينتقل الفيلسوف سبينوزا بنظره متحولا من اليهود الى المسيحين ثم الى المسلمين فيقول:

«هكذا تم بعناية فائقة تزيين الدين الحق أو الدين الزائف من حيث شكل الصلاة والطقوس، حتى يبقى فوق كل التضليلات ويظل الجميع محافظين عليه بطاعة قصوى.

والأتراك هم أفضل من نجح بذلك، حتى انهم يعتبرون كل نزاع حوله باطلا، ويرون بأن عقل الإنسان الفرد محمّل بالأحكام المسبقة، بحيث لا يبقى مكان في النفس للعقل السليم، حتى ولا للشك».

هكذا قال هذا الفيلسوف الذي اعتبر أن مكان إقامته و منطلق تفكيره هو الأفضل، واصفا وضعه كما كتب:

بأنه «يتمتع بالحظ النادر لانه يعيش في دولة حرّة، يملك فيها كل فرد الحرية الكاملة للتعبيرعن الرأي، ويستطيع فيها عبادة الله وفقا لما يعتقده، وفيها تُعد الحرية أغلى وأحب ما يمتلكه الإنسان».

وهو يجسَد انطلاقا من هذه اللمحة وحدها عن الأديان مثالا يحتذى به، لأن الصدام بين الأديان لم يكن في القرن السابع عشر أقل حضورا من اليوم، بل كان أقرب الى الحضور، نظرا للحروب التي نشبت بين الكاثوليك والبروتستانت، وبين الأتراك والعالم الغربي. لذلك عبّر عن رأيه بالقول:

> *«كنت غالبا ما أتعجّب كيف يقوم أناس يفخرون بانتمائهم للدين المسيحي، أي بالتزامهم بالمحبة والغبطة والسلام والإعتدال والإخلاص تجاه كل فرد، بقتال بعضهم البعض بأسلوب مذموم، ويظهرون أشد الكراهية لبعضهم البعض في كل يوم. ولذلك فإن من المستطاع معرفة ذهنية الفرد من خلال مثل هذا السلوك، أكثر من استنتاجها من الدين الذي ينتمي اليه.*

لقد وصل الحد الى التمكن من تمييز المسيحيين والأتراك واليهود والوثنيين عبر أزيائهم الخارجية وتصرفاتهم، أو حسب بيوت الله التي يزورونها أو حسب المعلم الذي يلتزمون بتعاليمه، بينما تظل المسلكيات في الحياة لدى الجميع متشابهة».

واستمر في الحفر بعقلانيته لتعميق محيط النقد للدين وتوسعته مميزا بين الزائف والحقيقي، لينطلق نحو اعداد تحليل بشأن خدّام الدين: وتطرق في تحليله الى الفريسيين والكتبة، والى الذين يعظون بشرب الماء، ثم الى طبقة القساوسة الكاثوليك والأرثوذوكس، والأئمة وآيات الله؟، فهل هؤلاء جميعهم هم سادة الدين؟

«أسوأ الأشخاص تحديداً»

تحدث الفيلسوف سبينوزا عن مثل هؤلاء الأشخاص، فقال:

«بينما قمت بمتابعة أسباب هذا الوضع السيء (لمختلف الأديان)، تبدّى لي بدون شك أنها تعود الى أن جمهور عامة الناس لا يضع اعتبارا للدين، إلا إذا كانت مناصب الكنيسة لها صفة التبجيل، وخدماتها مُدرْجةً كمصدر دخل، وحينما يكون رجالها الروحيون مغمورين بألقاب الشرف.

وعندما بدأت إساءة الإستخدام هذه داخل الكنيسة، انتاب الولع بالذات أسوأ الأشخاص للقيام بإدارة المناصب القدسية:

فالحماس من أجل نشر دين الله انحرف عن مساره ليصبح أنانية قذرة وحباً لألقاب الشرف، وأصبح المعبد نفسه مسرحا استعراضيا، لم يعد يُستمع فيه الى معلمين روحانيين، بل الى خطباء لا يهمهم تعليم الشعب، وإنما يريدون إثارة إعجاب الآخرين بهم، وتعرية الذين يفكرون تفكيرا مغايرا علانية أمام العموم. لم يشمل التعليم سوى الجديد وما لم يسمع به من قبل، أي تعليم أكثر ما يثير العجب عند العامّة. لذلك كان لابد من نشوء حالة من النزاع

الكثير والحسد والكراهية، مما جعل من المتعذر تهدئة تلك الحالة مع مرور الوقت.»

قام سبينوزا في مؤلفه الرئيسي :»الأخلاق» الذي نشر بعد وفاته في عام 1677م، ووضع عام 1690م مع جميع مؤلفاته الأخرى التي نشرت له لاحقا على قائمة الكتب المحظورة من الكنيسة في روما، بتحديد وتكثيف النقد الذي وجهه لموظفي الدين، لأنهم لم يشجعوا الخير في الإنسان. ورفع صوته مثل يسوع الناصرة ضد العاملين الزائفين في الكنيس والكنيسة والمسجد، وضد:

«ممثلي الإعتقاد بالخرافات، الذين يفهمون لوم الآثمين أفضل من فهمهم كيفية تعليم الفضائل (..).. (فهم) لا يهدفون إلا الى جعل الآخرين يمارسون حياة تعيسة مثلهم. ولهذا لا عجب من شعور الناس بكراهيتهم والضيق منهم».

أما الفيلسوف مقابل ذلك فانه يريد:

> *«أن لا يكره الإنسانُ راجحُ العقل أحدا، ولا يغضب أحدا، ولا يحسد أحدا، ولا يغتاظ لشيء، ولا يحتقر أحدا، ولا يتكبّر قيد أنملة، (..). وأن يتم قهر البغضاء بالمحبة. وكل من يهتدي بالعقل يرغب في أن يكون الخير الذي يطلبه لنفسه من نصيب الآخرين أيضا»* (الجزء الرابع، ملاحظة 73).

إن الإنتقاد الموجّه ضد الأديان الموجودة في عالم الواقع وضد ممثليها في الحياة واضح لا يمكن تجاهل سماعه. ولهذا السبب جوبه مؤلف «بحوث» وكتاب «الأخلاق» في هولندا البروتستانتيّة على الفور بهجوم عنيف، وتعرّض الكاتب، رغم أنّه كان مجهولا، ولكنه عرف بعد وقت قصير، الى االعداوة الشنيعة. وكانت العواقب مأساويّة، حيث اضطر سبينوزا الى تغيير مسكنه مرّة أخرى. وصدر بطبيعة الحال حظر مشدد على مؤلفه «البحث الدراسي»، ووضعته كنيسة روما عام 1679م كما أسلفنا مرة أخرى على قائمة الكتب المحظورة، علما بأنه كان أول بحث ألفه.

كان الخلاف والحسد والبغضاء بين المتديّنين والأديان هو الذي يمثل الحصيلة التاريخية،

التي كانت سائدة عام 1670م، وظهرت في ذات الوقت كنبوءة، وهي تمثل اليوم سؤالا لا يمكن دحضه. لكن سبينوزا انتقل بعد توجيهه النقد للدين والمؤسسات الدينية وممثليها الأنانيين الى انتقاد الوحي، الذي تسعى أديان الكلمة الالهية الثلاثة، حسب ما ورد في الكتب المقدّسة، الى تسويغ شرعيتها به، فقال في هذا السياق:

«فكرّت بيني وبين نفسي بأن هنالك عدم اكتفاء بالتقليل من تقدير النور الفطري (العقل) فحسب، بل ان الكثيرين يدينونه بوصفه منبعا لإنكار الله، ويعدونه التأليفات االبشرية تعاليم إلهية، ويجعلون من سرعة التصديق إيمانا. ورأيت أن الشغف بخوض النزاعات بين الفلاسفة في الكنيسة والدولة يفضي بنتيجته الى البغضاء الجامحة والفتنة (..)، ومن هذا المنظور عقدت العزم على أن أدقق بالكتاب من جديد بروح حرة غير متحيّزة، وأن لا أسمح بقبول أي شيء منه أو عدّه تعليما، إلا ما أقوم أنا بنفسي بأخذه منه بكامل الوضوح».

سيطرة القائمين على الدين

بهذا سحب سبينوزا نفسه من تحت سيطرة القائمين على الدين. إن على المرء أن يقرأ بعد ذلك ما ورد في مقدمة «بحوث» جملة فجملة، لأن الأسئلة المطروحة على الدين الذي يستند الى الوحي الإلهي، ويحتفظ به في الكتب المقدّسة ظلّت قائمة.

إن اليهود والمسيحيين والمسلمين لهم نفس القضية: في «الشريعة والأنبياء» في كتاب اليهود المقدّس وفي العهدين القديم والجديد وفي القرآن.

والأمر لا يتعلّق بالقاء نظرة تاريخية الى الوراء ولا بمعالجة موضوع علمي جديد في العالم الغربي المتنوّر، وإنما بواجب راهن من أجل الحوار مع الإسلام، الذي يواجه تحدّي شروحات سبينوزا، لأنه لا يستطيع التملّص منها: لا في أيامنا الراهنة، ولا في المستقبل.

فما كتبه هذا الفيلسوف اللاهوتي حول التوراة والإنجيل ينسحب على القرآن أيضا، أليس كذلك؟

لقد عبر سبينوزا عن طرحه في السياق ذاته، قائلا:

« قمت بعناية بتحديد طريقتي لتفسير الكتب المقدسة، مستندا اليها للتوصل على وجه الخصوص الى ماهية التنبؤ وعلى أي نحو أوحى الله للأنبياء، ولماذا اختارهم، فهل حدث هذا بسبب أفكارهم النبيلة حول الله والطبيعة، أم لمجرّد أنهم أتقياء؟، بعد أن تيقنت من ذلك، تمكّنت بسهولة من التعرّف على أن المنزلة المرموقة للأنبياء لم يكن لها معنى إلا في الأمور التي تتعلق بسلوكهم الحياتي، والتي تخص الفضيلة الحقيقية، وما عدا ذلك فان وجهات نظرهم تظل من الأمور التي لا تمسنا».

وما كتبه هذا الفيلسوف اللاهوتي في القرن السابع عشر بعد ذلك عن اليهود يسري مفعوله على المسلمين أيضا، أليس كذلك؟، فاليكم ما كتبه:

«بعد إقرار ذلك، تحققت أيضا من سبب إطلاق وصف شعب الله المختار على اليهود. وعندما أدركت أن هذا حدث لمجرّد أن الله إختار لهم أرضا خاصة بهم على هذه الأرض، ليستطيعوا العيش فيها بأمان وهدوء، فانني فهمت أيضا بأن الشرائع التي أوحى الله بها لموسى تحدد القانون الخاص بالدولة اليهودية فقط، بحيث لا يحتاج أحد غيرهم الى الأخذ به، وحتى هذا القانون لا يلزم اليهود بالتمسك به إلا طوال فترة بقاء مملكتهم».

ان ما استنتجه سبينوزا للعقل من كتب اليهود والمسيحيين المقدسة، ينطبق أيضا على القرآن والعقل في الإسلام، أليس كذلك؟

الخشوع أمام الله

« من أجل معرفة امكانية عدّ العقل فاسدا بطبيعته من خلال الكتاب المقدس،

فإنني طرحت بغرض التحقق أسئلة: عما إذا كان المذهب الكاثوليكي أو الشريعة الإلهية التي أوحي بها للجنس البشري كافّة من خلال الأنبياء والرسل تختلف عمّا يعلّمه الناموس الطبيعي، وعما إذا كانت معجزات قد حدثت ضد نظام الطبيعة، وكذلك عما إذا كانت البرهنة على وجود الله وعنايته قد أصبحت أكثر يقينا من خلال المعجزات، من التيقن منها عبر الأشياء، التي ندركها بصفاء ووضوح وفقا لعللها الأصلية العليا.

فلم أجد بعد التحقق في التعاليم الواضحة للكتاب المقدّس شيئا لا يتفق مع المعقول أو يتعارض معه، بل وجدت أن الأنبياء قاموا بتعليم أمور في غاية البساطة وبإمكان أي فرد أن يدركها بسهولة، وأنهم قاموا بتعزيزها نفسها من خلال تزيينها بأكثر التعابير والأسباب التي تدفع عامّة الناس الى الخشوع لله.

وتوصّلت الى قناعة بأن الكتاب المقدّس يترك الحرية للعقل تماما بلا قيود، وانه لا يشترك مع الفلسفة بشيء، وأنه مثلها يقف على قدميه الذاتيين. ومن أجل شرح ذلك بدون ريبة ولحسم الموضوع، فإنني قمت بتبيان كيفية تفسير الكتاب المقدّس، ورأيت أن مجمل المعرفة المستنتجة منه ومن الأمورالروحية يجب أن تستخرج منه وحده، لا من الشيء الذي يدركه المرء بواسطة النور الطبيعي».

لقد أبدى المتدينون في القرن السابع عشر مقاومة ضد وجهات النظر هذه وشبيهاتها. وأعلن كل من الكنيس والكنيسة الحرمان عليها، دون جدوى، فقد تواصل مفعول هذه الأفكار. هل يستطيع المسلمون المتدينون وحدهم تجاهل طرح الأسئلة في القرن الواحد والعشرين؟، أن يميتوها بالصمت؟ أو يصدّوها ؟ أو يضعفوها؟، أو أن يقولوا في إطار الحوار بأن أسئلة سبينوزا تخص توراة اليهود وإنجيل المسيحيين فقط؟، إن النتيجة هي: بعد مرور ثلاثمائة عام من البحوث المستفيضة حول العهدين القديم والجديد أصبح أتباعهما من يهود ومسيحيين منفتحين على كلمة الله بعقلانية باردة، وبالنظر الى الإعتراف بما

هو بشري في الكتب المقدّسة، أصبح النقاد الأتقياء أكثر شجاعة. وهكذا فإن تأثير النقد الحديث للكتب المقدسة لا ينبغي أن يكون مدمرا.

إن سبينوزا المستند اليه بينيديكت لم يكن يريد إفناء الدين، مثلما كان هدف نقاد الدين اللاحقين في القرن الثامن عشر (فولتير) وفي القرن التاسع عشر (فويرباخ) وفي القرنين العشرين والواحد والعشرين.

فهل يتم تقديم، من خلال التمييز بين دين الحق ودين الزيف طريق النجاة الموصلة الى الله، والى العدل والتضامن لبشر يتزايد تنويرهم؟

أحكام مسبقة وإيمان خرافي

تطرق سبينوزا الى موضوع الوحي، فقال:

> *«هكذا إذن أقوم بالكشف عن الأحكام المسبقة، التي وُجدت لأن عامّة الناس استسلموا للايمان بالخرافات، وعشقوا دين زمنهم أكثر من الأبدية نفسها، وفضّلوا عبادة كتب التوراة على عبادة كلمة الله ذاتها. بعد ذلك أبيّن أن كلمة الله الموحى بها ليست هي الواردة في عدد معيّن من الكتب، وإنما هي التصور البسيط للروح الإلهية، كما انكشفت للأنبياء لتوحي لهم طاعة الله من أعماق القلب والإلتزام بالعدل والمحبة. وأوضح أن الدعوة والتبشير بهذا في التوراة جاء وفقا لمقدرة الإستيعاب والمعرفة، التي توفرت عند أولئك الذين دأبوا على الدعوة لكلمة الله، كما جاء بها الأنبياء والرسل، وجعلوها هكذا حتى تتأثر بها نفوس الناس، ولكي يتقبلوها بكل مشاعرهم بدون ممانعة».*

تلك الأزمان كانت بعيدة عن الزمن الذي قام فيه البابا بينيديكت السادس عشر باستخدام أساليب ونتائج نقد الكتاب المقدّس بصورة بديهية في كتابه المفيد بعنوان: «يسوع الناصرة»، الذي صدرعام 2007م، حيث قام فيه بتطوير نقد الكتاب المقدّس.

فحتى أحد البابوات يقوم برفق وبدون مبالغات بمراعاة إدخال وجهات نظر أدبية ونصّية نقدية، ويستعرض مقارنات تاريخية دينية، وتاريخية معاصرة.

إن قراءة مقدمة «بحوث» جملة فجملة تعني متابعة تاريخ الفكر الأوروبي، وتطوّر علم اللاهوت المسيحي عقدا بعد آخر. وهذا بالتأكيد لا يتم بسرعة، لأن كل كلمة يجب أن تبدو كأنها هجوم على عادات أصبحت محبوبة، وعلى تقاليد تواصلت بلا تفكير فيها، وعلى مواقع سلطوية تتم المحافظة عليها بكل غيرة. ولكن، ما الذي يفيد المسلمين إذا أغلقوا العيون أمامها؟، فقد مر قبلهم اليهود والمسيحيون عبر هذا الإستحمام التطهيري.

على الرغم من أن استنتاجات الفيلسوف سبينوزا تبدت صارمة في أول الأمر، فانه وصل في النهاية مرة أخرى الى الله والعدل والمحبة، معبرا عن وصوله بالقول:

«بعد أن قمت بتبيان أسس الايمان على هذا النحو، فإنني أستخلص بأن موضوع المعرفة الموحى بها لا يتمثل سوى في الطاعة، ولهذا فإنها تختلف تماما عن المعرفة الطبيعية سواء بخصوص الموضوع أو الأسس والوسائل، وبالتالي فليس هناك شيء مشترك بينهما، وإنما لكل منهما مملكتها الخاصة بها دون معترضات من الطرف الآخر، وليست هناك حاجة لتخدم الواحدة منهما الأخرى. ومن جانب آخر فإن فكر البشر متباين، فأحدهم يعجبه هذا الرأي والآخر يجد أن ذلك الرأي أفضل.

وبما أن نفس الرأي هو الذي يوجه أحدا للايمان والآخر للضحك، فإنني استخلص أيضا أنه يجب ترك الحرية لكل فرد لإستخلاص حكمه الخاص مع منحه الحق في تفسير أسس الايمان وفقا لوجهة نظره، فلا يجوز تقييم إيمان أي فرد إلا وفقا لأعماله التي تبين فيما إذا كان تقيا أم غير مؤمن باله، وعند ذلك يمكن للجميع طاعة الله بحرية ومن أعماق القلب، ولا تكون هناك قيمة سوى للعدل والمحبة لدى الجميع».

سؤال وجواب

إن ما بيّنه باروخ سبينوزا من منظور تاريخي بخصوص الدولة الإلهية اليهودية ينطبق أيضا على الثيوقراطية المسيحية. فهل أصبح كلاهما اليوم نماذج إجتماعية منتهية، مفكّكة معلمنة؟، وهل ينطبق ذلك اذا كان صحيحا على الإسلام أيضا، على التعايش بين الدين والسياسة لدى المسلمين، بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية، بين سيطرة الدولة وحكم آيات الله؟

تطرق سبينوزا الى موضوع السلطة لدى اليهود، قائلا:

> *«بعد هذه التأملات أنتقل الى اليهودية وأبيّن على أي نحو ومن خلال أية قرارات بدأ الدين عندها يأخذ قوة القانون (..). بعد ذلك سأقوم بإيضاح بأن المالكين لأعلى سلطة في الدولة ليسوا مجرّد محافظين، بل مفسّرين سواء للقانون المدني أم للقانون الروحي، وأنهم هم المخوّلون فقط بتحديد ما هو حق وما هو باطل، ومن هو تقي ومن هو بدون إله».*

هكذا سارت الأمور في الدولة اليهودية الموصوفة في التوراة، وهكذا تسير الأمور في الدول الإسلامية، التي يراد إجراء حوار معها. وفي العالم الغربي الذي يقف في الوسط بين الطرفين، يعتمد الفصل بين السلطتين الكنسية والزمنية، وبين القانون الروحي والقانون المدني، بما يعني بالتالي فصل الكنيسةعن الدولة في البلدان الديموقراطية الغربية المتنوّرة.

إن استنتاج سبينوزا ليتسم بالتفاؤل، فهو يعد بمثابة مرافعة لصالح الحرية، من حيث ثقته بالإندفاع الإنساني نحوها. وقد عبر عن هذا التوجه بقوله:

> *«وأنهي أخيرا بالقول أن هنالك امكانية للحفاظ على هذا القانون وعلى هذه السلطة، ولا تتاح هذه الأمكانية على نحو أفضل، الا عندما يسمح لكل فرد أن يفكر كما يحلو له، وأن يقول ما يفكر به».*

لقد شعر سبينوزا بأن أفكاره ستسبب إزعاجا، وتوقع مسبقا مقاومة المتدينين، ولامبالاة عامة الناس الخاوين من الأفكار والمدفوعين بأحكام مسبقة. لكنّ إشارته المؤدّبة الى قوة

الحكم العقلاني مرة أخرى تؤدي الى تعزيز الغرض، الذي أراد الوصول اليه لفائدة الأزمان اللاحقة. وعبر عن تلك الاشارة بقوله:

«إنني أختبر ما أقوله بعرضه على القرّاء المتفلسفين. وآمل أن يتقبّلوه بسرور، لأن الموضوع مهم ومفيد، سواء مجمل العمل أم فصوله المنفردة.
وأود أن أضيف أنه لا ينبغي لهذه المقدّمة وحدها أن تتوسع لتصبح مجلّدا، وأن الشيء الأساسي معروف للفلاسفة سلفا بشكل كاف، بينما ليس في نيّتي توصية الآخرين بقراءة هذا البحث، لأنه من الصعب عليهم أن يجدوا فيه أي شيء يعجبهم في أي سياق. فأنا أعرف مدى صلابة التصاق الأحكام المسبقة بالذات في الفكر، تلك الأحكام التي تم تشرّبها في ظل التظاهر بالتقوى. وأنا أعلم أيضا بأن من غير الممكن تخليص عامة الناس من الخوف والإعتقاد بالخرافات. وأعرف في النهاية أن إصرار عامة الناس شديد صلب، وأنهم لا يهتدون بالعقل وإنما ينساقون وراء حب المديح أو الخوف من الذمّ. ولذلك فإنني لا أدعو الجمع الكبير، وجميع أولئك الشغوفين بمثل ذلك، الى قراءة هذا الكتاب، بل انني أفضّل تماما أن يطرحوه جانبا، على أن يفسّروه بشكل خاطيء فيسببوا به الانزعاج لأنفسهم».

إنّه استعداد عظيم للحوار، غير أن الثقة بقوة العقل تتجلى أكثر من كلمات سبينوزا التالية:

«يجب عليّ (..). أن اقوم بالتذكير، بأنني أعرض بإرادتي كل ما أكتبه أمام حكم سلطة الدولة العليا في وطني. فإن وجدت في ما أقوله ما يخالف قوانين البلد أو ما يضر بالمصلحة العامة، فإنني لا أريد قول ما قلته، لأنني أعلم بانني إنسان ويمكن أن أخطىء، رغم أنني حاولت كل جهدي بكل جدّية تجنب الزلل، وحرصت على أن يكون كل ما كتبته متوافقا حقا مع قوانين بلدي ومع التقوى والعادات الطيّبة».

أما البابا بينيديكت فكان جوابه على هذا الطرح في ريجينسبورغ :

«بهذه الكلمات الكبيرة وبهذا الإتساع للعقل ندعو شركاءنا في المحادثات للحوار بين الثقافات».

لقد سبق لسبينوزا أن قام قبل ثلاثة قرون ونصف بالدعوة الى هذا الحوار بنقده العقلاني الهادىء الواضح للدين والايمان وللكنيس والكنيسة، ولمن يقومون بخدمتهما، وللتقاليد وللوحي الإلهي وللكتب المقدّسة. ولم يسايره المسيحيون في البداية على الإطلاق، ثم تبعه بعضهم، ولحقهم آخرون، بدون رغبة بل مجبرين. وبدأت معه عملية وعي في العلاقة بين الايمان والعقل، فغدت وفقا لبينيديكت السادس عشر موضوعا رئيسيا لعصر الحداثة. أما المسلمون فليس بامكانهم أن يعزلوا أنفسهم عن سبينوزا أيضا، سواء ذكروا اسمه أم لم يذكروه، لأن تأثير أفكاره الأساسية لم يزل متواصلا.

(هذه الشروحات حول سبينوزا تستند الى الأفكار التي نشرها المؤلف عبر دار نشر «ماريكس ـ فيرلاج» في فيزبادن 2007م، بوصفه ناشراً لسلسلة «مكتبة الكتب المحظورة» في مقدمته لكتاب «الأخلاق» لسبينوزا الذي يعالج قضية الايمان والعقل، والنقد الإنساني للدين والكنيسة والوحي والكتب المقدّسة التي تطرقنا اليها هنا).

نظرة الى المستقبل

لم يكد الحوار الكبير في الندوة الأولى للملتقى الكاثوليكي الإسلامي في الفاتيكان يختتم جلساته المغلقة في فيا ديلا كونسيليازوني (شارع المصالحة)، وفي المؤتمر العام في جامعة جريجوريانا البابوية في أوائل تشرين الثاني (نوفمبر) 2008م الذي أنهى أعماله ببيان مشترك جميل حمل توقيعات الشخصيات ذات النفوذ من الجانبين، حتى فاجأ البابا بينيديكت السادس عشر الجميع بتصريح مفاده: أن من غير الممكن اصلا اجراء حوار بين الأديان بالمعنى الدقيق، أي مع الإسلام أيضا، فكيف يفسّر ذلك؟

وعبّر قداسته في رسالة له كتبها مقدمة لكتاب من تأليف رئيس مجلس الشيوخ

الإيطالي الأسبق «مارسيليو بيرا» بعنوان: «لماذا يجب علينا أن نسمي أنفسنا مسيحيين (بيرشيه دوبيامو ديرسي كريستياني)»)، عن ثنائه على التحليلات التي أوردها السيناتور بيرا، وكتب بكل اختصار وإيجاز أن الحوار بين الأديان «بالمعنى الدقيق غير ممكن» ـ هكذا حرفيا. وقد نشر هذا الكتاب في نهاية شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2008م، من قبل دار »موندادوري» للنشر.

كيف كان من المطلوب أن يفهم معنى ذلك؟، هل أراد البابا إنكار مساعيه الذاتية والتقليل من شأن جهوده لاجراء الحوار مع الأديان الأخرى، وخاصة مع الديانات العالمية المنافسة مثل الإسلام؟، هل كان ملزما بتصحيح شيء ما، في سياق الدفاع عن نفسه مثلا ضد الإتهام بأنه يفرّط بمواقف الكنيسة الكاثوليكية في روما؟، أم أنه كان ينوي حماية الشخصيات الإسلامية ذات النفوذ من إتهامها بخيانة دينها؟

إنطلاقا من مجمل علم اللاهوت الكاثوليكي والوثائق النوعية للمجمع الثاني للفاتيكان، ومن الشروحات الأخرى والمؤلفات المنشورة حتى الآن للبابا بصفته العالم اللاهوتي راتسينجر (قبل تقلده منصب البابا)، يتّضح بأنه كان يعني بذلك مفاوضات «بنتيجة مفتوحة» بين أتباع الديانات المختلفة، كما لو أنهم يتفاوضون في الوقت ذاته حول معتقداتهم الإيمانية ذاتها. فلا يجوز في إطار الحوار المساس بمبادىء الدين والقناعات الأخلاقية أو تصحيحها أو إلغاؤها. وليست هناك نيّة لملائمة الدين مع الحداثة، في إطار الحوار لا بخصوص المواقف الذاتية ولا مواقف الآخرين. فهذا يعدّ الآن غير جائز، أما ماهية التأثير الذي سينجم عن الحوار فستبقى كما أسلفنا مسألة أخرى.

لا نتيجة عامّة للمحادثات الدينية

ان الباباوات والكرادلة والأساقفة والشيوخ والمخولّين باصدار الفتاوى وآيات الله لا يدخلون في محاثات دينية بنتيجة مفتوحة، يكونون فيها مستعدين للتخلي عن جزء من مساحة عقيدتهم وفروضهم الدينية، وأَخْذِ قليل من هنا وقليل من هناك، واستبدالها

بعض المعتقدات الغربية.

عندما سئل البابا يوحنا بولص الثاني عما يمكن حدوثه إنطلاقا من مثل هذه الرغبات أو المخاوف، أجاب بسذاجة وثقة بالنفس: «إنني البابا حقا». ولم يظهر أية مخاوف من التماسّ خلال اللقاءات المختلفة مع قادة أديان آخرين.

إن المعلومات الخاصة بمعتقد ومواقف البابا وأحد آيات الله هي معروفة للناس، ومع ذلك فربما تكون هناك رغبة في وجود بابا «ليّن»، غير أن الواقع السياسي العالمي والتاريخي الروحي كل ذلك يجعله امتداداً لبطرس [شمعون الصفا المار ذكره] وقد لا ينظر اليه جميع المسيحيين هكذا، إلا أن المسلمين يدركونه بهذه الصفة.

هكذا بالضبط شعر بينيديكت السادس عشر في الأشهر الأخيرة، عندما تكرر سؤاله عن معنى الحوار ومكانته ومغزاه بين الكاثوليك والمسلمين على أعلى مستوى، بما يعني أيضا تحت مظلة سلطة المجلس البابوي. ولهذا السبب قام في خريف عام 2008م بالتحذير من الأوهام فيما يتعلق بالحوار بين الأديان ورفض بوضوح اجراء «الحوار بالمعنى الدقيق للكلمة».

بهذا تكون مبادىء دينية جوهرية مثل نبوّة محمد وبنوّة يسوع المسيح لله أو أنواع الوحي الإلهي المختلفة مستثناة من المفاوضات، ولم يتم التوصل أيضا الى ذلك بالفعل في تشرين الثاني (نوفمبر) في روما. لكن البابا واصل بعد هذا التوجه الدفاعي، في رسالته التي كتبها مقدمة للكتاب المشار إليه آنفاً، استعراض وجهة نظره على نحو يكاد يكون جدليا، من خلال القول:

> *« بأن الضرورة تتزايد لاجراء الحوار بين الثقافات، الذي يعمّق من النتائج الثقافية للقرار الديني الأساسي. وبما أن من غير الممكن اجراء حوار حقيقي حول هذا الأخير بدون وضع المعتقد الذاتي بين قوسين، فلا بد من معالجة النتائج الثقافية للقرارات الدينية الأساسية عبر مناظرات عامة. وهنا يصبح التصحيح والإثراء المتبادلان ممكنين وضروريين».*

إذن فان الحوار ممكن! ولكن في حقل آخر كما يبدو، وعلى مستويات وأبعاد أخرى. ولا يتعلق هذا الأمر بمماحكة لاهوتية، وإنما بتمييز هام بين ما هو ديني أساسي، أي ما هو متجذر في المعتقدات الدينية من الجهة الأولى، وبين ما هو ثانوي، أي «النتائج الثقافية»، من الجهة الأخرى، وذلك بالرغم من أن هذا التمييز هو أسهل في اطار التقاليد الفكرية ألأوروبية، مما هو عليه الحال في نطاق الاسلام.

«إستحالة التعدد الثقافي»

يواصل البابا بينيديكت حديثه على نحو ديالكتيكي مرة أخرى مشيرا: إلى أن الحرية في إجراء هذا الحوار لا تنمو بالمعنى الواسع سوى من صلابة الهوية الذاتية، لأن الفكرة المعتمد انطباقها على العالم الغربي هي:

«أن جوهر الليبرالية هو تجذرها في التصور الإلهي للمسيحية: فنحن تلقينا هبة الحرية من الله».

ويشدد البابا بنفس الوتيرة على شروحات السيناتور «بيرا» الناقدة «للتعددية الثقافية»،ويقول بأنها: «متناقضة داخليا»، ولهذا فإنها: «مستحيلة سياسيا وثقافيا»، لذلك يجب على أوروبا: «أن تجد هويتها إنطلاقا من قاعدتها المسيحية ـ الليبرالية»، وليس من أساس خيالي «عالمي».

وجدت كلماته على الفور صدى عالميا واسعا، وعلى الأغلب في إطار التحديدات الواضحة. لكن الناطق باسم الفاتيكان «لومباردي» أضطر للشرح بأن قداسته لم يرد بهذا التراجع أبدا عن الأهداف السلمية للحوار بين الأديان، وأنه أظهر بما فيه الكفاية استعداده للحوار من خلال زياراته لمسجد وكنيس.

إن أي شيء آخر ما عدا ذلك سيكون أيضا ضئيل المعنى، لأن الحوار يجب أن يستمر، حيث أن الإمتناع عنه، من أي طرف كان، سوف يتسبب بضرر سياسي بالغ.

ابتعد البابا بتوضيحاته عن تفسيرين للحوار بين الأديان:

التفسير الأول تحدد من خلال الرأي أو الأمل السائد بين المسيحيين، بأن معرفة أفضل للمسلمين ومعرفة أعمق بالإسلام سوف تؤدي تلقائيا الى تلاشي التحفظات والتشككات، أو حتى الخصومات. صحيح أن دراسة الإسلام وتاريخه ومظاهره السياسية البارزة ستكون مفيدة من الجهة الأولى، لكن من الصعب، من الجهة الأخرى، ادراجها كشرط لا بد منه للحوار بالمعنى الواسع، إلا اذا طلبها الخبراء المشاركون فيه.

بالإضافة الى هذا وذاك فان الحوار لا يستنفذ الغرض منه، لا من هذا الطرف ولا من ذاك، من خلال هذا الأداء المسبق لتحسين المعرفة، بل ربما يصبح أكثر صعوبة وأشد تعقيدا: تماما كما لا يجوز الطلب من المسلمين أن تكون لديهم معرفة دقيقة بمبدأ التثليث، حتى ينتهي إتهامهم للمسيحيين بأنهم يؤمنون بسبب ذلك بثلاثة آلهة بدلا من الله الواحد.

ويتضمن التفسير الثاني للبابا بخصوص التوقعات المنتظرة من الحوار تحذيره من الإلتقاء في منظومة أخلاق عالمية على حساب الأديان، بسبب التناقض الذي ساد حتى الآن بينها، والنزاع بين المتدينين. فهناك حسب ما يظنه عدد غير قليل من المشاركين في ملتقى «الديوان الغربي ـ الشرقي» ممن يرون بأن المتدينين المتشددين يتحولون من خلال الحوار الى بشر ذوي إرادات طيّبة عبر التأثيرعليهم بالإقناع. ففي هذه الحالة كان لا بد للبابا أن يعترض على الإستنتاج المتضمن بأن فرص السلام العالمي تتحسن كلما قل التدين.

وأفضل من يمثل هذين الموقفين الذين لا يرفضهما البابا بينيديكت بل يجعلهما نسبيّين، هو العالم اللاهوتي السويسري المعروف «هانز كونغ»، الذي شهد كأحد الخبراء الشباب وجهات النظر والإصلاحات التي أخذ بها المجمع الثاني للفاتيكان، وخاض بعد ذلك نضالا شجاعا ضد التعاليم التقليدية البارزة في الكنيسة التي ينتمي اليها.

وفي فترة التسعينات تكون لديه إحساس ثابت لمتطلبات الزمن، فانشغل بدراسة الأديان العالمية، وألّف العديد من الكتب الغنية بالمعارف حول أديان الوحي الإبراهيمية الثلاثة، ومنها: «اليهودية» (1991م)، «المسيحية» (1994م) وأخيرا «الإسلام. تاريخ وحاضر ومستقبل» (2004م).

في ذات الوقت سعى عبر «المؤسسة الخيرية للأخلاق العالمية» وبدعم مالي من طرف ذوي الإرادات الطيّبة الى تشجيع إجراء محادثات بين أتباع الديانات المختلفة. وقد ابتعد هانز كونغ في غضون ذلك أكثر فأكثرعن التعاليم الرسمية لكنيسته مثل: معصومية البابا، ورفض الوقاية غير الطبيعية من الحمل، والرفض القاطع للإجهاض، وعدم السماح للنساء بتقلد منصب القسّيس، وفرض مبدأ العزوبية على القساوسة، أي أنه ابتعد بشكل عام عن ممارسات منح الكنيسة الكاثوليكية نفسها الحق المطلق، كما ابتعد عن تعليماتها. فهل يزداد الإنفتاح على الحوار كلما قل الإلتزام بالمسيحية؟، أما بالنسبة الى البابا فعليه الاعتراض على هذا الطرح أيضا.

هانز كونغ ـ لا أخلاق عالمية

حظي «هانز كونغ» باشادة الكثيرين من الناس، تقديرا لمحاولته التلاؤم مع متطلبات الزمن الحديث، أو لقيامه بتليين الهياكل التقليدية للكنيسة الكاثوليكية، بينما قابله آخرون بالتشكك.

وقد طرح لمدة طويلة سؤال رئيسي، عما إذا كان بوسع عالم اللاهوت السويسري هذا أن يمثل كنيسة البابا، ويحدد تطورها اللاحق إنطلاقا من جامعة توبنجن. فتجسدت الاجابة على هذا السؤال في عدم تعيينه كاردينالا مفوضا لهيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة، كي لا يتم انتخابه بعد ذلك لمنصب البابا، أما الذي تم تعيينه في هذا المنصب فهو يوسف راتسينجر [البابا الحالي بينيديكت السادس عشر].

كان القرار المتخذ في هذا السياق مضادا لتوجه الكاثوليكية نحو الليبرالية، وتحديدا ضد الإتجاه الرئيسي للحوار، الذي برزت معالمه بين المتدينين، كما كان يعني عدم الموافقة على حوار ليّن، يقوده متساهلون ومتراخون. وينطبق الأمر ذاته على من يطلق عليهم وصف «المعتدلين» من المسلمين، الذين لايكون الحوار معهم مثمرا ومجديا للجميع، الا إذا ظهر بوضوح، من وماذا يمثلون بين المسلمين في العالم. فإعتدالهم يكون في الدرجة الأولى

موجّها الى أتباع طائفتهم من أجل عملية تطوير إسلامية داخلية. أما اثارتهم بالاعتدال انطباعا جيدا، فقلما تشكل أمرا حاسما بالنسبة الى الدينْين العالميّين. وتظل المسألة مفتوحة بخصوص ترحيب المسلمين بالحوار مع مسيحيين متنورين ضعفاء، واعتبارهم أن ذلك يريحهم أكثر.

ربما يثير هؤلاء الأخيرون لديهم ذكريات الحروب الصليبية، بينما يتم ربط الأوائل أيضا بالإستعمار الذي ظهر في القرون الأخيرة.

فالإستعمار الغربي ظل غالباً يظهر مرتبطا بوعي قوي لتأدية رسالة علمانية مدنية للشعوب الإسلامية،من خلال نقل منجزات التنوير والحضارة والقيم والأنظمة الغربية اليها. ويبدو أن هذا ما زال قائما حتى اليوم، حتى في الحروب التي دارت وتدور في العراق وأفغانستان، بينما لم تظهر في الحملات الصليبية مقابل ذلك نيّة أساسية بالتبشير، كما أسلفنا.

فلندع المؤرّخين الآن يفكّرون ويتكلمون بهذا حتى تسخن رؤوسهم ليخرجوا بنتائج متباينة. أما المهم بالنسبة للحوار بين الأديان (بالمعنى الواسع) فهو التمكن من الكشف والدفاع عن القيم المشتركة خارج نطاق ما هو ديني أيضا (بالمعنى الدقيق المحدد)،علما بأن ذلك تم بالفعل من خلال التوصل الى نتائج مرضية في الأشهر والسنوات الماضية.

لقد قام البابوات والمكّلفون من طرفهم بالمشاركة مع الشخصيات الإسلامية ذات النفوذ مرارا، كما بيّنا، بالإعلان عن هذه القيم المشتركة التي هي ليست مسيحية ـ كاثوليكية ولا إسلامية فقط، وإنما هي قيم كونية يأنسها جميع الناس، ومنها مثلا: التخلي عن العنف، ورفض الإرهاب وعدم الإكراه في الدين والمعتقد، بالاضافة الى العدل والتضامن من أجل حضارة قائمة على المحبة.

إن هذا هو أمر صحيح وهام وحاسم ومبشر بالأمل، من أجل المستقبل.

دين مدني علماني لغير المتدينين

إن الحوار بين الكنيسة والمسجد، بين البابوات وقادة المسلمين، غير متعلق بالمتدينين فحسب، حيث أن اجراءه بين الأديان بالمعنى الدقيق المحدد يمكن أن يؤثرعلى لامبالاة غير المتدينين في المجتمعات الغربية أيضا. وبما أن موضوع القيم المشتركة لا يخص هذا الحوار بالذات ـ أي لا يدور حول امكانية التوصل الى إتفاق في وجهات النظر على كون يسوع المسيح إبن الله أو اعتبار محمداً آخر الأنبياء بلا منازع ـ فإن غير المتدينين يكونون قد أصبحوا مشمولين به، فالقيم المشتركة تهمهم أيضا.

وهناك سبب جوهري آخر لتسويغ هذا الطرح: لقد تم انتزاع القيم الحاسمة للتنوير والحرية في الثقافة الغربية الأوروبية وشمال أمريكا من خلال النضال ضد الدين والنزاعات الطائفية، فانبثقت من هذا النضال قناعات لها قوة «دين» مدني علماني، مؤدية الى تشكيل كيان إجتماعي حديث. والمحطات التاريخية التي مرّ فيها هذا الدين الغربي المدني هي: «الإعلان حول حقوق وحريات الرعية» عام 1689م ((«بيل أوف رايتس» قائمة الحقوق)، و»دستور الولايات المتحدة الأميركية» (1787م) والبنود الملحقة به عام 1791م، و»الإعلان عن حقوق الإنسان والمواطنين» الصادر عن الجمعية الوطنية في فرنسا (1789م).

حرية الدين ـ التحرّر من الدين

لقد تم في جميع هذه البيانات التأكيد على حرية الدين وعلى التحرّر من الدين، بإعتبار هذه الحرية أحد حقوق الإنسان الأكثر أهمية. هكذا كان التوجه في البيان الإنجليزي (قائمة الحقوق) لعام 1689م ضد الإكراه في مسائل الدين والإيمان بهدف «تحرير هذه المملكة (انجلترا) من البابوية والتعسف». وصدر البيان في نفس العام الذي توفي فيه البابا إنوسنس الحادي عشر، الذي حظر بصك حرمان عام 1679م على «بحوث» الناقدة للدين من تأليف سبينوزا، و هذا البابا هوالذي تمكن عام 1683م من الإحتفال بالإنتصار النهائي للعالم الغربي على الأتراك بالقرب من فييّنا.

كان موضوع التغلب على النزاعات الدينية مهمّاً عند الآباء المؤسّسين للولايات المتحدة الأميركية الى درجة أنهم أقرّوا في البند الإضافي على المادة الأولى من الدستور الحظر الدائم، الذي ينص على أن: «من غير الجائز للكونجرس أن يصدر قانونا موضوعه تأسيس دين، أو أن يقيّد من حرية ممارسة دين(..)».

وورد في المادة العاشرة من البيان الفرنسي حول حقوق الإنسان والمواطنين ما يلي:

«لا ينبغي أن يتعرض أحد للازعاج بسبب آرائه، حتى الدينية منها، طالما أن التعبير عنها لم يؤد الى إخلال بالنظام العام الذي حددته القوانين».

لقد غدت حقوق الإنسان والقيم الأساسية «الغربية» هذه عالمية الطابع، وغدا مفعولها يسري على كل البشر من خلال: «الإعلان العام للإمم المتحدة حول حقوق الإنسان» الصادر في العاشر من كانون الأول (ديسمبر) 1948م. إن هذه القيم والحريات الأساسية الواردة في الإعلان الأممي التي تنص على: «عدم التمييز بسبب العرق واللون والجنس واللغة والدين والمعتقد السياسي أو غيره من المعتقدات أو بسبب الإنتماء القومي أو الإجتماعي أو الثروة أو المولد أو غير ذلك من مراتب»، هي قيم أساسية غير قابلة للتفاوض في أي حوار، بل تمثّل إلتزاما بتطبيقها في الواقع السياسي، بالرغم من أنها وسعت لتشمل قيماً أخرى مرغوباً فيها بإلحاح، مثل حق الإنسان بالحصول على وقت للراحة والفراغ وحقه بالتمتع بالتعليم والثقافة.

إنها تشكل على ما يبدو دينا مدنيا علمانيا للعالم الغربي، وللمواطنين في المجتمعات الحديثة المتطورة.لم يكن البابوات فقط هم الذين استصعبوا قبول حقوق الإنسان والقيم الأساسية هذه، خلال القرون الزمنية الثلاثة الماضية. فهي تبدو واقعة خارج نطاق الدين المسيحي التقليدي مما استدعى إدانتها، بالرغم من أن البابا الحالي بينيديكت يعلّم المستمعين اليه قائلا: بأنها انبثقت من داخل الدين المسيحي.

كانت هناك حاجة لإنعقاد مجمع ثان للفاتيكان من أجل التوصل الى سلام بين الكنيسة والحداثة.

ونجح عقد هذا السلام، لأن قادة الكنيسة تمكنوا مرة أخرى من الربط بينها وبين القيم الكنسية الأصلية مثل الحرية والمساواة، تلك القيم التي تمت تنحيتها في السابق لصالح تطورات أخرى، متعلقة مثلا بوحدة الكنيسة والسيطرة عليها. وهذا ماعناه بينيديكت في كلامه التوجيهي، عندما قال: بأن الانجازات على هذا الصعيد «جاءت ثمرة لبحث طويل متعب». لقد تحول عقد السلام اليوم حقا الى تحالف، حيث يقوم البابوات بالدفاع عن حقوق الإنسان والحقوق المدنية العلمانية بالذات، ويسعون لتوطيد تلك الأسس التي لا تستطيع الدولة التعددية أو نخب الأقلية تحقيقها. وبناء على ذلك فان الثورة الثقافية الغربية بعد عام 1968م أدت الى تزايد ضرورة التوصل الى قناعات أساسية مشتركة.

مهام للمستقبل

هكذا تتشكل من خلال الحوار مع الإسلام جماعة ذات إهتمامات مشتركة بين نخب المجتمعات التعددية من الجهة الأولى، وبين قادة الكنيسة من الجهة الأخرى، وهي تمثل حيزا مشتركا حديثا للتفكير واللاهوت المسيحي النابع من فكر بينيديكت. إن الفصل بين الدين والدولة يستند في تسويغه الى كلمة الإنجيل: «أعطوا ما للقيصر للقيصر وما لله لله». وقلما يستطيع المسيحيون أو من لا يتبعون دينا وفقا لتقاليد العالم الغربي أن يحيدوا عن ذلك، وبهذا ثبتت حدود ليس بوسع الكنيسة أو المسجد تجاوزها.

وفي ذات الوقت توجه الدعوة لوضع أحكام عقلانية مفهومة للخروج من التعسف الديني. وهذا لا يتعلق بالحرب والسلام بين الشعوب فحسب، بل بشؤون الإنسان الفرد، بما فيها مثلا مكانة المرأة أو البنى القانونية لشؤون العائلة.

هذا الحلف الجديد تجلّى على نحو خاص خلال زيارة البابا بينيديكت الى باريس في شهر أيلول (سبتمبر) 2008م، حيث أبدى البابا احترامه للمعارضة الفرنسية حيال أي تدخل للكنيسة في الشؤون العامة للجمهورية الفرنسية، إنطلاقا من الروح المدنية العلمانية لها، بمعنى الحرية الليبرالية، مثلما أثنى قداسته قبل ذلك في تركيا، التي زارها في نهاية

شهر تشرين الأول (نوفمبر) 2006م، على الإستقلالية الحديثة للدولة حيال الإسلام. وقد أبدى الرئيس الفرنسي ساركوزي رغبته في مساندة الكنيسة بروح «علمانية إيجابية» من خلال معالجتها للقضايا الروحية والإحتياجات الدينية للمواطنين، حيث أن الدولة ليست غير مبالية بهذه الإحتياجات. لكنّ الرئيس الفرنسي كان يبدو دائما حائراً وبلا حيلة أمام كيفية انجاز الشؤون التعليمية والتربوية إبتداء بالمدراس وانتهاء بالسجون. وصرّح ساركوزي قائلا، إنه لمن الجنون سلب الناس دينهم. ولم يكن يوجه كلامه هذا الى البابا الضيف فحسب، بل رسم مهام المستقبل أمام القادة المسلمين أيضا.

الملاحظات

لقد قرر المؤلف دمج الملاحظات الضرورية داخل النصّ، وكان لهذا أسبابه العديدة. فمن ناحية كان يراد تسهيل القراءة في هذا الكتاب بدون هوامش للملاحظات، وتوفير البحث المزعج بتقليب طويل للصفحات. فقد تم الإستغناء عن الملاحظات «الجانبية» أو أنه تم إدخالها الى النص حيثما وجد أنها ضرورية بالفعل. لكن الأهم من ناحية أخرى أنه كان من المتيسر دمج البيانات المتعلقة بالمكان والتاريخ والمصدر في القسم الرئيسي حول البابوات، من بيوس الثاني عشر الى بينيديكت السادس عشر (1939 وحتى اليوم، نهاية 2008م) بدون إقحام.

وكانت الفكرة التي دفعت الى مواصلة التخلي عن الملاحظات هي عدم الرغبة في الإقناع من خلال أداة علمية، وإنما أردنا جعل النصوص تتحدث عن نفسها بنفسها. وبهذا كان من المتاح تجنب خطر خنق النصوص عبرغزارة المادة وتجاوز حدود الكتاب. وقد ظهر أن من المسموح به التصرف بهذا الأسلوب في كتاب يعالج موضوعا راهنا، وينتهج من حيث المحتوى والشكل معايير حديثة، بدون تعريض جدّية وموثوقية الشرح للضرر.

الإنترنت

لا يستطيع من يريد العثور على الوثائق الأصلية تجنب البحث الطويل الواثق عبر صفحات الإنترت التابعة للفاتيكان:

http://www.vatican.va

ويتعين السير فيها خطوة فخطوة، في البداية حسب اللغة، مثلا: «الكرسي المقدّس ـ ألماني»، أو لغة أخرى، ومن الأفضل اعتماد اللغة الإيطالية، لأن معظم الوثائق، إن لم تكن كلها، معروضة في الإنترنت. ويتم السير توجها بالهدف وفقا لموضوع الكتاب، فهناك دائرتان موجودتان في الشعار المرسوم، وعلى الباحث ان ينقر عليهما، وفيهما:

ـ رسم لرأس بطرس في الأعلى فيه «أرشيف البابوات»، الذي يمتد نحو الخلف حتى البابا ليو الثالث عشر (1878 ـ 1903م)، ولكن الأرشيف مستكمل ليشمل فترة حكمه البابوي.

ـ رسم لرأس ملاك صغير في الأسفل فيه «عروض معلومات».

وفيما يتعلق برسم رأس بطرس، فإن الباحث يجد تحته أسماء البابوات مبدوءة بوصف «قداسة الأب»، متبوعة بفترة الولاية البابوية لكل منهم مقسّمة وفقا لطبيعة البيانات البابوية الصادرة عنهم:

«ـ نصوص صلوات أنجيلوس و ريجينا كولي (صلاة ملاك الرب وصلاة ملكة السماء).

ـ الخطابات.

ـ المراسيم الرسولية.

ـ الكتابات الرسولية الأولى والثانية.

ـ المقابلات البابوية.

ـ سير الحياة الذاتية.

ـ الرسائل.

ـ الكتب.

ـ الكتابات البابوية الدورية.

ـ اليوبيلات.

ـ القرارات البابوبة الفردية.

ـ الرحلات البابوية.

ـ المواعظ».

إن الإطلاع على هذه المكتبة الإلكترونية يبيّن مدى ثرائها الخارق للعادة. فبفضل التكنولوجيا الحديثة يوفّر الباحث على نفسه عناء التقليب في صفحات الجرائد القديمة مثل (صحيفة الفاتيكان «أوسيرفاتوري رومانو») والمجلات والكتب، من المجلات المصغرة.

لكنني أعترف بأن الإطلاع على الوثائق القديمة في أرشيف الفاتيكان السرّي، له أيضا جاذبيته الخاصّة.

وبالنسبة الى رسم رأس الملاك الصغير في الأسفل، فإن الباحث يصل الى «عروض معلومات». وهناك يتم التوجّيه بشكل أساسي إما الى «المكتب الصحفي» أو الى «بولاتينو» وهي النشرة اليومية للفاتيكان، مرتّبة بتسلسل زمني دقيق: «الأسبوع الجاري» و «الشهر الجاري» والسنوات على إنفراد، في البداية حتى سنة 1997م. وأما الرجوع زمنيا الى الوراء أكثر من ذلك، فإنه لا يتأتّى للباحث في إنترنت الفاتيكان، إلا عبر البحث تحت أسماء البابوات: «قداسة الأب»، فالوثائق في غاية الغزارة.

وهكذا يكون الوصول الى الوثائق الأصلية متاحا عبر طريقين، إلا أنها ليست متوفرة دائما باللغة الألمانية. إن تجربتي الطويلة مع آلة البحث الفاتيكانية في الإنترنت لم تكن جيّدة الى ذلك الحد، إلا أن من الملاحظ إجراء تحسينات متواصلة عليها، علما بأن ثقة العثورعلى مواضيع البحث تتزايد مرة بعد الأخرى. وهناك بعض العناوين المفيدة في

الإنترنت حول الموضوع خارج نطاق آلات البحث التقليدية. وندرج أدناه عددا منها بعد الاختيار الدقيق:

http://www.dbk.de/schriften/fs schriften.html –

يجد الباحث تحت هذا الرابط كنزا ثريا من الوثائق الصادرة عن مؤتمر الأساقفة الكاثوليك الألمان أيضا، سواء كانت ترجمات لوثائق الكنيسة في روما أو أكثر من ذلك، من وثائق ومعلومات من ألمانيا والكنيسة العالمية.

http://www.uibk.ac.at –

رابط جامعة إينسبروك: هنا يجد الباحث تحت الرابط التالي نصوص مصادر مسيحية:

http://www.uibk.ac.at/theol/leseraum/quelltext

وتحت الرابط التالي نصوص تعليم رسمية كنسية:

html.29–250/http://www.uibk.ac.at/theol/leseraum/texte

l=german?0/http://www.zenit.org –

رابط بعنوان: «العالم منظورا اليه من روما»: هذا الرابط يقدّم العديد من وثائق الأحداث التي تجري في الفاتيكان باللغة الألمانية. وهذا مفيد بالدرجة الأولى عندما لا تتوفر في الفاتيكان الترجمات الى اللغة الألمانية.

/http://www.unigre.it –

رابط صفحة الإنترنت لجامعة جريجوريانا البابوية في روما: هذا الرابط يعتبر مصدرا له صفة النفوذ الرسمي ويجد الباحث تحته معلومات مُفاجِئة كثيرة حول الموضوع.

/http://www.fiu.edu –

رابط جامعة فلوريدا الدولية: يجد الباحث تحته قائمة تشمل جميع الكرادلة اعتبارا من عام 112م على سبيل المثال.

وحول موضوع المسائل المسيحية ـ الإسلامية تقدّم صفحة الإنترنت لكريستيان

تروِلّ، بالاضافة الى مافيها من الروابط، أفضل مدخل لمتابعة التوصيل، وهي مدرجة كما يلي:

ـ – www.sankt-georgen.de/lehrende/troll.html

ـ باللغة الألمانية:

www.antwortenanmuslime.com

ـ باللغة الإنجليزية:

www.answers-to-muslims.com

ـ باللغة التركية:

www.islamacevaplar.com

قائمة المراجع والمصادر

إن فكرة التخلي (عن إخراج الملاحظات من النص) تنطبق على قائمة المصادر والمراجع أيضا، ولذلك اقتصرت القائمة بالدرجة الأولى على العناوين المفيدة. وهذا الكتاب حول البابوات والإسلام جاء بالنسبة للمؤلف أيضا ثمرة لعقود زمنية من الدراسة والإشتغال العلمي بموضوع البابوية والمرافقة الصحفية للبابوات. وفي غضون ذلك إتجه الإهتمام في السنوات ألأخيرة بشكل خاص نحو الأهمية المتزايدة لقضية العلاقات «بين روما ومكة». لقد أصبح موضوع «البابوات والإسلام» جزءا من السياسة العالمية منذ أن اندلعت مظاهرات الغضب في العالم الإسلامي إثر خطاب بينيديكت السادس عشر في شهر ايلول (سبتمبر) 2006م في ريجينسبورغ على أقرب تقدير. فهنا ظهر بوضوح زائد أن الصراع بين الثقافات والأديان التي تقوم عليها أو النابعة منها هو أحد المحركات الأساسية لتاريخ البشرية منذ القدم، وأنه كان يعتبر أمرا بديهيا، سواء في العصور القديمة بين الإغريق «والبرابرة» أو بين الرومان القدماء وغير المتحضّرين، كما ينظر اليه هكذا في العصر الحديث أيضا بلا مراء.

لقد قام العالم السياسي الأميركي صموئيل ب. هنتنجتون بإعادة هذه الحقيقة البسيطة الى الأذهان في مؤلّفه بعنوان «صدام الحضارات» الصادر عام 1996م، تلك الحقيقة التي ربما تم نسيانها أو إزاحتها من الأذهان في عصر المنافسة الباردة بين الإيديولوجيات بين عامي 1945 و 1989م، وهي الفترة التي تلت تلك الحروب الساخنة بين الأمم قبل لك.

وليس بالإمكان الإشارة إلا الى المراجع الأصيلة والدقيقة وبعض الكتب المهمة الأخرى من بين الكم الزاخر للمؤلفات حول البابوات والبابوية وحول المسيحية والكنيسة، وندرج أدناه هذه المراجع التي استند المؤلف اليها:

Angenendt، A.: Toleranz und Gewalt. Das Christentum zwischen Bibel und Schwert. Münster 2007

أنجيوندت، أ.: التسامح والعنف ـ المسيحية بين الإنجيل والسيف. مونستر 2007م.

Bihlmeyer, K., und H. Tüchle: Kirchengeschichte. 3 Bde., München 1969

بيهلماير، ك.، و هـ. توشلي: تاريخ الكنيسة. ثلاث مجلدات، ميونيخ 1969م.

Fuhrmann, H.: Die Päpste. München 1998

فوهرمان، هـ.: البابوات. ميونيخ 1998م.

:Ders.: Von Petrus zu Johannes Paul II. Das Papsttum

Gestalt und Gestalten. München 1980

المؤلف نفسه: من بطرس الى يوحنا بولص الثاني. البابوية: الهيئة والتشكلات. ميونيخ 1980م

Gelmi, J.: Die Päpste in Lebensbildern. Graz/Wien/Köln

1982

جيلمي، جيه: البابوات في صور حياتية. جراتس/فيينّا/كولونيا 1992م.

.Gregorovius, F.: Geschichte der Stadt Rom im Mittelalter

Neuauflage, München 1978

جريجوروفيوس، ف.: تاريخ مدينة روما في العصر الوسيط. طبعة جديدة ميونيخ 1978م.

.Haller, J.: Das Papsttum. Idee und Wirklichkeit

Bde., Hamburg 1950–1953; Neudruck 1962 .5

7) هاللر، جيه: البابوية فكرة وواقع. 5 مجلدات، هامبورغ 1950 ـ 1953م، طبعة جديدة 1962م.

Helbling, H.: Politik der Päpste. Der Vatikan im Weltgeschehen

Berlin 1981 .1978–1958

8) هيلبلينج، هـ.: سياسة البابوات. الفاتيكان في الحدث العالمي. 1958 ـ 1978م. برلين

1981م.

Jedin, H. (Hrsg).: Handbuch der Kirchengeschichte. 7 Bde. In 10 Teilen, Freiburg i. Br. 1962–1979

9) يدين هـ. (ناشر): مدخل إلى تاريخ الكنيسة .7 مجلدات في عشرة أجزاء، فرايبورغ 1962 ـ 1979م.

Kühner, H.: Das Imperium der Päpste. Zürich 1977

10) كوهنر، هـ.: إمبراطورية البابوات. زيوريخ 1977م

Lexikon für Theologie und Kirche, 10 Bde., 1957–1965; Dritte Neuauflage, Freiburg i. Br. 1993–2001

11) معجم اللاهوت والكنيسة، 10 مجلدات، 1957 ـ 1965م، الطبعة الجديدة الثالثة، فرايبورغ 1993 - 2001م.

Lortz, J.: Geschichte der Kirche in ideengeschichtlicher Betrachtung. 2 Bde., Münster 1962–1964

12) لورتس، جيه.: تاريخ الكنيسة من منظور تاريخ الأفكار. مجلدين، مونستر 1962 ـ 1964م.

Pastor, L. von: Geschichte der Päpste seit dem Anfang des Mittelalters. 16 Bde., Freiburg i. Br. 1955–1961

13) باستور، ل. فون: تاريخ البابوات منذ بداية العصر الوسيط. 16 مجلد، فرايبورغ 1955 ـ 1961م.

Ranke, L. von: Die römischen Päpste in den ,letzten vier Jahrhunderten. Wien 1834–1836 Neuauflage Stuttgart 1953

14) رانكه، ل. فون: بابوات روما في القرون الزمنية الأربعة الأخيرة. فيينّا 1834 ـ

1836م، طبعة جديدة، شتوتجارت 1953م.

Ders.: Geschichte der Reformation. Aus: Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation. Berlin 1839–1847

15) المؤلف نفسه: تاريخ الإصلاح الديني. مقتبسا من: التاريخ الألماني في عصر الإصلاح الديني. برلين 1939 ــ 1947م.

Rendina, C.: I Papi. Rom 1983

ريندينا، سيه: البابا (1). روما 1983م.

Ders.: Il Vaticano. Rom 1986

المؤلف السابق نفسه: الفاتيكان (2): روما 1986م.

Rogier, L. J., und R. Aubert (Hrsg).: Geschichte der Kirche. 5 Bde. in 6 Teilen, Einsiedeln 1963–1977

18) روجيير، ل.جيه.، و ر. أوبيرت (ناشران): تاريخ الكنيسة. 5 مجلدات في 6 أجزاء، آينزيديلن 1963 ــ 1977م.

Schatz, K.: Der Päpstliche Primat. Seine Geschichte von den Ursprüngen bis zur Gegenwart. Würzburg 1990

19) شاتس، ك.: الحبر البابوي الأعظم. تاريخه من البدايات حتى الوقت الحاضر. فورتسبورغ 1990م.

Schwaiger, G.: Geschichte der Päpste im 20. Jahrhundert. München 1968

20) شفايجر، ج.: تاريخ البابوات في القرن العشرين. ميونيخ 1968م.

Ein reiches Literaturverzeichnis für die Beziehungen zwischen dem Vatikan und dem Islam bietet:

ويتوفر في المراجع التالية فهارس ثرية بالأدبيات حول العلاقات بين الفاتيكان والإسلام:

Görlach, A.: Der Heilige Stuhl im interreligiösen Dialog mit islamischen – Akteuren in Ägypten und der Türkei. Würzburg 2007 . Die Promotionsarbeit reicht nur bis zum Frühjahr 2006 und ist auf zwei Länder beschränkt, führt jedoch gut in die wissenschaftliche, auf Dokumente gestützte Problematik .ein

21) جورلاخ، أ.: الكرسي المقدّس في الحوار بين الأديان مع الفعاليات الإسلامية في مصر وتركيا. فورتسبورغ 2007م. رسالة دكتوراه تعالج الموضوع حتى عام 2006م ويقتصر بحثها على بلدين، لكنها تستند بصورة جيدة على الوثائق وتمثل مدخلا علميا الى القضية المطروحة.

Huntington, S.: Kampf der Kulturen. Hamburg 1996 Bedarf als Klassiker – keiner Empfehlung, ebenso wenig der Hinweis auf die Grenzen seiner .Grundthese oder deren Interpretationen

22) هنتنجتون، ص.: صدام الحضارات. همبورغ 1996م. هذا الكتاب باعتباره مؤلفا كلاسيكيا غني عن التوصية، كما انه لا يستدعي الإشارة الى حدود الفرضية الرئيسية التي عالجها أو تفسيراتها.

وتتطلب مجالات مواضيع محددة مثل الحملات الصليبية أو سبينوزا قوائم مراجع منفصلة. لكنني وجدت على سبيل المثال في المعرض الممتاز عن («الحملات الصليبية») الذي أقيم في أوائل عام 1997م في قصر البندقية في روما (بالاتسو فينيتسيا) كتالوجا عاما رائعا، يحتوي على قائمة مؤلفات واسعة مفصلة (بيبليوجرافيا جنرالي)، وقد تم في الوقت اللاحق استكماله وتحديثه الى آخر وضع. فمن الممكن الإستناد الى تلك القائمة أو الى الطبعة الكاملة لأعمال سبينوزا(سبينوزا «أوبيري») التي نشرت في إيطاليا (دار نشر موندادوري) مع مدخل عظيم كتبه «فيليبو ميجنيني» وقائمة مراجع ملفتة للإنتباه. ولكن المؤلف لم يرغب في إبداء ملاحظات حول العلوم المتخصصة حتى لا يرهق القارىء.

إن إعطاء قائمة بالمراجع حول الإسلام يفترض قبل كل شيء الإشارة الى المكتبات، حيث أن ما نشر من المؤلفات في هذا المجال خلال ألفية ونصف تقريبا لا يمكن غضّ الطرف عنه. لذلك فإن الإكتفاء بذكر القليل المناسب المفيد منها هو أفضل من الحذلقة المعرفية التفصيلية. وهذا مسموح به، لأن موضوع الكتاب ليس الإسلام بكل جوانبه المختلفة التي لا يتأتى حصرها إلا من خلال معرفة متخصصة، وإنما موضوعه هو الجسر الذي بُدىء بتشييده ولم يزل يشيد بالانطلاق من روما. فليس من المستلزم على سبيل المثال الاجابة بالتفصيل على أسئلة تبدأ بكيف ومتى وممن يتم في الإسلام تعريف الحرب والعنف أو الأرض المقدسة. فمن الأفضل أن يبدأ المرء بإدراك أن الحرب والعنف هما حرب وعنف مهما كان الهدف منهما وأن يتحدث حولهما، وأن يسأل عن سبب اجازة بناء مسجد في روما، بينما لا يجوز بناء كنيسة في البقاع الإسلامية المقدسة، ومن الأنسب التواضع أمام الموضوع الكبير المتعلق بالإسلام. وينبغي على المسيحيين في الغرب بالذات، ومن الأولى على اللادينيين فيه، أن يقتربوا باحترام كبير من هذا الدين، لذلك فان من الأفضل الرجوع الى المعاجم التي أثبتت التجربة نفعها:

König/Waldenfels: Lexikon der Religionen. Freiburg 1987 Schon von - 1987, doch immer noch für einen Überblick geeignet, mit den einschlägigen Stichwörtern. Der Mitherausgeber und Autor, Kardinal Franz König (1904–2004), prägte lange Jahre den Dialog der katholischen Kirche mit .Andersgläubigen

23) كونيغ/فالدينفيلز: معجم الأديان. فرايبورغ 1987م . ورغم قدم سنة صدوره، إلا أنه ما زال صالحا لإعطاء اللمحة العامة بمفردات رامزة أساسية. والمؤلف المشارك بالنشر هو الكاردينال فرانتس كونيغ (1904 ـ 2004م)، الذي طبع لسنوات طويلة حوار الكنيسة الكاثوليكية مع ذوي العقائد الأخرى بطابعه.

Lexikon für Theologie und Kirche. 10 Bde., 1957–1965; Dritte Neuauflage,–

.11 Bände, Freiburg i. Br. 1993–2001. Von großem, unersetzbarem Wert

24) معجم اللاهوت والكنيسة. 10 مجلدات، 1957 ـ 1965م، طبعة جديدة ثالثة، 11 مجلد، فرايبورغ 1993 ـ 2001م .

المعجم ذو قيمة كبيرة لا يستغنى عنها.

وتصلح المراجع التالية كمدخل الى الموضوع:

Halm von Beck, H.: Der Islam. Geschichte und Gegenwart. München 2007

25) هالم فون بيك، هـ.: الإسلام. تاريخ وحاضر، ميونيخ 2007م.

Khoury, A. Th.: Einführung in die Grundlagen des Islam. Graz 1978

26) خوري، ع. ت.: مدخل الى قواعد الإسلام. جراتس 1978م.

Ders.: Toleranz im Islam. München 1980

27) المؤلف نفسه: التسامح في الإسلام. ميونيخ 1980م.

Küng, H.: Der Islam. Wesen und Geschichte. München 2007

28) كونغ، هـ.: الإسلام. جوهر وتاريخ. ميونيخ 2007م.

Ders.: Der Islam. Geschichte, Gegenwart, Zukunft. München 2006

29) المؤلف نفسه: الإسلام. تاريخ وحاضر ومستقبل. ميونيخ 2006م.

Schimmel, A.: Der Islam. Eine Einführung. Stuttgart 1990

30) شيميل، أ.: الإسلام. مدخل. شتوتجارت 1990م.

Schirrmacher, Chr., und U. Spuler-Stegemann: Frauen und die Scharia. Die Menschenrechte im Islam. München 2006

31) شيرّماخر،ك.، و يو. شبولر- شتيجيمان: النساء والشريعة. حقوق الإنسان في الإسلام. ميونيخ 2006م.

Troll, Chr. W.: Muslime fragen, Christen antworten. Kevelaer 2003

32) ترولّ، ك.ف.: مسلمون يسألون ومسيحيون يجيبون. كيفيلير 2003م.

Ders.: Als Christ dem Islam begegnen. Würzburg 2004

33) المؤلف نفسه: اللقاء مع الإسلام بوصفي مسيحياً. فورتسبورغ 2004م.

Ders.: Unterscheiden um zu klären. Orientierung im christlichislamischen Dialog. Freiburg i. Br. 2008

34) المؤلف نفسه: التمييز من أجل الإيضاح. التوجّه في الحوار المسيحي ـ الإسلامي. فرايبورغ 2008م.

شكر وتقدير

إن من واجبي أن أتقدم بالشكر الى أشخاص كثيرين ساهموا بشكل أو بآخر في نشوء هذا الكتاب. فلم يكن من الوارد لموضوع «البابوات والبابوية وعلاقتهما بالإسلام» أن يتنامى بدون المساعدة التي قدّموها. وأول من أقدّم شكري له هو البابا الحالي، بينيديكت السادس عشر: وهو نفسه البروفسور يوسف راتسينجر والأسقف الأعلى في ميونيخ والكاردينال المشرف على هيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة الذي واكب اشتغالي المهني والشخصي بالكنيسة الكاثوليكية وأثر فيه إنسانيا ولاهوتيا منذ سنوات عديدة، بدون أن يقلص أبدا من حّريتي في اتخاذ موقف مغايرأو يستهين بها. وقد علمّني في محاثات ودّية ومن خلال كتاباته العديدة، من بين أمور أخرى، عدم التوقف عند الأحكام المسبقة حول الكنيسة والبابوية.

ومن بين الآخرين الكثيرين الذين عليّ أن أقدم شكري لهم، أود أن أخص بالذكر بعضهم نيابة عن الكل:

ـ الكاردينال تارسيسيو بيرتوني، الذي شغل أولا منصب سكرتير هيئة الفاتيكان لشؤون العقيدة، ويشغل الآن منصب سكرتيردولة للبابا (رئيس وزراء دولة الفاتيكان).

ـ الكاردينال باول يوسف كورديس، الذي بدأ أسقفاً ثم رئيس أساقفة وصولاً الى حكومة الفاتيكان في روما.

ـ الكاردينال فالتر كاسبر، الذي شغل أولا منصب أسقف روتينبورغ ـ شتوتغارت، ثم أصبح سكرتيرا (وزيرا في حكومة الفاتيكان)، وهو يترأس الآن مجلس الفاتيكان «لدعم وحدة المسيحيين»، وقد قدّم بعض الإقتراحات اللاهوتية للحوار.

ـ الكاردينال جان– لويس تاوران، الذي شغل في البداية منصب «وزير خارجية» الفاتيكان، وهو الآن «رئيس مجلس شؤون الحوار»، الذي شرح لي بكل ثقة بعض النظرات العامة حول السياسة الكنسية.

ـ الأسقف دكتور اللاهوت يوسف كليمنس، الذي عمل سنوات طويلة كمعاون أمين لا يستغنى عنه الى جانب الكاردينال راتسينجر، ويقوم الآن بمهامه من موقع مسؤول في «المجلس البابوي لشؤون الرعية المسيحية».

ـ المونسنيور خالد ب. عكشة من مجلس الحوار، الذي وجّهني بصمت لتتبع آثار صحيحة كثيرة.

ـ وأخيرا الكرستيان ف. ترولّ س. جيه.، الذي قابلته أولا في الهند، وجعلني أشاركه خبراته الغنية.

وإنني أعود بكل سرور الى التفكير بالخبرات الشخصية، التي حصلتُ عليها من المجمع الثاني للفاتيكان، والتي تبيّن في الوقت اللاحق أنها مثمرة دائما.

وأوجه شكري كذلك الى «جامعة جريجوريانا البابوية» في روما والى أساتذتها المشكلين لجمعية يسوع، فانهم لم يستعرضوا أمامي الأسس الفلسفية واللاهوتية فحسب، وإنما دعموا في السنوات الأخيرة البحوث الفلسفية والتاريخية الدينية أيضا، فوجدت بحوثهم هذه طريقها الى هذا الكتاب بخصوص العلاقة مع الإسلام.

وبودي أن أشكر أيضا وبشكل خاص جميع القيّمين المتعددين على الأرشيف السري للفاتيكان، لتسهيلهم لي الاطلاع على وثائق قيّمة، الى جانب العديد من العلماء والناشرين والزملاء.

وأتوجه بشكر مميز الى «رومان هوكه» من وكالة المؤلفين ودور النشر (آفا)، الذي استحسن هذا الكتاب، والى «يوهانيس ياكوب» من دار نشر سي. بيرتيلسمان، الذي رحّب بالموضوع ودعم تحويل المخطوطة الى كتاب، والى المصحح «إيكارد شوستر»، الذي وقاني عبر انتباهه ومعالجته للأخطاء الصغيرة من إحراجات كبيرة.

